مجلة

كلية الآداب

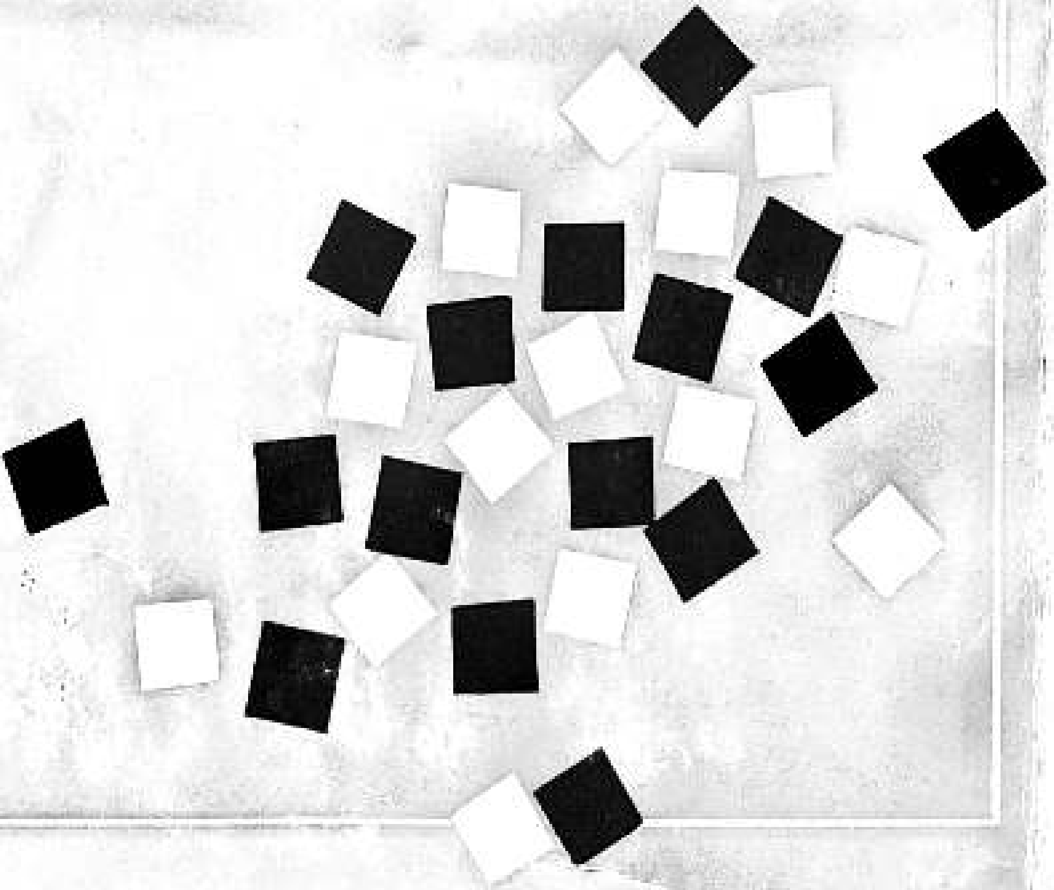

١٣٨٩ هـ
١٩٦٩ م

العدد الثالث

مجلة

كلية الآداب

الجامعة الليبية

مجلة
كلية الآداب

رئيس التحرير
الدكتور مختار مصطفى بورو

مدير التحرير
الدكتور عبد الرحمن بدوي

العدد الثالث

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

فهرس المجلة

ص

تقديم : للدكتور مختار مصطفى بورو ٧

مقالات باللغة العربية

١ ــ د. ابراهيم نصحي : كاليماخوس القوريني ٩
٢ ــ د. حسين مؤنس : فزان ، ودورها في انتشار الإسلام في افريقية ٦٩
٣ ــ د. عبد الرحمن بدوي : ليبيا في مؤلفات أرسطو ١٢١
٤ ــ د. عبد العزيز برهام : ابن الاجدابي ١٤٥
٥ ــ د. نوري جعفر : الحياة العقلية عند الإنسان جانبها الفسلجي ومستلزماتها الاجتماعية ١٨٣
٦ ــ د. عبد الرحمن بدوي : نقد الكتب ... ...
ا ــ رسائل ابن باجه الإلهية ٢٠٧
ب ــ كتاب الملة ونصوص أخرى للفارابي ... ٢١٢
ج ــ كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ٢١٥
د ــ تاريخ طرابلس وولايتها من الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ... ... ٢١٨
٧ ــ الموسم الثقافي : محاضرات الأساتذة الزائرين ٢٢٣

مقالات بغير اللغة العربية

P.

تقديم : للدكتور مختار مصطفى بورو 7

١ ـ أرنولد توينبي : انطباعات سائح انكليزي في ليبيا 9

٢ ـ د. كنيث اركنسون : ديناميكا التربات الحمراء 15

٣ ـ ج. آ. آلن : التطورات الحديثة في الزراعة في ليبيا ، مع اشارة خاصة إلى ضواحي طرابلس 36

٤ ـ ج. هارتلي : توزيع وكثافة السكان بين ١٩٥٤ ـ ١٩٦٦ 65

٥ ـ كاسيني : سينوسيوس القوريناني 169

تقديم

ها نحن أولاء نقدم العدد الثالث من «مجلة كلية الآداب» وكنا عند وعدنا القراء من صدورها بانتظام مرة في العام إسهاماً في البحث العلمي الاصيل فيما يتصل منه بليبيا خاصة وبالدراسات العربية والاسلامية بعامة ، كما هو الهدف الرئيسي من اصدارها .

ونأمـل أن يجد فيها المختصون والمهتمون بالشئون الليبية ضالتهم المنشودة .

رئيس التحرير

الاستاذ الدكتور مختار مصطفى بورو

عميد الكلية

كاليماخوس القوريني[٢]

للدكتور ابراهيم نصحي
استاذ التاريخ القديم
ورئيس قسم التاريخ بالجامعة الليبية

إذا كان من المتفق عليه عند البحث في التاريخ العام تسمية القرون الثلاثة التي أعقبت وفاة الاسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق. م. بالعصر الهلينيسي لما لهذه التسمية من صفة الشمول التي تلائم التاريخ العام، فلعله عند البحث في تاريخ الأدب أن يكون أصدق انطباقاً على هذه القرون تسميتها بعصر الاسكندرية[١]. ذلك أن هذه المدينة أصبحت منذ القرن الثالث قبل الميلاد عاصمة الأدب الاغريقي، فقد كان لحدب البطالمة وعطفهم على الأدباء والعلماء وقيامهم بإنشاء دار العلم أو الجامعة ومكتبتها الكبرى قدرة عجيبة على اجتذاب محبي البحث في العلم والأدب الى الاسكندرية. وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية وبخاصة أكاديمية أفلاطون وليكيوم ارسطو، وعرفت هذه الدار على نحو ما عرف الكثير

---

١ انظر فيليب اميل لجران « شعر الاسكندرية »، ترجمة المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجة، القاهرة، ١٩٥٢، ص ١٨.

غيرها من دور العلم القديمة باسم الموزيون (mouseion أو museum = موئل ربات التاريخ والآداب والفنون والفلك) ، لكن معهد الاسكندرية فاق سائر معاهد العلم القديمة طراً الى حد أن ذكر الموزيون دون تخصيص عند الكلام عن الحركة الفكرية قديماً ؛ لا يمكن أن يوحي الى الذهن بأي معهد آخر سواه . وتحدثنا المصادر القديمة بأن معهد الاسكندرية كان يؤلف جزءاً من الحي الملكي ، ويتألف من متنزه فسيح ومجموعة من المباني تضم قاعات للبحوث العلمية فضلاً عن قاعة عامة للأكل وأماكن لأقامة العلماء والأدباء أعضاء المعهد ، وبأن الملوك كانوا يجرون عليهم الأرزاق السخية ؛ ويوفرون لهم حاجاتهم المادية جميعاً ، ويعفونهم من دفع الضرائب ومن أداء أي عمل يصرفهم عن بحوثهم ، وبأنه كان في متناول أيديهم محتويات المكتبة الكبرى ، وكانت أعظم دور الكتب في العصور القديمة[1] .

ولم يكن غريباً أن يسترعي كل ذلك انتباه كاليماخوس وان يجتذبه الى الاسكندرية مثل ما اجتذب غيره . ومما يؤسف له أننا لا نستطيع ان نستمد سواء من مؤلفات كاليماخوس أم من المصادر القديمة الأخرى سوى معلومات طفيفة عن حياته[2] . ومصدرنا القديم الرئيسي في هذا الصدد هو معجم سويداس[3] ، حيث جاء أن كاليماخوس ولد في قوريني من أبوين

---

١ ابراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، الجزء الرابع ص، ٢٠٧ وما بعدها .

٢ Mair, Callimachus, Loeb Cl. L., 1960, pp. 1 ff; Trypanis, Callimachus, Loeb Cl. L., 1958, PP. VII ff.

٣ Suidas, s.v. Kallimachos

والمصادر القديمة الاخرى هي :

(a) Scholium Plautinum (b) Anecdota Graeca (c) Tzetzes, Prolegomena to Aristophanes

وتوجد مناقشة مستفيضة لكل ذلك في :

Cahen, E., Callimaque, 1922, pp. 11 ff.

هما بانوس ومجاتيمي[1] ، ودرس على الفقيه هرمواقرتس من ياسوس ، وتزوج ابنة يوفراتس السراقوسي[2]،وانه بلغ من خصب انتاج كاليماخوس أنه نظم قصائد بجميع أوزان الشعر كما كتب نثراً كثيراً فزاد عدد مؤلفاته على الثمانمائة،وأنه قبل أن يحظى برعاية بطلميوس الثاني كان يقوم بتدريس قواعد اللغة الأغريقية في اليوسيس (Eleusis) احدى ضواحي الاسكندرية وانه كان يعيش في عصر بطلميوس الثاني (٢٨٣ – ٢٤٦ ق. م.) وعلى قيد الحياة عندما ارتقى العرش بطلميوس الثالث .

واذا كان سويداس يذكر اسم أخت كاليماخوس واسم ابنها ، فإنه لا يذكر اسم زوجة شاعرنا الكبير ولا يعطينا سواء تاريخ مولده أم تاريخ وفاته . واذا كان يتعذر علينا تحديد هذين التاريخين ، فإنه يتبين من أشعار كاليماخوس انه كان على اتصال وثيق ببلاط بطلميوس الثاني في خلال الجانب الأكبر من عهد هذا الملك وكذلك ببلاط بطلميوس الثالث في خلال الشطر الأول على الأقل من هذا العهد ، وانه كان من الرعيل الأول من شعراء الاسكندرية الفارهين أصغر قليلاً من ثيوقريتوس[3] واراتوس[4] وأكبر من تلميذه أبولونيوس . ولما كان معنى ذلك ان كاليماخوس كان شاعراً مرموقاً طوال فترة تمتد من ثمانينات القرن الثالث قبل الميلاد الى حوالى آخر اربعينات هذا القرن ، فإن هذا يوحي بأنه ولد عند

١ اسم أم كاليماخوس كما ورد عند سويداس هو « مساتيمي » لكن الباحثين يرجحون ان « مجاتيمي » أصح . انظر :
Wilamowitz, Hell. Dicht. I, p. 170.

٢ يرجح البعض ان اسم حمى كاليماخوس لم يكن يوفراتس وانما يوفرايوس ، انظر :
Tripanis, op. cit., p. VII, fn. e.

٣ Pfeiffer, Callimachos, II, pp. XIII ff; Herter, Gnomon, XIX, 1943, pp. 325 ff. pp. 325 ff.

٤ Achilles Tatius, Vita Arat., 4., p. 78. 22 M.

منتصف الربع الأخير من القرن الرابع وتوفي حوالى أواخر الثلث الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد .

ولا يبعد أن يكون كاليماخوس صادقاً في قوله بأنه كان سليل باتوس الأول مؤسس قوريني[1] . وعلى كل حال فإنه يبدو انه كان سليل أسرة ذات شأن كبير في قوريني ، ذلك اننا نتبين من احدى قصائده القصيدة (ابيجراما)[2] أن جده كان قائداً عسكرياً نابه الذكر . بيـد انه سواء أكان من سلالة أسرة باتوس الأول أم كان من سلالة أسرة أخرى كبيرة، فإنه يبين انه عقب سقوط أسرة باتوس وما شهدته قوريناثية (برقة) من اضطرابات عاصفة في خلال العصر الجمهوري أفضت الى وقوعها آخـر الأمر في قبضة بطلميوس الأول ، ساءت حال أسرة كاليماخوس وعانت من شظف الحياة ما اضطره الى الرحيل عن مسقـط رأسه خالي الوفاض ينشد تكسب رزقه عن طريق أدنى المهن حظاً من متاع الدنيا وهي مهنة التدريس ، فقد كانت مضرب الأمثال لذلك في العصور القديمة[3] .

ولا سبيل لدينا الى معرفة التاريخ الذي حظى فيه كاليماخوس برعاية بطلميوس الثاني ، ولا كيفية فوزه بهذه الرعاية ، وان كان من المرجح أن تكون أشعاره هي التي أكسبته هذه الحظوة . ويبدو ان حياته تغيرت تغيراً ملحوظاً منذ ذلك الوقت عندما عيّن في المكتبة الكبرى. ويرى بعض الباحثين ان كاليماخوس تولى منصب أمين هذه المكتبة[4] ، لكننا نميل الى

---

١ Hymn II, 65 with Diegesis and Scholia to this line; Strabo, XVII, 837.

٢ Epigram 28, Mair, pp. 152-3.

٣ Collart, Chronique d'Egypte, 1935, p. 494; Rostovtzeff, Soc. and Ec. Hist. Hell. World, p. 1082.

٤ Beloch, Gr. Gesch., IV2, pp. 592 ff.; Parson, Alex. Libr., p. 160; Sarton, Hell. Science and Culture in the last three Cent. B. C., pp. 143, 151.

الأخذ بالرأي المعارض[1] ولا سيما اننا نتبين من بردية[2] نشرت حديثاً ان ان الذين عيّنوا أمناء للمكتبة الكبرى بعد زنودتوس ـ أول أمين لهذه المكتبة ـ كانوا على التوالي : ابولونيوس الرودسي واراتوسثينس القوريني واريستوفانس البيزنطي وابولونيوس مؤرخ الأدب الاغريقي واريستارخوس وكيداس .

وعلى كل حال لا جدال في ان كاليماخوس اضطلع في المكتبة الكبرى بمهمة جليلة الشأن وهي وضع فهارس مصنفة (Pinakes) لمحتويات المكتبة . وقد صنّف كاليماخوس الكتب ثمانية أصناف كانت كما يلي :
١ ـ المسرحيات ٢ ـ الملاحم والشعر الغنائي ٣ ـ التشريع ٤ ـ الفلسفة
٥ ـ التاريخ ٦ ـ الخطب ٧ ـ علم الخطابة ٨ ـ موضوعات مختلفة .
واتبع كاليماخوس في فهرسة الكتب نظامين، ذلك انه رتب بعض الأصناف ترتيباً زمنياً ، ورتب البعض الآخر ترتيباً أبجدياً إما للموضوعات وإما للمؤلفين . وفضلاً عن أسماء المؤلفين وأسماء المؤلفات ، كانت الفهارس تتضمن الجملة الأولى من كل كتاب وعدد سطوره وترجمة أدبية موجزة لمؤلفه[3].

والى جانب أداء كاليماخوس هذه الخدمة العلمية الجليلة الشأن ، كانت له أعمال نثرية عظيمة القدر كثيرة العدد كان من أشهرها السجل التاريخي لشعراء التراجيديا الأثينيين ، ودراسة في مؤلفات ديموقريتوس ولغته ، وموسوعات متعددة ، ومعاجم شتى . ولا أدل على مكانة كاليماخوس العلمية قديماً من انه قد تتلمذ عليه كثيرون من أعلام الفكر مثل اراتوسثينس القوريني واريستوفانس البيزنطي وابولونيوس الرودسي . فلا غرابة أن تفقه كاليماخوس ونشاطه العلمي تركا أثراً أي أثر في شعره أضفى عليه طابعاً علمياً ملموساً . وازاء ذلك يجدر بنا التنويه بادىء ذي بدء الى انه

١ Wilamowitz, p. 206.
٢ P. Oxy., X., 1241.
٣ C. A. H. VII, p. 253; Sarton, p. 151.

عند تقدير مواهب كاليماخوس الشعرية يجب ألا يغرب عن البال انه لم يكن شاعراً فحسب بل كان أيضاً فقيهاً وناقداً أديباً نمت فيه نمواً عظيماً هذه الصفات جميعاً جنباً الى جنب . بيد ان شهرة كاليماخوس اليوم ومكانته الأدبية ترتكزان أساساً على أشعاره ، ويمكن تصنيفها على النحو التالي : ١ ــ الأناشيد . ٢ ــ مجموعة من القصائد تعرف باسم اليامبيات (Iambi) نسبة الى ذلك النوع من الوزن المستخدم في اشعارها . ٣ ــ مجموعة من القصائد القصيرة تدعى ايبجراماتا ومفردها ايبجراما . ٤ ــ الأشعار الغنائية . ٥ ــ الملاحم القصيرة . ٦ ــ ديوان «الأسباب»[١].

واذا كان أكثر أشعار كاليماخوس قد ضاع ولم يصل الينا منها كاملاً الا الأناشيد وبعض الابيجرامات[٢] ، فإننا نستطيع الوقوف على فحوى هذه الأشعار بفضل الملخصات القديمة (Diegeseis) وهي التي تتضمنها بعض برديات كشف عنها حديثاً . وقد وصلت الينا ثلاثة ملخصات كل منها قائم بذاته مستقل عن غيره ، لكنه يبدو من دراسة هذه الملخصات انها جميعاً مستمدة من مصدر قديم مشترك كان شائعاً معروفاً ويتضمن عناصر القصائد فضلاً عن معلومات أخرى عنها[٣] . واذا كان الملخص المعروف باسم ملخص ميلان[٤] (Milan Diegeseis) أكمل هذه الملخصات ، فإن الملخص الذي توجد بقاياه في بعض برديات البهنسة[٥] والملخص المعروف باسم الشرح الفلورنسي (Scholia Florentina) لا يقلان أهمية عن الملخص الأول بسبب ما يتضمنان من معلومات عن أجزاء القصائد التي يتناولانها[٦] .

١ أنظر القائمة الكاملة بأعمال كاليماخوس الشعرية والنثرية في : Mair, pp. 11 ff.

٢ Rose, H. J., Handbook of Gr. Lit., p. 319.

٣ Pfeiffer, II, p. XXVIII and n. 1.

٤ P. Milan 18.

٥ P. Oxy. 2263; 2376; 2377.

٦ Trypanis, p. XIV.

الأناشيد :

واذا كانت أناشيد كاليماخوس الستة أكمل ما وصل الينا من قصائده، فإنها ليست أفضل هذه القصائد . ولا جدال في ان هذه الأناشيد تماثل الأناشيد الهومرية من ناحيتين ، واحداهما من حيث ان محور موضوعاتها آلهة وأماكن مقدسة ؛ والناحية الأخرى انها جميعاً، باستثناء النشيد الخامس فقط ، منظومة بالوزن السداسي . وهي تختلف عن الأناشيد الهومرية من ناحيتين أيضاً ، واحداهما انها تفيض بكنوز من المعلومات كانت ثمـرة ما قام به كاليماخوس من البحث العلمي في المكتبة الكبرى، والناحية الأخرى انها لم تنظم للانشاد في مناسبات بعينها بدليل استحالة تصور انه كان في وسع أي جمهور عام استساغة مثل هذه الأناشيد الدسمـة . وازاء ذلك فإن الفكرة القديمة القائلة بأن كاليماخوس نظم أناشيده على نحو ما فعل هوميروس لالقائها في مناسبات معينـة[١] ، تبدو اليوم أقل قبولاً لدى الباحثين من الفكرة الحديثة القائلة بأن هـذه الأناشيد لم تكن إلا أعمالاً أدبية نظمت ليسمعها أو ليتلوها صفوة المثقفين[٢] .

ويستهل كاليماخوس نشيده الأول « الى زيوس »[٣] بالاعراب عن رغبته في الاشادة بهذا الإلـه (ll. 1-9) ، ويتخذ من هـذا معبرا الى دحض مزاعم كريت بأنها مسقط رأس زيوس[٤] وتأييد أحقية اركاديا بهذا الشرف (ll. 10-52) ، وكذلك الى رفض مزاعم الشعراء القدماء بأن صدفـة الاقتراع بين الآلهة هي التي جعلت زيوس كبيرهم جميعاً ، ذلك أن سمو

---

١ Susemihl, Gesh. d. Gr. Litt. in d. Alexanderzeit, I, p. 366; Couat, Poesie Alex., Alex., p. 198.

٢ Mair, p. 18; Barber, E.A., in Oxf. Class. Dict., s.v. Callimachus; Webster, Hell. Poetry and Art., 1967, p. 109.

٣ Mair, pp. 19-21, 36-47.

٤ Cook, A.B., Zeus, I, pp. 150 ff.

مكانة زيوس انما ترجع الى ما توافر له منذ نعومة أظفاره من مخايل النجابة والحكمة وأسباب المجد والعظمة فلم ير ذووه – برغم أنهم يكبرونه سناً – غضاضـــة في تبوئه عرش السماء (ll. 53-75) . ولم يلبث زيوس ان اتخذ من ملك الطيور (= النسر) رسوله ، وان اختـــار من البشر افضلهم جميعاً وأقامهم ملوكاً في سائر أنحاء الأرض ؛ وان اسبغ عـــلى الملوك الثروة والرفاهية بسخاء متفاوت،فلكنا فاق في ذلك الملوك الآخرين جميعاً (ll. 76-89) . ويختم كاليماخوس النشيد بتحيـــة زيوس والالتماس منه أن يضفي على البشر الطيبة والرفاهية معاً ، اذ انه لا فائـــدة ترجى من احداهما دون الأخرى (ll. 90-95) .

واننا لنلمس في هذا النشيد أن كاليماخوس قد اتخذ من اشادته بزيوس وسيلة لعرض درايته الواسعة بالأساطير والآداب الاغريقية القديمة، وكذلك لتوجيه التمجيد صوب ناحيتين ، احداهمـــا صوب القورينيين المستعمرين الأوائل وهم الذين كان كاليماخوس – على حد قوله – ينحدر من سلالة ملكهم مؤسس قوريني ، الوطن الأول لكاليماخوس ، والناحيـــة الأخرى صوب عاهل وطنه الثاني حيث استقر وطاب له العيش . والاتجاه الأول يبدو واضحاً في أمرين ، وأحدهما توجيه النشيد الى زيوس فهـو لم يكن رب الأرباب فحسب بل كان أيضاً والد ابولو وارتميس وهما اللذان كانا يحتلان مكانة مرموقة عند القورينيين . والأمر الآخر تأييد أحقية اركاديا بأنها مسقط رأس زيوس ، ذلك أن اركاديا كانت جزءاً من البلوبونيز، وان الثيرانيين – وهم الذين كان منهم مؤسسو قوريني – كانـوا يمتون بصلة القربى الى البلوبونيزيين . وان دل هذا على شيء فهو يدل عـــلى اعتزاز كاليماخوس بأصله وعلى حنينه الى وطنه الأول وهو ما سنجد أدلة عليه في مواضع أخرى .

ويرى الباحثون المحدثون في قول كاليماخوس بأن مواهب زيوس هي التي رفعته الى عرش السماء برغم انه كان أصغر اخوته تشبيهـــاً مقصوداً

لبطلميوس الثاني بزبوس ، فقد فضل هذا الملك على أخيه الأكبر منه ليرتقي عرش مصر ؛ ولذلك أشركه بطلميوس الأول معه في الملك منذ عام ٢٨٥ . وعندئذ لم يكن من الأخ الأكبر وهو المعروف ببطلميوس كراونوس (Keraunos = الصاعقة) إلا انه بارح مصر مؤملاً ان يجد في الخارج من المساعدة ما يعينه على الفوز بتاج مصر أو بما يعوضه عنه خيراً ، فانضم أولاً الى بلاط ليسياخوس ملك تراقيا ومقدونيا . واذ باءت مساعيه هناك بالفشل التجأ الى سلوقس ملك بابل وسوريا فأحسن وفادته ووعده بالمساعدة في الاستيلاء على ارثه . وفي عام ٢٨١ ق. م. عندما التقى سلوقس مع ليسياخوس عند كوروبديون (Koroupedion) ، حيث مني الأخير بالهزيمة ولقي مصرعه وأصبح عرش مقدونيا شاغراً ، عبر سلوقس الدردنيل في بداية العام التالي ليستولي على العرش الشاغر . وإذ أحس بطلميوس كراونوس بأن سلوقس لن يقيمه على عرش مصر وسيحرمه كل أمل في مقدونيا . انقض عليه وقتله ، فنادى الجيش بقاتل آخر خلفاء الاسكندر الذين عاصروه ملكاً على مقدنيا . وقد كان يناصب ملك مقدونيا الجديد العداء اثنان ، احدهما انطيوخوس الأول وهو الذي خلف أباه سلوقس في آسيا ولم يكن في وسعه ان يدع جانباً أطماع أبيه في عرش مقدونيا ولا الثأر له من قاتله . والعدو الآخر هو انتيجونوس جوناتاس وكان هو أيضاً يطالب بعرش مقدونيا. وكان عدوا بطلميوس كراونوس منافسين لأخيه ملك مصر ، ومن ثم أصبح الأخوان حليفين طبيعيين ضد انطيوخوس وانتيجونوس ، ولا سيما ان كراونوس سارع الى مناشدة صداقة أخيه ملك مصر متناسياً حرمانه إرثه واكتفاءه بما اكتسبه على حساب عدو أبيهما[١] ، لكن حكم بطلميوس كراونوس لم يعمر طويلاً لأنه قتل في عام ٢٧٩[٢] في اثناء الدفاع عن مملكته ضد الغال[٣] .

١ Justin, XVII, 2, 9.

٢ ابراهيم نصحي الجزء الاول ص ١٠١ .

٣ Justin., XXIV, 3, 4.

وفي ضوء هذه الأحداث لا نستطيع قبول الرأي القائل بأن هذا النشيد كان دعوة الى كراونوس للتشبه بإخوة زيوس حين اعترفوا لأخيهم بالعرش[١] ونعتقد انه كان بمناسبة ما قام به كراونوس بالفعل من نزوله عن حقه في عرش مصر واعترافه لبطلميوس الثاني منفرداً بحقه في هذا العرش (عام ٢٨٠ – ٢٧٩) على غرار اعتراف اخوة زيوس بحقه في عرش السماء. ويؤكد أن النشيد يرجع الى فترة باكرة في عهد بطلميوس الثاني عدم ورود أية اشارة فيه الى زوجته ارسينوي الثانية وهي التي كان لها اكبر الأثر في احداث هذا العصر[٢] منذ زواجها حوالى عام ٢٧٦ ق. م. بيد ان هذا لا يعني ان النشيد نظم بمناسبة تتويج بطلميوس الثاني، وذلك لسببين : واحدهما هو ان فحوى هذا النشيد لا توحي بأنه نشيد تتويج. والسبب الآخر هو انه عند تتويج بطلميوس الثاني في عام ٢٨٣ لم يكن كراونوس قد اعترف بعد لأخيه بحقه في عرش مصر.

ولعل هذا النشيد بما جاء فيه من تشبيه بطلميوس الثاني بزيوس، ومن الاشادة بمجد هذا الملك الذي فاق مجد الملوك الآخرين قاطبة ، ان يكون هو الذي اكسب كاليماخوس رعاية بطلميوس الثاني.

والنشيد الثاني (الى ابولو)[٣] ينهض دليلاً آخر على حنين كاليماخوس الى وطنه الأول قوريني ، اذ ان أكثر الباحثين[٤] يتفقون على ان النشيد الثاني نظم اجلالاً لاحتفال قوريني بعيد ابولو ، إلهها الحارس ، وكان يقام في خلال الشهر الدوري المقدس ، شهر كارنيوس (اغسطس – سبتمبر) ، ولذلك فانه كان يسمى بعيد ابولو الكارني. وقد تصور

---

١ Mair, p. 20.

٢ Wilamowitz, Textgesch. d. Gr. Bukol., p. 55.

٣ Mair, pp. 21-4,48-59.

٤ e.g. Couat, p. 235; Susemihl, I., p. 361; Maas, Hermes, XXV, 1950; Webster, p. 100.

الشاعر ان ابولو (أي تمثاله) كان على وشك الظهور أمام عباده ، فهو يصف العلامات الدالة على ذلك : ارتجاف شجرة الغار المقدسة ، اهتزاز المعبد ، إنحناءة شجرة النخيل ، ارتفاع صوت البجعة (طائر ابولو المقدس) . وما ان يهل ابولو بطلعته على المعبد حتى يدعو شاعرنا الشباب الى التغني بمديحه ليطيب مقامهم ويطول في المدينة التي اعطاها ابولو لأجدادهم (ll. 1-15) . وفي ثنايا هذا المديح يقول الشاعر « ومن يعادي ابولو خليق بأن يعادي مليكي» (l. 26) . وبعد ان يورد كاليماخوس مديح ابولو سارداً صفاته ، وكان من بينها انه باني المدن (ll. 16-64) ، يأتي على وصف انشاء قوريني ، وكيف ان ابولو حدث باتوس عن خصوبة أرضها ، وقاده هو ورفاقه إلى ليبيا ، فنزلوا أولاً عند ازيريس ثم قادهم الى موطن قبيلة الاسبوستاي ، حيث يوجد نبع قوري (Kure) ، فأقاموا هناك معبداً فخماً لأبولو وشادوا مدينتهم (ll. 65-104) . وبعد ان يفسر كاليماخوس نشأة صيحة قديمة (Hie Paeeon) يختم النشيد بتوجيه عبارات قارصة الى ناقديه (ll. 105-113) سنأتي اليها فيما بعد عند الكلام عن اتجاهات كاليماخوس الأدبية والنزاع الأدبي المشهور .

وهذا النشيد بالغ في أهميته ، فهو من ناحية يعتبر من أروع أناشيد كاليماخوس بوصف كونه عملاً أدبياً ممتازاً ، ومن ناحية اخرى يعبّر بلغة الشاعر نفسه عن اتجاهاته الأدبية، وعن رأيه في بعض ما كان ناقدوه يأخذونه عليه ، ومن ناحية ثالثة يلقي ضوءاً ساطعاً على أصل اسم مدينة قوريني . ذلك ان الباحثين ذهبوا مذاهب شتى في تفسير مصدر اسم هذه المدينة،فبعضهم[١] يرى ان هذا الاسم مشتق من الكلمة الاغريقية (Kurtos) ومعناها السلة لما هنالك من وجه الشبه بين شكل السلة وشكل شاطىء برقة الشمالي . وبعضهم[٢] يرى انه مشتق من كلمة (Kurios) بمعنى السيد لأن

١ Curtius, Grundzüge d. gr. Etymol., 5th ed., p. 158. 81.
٢ Studniczka, Kyrene, p. 151.

المدينة كانت سيدة هذه المنطقة . وبعضهم[1] يرى انه ليس الا اسم الحورية التسالية قوريني ، وهي التي تحدثنا الأساطير[2] بأنها بهرت ابولو بشجاعتها حين رآها تصرع أسداً بيديها عند جبل بليون (Pelion) في تساليا فهام بها حباً وحملها على بساط الريح الى ليبيا حيث أعرس بها في اليوم نفسه عند المكان الذي انشأ فيه باتوس مدينته .

واذا كان كاليماخوس يقف في نشيده الى ارتميس[3] عند القول بأن تساليا كانت مسرح الصراع بين الحورية والأسد (ll. 206-8) ، فانه يقول في نشيده الى ابولو ان هذا الإله وعروسه وقفا يرقبان باتوس ورفاقه من فوق تل الآس حيث قتلت الحورية الأسد الذي كان يفتك بمملكة يوروبولوس[4] (ll. 90-92) . بيد انه مما يجدر بالملاحظة ان كاليماخوس لم يقل بأن المدينة سميت باسم الحورية وانما قال ان أبولو قاد باتوس ورفاقه الى نبع قوري (l. 88) ، وهو النبع الذي سمي فيما بعد نبع ابولو على نحو ما نعرف من هرودوت[5] وهو الذي يفيض تاريخه بالأساطير ومع ذلك فانه لم ينسب تسمية المدينة الى الحورية . ولما كان كاليماخوس الشاعر الفقيه وابن مدينة قوريني لم ينسب تسمية مسقط رأسه الى الحورية التسالية ، وكان قد قال ان ابولو قاد باتوس ورفاقه الى نبع قوري ، وكان القوري هو الاسم الليبي لنبات ينمو بكثرة في هذا المكان[6] ، وكانت مدن قديمة

---

١ Bechtel, Nach r. Gölt. Ges. Wiss., 1890, p. 37.

٢ Hesiod., fr. 149; Pind., Pyth. Ode, IX, 17 ff; Schol. on l. 6.

٣ Mair, pp. 26-28, 60-63.

٤ وفقا لاسطورة اغريقية أحدث عهدا من الاسطورة الاصلية : كان يوروبولوس أحد ملوك ليبيا في العصور القديمة ، وكان هناك أسد يعيث فسادا في مملكته فوعد بأن يهبها لمن يقتل هذا الاسد . واذ نجحت الحورية قوريني في قتل الاسد فازت بالمملكة .
(Asecandros of Cyrene in Schol. Apoll. Rh.)

٥ IV, 158,3.

٦ Dioscorides Mat. med., II. 169 RV, ed. Wellmann, I, 235; Bertoldi, Melanges Boisacq. 1937, I, pp. 47-63.

كثيرة قد استمدت اسماءها من ابرز مميزات مواقعها من نبات او حيوان او تربة وتنتهي اسماؤها بالمقطع نفسه (ene) الذي ينتهي به اسم قوريني، ومثل ذلك موكيني وموتيليني وبايريني ، فانه لا يستبعد ان يكون اسم مدينة قوريني قد استمد كذلك من نبات القوري[1] ، وبذلك يكون معناه المكان الذي يكثر فيه هذا النبات. ويبدو انه لم توجد في الأصل اية صلة بين الحورية قوريني والمدينة قوريني ، فالمدينة لم تنشأ قبل عام ٦٣١ قبل الميلاد على حين ان اسطورة الحورية التسالية أقدم عهداً بدليل اشارة هسيودس اليها في احدى قصائده . وبناء على ذلك فان التماثل بين اسم الحورية واسم المدينة لم يكن الا من باب الصدفة وحدها . ولعل هذا التماثل هو الذي أوحى الى القورينيين في وقت متأخر نسبياً باتخاذ محبوبة إلههم الأكبر إلهة حارسة لهم ، وبابتكار اسطورة جديدة تجعل من موقع مدينتهم مكان الصراع بين الحورية والأسد وكذلك مكان الزواج المقدس الذي ربط الحورية بإلههم الأكبر[2] . وينهض دليلاً على عدم وجود اية صلة اصلاً بين المدينة والحورية التسالية وعلى تأخر انشاء هذه الصلة وابتكار الأسطورة التي تصورها ثلاثة أمور : اولاً،ان قصيدة بينداروس (البوثية التاسعة)[3] وهي التي نظمت احتفاء بانتصار تلسيكراتس القوريني في حفل الألعاب البوثية في عام ٤٧٤ ق. م. لا تجعل مسرح الصراع بين الحورية والأسد في المكان الذي انشئت فيه مدينة قوريني وانما في تساليا، وذلك وفقاً للأسطورة القديمة . وابلغ في الدلالة من ذلك ان القصيدتين (البوثية الرابعة والبوثية الخامسة)[4] وهما اللتان نظمهما بينداروس في عام ٤٦٢ ق. م. اجلالاً لاركسيلاوس الرابع ملك قوريني وألقاهما في مدينة

---

١ Bertoldi, loc. cit.

٢ Chamoux, Cyrene, pp. 126-7, 276 ff.

٣ Sandys, Pindar, Loeb Cl. Lib., pp. 270-285.

٤ Sandys, pp. 196-231, 232-245.

قوريني ذاتها لا يرد فيها اي ذكر للحورية قوريني على الاطلاق . وان دل هذا على شيء فهو يدل على انه حتى ذلك الوقت لم يكن قد دار بعد بخلد القورينيين ان يربطوا بين مدينتهم والحورية التسالية، وتبعاً لذلك لم يكونوا قد فكروا بعد في اتخاذها إلهة لهم ، او نسجوا اسطورتهم الجديدة . وثانياً : ان هرودوت عندما كتب تاريخه في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وروى قصة تأسيس مدينة قوريني على نحو ما رواها كاليماخوس لم يشر الى وجود أية صلة بين المدينة والحورية التسالية . وثالثاً ، ان أقدم المخلفات الأثرية التي تثبت وجود طقوس خاصة بعبادة الحورية في مدينة قوريني لا يمكن ان ترجع الى وقت يسبق اواخر القرن الرابع قبل الميلاد[1] .

وكيف نفسر اذن هذا التعارض بين قول كاليماخوس في نشيده الى ارتميس بأن الحورية صرعت الأسد في تساليا ، وهو يدل على انه قبل الأسطورة القديمة على نحو ما جاءت عند هسيودس وبينداروس ، وبين قوله في نشيده الى ابولو بأن الحورية صرعت الأسد في المكان الذي أنشئت فيه مدينة قوريني ، وهو يدل على انه قبل أسطورة جديدة ؟ يجب أن نلاحظ أمرين : واحدهما ، ان كاليماخوس لم يكن فقيهاً فحسب بل كان أيضاً شاعراً قوريناً وفي الوقت نفسه شاعر البلاط البطلمي . والأمر الثاني انه قبيل الوقت الذي يبدو انه نظم فيه نشيده كان قد وقع حادث تاريخي هام .

وبيان ذلك انه حين كان ماجاس، الأخ غير الشقيق لبطلميوس الثاني ، يحكم برقة بوصفه نائباً عن الملك البطلمي ، كان هناك صراع عنيف بين بطلميوس الثاني والملك السلوقي انطيوخوس الأول . وفي عام ٢٧٤ زوّج

---

١ Chamoux, p. 127 fn. 3, pp. 275-6.

انطيوخوس ابنته اباما الى ماجاس وأغراه باعلان استقلاله وبالزحف على الاسكندريـــة في الوقت الـذي يزحف فيه هو على « جوف سوريا »[1] (Coele Syria). واذا كانت محاولة ماجاس قد باءت بالفشل وأرغم على الاذعان لأخيه ، فان العلاقات بين الأخوين ظلت متوترة . ويبـــدو أنه لضمان عدم تجدد أي متاعب من ناحية برقة ، قرر بطلميوس الثاني ادماجها في الدولة البطالمية ، ورأى ان الوسيلة المثلى لذلك هي زواج ولي عهده من برينيقى وريثة ماجاس ، ولذلك فانه اقترح على ماجاس عقد الخطبة بين وريثيهما . ويبدو ان ماجاس ، وقد تقدمت به السن وأدرك استحالـة امكان وقوف برقة في وجه مصر بعد وفاته، رحب بمساعي مصر الدبلوماسية لعقد هذه الخطبة حتى ينهي الخصومة التي دامت بينه وبين أخيـه حوالى خمسة عشر عاماً ، ويضمن لابنته لا عرش برقة فحسب بل عرش مصر أيضاً . ويبدو ان ماجـــاس توفي بعد ذلك بقليل (حوالى عام ٢٥٨) لأن الزواج لم يتم عندئذ . فقد كان واضحاً ان هذا الزواج يستتبع ادماج برقة في مصر بعــد وفاة ماجاس وبطلميوس الثاني ، ولذلك فانه كان يعارضه في برقة حزب وطني كبير يرنو الى الاستقلال وتتزعمـــه اباما . وعندما توفي ماجاس رأت ارملته انها اذا حالت دون اتمام الزواج وزوجت برينيقى من امير آخر امكنها ان تحتفظ باستقلال برقة الذاتي ، وان تبقى على أسرتها الحاكمة ، وان تضمن لنفسها تبعاً لذلك السيطرة الفعليـة على برقة . ولعله ازاء النصر البحري الباهر الـذي كان انتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا قد أحرزه على بطلميوس الثاني حوالى هذا الوقت ، وقـع اختيار اباما على ديمتريوس « الجميل » اخي انتيجونوس . لكن ديمتريوس نفسه تسبب في فشل هذا الموضوع بصلفه وغروره ووقوعه في غرام اباما ، فأوعزت برينيقى بقتله في فراش امها ، وقبضت على زمام السلطة (حوالى

---

١ كان اقليما يشمل فلسطين وجنوب سوريا وأصبح في حوزة البطالمة منذ عام ٣١٩/٣١٨ ق٠م٠

عام ٢٥٥) . ويبين انه قد تبع ذلك وقوع اضطرابات عنيفة في برقة وضع حداً لها التشريعات التي اقترحها الفيلسوفان اكديموس ودموفانس . ولم تلبث برينيقى ان تزوجت من خطيبها الأول ولي عهد مصر . ويحوم الشك حول تواريخ هذه الأحداث ، لكنه يبدو ان زواج برينيقى لم يسبق كثيراً ارتقاء زوجها عرش مصر في عام ٢٤٦ ق. م.

ويبدو ان كاليماخوس بوصفه فقيهاً قبل الاسطورة الأصلية ، ولكنه بوصفه شاعراً قوريني الأصل ينظم نشيداً في اجلال ابولو إله مسقط رأسه ، وكذلك بوصفه شاعر البلاط البطلمي قبل الاسطورة الجديدة، وذلك مجاملة لمواطنيه الذين يبدو انهم ابتكروا الاسطورة الجديدة منذ عهد غير بعيد ، وكذلك مجاملة لمليكته برينيقى من ناحية بوصفها قورينية ومن ناحية أخرى لأنه من اليسير رؤية وجه الشبه بينها وبين الحورية في الأسطورة الجديدة ، فقد خلصت برينيقى برقة من ديمتريوس ومفاسده مثل ما خلصت الحورية مملكة يوروبولوس من الأسد وضراوته .

اما عن تاريخ نظم هذا النشيد فانه ازاء قول الشارح القديم في تعليقه على البيت السادس والعشرين من أبيات هذا النشيد بأن المليك المقصود في هذا النشيد هو بطلميوس الثالث ، وازاء ما يجمع عليه الباحثون من ان كاليماخوس بقبوله الاسطورة الجديدة في هذا النشيد كان يستهدف ابراز وجه الشبه بين برينيقى زوجة بطلميوس الثالث والحورية قوريني ، وازاء قول كاليماخوس في البيتين السادس والعشرين والسابع والعشرين « مليكي » بصيغة المفرد ، لا بد من ان يكون هذا النشيد قد نظم في تاريخ تال لا لزواج بطلميوس الثالث من برينيقى فحسب ؛ اي حين كان لا يزال ولياً للعهد ثم شريكاً لبطلميوس الثاني منذ عام ٢٤٧ ؛ بل تال لارتقاء بطلميوس العرش في عام ٢٤٦ .

والنشيد الثالث « الى ارتميس »[1] عبارة عن ملحمة قصيرة تتغنى بمديح

---

1 Mair, pp. 26-28, 60-83.

الإلهة البتول ارتميس شقيقـة ابولو التوأم ، وتروي أسطورتها في افاضة وفقاً لأدق المصادر القديمة ، فتتحدث عن صفاتها ومناقبها وأسمائها المتعددة مما جعلها تحظى بتقديس عدد لا حصر له من المدن الافريقية، كما تتحدث عن حورياتها — وكانت الحورية قوريني من أحبهن اليها — وعن مجالات نشاطها ، فهي تغشى الفيافي والوهـاد وتجوب الغابات والأحراش لتنشر الخصب والنماء من أجل الانسان والحيوان سواء بسواء ، ولا تزور المدن الا حينما يأتي المخاض النساء وينشدن مساعدتها، فتخف اليهن لتأخذ بيدهن وتضفي عليهن وعلى نسلهن الصحة والعافية ، وتنشر لواء السكينة والوئام في كل مكان .

وأهم ما يعنينا في هذا النشيد أمران : واحدهمـا قبول كاليماخوس الأسطورة الأصلية القائلة بأن الحوريـة قوريني صرعت الأسد في تساليا على نحو ما مر بنا (ll. 206-8) . والأمر الآخر قول كاليماخوس ولا يفسد العلاقات في الأسرة وجود شقاق — وهو الذي يقطع أوصال أعرق البيوتات ، فزوجة الأخ واخت الـزوج يجلسان حول مائـدة واحدة (ll. 135-5) . ونحن نتفق مع الرأي القائل بأن كاليماخوس يشير هنا الى ارسينوى الأولى وارسينوى الثانية قبل ان تفسد العلاقة بينهما [١] . وكانت الأولى ابنة ليسيماخوس ملك تراقيا ومقدونيا والزوجـة الأولى لبطلميوس الثاني . وكانت الثانية شقيقة بطلميوس الثاني وتزوجت ليسيماخوس حوالى عام ٣٠٠ ق. م. خدمة لأغراض أبيها السياسية واكتسبت سيطرة قوية على زوجها الى ان قتل في عام ٢٨١ ثم تزوجت أخاها غير الشقيق بطلميوس كراونوس لفترة قصيرة في عام ٢٨٠ ، ولكنه عندما قتل اثنين من أبنائها فرت الى ساموتراقيا ثم الى افيسوس فصر ، حيث لم تلبث ان دبرت ، فيما يبدو ، اقصاء الزوجة الأولى لبطلميوس الثاني . وفي ضوء هذا يبدو

---

١ Gerke, Rhein. Mus., XLII, 1897, pp. 273 ff.

أن يكون هذا النشيد قد نظّم عقب عودة ارسينوي الثانية الى مصر وقبل اقصاء ارسينوي الأولى ، أي الى حوالى عام ۲۷۹ ق. م. .

والنشيد الرابع « الى ديلوس »[١] يترنم بهذه الجزيرة المقدسة ، حيث ولد ابولو وارتميس ، وكان اسمها القديم استريا (ll. 1-54) ثم يروي كيف ان هيرا هاجت وثارت لأنه نتيجة للعلاقة التي أنشأها زيوس سرا مع ليتو — فقد كان زيوس أخ هيرا وزوجها ووالد ابنها آرس — كانت ليتو على وشك أن تضع طفلاً قدّر له أن يسمو على آرس بكثير. ولذلك فإن هيرا حظرت على أية بقعة في الدنيا أن تستقبل ليتو وتسمح لها بالوضع فيها ، وعهدت الى ابنها آرس والى رسولة الآلهة ايريس بالاشراف على مراعاة هذا الحظر (ll. 55-69) . وعندما أخذت ليتو تطوف بالمدن والجزر واحدة تلو أخرى مناشدة اياها ، دون جدوى ، أن تمنحها مأوى وملاذاً ، ووصلت الى جزيرة قوس (Cos) (ll. 70-161) أفضى الجنين الى أمه بنبوءة (ll. 162 ff.) استهلها بقوله « لا تلديني هنا يا أماه . أنا لا اعتراض لي على هذه الجزيرة ، ولا أحمل لها ضغناً ، فهي جزيرة باهرة وفيرة الخصب والنماء كأي جزيرة أخرى . بيد انه مقدر لهذه أن تشهد مولد إله آخر ، هو أعظم سلالة الآلهين المنقذين ، وهو الذي ستنضوي تحت عرشه — دون أن يبرم أحد من رعاياه بأنه يحكمه مقدوني — القارتان كلتاهما ، وكذلك بلاد يحيط بها البحر وتمتد حتى أطارف الأرض... » وتمضي النبوءة فتتحدث عن انقضاض الغال على شبه جزيرة البلقان وعن هزيمتهم هناك ، وكذلك عن القضاء على جماعة منهم على ضفاف النيل . ثم ينصح ابولو أمه بأن تذهب الى جزيرة ديلوس (ll. 162-195) . واذ ترى الجزيرة الصغيرة ليتو التعسة ، يرقّ لها قلبها على الفور وتتحدى هيرا قائلة لها « افعلي بي ما تشائين ، فأنا لا أعبأ بتهديداتك.

---

[١] Mair, pp. 28-30, 84-111.

تعالي الى أحضاني يا ليتو تعالي » (ll. 203-4) . وعندئذ يغمر السرور قلب ليتو وتذهب الى ديلوس وتناشد ابنها أن يخرج من جوفها (ll. 205-15) . وعندما نما الى هيرا ما حدث ثارت أول الأمر، ولكنها لم تلبث ان غفرت لاستريا (ديلوس) ما اقترفته ، وذلك لأنها حين كانت حورية رفضت ان تبادل زيوس الهوى ، ولكي تتخلص من متابعته اياها ألقت بنفسها في اليم وتحولت الى جزيرة شأنها شأن الشهب التي تسقط من السماء في البحر (ll. 216-249) . وعندئذ تحتشد البجع ، طير ابولو المقدس ، من كل حدب وصوب ، وترتفع أهازيج الفرح ، وتخف الى ديلوس إلهة الولادة لتشرف على ميلاد ابولو ، وما أن يخرج الإله من بطن أمه حتى يتحول كل ما في ديلوس ذهباً (ll. 250-263) . ويمضي النشيد فيعدد مناقب ابولو وأماكن عبادته ، ويختم بالاشادة بديلوس (ll. 264-326) .

وأهم ما يعنينا في هذا النشيد هو نبوءة ابولو بسبب اشارتها الى أحداث تاريخية هامة تساعد على تأريخ هذا النشيد . فالنبوءة تشير أولاً الى مولد بطلميوس الثاني في جزيرة قوس ، فقد ولد هذا العاهل في هذه الجزيرة في فبراير عام ٣٠٨[١] . وكان بطلميوس الثاني ابن بطلميوس الأول وبرينيكى الأولى وهما اللذان رفعا الى مصاف الآلهة بعد موتهما وعبدا رسمياً باسم الالهين المنقذين[٢] .

وتشير النبوءة ثانياً الى تأليه بطلميوس الثاني . وانه لما يستوقف النظر ان بعض الباحثين[٣] لا يزالون يرون ان بطلميوس الثاني لم يؤله إلا بعد وفاة ارسينوي الثانية في يوليه عام ٢٧٠ وتأليهها وقرنه معها في العبادة ،

---

١ Meyer, Unters. z. Chron. d. Erst. Ptol., 1925, p. 65.

٢ ابراهيم نصحي ، الجزء الثاني ، ص ص ٧٨ ــ ٨٠

٣ Trypanis, pp. X-XI (1958); Webster, p. 98 (1967).

ولذلك يرجعون هذا النشيد الى تاريخ تالٍ لتاريخ وفاة ارسينوي . واذا كان يوجد قديماً شك – وهو ما لم نشاركه ولم نر له مبرراً[1] – حول تأليه بطلميوس الثاني قبل وفاة ارسينوي ، فانه منذ بضع سنين لم يعد لهذا الشك أي داع وبالتالي لم يعد هناك أيضاً داع للافاضة في تفنيد ذلك، لاننا اذا كنا لا نجد ذكراً للالهين الأخوين (ادلفوى = بطلميوس الثاني وارسينوي الثانية) في ديباجة وثيقة[2] من العام الثاني عشر من عهد بطلميوس الثاني (٢٧٤ – ٢٧٣) ، فاننا نتبين من محتويات وثيقة[3] نشرت منذ بضع سنوات أن عبادة الإلهين الأخوين كانت موجودة في العام الرابع عشر من عهد بطلميوس الثـــاني (٢٧٢ – ٢٧١) . وفضلاً عن ذلك فان الالهين الأخوين يرد ذكرهما في وثيقة[4] نشرت منذ عهد بعيد وترجع الى اليوم العشرين من شهر دايسيوس في العام الخامس عشر من عهد بطلميوس الثاني (أوائل يونيه عام ٢٧٠) على حين أن لوحة مندس تحدثنـــا بأن ارسينوي « صعدت الى السماء » في شهر باخون في العام الخامس عشر من عهد بطلميوس الثاني (= ٩ يوليه عام ٢٧٠) .

وتشير النبوءة ثالثاً الى الممتلكات الواسعة التي أحرزها بطلميوس الثاني في الـــبر وفي البحر في افريقيا وفي آسيا . ولما كنا نعرف انه اذا كان بطلميوس الثاني قد استولى على ممتلكات في كاريا وكذلك على دمشق في عام ٢٨٠ – ٢٧٩ ، فان ممتلكاته لم تبلغ أقصى اتساعها إلا بعد الفشل الذي صادفه في بداية الحرب السورية نتيجة لثورة جنوده الغال وخروج ماجاس على طاعته ، ذلك انه بعد قضائه على الغال ورد ماجاس عـــلى أعقابه وارغامه على الاعتراف له بالسيادة أحرز عـــلى انطيوخوس الأول

---

١ انظر ابراهيم نصحي ، تاريخ البطالمة الطبعتين الاولى ١٩٤٦ والثانيـة ١٩٦٠ .

٢ P.S.I., 321.

٣ P. Hibeh, II, No. 199.

٤ P. Hibeh, I, No. 99.

انتصارات باهرة اضطرته الى عقد الصلح في عام ٢٧٢ ق. م. وعند عقد هذا الصلح كانت سيادة بطلميوس تمتد على كل فينيقيا وجوف سوريا وجانباً كبيراً من شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، فضلاً عن قبرص وساموس وجزر الكيكلاد ، الى جانب رضوخ ماجاس وقبائل المارماريد ؛ وكذلك بلاد النوبة[١] .

وتشير النبوءة رابعاً الى افناء جنود بطلميوس الثاني من مرتزقة الغال على ضفاف النيل ، وهم الذين تحدثنا المصادر القديمة بأن هذا العاهل كان قد استأجرهم مع غيرهم لمواجهة التهديد القادم من الغرب عندما أعلن ماجاس استقلاله وزحف على الاسكندرية في عام ٢٧٤ . ذلك أن باوسانياس يحدثنا بأنه عندما كان بطلميوس يستعد لمواجهة عدوان ماجاس استأجر جنوداً مرتزقة كان من بينهم أربعة آلاف من الغال ، واذ كشف بطلميوس انهم يتآمرون على ملكه ألقى القبض عليهم وأرسلهم الى جزيرة وسط النيل حيث قضى عليهم الجوع وكذلك صراعهم مع بعضهم بعضاً[٢] . وفي رواية أخرى أغرقهم بطلميوس عند مصب فرع النيل السبنيتي[٣] .

وفي ضوء الأحداث التاريخية التي وردت الاشارة اليها في نبوءة ابولو دون الاشارة الى وفاة ارسينوي الثانية ، من المرجح أن يكون كاليماخوس قد نظم هذا النشيد فيما بين عام ٢٧٢ وهو العام الذي يبدو ان بطلميوس وارسينوي رفعا فيه الى مصاف الآلهة وكذلك عقد فيه الصلح الذي اعترف فيه لبطلميوس بفتوحاته الواسعة ، وبين عام ٢٧٠ وهو الذي توفيت فيه ارسينوي الثانية .

---

١ C.A.H., VII, pp. 703-4; Jouguet, Mac. Imp., p. 262; Cary, Greek World from 323-146 B.C., pp. 85, 104; Theocr., Idyll, XVII; Diod., I, 37,5.

٢ Paus., I, 7, 2.

٣ Schol. on v. 175.

وإذا كان النشيد الخامس « عن حمام بلاس »[1] (Pallas = الالهـة أثينا) يخلو من الاشارة الى أي حدث من الاحداث التاريخية المعاصرة . فانه بفضل جزالة شعره وبراعة ناظمه في تصوير المشهد وعواطف النظارة يعتبر هو والنشيدان الثـاني والسادس ابرز أمثلة كاليماخوس التي تنم عن أصالته في هذا الطراز من الشعر . وهذا النشيد يدور – على نحو ما يتضح من عنوانـه – حول وصف مهرجان ديني كان يقام بمناسبـة استحمام « بلاس » أو بعبارة أدق غسل تمثالها . ووفقاً لما أورده الشارح القديم في تعليقه على البيت الأول من هذا النشيد ، جرت عـادة نساء أرجوس أن يحملن في يوم معين تمثال الإلهة أثينا ودرع البطل ديـومدس الى نهر ايناخوس حيث يقمن بغسلها . ويقال ان هـذا التمثال هو ذلك الذي أحضره من طروادة البطلان اوديسيوس وديومدس وقام البطل الأخير بنقله الى ارجوس حيث قدم درعه قرباناً في معبد أثينا هناك . ويذكر باوسانياس[2] ان ديومدس أقام على اكروبول ارجوس معبداً للإلهة أثينا تخليداً لذكرى اليوم الذي أزاحت فيه الغشاوة عن عينيه حتى يبصر الله والانسان ، وذلك وفقاً لما جاء في الياذة هوميروس[3] .

والحديث يدور في هذا النشيد على لسان كاهنة أثينا في ارجوس ، فهي تعطي التعليمات الى الفتيات اللاتي سيشاركن في غسل تمثـال الإلهة ، وكما هي العادة ، تتحدث الكاهنة عن التمثال كما لو كان الإلهة ذاتها ، وهي تستحث الفتيات على القدوم لأن صهيل خيول عربة الإلهـة ترتفع اعراباً عن برمها بالانتظار ، وتأمرهن بألا يحضرن مساحيق التجميل لأن الإلهـة لم تستعمل المساحيق يوم محاكمة باريس (ll. 1-32) . ثم تروي الكاهنة

---

١ Mair, pp. 30-31, 112-123.

٢ Paus., II, 24,2.

٣ Il., V. 127 ff.

قصة ديومدس ، وتحذر الجميع من مياه النهر في ذلك اليوم لأن الإلهة على وشك الاستحمام هناك (ll. 33-56) . وتروي قصة تايرسياس وكيف أنه رأى عفواً الالهة وهي تستحم ففقد بصره جزاء ذلك (ll. 57-136) ويختم النشيد بتحية الإلهة والدعاء لها لتنعم بركبها وتنشر الفرح والسرور بين الناس وتكلأهم برعايتها (ll. 137-142) . والقصص التي يتضمنها هذا النشيد تنم عن دراية كاليماخوس بالأساطير القديمة ، بيد انها مصوغة على النحو الذي ينتظر من كاهنة ارجوسية ان تستخدمه في روايتها لفتيات مدينتها اللائي سيشاركن في هذا المهرجان المقدس .

وازاء نظم هذا النشيد باللهجة الدورية ، وما يتردد فيه من حديث عن ديومدس وارجوس ، وما أورده الشارح القديم في تعليقه على البيت الأول منه ، لا يستبعد ما يذهب اليه بعض الباحثين[١] من ان يكون كاليماخوس قد نظم هذا النشيد بناء على تكليف من أهل ارجوس للاشادة بمهرجان مدينتهم الذي سلفت الاشارة اليه . ولا يستبعد كذلك ان يكون هذا النشيد قد نظم في الوقت الذي كان فيه كاليماخوس مضطراً الى قبول مثل هذه المهام لقاء أجر ، أي حين كان لا يزال مدرساً فقيراً محدود الموارد بل خالي الوفاض ، يحيي تلك الحياة الوضيعة التي يشير اليها في ابيجراماته الثامنة والعشرين والرابعة والثلاثين والسابعة والأربعين[٢] .

والنشيد السادس « الى ديمتر »[٣] يدور حول المهرجان الذي كان يقام لهذه الإلهة في مدن اغريقية كثيرة على غرار المهرجان الذي كان الأثينيون يقيمونه لها ، فقد كانت هذه الإلهة من أعظم معبودات الاغريق وتعتبر راعية الزراعة وكل ثمار الأرض . ووفقاً لأساطير الاغريق كانت ديمتر

---

١ انظر Mair ص ٣٠ .

٢ Mair, pp. 156-7, 160-1 168-9.

٣ Mair, pp. 31-2, 124-135.

أخت زيوس ومع ذلك فإنها أنجبت منه ابنتها برسفوني (Persephone). ودون علم دمتر وعد زيوس اعطاء يد الفتاة الى ايدونيوس (هادس) إله العالم الآخر . وبينا كانت برسفوني تقطف الأزهار ذات يوم في أحد وديان آسيا ، انشقت الأرض وخطفها ايدونيوس . واذ أخذت دمتر تجوب أنحاء الدنيا باحثة عن ابنتها ، علمت بما حدث لها ، فاستشاطت غضباً وهجرت جبل اوليمب لتعيش بين الناس متنقلة من مكان الى آخر حتى وصلت الى اليوسيس في اتيكا على مقربة يسيرة من اثينا . ولما كانت دمتر قد ظلت غاضبة ومنعت الأرض من أن تؤتي ثمارها ، فانه لم يسع زيوس الا ان يبعث هرمس لاعادة برسفوني الى أمها ، ولكن ايدونيوس لم يسمح بذلك قبل اغرائها بأكل جزء من رمانة ليرغمها على أن تقضي الثلث من كل عام معه وباقي العام مع أمها.ومعنى الأسطورة هو ان اختفاء برسفوني في باطن الأرض يمثل بذرة القمح وهي التي تبقى مختفية في باطن الأرض جزءاً من العام ، وان عودة برسفوني الى أمها تمثل نمو القمح وخروجه من باطن الأرض ليكون غذاء للانسان والحيوان . وسر احتفاء الاغريق بوجه عام ، والأثينيين بوجه خاص ، بعيد دمتر هو انهم كانوا يعتبرونه تخليداً لذكرى قيام الحياة المتمدنة، وهي التي يعزى الفضل في قيامها الى دمتر على أساس ان الزراعة هي قوام الحياة المدنية . وكان الأثينيون يذهبون الى حد اعتبار اتيكا مهد الزراعة !

ويدور الحديث في هذا النشيد أيضاً على لسان كاهنة دمتر ، فهي تنبه الفتيات الى كيفية تحية الإلهة (أي تمثالها) عند ظهورها (ll. 1-10) ، ولا تتحدث الا حديثاً مقسطاً عن طوافها بحثاً عن برسفوني (ll. 11-17) مفضلة الافاضة عن نعماء الإلهة على البشر (ll. 18-30) وبخاصة عن العقاب الذي أنزلته باروسيختون (Erysichthon) جزاء اجترائه هو وعصابة مسلحة من أتباعه على قطع أشجار غيضتها المقدسة وسخريته منها عندما ظهرت مستخفية في شكل كاهنة ناصحة بالكف عن ذلك الاثم خشية

اغضاب ديمتر (ll. 31-133) . ويختم النشيد بتحية الإلهة وبالالتماس منها ان تفيء على الناس بالوفاق والرفاهية والرخاء (ll. 134-138). .

ولما كان البطالمة قد عنوا باظهار اجلالهم واحترامهم للديانة الاغريقية كسباً لود الاغريق وولائهم ، فإنه قد كان من بين الوسائل التي توسلوا بها لتحقيق هذا الهدف اقامة حفلات دينية على نمط الحفلات الأوليمبية ومختلف الحفلات الأثينية. ويقول الشارح القديم في تعليقه على البيت الأول من هذا النشيد ان حفل ديمتر قد كان من بين ما أنشأه بطلميوس الثاني محاكاة للعادات الأثينية . ويتبين من البرديات ان هذا الحفل كان يقام في الاسكندرية[1] وفي الفيوم[2] في خلال عهد هذا الملك . لكنه يجب ان يؤخذ في الاعتبار أيضاً : **اولاً** ، ان سويداس يحدثنا بأن عبادة ديمتر أنشئت في قوريني منذ تأسيسها[3] . **وثانياً** ، ان بطلميوس الثانــي أنشأ حفلات دينية أخرى مثل حفل ادونيس[4] وحفل ارسينوي[5] ، بيد ان كاليماخوس لم ينظم أي نشيد عن مهرجانات هذه الأعياد الدينيـــة ، ولم يكن قطعاً سبب ذلك افتقار هذه المهرجانات الى الروعة والرواء وحسبنا دليلاً على ذلك ما قاله ثيوقريتوس في وصف مهرجان ادونيس . **وثالثاً** ، ان نشيد ديمتر شأنه شأن النشيد الخامس منظوم باللهجة الدورية ولكنها ليست اللهجة الخاصة بأية مدينة دورية بعينها . ولا يفوتنا الاشارة هنــا الى انه كانت توجد عناصر دورية كثيرة بين سكان قوريني ، وانــه كشف في هذه المدينة عن نقوش كثيرة باللهجة الدورية .

أيكون من الاسراف في الرأي اذن القول بأن وقوع اختيار كاليماخوس

---

١ P. Cairo-Zen., 50928 (B. C. 258).

٢ P. Cairo-Zen., 59027 (B. C. 258 ?).

٣ Suidas, S.V. Telesphores.

٤ Theocr., Idyll, XV.

٥ P. Cairo-Zem., 59096 (B. C. 259); 59185 (B. C. 255); 59217 (B. C. 254).

على مهرجان دمتر دون غيره من المهرجانات الدينية التي كانت تقام في الاسكندرية يرجع الى سبب مزدوج هو الاشادة بعمل من أعمال عاهل وطنه الثاني وفي الوقت نفسه اشباع حنينه الى وطنه الأول ؟ ولما كان كاليماخوس قد نظم هذا النشيد باللهجة الدورية وهي التي كان يألفها في وطنه الأول ، وكان عند أول مجيئه الى الاسكندريــة يعيش في ضاحية اليوسيس حيث كان يقوم بالتدريس وحيث كان يوجد معبد دمتر ، فإنه لا يبعد ان تاريخ هذا النشيد يرجع الى تلك الفترة الباكرة من حياته في الاسكندرية [١]،وهي التي رجحنا انه يعود اليها أيضاً نشيده الخامس المنظوم كذلك باللهجة الدورية .

اليامبيات :

وهي مجموعة من القصائد أحيت طريقة الشعراء اليامبيين القدامى في نظم الشعر مع ادخال الكثير من التعديل القائم على الأصالة في معالجة الموضوعات . وهذه القصائد ، وعددها ثلاث عشرة ، تتناول موضوعات مختلفة ويتعذر تحديد تواريخ بعضها على الأقل؛ مما أفضى الى جدل عنيف بين الباحثين حول ذلك[٢] . ولما كانت اليامبيات الأولى والرابعة والثالثة عشرة تتصل بموضوع النزاع الأدبي المشهور ، فإننا سنتناول الكلام عنها في معرض الكلام عن هذا الموضوع فيما بعد . واليامبيات الثانية والثالثة والخامسة [٣] تنقد في سخرية لاذعة سلوك المجتمع المعاصر ، ذلك ان اليامبية الثانية تندد بميل الناس الى اللغو،واليامبية الثالثة تأخذ عليهم شدة احتفالهم

---

١ Cahen, p. 91.

٢ Dawson, Yale Class. Studies, XI, 1950, pp. 143 ff.; Pfeiffer, II, p. XXXVII; Webster, pp. 98 ff.

٣ Trypanis, pp. 112-5; 114-7; 146-151.

بالماديات دون المعنويات الى حد انهم يدعون الشعراء يتضورون جوعاً ، ويعتبر الشاعر زمنه أسوأ من الأزمنة الغابرة ويتمنى لو انه عاش في عصر سابق . واليامبية الخامسة تهاجم مدرساً يعبث بتلاميذه وينصحه بتجنب ذلك لئلا يضبط متلبساً بجرمه . واذا كانت اليامبية السادسة[١] تصف التمثال العظيم الذي صنعه المثال المشهور فيدياس للإله زيوس في اوليمبيا ، فإن اليامبيات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة[٢] من نمط ديوان «الأسباب» ، أي أنها تفسر أسباب او أصول مسائل مختلفة تأتي على ذكرها لأنها محدودة العدد وتعطينا فكرة عما اتبعه كاليماخوس في الجانب الأكبر من ذلك الديوان. فاليامبية السابعة تفسر سبب عبادة هرمس برفرايوس (Perphraios) في مدينة اينوس (Aenus) الثراقية وتشرح منشأ اللقب برفوايرس . واليامبية الثامنة تشرح منشأ سباق يسمى سباق الأواني الممتلئة ماء (Hydrophoria) وهو الذي كان يقام في ايجينة (Aegina) . واليامبية التاسعة تتناول منشأ نوع بعينه من تماثيل هرمس (Ithyphallic) . واليامبية العاشرة تفسر منشأ تقديم خنزير بري قرباناً لافروديتي كاستنيا (Castnia) في اسبندوس من أعمال بامفيليا . واليامبية الحادية عشرة اذ تصحح القول المأثور عند الاغريق وهو « املاك كوناروس (Connarus) نهب للجميع » باستبدال اسم كونيداس (Connidas) باسم كوناروس تشرح منشأ هذا القول . أما اليامبية الثانية عشرة[٣] فانها كانت هدية الشاعر الى صديقه ليون بمناسبة الحفل الذي أقامه هذا الصديق في اليوم السابع لمولد طفلة رزق بها . وفي هذه اليامبية يقول كاليماخوس ان الانشودة التي تغنى بها ابولو فاقت كل الهدايا التي قدمها الآلهة الآخرون الى هيبي (Hebe) عندما وضعت. ويعتقد

---

١ Trypanis, pp. 130-3.

٢ Trypanis, pp. 132-141.

٣ Trypanis, pp. 140-7.

الباحثون ان يامبيات كالماخوس كان لها أثر كبير في الشعر الروماني الساخر[1] .

الأبيجرامات :

وهي مجموعة قصائد قصيرة يبلغ عدد ما وصل الينا منها أربعاً وستين. وكانت الابيجرامات تنظم أصلاً لتنقش على نصب جنازي أو على اهداء مقدم الى أحد الآلهة . وقد بلغ كالماخوس بالابيجرامات مستوى لم تبلغه من قبل وأصبحت طرازاً جديداً من الأدب الرفيع . ولا جدال في ان الابيجرامات الأدبية – وهي التي لم يكن الغرض من نظمها النقش على نصب او اهداء – قد كانت معروفة من قبل كالماخوس ، إلا أنه احتل بين مؤلفي هذا اللون من الابيجرامات مكان الصدارة دون منازع وهو الذي كان يحتله سيمونيدس من كيوس (Ceos) بين ناظمي الابيجرامات من الطراز القديم الأصلي[2].وليس معنى ذلك ان كالماخوس لم ينظم ابيجرامات لتنقشها على الأنصبة والاهداءات ، فقد وصلت الينا ابيجرامات من نظمه لا يمكن تفسير بعضها إلا على انها كانت للنقش على نصب تذكاري والبعض الآخر للنقش على اهداء . ومن أمثلة النوع الأول الابيجراما الحادية عشرة[3] ونصها : « هنا يغفو ساون الاكنثي ابن ديكون في نومه القدسي . لا تقل ان الأفاضل لا يموتون » . وكذلك الابيجراما الحادية والعشرون[4] ونصها: « هنا أودع الأب صبيه ابن الاثني عشر ربيعاً . هنا أودع فيليب أمله الكبير : نيكوتلس » . ونذكر من النوع الثاني على سبيل المثال الابيجراما

---

١ Barber, E. A., in Oxf. Class. Dict., s.v. Callimachus.
٢ Rose, p. 322.
٣ Mair, pp. 144-5.
٤ Mair, pp. 150-1.

الخامسة والثلاثين[1] وهذا هو نصها : « من أجلك ، يا أرتميس ، اقامت فيلراتيس هذا التمثال . ارجو ان تتقبليه يا ربتي،وان تكلأيها برعايتك».

بيد انه اذا كان فحوى الكثير من ابيجرامات كالياخوس يوحي بأنها اشعار جنازية ، فان مضمونها الساخر يدل دلالة قاطعة على انها لم تنظم على الاطلاق لنقشها على نصب جنازي . ومثـل ذلك الابيجراما الثالثة[2] ونصها : « كل ما حول قبري أشواك ومخازق وسوف تدمى قدميك اذا اقتربت منه . انا تيمون مبغض البشر ، اسكن هنا . اذهب الى حـال سبيلك ، والعني كما تشاء ، ولكن هيا اذهب » . ومثل الابيجرامـا الخامسة[3] ونصها : « تيمون ، انك وقد قضيت نحبك ، خـبرني أيهما أبغض اليك : الظلام أم النور ؟ الظلام ، فما أكثر من أمثالك في العالم السفلي » . ومثل الابيجراما الخامسة عشرة[4] ، وهي تبدو كأنها حديث بين الشاعر والنصب الجنازي والمتوفي ، وهذا هو نصها : « ايرقـد خاريداس تحتك ؟» «نعم ، اذا كنت تقصد اريماس القوريني » «وماذا يا خاريداس عن العالم السفلي ؟» « ظلام حالك » . « وهذه الدنيا ؟» « اكذوبة » « وبلوتو ؟ » « اسطورة » « ياللنكبة ! » « هـذه هي الحقيقة المرة ، أما إذا أردت كلاماً معسولاً ، فالثور الضخم لا يزيـد ثمنه على قطعة من العملة البرونزية » .

ومن الواضح ان تيمون ، موضوع الابيجرامتين الثالثة والخامسة ليس الا تيمون الأثيني وهو الذي كان يعيش في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد ، وازاء ما لقيه من جحود اصدقائه ونكرانهم خدماته اعتزل الناس وأوصد بابه دونهم باستثناء الكيبادس . وعندما سئل عن سبب هذا

---

١ Mair, pp. 160-1.
٢ Mair, pp. 140-1.
٣ Mair, pp. 140-1.
٤ Mair, pp. 146-9.

الاستثناء ، أجاب بأنه يحب هذا الشاب لأنه يتوسم فيه القدرة على إلحاق ضرر بليغ بأثينا[1] . ومن الواضح كذلك انـــه كما سخر كالياخوس في يامبياته من أحوال مجتمعه قد سخر في الابيجراما الخامسة عشرة من معتقداتهم ولا سيما اعتقادهم بأن الاسعار زهيدة في العالم الآخر الى حد انها كانت مضرباً للأمثال ، وهو ما يشير اليه كالياخوس في مطلع يامبيته الأولى[2] .

وهكذا يبـــدو ان كالياخوس اتخذ من الابيجرامات وسيلة للاعراب عما كان يدور في رأسه من خواطر أو يجيش في صدره مـن خلجات . ويتأيد ذلك بأمثلة أخرى كثيرة ، ففي ابيجرامته الثانية[3] ينعي صديقه الشاعر هراكليتوس الهليكرناسي والليالي السعيدة التي قضياها معـــاً وهما يتسامران حتى طلوع الشمس . وفي ابيجرامته التاسعة[4] يشيد بناظم ابيجرامات معروف يدعى ثيايتيتوس[5] (Theatetus) لعله كان قوريني الأصل[6] . وفي ابيجرامته السابعة[7] يتندر في رفق على القصيدة المطولة « الاستيلاء عــلى أوخاليا » للشاعر كريوفيلوس[8] . وفي ابيجرامتـــه التاسعة والعشرين[9] يشيد بالشاعر القديم هسيودس ويتهم الشاعر المعاصر اراتوس بمحاكاة الشاعر القـــديم . وفي ابيجرامته الثلاثين[10] يفصح عن اتجاهاته الأدبية . وفي البيت الوحيـد المتبقي من احدى ابيجراماته الأدبية[11] هجوم على ملحمة لودي (Lyde)

---

١ Plutar., Anton., 70; Cf. Aristoph., Birds, 1549, Lysistrata, 805 ff.; Lucian., Timon., Diog., Laert., IX, 112.

٢ Trypanis, pp. 106-7, 1. 2.

٣ Mair, pp. 138-9.

٤ Mair pp. 144-5.

٥ Diog. Laert., IV, 25, VIII, 48; A.P. VII, 444, 497, 727.

٦ Cf. A.P. VII, 49.

٧ Mair, pp. 142-3.

٨ Cf. Strabo, XIV, 638.

٩ Mair, pp. 156-7.

١٠ Mair, pp. 156-7

١١ Tryphanis, p. 246, fr. 396.

من نظم الشاعر انتياخوس . ولنا عودة الى الابيجرامات الثلاث الأخيرة في معرض الكلام عن اتجاهات كاليماخوس الأدبية والنزاع الأدبي المشهور. وفي الابيجراما العاشرة[1] ينعي كاليماخوس عدم توفيقه في تأليف المسرحيات.

ولا تترك عدة من ابيجرامات كاليماخوس مجالاً للشك في غرامه بالغلمان، فهو يتغنى تارة بغلام يدعى ديوكلس[2] ، وتارة بغلام يدعى ارخينوس[3] وتارة بغلام يدعى منكسيوس[4]، وتارة يصف وجنات ثيوقريتوس ويتساءل أهو يحبه أم يكرهه[5] . ويرى بعض الباحثين ان ان هذا ليس الا اطراء للشاعر المعاصر المعروف بهذا الاسم . ولكنه لا جدال في ان الابيجراما تخلو من أي اشارة الى جمال الشعر أو طلاوته ، اللهم الا اذا كان غزل كاليماخوس في وجنات ثيوقريتوس يمكن أن ينم عن اعجاب شاعرنا بقريض ثيوقريتوس . ونجد كاليماخوس مرة يبكي غلاماً مات ويتمنى لو انـه لم يعرفه[6] ، ومرة أخـرى يبكي حبـه الضائع للغلمان الذين فقدهم امـا بسبب الموت أو بسبب الهجر ، ومرة ثالثة يصف أسلوبه في الحب فهو لا ينشد المستسلم وانما الشارد الجامح[7] ، ومرة رابعة يعزي نفسه بأن الشعر يخفف من وطأة الجوى ، والفقر يشفي لواعج الهوى[9] .

ومن المعروف ان الغرام بالغلمان كان أمراً شائعاً بين الاغريق والرومان، وحسبنا ان نذكر ان ابولونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني وأوسع رجال

---

١ Mair, pp. 144-5.

٢ Mair, Ep. 31, pp. 158-9.

٣ Mair, Ep. 43, pp. 164-7

٤ Mair, Ep. 45, pp. 166-7.

٥ Mair, Ep. 53, pp. 174-5.

٦ Mair, Ep. 32, pp. 158-9.

٧ Mair, Ep. 42, pp. 164-5.

٨ Mair, Ep. 33, pp. 158-9.

٩ Mair, Ep. 47, pp. 168-9.

الدولة نفوذاً في عصر هذا الملك أنشأ بجوار قصره في الاسكندرية مدرسة (بالايسترا) تتصل بالقصر . وكان لا يلتحق بهذه المدرسة الا فتيان يختارون بعناية فائقة ، ولاكت الألسن علاقات ابولونيوس بهؤلاء الفتيان، ولكنه قيل انه كان يختارهم لما يتوسمه فيهم من النبوغ لتعليمهم الألعاب الرياضية والآداب والموسيقى من أجل الفوز في المباريات العامة[١] .

ولا جدال في ان شاعراً من طراز كالياخوس استطاع الاعراب عن كل هذه العواطف الجياشة بصورة ناطقة رائعة داخل اطار ضيق الأبعاد كاطار الابيجرامات ، كان في وسعه نظم قصائد عاطفية مطولة على النحو الذي قدر فيما بعد لشاعر مثل بروبرتيوس أن يفعله[٢] .

الأشعار الغنائية :

ونعرف لكالياخوس أربع قصائد من النوع المسمى الأشعار الغنائية . ولا نعرف عنوان تلك القصيدة التي لم يصل الينا منها الا بيت واحد ، بيد ان أحد الباحثين المحدثين اقترح تسميتها « الى الغلمان الملاح » ، وذلك استناداً الى ما يحدثنا به الموجز القديم من ان الشاعر يخاطب الغلمان الجمال محذراً اياهم من المستقبل ، فقد كانت لمنوس في الزمن الغابر جزيرة سعيدة ثم عمها الشقاء عندما انقضت النساء على الرجال وقتلتهم . ويبدو من الموجز ان الشاعر يشير هنا الى أسطورة مشهورة فحواها ان نساء لمنوس قتلن كل رجال الجزيرة لأنهم اتخذوا لأنفسهم حظيات من تراقيا (لكن لعل الشاعر أن يكون قد استبدل في قصيدته الغلمان بالنساء) بعد أن صبت افروديتي جام غضبها على نساء الجزيرة فجعلتهن كريهات

---

١ Edgar, Zen. Pap. in Michigan, pp. 49-50.

٢ Rose, p. 323.

الرائحة لأنهن أهملن أقامة شعائر طقوسها ، غير أنه عندما وفد بحـارة السفينة « ارجو » الى الجزيرة خالطوا نساءها وبذلك أمكن اعادة تعمير الجزيرة . ولا يعرف اذا كان قصد الشاعر هنـا هو حث الغلمان على الاستمتاع بحاضرهم أقصى الاستمتاع لأن الدنيا قلب لا تدوم على حال واحدة ، أم هو تحذيرهم مما قد يصيبهم من النساء اللائي يهملن بعولتهن من أجلهم [1] .

وعنوان القصيدة الثانية « بانوخيس » (Pannychis) ومعناه حفل الليل أو سهر الليالي ، ولم يصل الينا منها الا بعض ابيات قليلة ، ولكن الموجز القديم يقول إنها اغنية شراب على شرف الالهين التوأمين ديوسكوروي (Dioscouroi) ، يستحث فيها الشاعر رفاقه في الشراب أن يظلوا سهارى [2] .

والقصيدة الثالثة بعنوان « تأليه ارسينوى » (Ektheosis Arsinoes) . وارسينوي المقصودة هنا هي ارسينوي الثانية أخت وزوجة بطلميوس الثاني ، وهي التي توفيت في التـاسع من شهر يوليه عام ٢٧٠ ق. م. وتقديراً لمكانتها والدور الكبير الذي قامت به في سياسة مصر الخارجية ، اغدقت عليها مظاهر تشريف مختلفة ، فقد أنشئت لها عبادة اغريقية رسمية باسم الالهة فيلادلفوس . وعندما لاحظ الناس قديماً أن بطلميوس الثاني كان الملك الوحيد من ملوك البطالمة الذي لم يكن له لقب الهي يميزه عن غيره ، خلعوا عليه منذ القرن الثاني قبل الميلاد لقب اخته الالهي « فيلادلفوس » [3] ، مما كان سبب ما يعتقده بعض المحدثين ان بطلميوس الثاني لم يعبد الا مقروناً مع اخته عقب وفاتها ، بيد اننا رأينا من القرائن ما يثبت انهما عبدا معاً قبل وفاة ارسينوي باسم « الالهين الأخوين » .

ومما يجدر بالملاحظة ان اسم كاهنة ارسينوي ظهر في تأريخ الوثائق

---

١ Trypanis, pp. 159-160.

٢ Trypanis, pp. 160-163.

٣ ابراهيم نصحي ، الجزء الثاني ، ص ٨٢ .

مع اسم كاهن الاسكندر والالهين الاخوين منذ يناير عام ٢٦٦ ق. م.[١] وقد اقيم لأرسينوي فيلادلفوس معبد خاص في الاسكندرية شبهت فيه بالالهة الاغريقية افروديتي ، فعرفت ايضاً باسم ارسينوي افروديتي[٢]. ويحتمل انه كان يوجد لأرسينوي عدد من الهياكل في الاسكندرية ، ويذكر استرابون[٣] وكاليماخوس[٤] معبداً لأرسينوي افروديتي على رأس زفوريون بالقرب من ابي قير . وقد وجد على لوحة كانت جزءاً من معبد في منطقة طيبة نقش[٥] نصه « من ساتوروس الى ارسينوي فيلادلفوس » . ولا بد من ان عبادة ارسينوس كانت شائعة بين الاغريق في محافظة الفيوم بوجه خاص ، اذ ان هذه المحافظة سميت في اواخر عهد بطلميوس الثاني باسم محافظة ارسينوي[٦] .

والى جانب هذه العبادة الاغريقية التي وجهت الى ارسينوي ، كانت هذه الملكة تعبد ايضاً عبادة مصرية بوصفها شريكة للآلهة الاخرى في المعابد المصرية[٧] وخصص لاقامة شعائر هذه العبادة دخل ضريبة كبيرة هي ضريبة الابومويرا[٨] . ومن المرجح ان يكون قد خصص لسد نفقات عبادة ارسينوى عبادة اغريقية في خارج مصر دخل ضياع واسعة حيثما كانت تقام هذه العبادة[٩] .

ونقرأ في الموجز القديم ان كاليماخوس يقول في هذه القصيدة انه عندما

١ P. Hibeh, I, p. 369; Dem. P. Louvre, 2424.

٢ Schol. ad Theocr., Idyll, XVII, 121.

٣ Strab., XVII, 16.

٤ Aetia, fr. 110.

٥ Strack, Dynastie d. Ptol., No. 25.

٦ P. Cairo-Zen., 59041.

٧ Otto, Priester U. Tempel, I, p. 349; II, 334.

٨ ابراهيم نصحي ، الجزء الثاني ص ٥٣ ـ ٥٩ .

٩ Perdrizet, Rev. études anc., VI, 1904, p. 156.

اختطف الآلهان التوأمان ارسينوى أقيم لها مذبح وسياج مقدس بالقرب من أرصفة الميناء الكبير ، وان الشاعر يستلهم ابولو الوحي لأنه بدون ذلك يعجز عن نظم قصيدته . ولما كانت البردية مهلهلة ، فانه يصعب الجزم بالكيفية التي مضت عليها بقية القصيدة ؛ لكنه يفهم من الأبيات الباقية منها ابتداء من البيت الأربعين ان فيلوتيرا – وكانت الاخت الصغرى لارسينوي وتوفيت قبلها ورفعت الى مصاف الآلهة – ترجو خاريس – زوجة الاله هفايستوس – ان تهرع الى قمة آثوس لتعرف مصدر ذلك الدخان الكثيف الذي ملأ جو البحر الايجي . واذ تستجيب خاريس الى الرجاء ، تعود لتبلغ فيلوتيرا ان الدخان آت من مكان حرق جثة اختها ارسينوي عقب وفاتها منذ قليل وان مدن مصر جميعاً تبكيها . ولا نعرف اذا كانت القصيدة تمضي فتصف مراسم تأليه ارسينوي أم انها تنتهي عند الكلام عن اقامة المذبح والسياج المقدس [1] .

والقصيدة الرابعة بعنوان برانخوس (Branchus) ، وهي تتغنى بأبولو وأصل برانخوس العريق وهو الذي تتصل ارومته بأبولو ، وتصف كيف ان ابولو احب قريبه ومنحه القدرة على التنبؤ ، فأقام في ديدوما (Didyma) بالقرب من ميليتوس (ملطية) معبداً لأبولو بطقوس مماثلة لطقوس معبد وحي ابولو في دلفي . والاشارة هنا الى معبد وحي ديدوما وهو الذي اكتسب شهرة كبيرة جعلته من أهم معابد الوحي في العالم القديم ؛ فكان الناس يتهافتون على استشارته وكان من بينهم كرويسوس وبعض ملوك مصر [2] .

الملاحم القصيرة :

وملاحم كالليامخوس القصيرة وفيرة العدد بحيث لا يتسع المجال لتناولها

---

١ Trypanis, pp. 162-9.

٢ Trypanis, pp. 168-173.

جميعاً ، ولذلك نقصر الكلام عن اربع منها لما تتضمنه من اشارات الى بعض احداث وشخصيات تاريخية معروفة ثم نعرض لأشهرها جميعاً وهي ملحمة هكلي (Hecale).

ولم يصل الينا الموجز القديم للملاحم الأربع ذات الأهمية التاريخية ، بل انه لم يصل الينا من احدى هذه الملاحم الا بيت واحد هـذه هي ترجمته : « ابداً ، ايها الغريب ، بالتغني بزواج ارسينوي » . والباحثون المحدثون يدعون هذه الملحمة ملحمة « زواج ارسينوي »[1] . ولا جدال في ان ارسينوي هذه ليست الا ارسينوي الثانية المشهورة اخت بطلميوس الثاني ، ولا في ان الزواج الذي يتغنى به الشاعر ليس بطبيعة الحال زواجها الأول من ليسياخوس العجوز حوالى عام ٣٠٠ ق. م. ولا زواجها الثاني من اخيها غير الشقيق بطلميوس كراونوس في عام ٢٨٠ ، وانما زواجها الثالث من شقيقها بطلميوس الثاني حوالى عام ٢٧٦ ، لتحقق لنفسها آمالها في الحكم والسيطرة بعد ضياع آمالها في حكم تراقيا ومقدونيا وعودتها الى الاسكندرية حيث دبرت اقصاء زوجة اخيها الاولى بتهمة التآمر ضد الملك . ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي انزلقت فيها ارسينوي الثانية الى الشر في سبيل الفوز بالسلطان ، ذلك انها عندما كانت متزوجة من ليسياخوس وادركت أن الابن الشاب لهذا الملك من زواج سابق كان الوريث الطبعي لأبيه ، نجحت في ايغار صدر الاب ضد ابنه الى حد أنه أعدمه ، وذلك لتضمن ولاية العرش لابنها والسلطة لنفسها . وقد كان زواج الأخ من اخته الشقيقة يعتبر فسقاً في نظر الاغريق ، وان كان الاله زيوس والإلهة هيرا لم يتقيدا بهذا العرف البشري . ولما كان لم يفت ثيوقريتوس ان يمجد هذا « الزواج المقدس » الجديد ، فان ذلك لم يفت كاليماخوس ايضاً ، ولا سيا انه كان قد حظي برعاية البلاط البطلمي منذ عهد قريب . ولا

---

[1] Trypanis, pp. 242-3.

يبعد ان يكون كاليماخوس قد نظم ملحمته رداً على الشاعر الهجاء سوتادس الذي اجترأ على التنديد بهذا الزواج ولقي حتفه وفقاً لرواية اثينايوس [1] أو اودع غياهب السجن لبضع سنين وفقاً لرواية بلوتارخ [2] .

ويبدو من السطور القليلة التي وصلت الينا من ملحمة بعنوان « غالتيا » (Galatea) . [3] وورد فيها ذكر حورية البحر غالتيا وبرنوس (Brennus) زعيم جحافل الغال التي زحفت على مقدونيا وبلاد الاغريق الوسطى في عام ٢٧٨/٢٧٩ ق. م. أن كاليماخوس عالج في هذه الملحمة اسطورة حورية البحر التي هام بحبها كوكلوبس وانجب منها الغال الذين غزا سلالتهم مقدونيا ولقي بطلميوس كراونوس مصرعه في اثناء قتالهم ، ثم زحفوا على بلاد الأغريق واوسعوها نهباً وتدميراً الى أن هزمهم الايتوليون في العام نفسه وردوهم على اعقابهم ، وهي الأحداث التي يشير اليها كاليماخوس في نشيده الرابع (ll. 171 ff.) . ويميل الباحثون المحدثون الى اعطاء هذه الملحمة تاريخاً قريباً من هذه الاحداث اي حوالى عام ٢٧٨/٢٧٩ ق. م. ولكن لما كان كاليماخوس لم يكتف في نشيده الرابع بالاشارة الى زحف الغال على بلاد الأغريق بل اشار كذلك الى ثورة مرتزقة الغـــال على بطلميوس الثاني وما لاقوه من عقاب صارم جزاء ذلك على نحو ما مر بنا ، فاننا لا نستبعد ان يكون شاعرنا قد فعل الشيء نفسه مع قدر اكبر من التفصيل في هذه الملحمة وهي التي يتضح بجلاء انها تتناول قصة الغال منذ نشأتهم الاسطورية . وازاء ذلك نرجح ان يكون تاريخ نظم هذه الملحمة اقرب الى عام ٢٧١/٢٧٢ منه الى عام ٢٧٨/٢٧٩ .

والملحمة التي نظمها كاليماخـــوس بعنوان « نصر سوسيبيوس » [4]

---

١ Ath., XIV, 621 a.

٢ Plut., De Liber. educ., 14; Quaest. Symp., IX, 1.

٣ Trypanis, pp. 228-9.

٤ Trypanis, pp. 232-41.

(Sosibiou Nike) يتبين من الأبيات الباقية منها انها تشيد بأربعة انتصارات احرزها شخص يدعى سوسيبيوس في مباريات عامة. وكان الانتصار الاول فوزه بسباق الاولاد المزدوج (Diaulos paidon) في حفل عام لعله كان حفل البطلمايا (Ptolemaea) على نحو ما يبدو من البيت الأول. ومما يجدر بالذكر هنا ان هذا الحفل أنشأه بطلميوس الثاني اجلالاً لوالده بعد وفاته وتأليهه ويرجح انه اقيم لأول مرة في عام ٢٧٩ بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطلميوس الأول. وكان هذا الحفل يقام كل اربع سنوات على غرار حفلات الالعاب الاوليمبية ويشارك فيه المتبارون من كل انحـاء العالم الاغريقي [١]. وكان الانتصار الثاني فوز سوسيبيوس في الحفلات الأثينية العامة بقصب السبق في مباريات المصارعة للرجال ولما يبلغ بعد العشرين من عمره (ll. 37 ff.). وحين كان سوسيبيوس رجلاً واسع الثراء يحب الناس ولا ينسى الفقير (ll. 54 ff.) احرز انتصاريه الثالث والرابع بفوزه في سباق العربات في حفلين من أشهر الحفلات الاغريقية وهما حفل مباريات برزخ كورنثة (Isthmia) وحفل المباريات النيمية (Nemea). ويقول كاليماخوس في ملحمته إنه لمن حق الاسكندريين وسكان ضفاف الكينوبس (Cinyps = وادي كعام بطرابلس) ان يحيطوا علماً باحراز سوسيبيوس هذا النصر المزدوج في سباق العربات، وانه لما كان سوسيبيوس اول اغريقي من مصر احرز هذا الفوز المزدوج فان النيل ليزهى فخراً واعجـاباً (ll. 24 ff.). ويختتم النشيد بذكر القرابين التي قدمها سوسيبيوس للآلهة في معابد مصر وبلاد الأغريق (ll. 44 ff.).

ومن المرجح ان سوسيبيوس الذي احرز هذه الانتصارات لم يكن سوى ذلك الرجل الذي كان وزير مالية بطلميوس الثالث منذ عام ٢٤١ وشغل

---

١ انظر ابراهيم نصحي، الجزء الثاني، ص ١٣١ ــ ١٣٣.

في عام ٢٣٤/٢٣٥ [١] منصباً رفيعاً جداً [٢] هو منصب كاهن عبادة الاسكندر والبطالمة ، ثم أصبح حاكم الدولة الحقيقي في عهد بطلميوس الرابع [٣] (٢٢١ – ٢٠٣ ق. م.) وبعد ذلك وصياً على بطلميوس الخامس لفترة قصيرة لأنه توفي حوالي عام ٢٠٢ [٤] . ويصف بوليبيوس هذا الرجل بأنه كان شيطاناً رجيماً باشر السلطة امداً طويلاً وعاث في الدولة فساداً كثيراً [٥] . واذا صح أن سوسيبيوس موضوع الملحمة هو نفسه ذلك الرجل المشهور الذي توفي حوالى عام ٢٠٢ ، فلا يبعد أن يكون قد فاز بسباق للأولاد في عام ٢٧٩ وأصبح ذا ثروة عريضة ومكانة مرموقة في اربعينات القرن الثالث عندما احرز فوزه المزدوج . وازاء عدم الاشارة في الملحمة الى اي منصب عام كان يشغله ، فلا بد من ان تاريخ نظمها سابق لعام ٢٤١ عندما اصبح وزيراً للمالية . ولا جدال في ان برقة ادمجت في دولة البطالمة منذ زواج اميرتها برينيقي من بطلميوس الثالث وأصبحت تحت حكم العاهل البطلمي مباشرة ، لكننا لا نستطيع الذهاب الى ما يذهب اليه بعض الباحثين ونعتبر وادي كعام الحد الغربي لدولة البطالمة [٦] ؛ ذلك أنه لا يوجد أي دليل على أن سلطان البطالمة امتد غرباً الى ما وراء الحدود التي سبق وضعها بين منطقة نفوذ كل من قوريني وقرطنجة عند قوس الأخوين .

ولم يصل الينا أي بيت من ابيات ملحمة كاليماخوس بعنوان ايبيس (Ibis) وهي التي يقول سويداس [٧] بأن الشاعر الروماني اوفيديوس اتخذ منها نموذجاً

---

١ Rev. Eg. I, p. 134.

٢ انظر ابراهيم نصحي ، الجزء الثاني ، ص ٧٥ – ٧٦ .

٣ ابراهيم نصحي ، الجزء الاول ، ص ١٣٧ .

٤ المرجع السابق ص ١٥٣ .

٥ Polyb., XV, 25.

٦ Trypanis, p. 233.

٧ Suidas, s.v., Kallimachos.

لقصيدته بالعنوان ذاته [1] ، وبأن كاليماخوس اغرق فيها في الغموض وفي هجاء خصم من خصومه دعاه ايبيس ، وهو اسم طائر مصري مدمر ذي عادات قذرة . ولما كان القدامى والمحدثون يتفقون على ان هذه القصيدة نظمت في اثناء احتدام النزاع الأدبي المشهور [2] — ومن ثم كانت أهميتها — فاننا سنعود اليها فيما بعد .

وملحمة هكلي هي أشهر ملاحم كاليماخوس على الاطلاق . وتصف هذه الملحمة انتصار البطل الاسطوري ثسيوس (Theseus) على ثور مارثون ، بيد انه تبرز في خلفية القصة شخصية سيدة عجوز عريقة الأصل لكن الزمن انحدر بها . وهذه السيدة ، هكلي (Hecale) ، استضافت ثسيوس في كوخها حين كان في طريقه الى منازلة الثور . ولعل المصدر الرئيسي الذي استمد منه كاليماخوس قصته كان سجلاً لأحداث اتيكا ، ربما كان ذلك السجل الذي كتبه فيلوخوروس الأثيني حوالى اوائل القرن الثالث قبل الميلاد واعتمد عليه بلوتارخ ايضاً في رواية القصة نفسها [3] ، حيث نحدثنا بأنه عندما اراد ثسيوس ان يشغل نفسه بعمل جاد وفي الوقت نفسه يكسب رضاء الناس صمم على منازلة ثور مارثون ، وكان يعيث فساداً في اتيكا وينشر الفزع بين اهالي مدنها الأربع . وعندما تغلب ثسيوس على الثور احضره الى اثينا وطاف به في شوارعها ثم قدمه قرباناً للاله ابولو . ويمضي بلوتارخ فيقول ان الاسطورة التي تتحدث عن استضافة هكلي لثسيوس وعن تكريمها لقاء ذلك لا تفتقر فيما يبدو الى اساس من الواقع ، ذلك ان الأحياء المحيطة بأثينا اعتادت ان تقيم حفلاً يسمى حفل

---

١ Ovid., Ibis.; Wilamowitz, I, p. 207; Cahen, pp. 68 ff.

٢ Suidas, loc. cit.; Wilamowitz, loc. cit., Cahen, loc. cit.; Mair, p. 5, Pfeiffer, I p. 207; Trypanis p. IX; Rose, p. 315; Webster, p. 106.

٣ Plut., Life of Theseus, 14.

هكلي على شرف الاله زيوس هكالوس (Hecalus) وانها كرمت هكلي ، وكان الناس يطلقون عليها اسم التدليل هكالين (Hecaline) لأنها عندما استضافت ثسيوس ، وكان عندئذ في ميعة الصبا ، كانت تناديه باسماء تدليل على نحو ما تفعل اي سيدة عجوز . وقبل ذهاب ثسيوس نذرت هكلي انها ستقدم قرباناً لزيوس اذا عاد سليماً معافى لكنها توفيت قبل عودة البطل ، فلم يكن منه عندئذ الا أنه أمر بتكريمها على نحو ما سلف قوله وذلك وفقاً لرواية فيلوخوروس . ويمضي بلوتارخ فيقول ان ثسيوس خلف اباه على عرش اثينا ، واليه يعزى توحيد اتيكا في دولة واحدة عاصمتها اثينا [1] .

واذا كان لم يصل الينا من ملحمة هكلي الا شذرات متفرقة [2] ، فانه يتبين من الموجز القديم ان كاليماخوس أطلق لخياله العنان في تصوير القصة مع الاحتفاظ بعناصرها الاساسية . ويحدثنا الموجز بأنه عندما نجا ثسيوس من تدابير زوجة ابيه مديا (Medea) لقتله بدس السم له ، عني ابوه بالسهر على حمايته من كل سوء . وعندما اراد ثسيوس الذهاب لمنازلة ثور مارثون تسلل ليلاً من البيت وبذلك تخلص من الرقابة التي فرضها ابوه لمنعه من هذه المخاطرة . وعندما صادفته عاصفة مطيرة وهو في الطريق لمح على بعد كوخاً صغيراً تملكه هكلي ، فذهب الى الكوخ حيث رحبت به السيدة العجوز واكرمته . وعند تباشير الصباح اسيقظ ثسيوس وذهب الى مارثون حيث تغلب على الثور ثم عاد الى كوخ هكلي . ولفرط دهشته وجد أنها توفيت فحزن حزناً شديداً وصمم على ان يكرمها لقاء حسن ضيافتها ، فأنشأ حياً اطلق عليه اسمها وأقام هيكلاً للاله زيوس هكاليوس (Hecaleios) .

---

١ Plut., 24.

٢ Trypanis, pp. 176-225.

واذا كان من العسير معرفة تفاصيل القصة على نحو ما عالجها كاليماخوس فانه مع ذلك يبين ان شاعرنا ركز اهتمامه على ذلك الجزء من القصة الذي يدور حول الليلة التي قضاها ثسيوس في الكوخ ، فهذا الجزء من ناحية يؤلف أطول حلقات هذه الملحمة ، ومن ناحية اخرى يتفق وميل الشعر الاسكندري الى تصوير ابطال الماضي في اطار الحياة اليومية العادية وليس في اطار أعمال البطولة الخارقة للعادة. ولا أدل على توفيق كاليماخوس في وصف زيارة ثسيوس الى هكلي من محاكاة اوفيديوس وغيره من الشعراء لهذه القصة [١]. والواقع ان ملحمة هكلي اكتسبت شهرة واسعة حتى العصور الوسطى فقد ظل الناس يقرأونها ويشرحونها ويعلقون عليها حتى القرن الثالث عشر للميلاد [٢].

وقد اتخذ كاليماخوس من حديث ثسيوس مع هكلي وسيلة لسرد عدد من القصص عن مولد البطل وطفولته وأعماله وعن نشأة هكلي وحياتها الماضية [٣]. واذا كان من اليسير ربط هذه القصص بالموضوع الأصلي فان ذلك متعذر فيما يخص القصتين اللتين اورد احداهما عن اريختونيوس (Erichthonius) وبنات كيكروبس (Cecrops) ، والأخرى عن غضب الالهة اثينا على الغربان بسبب ما حملتها اليها من انباء سيئة [٤]. ويفهم من الموجز القديم ان كاليماخوس يختم هذه الملحمة بحلقة من طراز حلقات ديوان الاسباب ، وهي الحلقة التي يفسر فيها اصول ثلاثة أشياء ، هي : ١ — انشاء حي جديد في اثينا . ٢ — تسمية هذا الحي باسم هكلي . ٣ — اقامة هيكل زيوس هكاليوس .

---

١ Ovid., Met., VIII, 620 ff.; Ps. — Virgil., Moretum; Wilamowitz, I, p. 189.

٢ Trypanis. pp. 177-8.

٣ Frs. 230 ff., Trypanis p. 180 ff.

٤ Fr. 260, Trypanis, pp. 190-7.

وفي تعليق الشارح القديم على البيت السادس بعد المائة من النشيد الثاني لشاعرنا يقول ان كاليماخوس يهاجم هنا أولئك الذين يسخرون منه لعدم قدرته على نظم قصيدة مطولة ، ولهذا السبب اضطر الى تأليف ملحمة هكلي . وانه ليتعذر علينا معرفة الى اي مدى كانت هذه الملحمة « قصيدة مطولة » ، وان كنا نتبين من « الطبعة » الكاملة لأعمال كاليماخوس انها لم تشغل اكثر من حيز « كتاب » واحد ، ومعنى ذلك انها لم تزد كثيراً على ألف بيت وهو ما كان متوسط طول اي « كتاب » من « كتب » كاليماخوس . ولا نعرف كذلك شيئاً عن تاريخ نظم هذه الملحمة ، بيد أنه اذا صح انها كانت رداً على ناقديه فلا بد من انهـا نظمت عقب « الطبعة » الأولى لديوان « الاسباب » . وفضلاً عن ذلك فان الاسلوب الرفيع المصقول صقلاً شديداً وهو الذي تتسم به الشذرات المتبقية من هذه الملحمة ينم عن ان كاليماخوس لم ينظمها الا حين بلغ أوجه في صناعة الشعر .

واذا كان بعض الباحثين[1] يرون ان ابولونيوس الرودسي اعتمد في نظم ملحمته « ارجونوتيكا » (Argonautica) على ملحمة هكلي وكذلك على ديوان الاسباب ، فان البعض الآخر[2] يرى ان العكس صحيـح . وعندنا ان الرأي الاول يبدو ادنى الى الحقيقة ، وهو ما سنبينه عنـد الكلام عن ديوان الاسباب .

ديوان الاسباب (Aetia)

وهو أهم مؤلفات كاليماخوس واشهرها جميعاً ويقع في اربعة كتب لم تصل الينا منها الا شذرات متفرقة أطولها ثلاث وهي قصة حب اكونتيوس

---

١ Pfeiffer, I passim

٢ Webster, pp. 67-8.

(Acontius) وكوديبي (Cydippe) [1] ، ومأدبة بوليس (Pollis) [2] وقربان زنكل (Zancle) = مسيني [3] . ويختلف الباحثون في تقدير عدد ابيات هذا الديوان ، وتتفاوت تقديراتهم بين ٤٠٠٠ و٧٠٠٠ بيت ، لكنهم يتفقون على ان الديوان يتألف من اربعـــة كتب . واذا كان اسم هذا الديوان الاسباب (Aetia) وكان يتناول سلسلة طويلة من الاساطير التي تتصل بتاريخ الاغريق وتفسر أصول الكثير من عاداتهم وطقوسهم وتماثيلهم ونشأة مدنهم ، على غرار ما رأينا من أمثلة ذلك في الباميات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادية عشرة ، فانه لا يقف عند هذا اللون من القصص التفسيرية بل يتناول ايضاً قصصاً من طراز آخر ، ولذلك يبدو ان اسم الديوان استمد من طراز القصص التي يبدأ بها ويتكون منها الجانب الاكبر من محتوياته ، وهذا أمر كان مألوفاً قديماً ، ولا يزال كذلك حتى اليوم . ذلك ان كتاب كاتو « الأصول » (Origines) بدأ بالحديث عن نشأة المدن الايطالية ثم استطرد فتناول تاريخها التالي . ومجموعة قصائد ثيوقريتوس « شعر الرعاة » (Pastorals) اذا كانت تبدأ بقصائد من هذا اللون من الشعر ، فانها ليست جميعاً كذلك . واليوم كثيراً ما يطلق على مجلد يتضمن مجموعة كبيرة من القصص اسم اولى هذه القصص .

ويتفق الباحثون على انه بعد نظم هذا الديوان ونشره في وقت يصعب تحديده ، راجع كاليماخوس هذا الديوان وأصدر « طبعة » جديدة له في اواخر حياته ، عندما نشر مجموعة كاملة لأعماله . وقد استهل كاليماخوس « الطبعة » الجديدة بتصدير لعله لم يكن تصديراً للديوان فحسب بل لأعماله جميعاً . ولما كان هذا التصدير يتضمن الرد على نقاده فاننا سنتناول الكلام عنه فيما بعد .

---

[1] Trypanis, pp. 50-61, Frs. 67-75.

[2] Pfeiffer, Fr. 8.

[3] P. Oxy. 2080.

ويبدأ الديوان ذاته بحلم يرى فيه الشاعر نفسه وقد انتقل من ليبيا الى جبل هليكون في بيوتيا ببلاد الأغريق حيث لقنته ربات الشعر فيضاً من الاساطير. ويتبين من الشذرات الباقية من الكتابين الاول والثاني ان الشاعر اتخذ من احاديثه مع الربات وسيلة لربط الاساطير بعضها ببعض ، لكنه من العسير ان نتبين من شذرات الكتابين الثالث والرابع اي رابط بين قصصه المختلفة [1] بيد أنه اذا كان الديوان يفتقر الى الحبكة التي تكسبه طابع الوحدة فان مرد ذلك لم يكن الى العجز والقصور وانما الى النهج الذي التزمه شاعرنا دائماً وقوامه تجنب الأطالة في موضوع واحد والانتقال سريعاً من قصة الى اخرى . ولكي يبرر كاليماخوس هذا الانتقال في الديوان جعله على هيئة حلم ، فكم يتنقل الانسان فيما يراه وهو نائم من حدث الى حدث دون اي رابط بين واحد وآخر .

ومن اشهر قصص كاليماخوس التفسيرية (Aetia) القصة (Aetion) الاخيرة في « الطبعة » الثانية لهذا الديوان ، وهي تفسر سبب تسمية مجموعة من النجوم « خصلة شعر برينيقي » [2] . وبفضل الموجز القديم وقصيدة الشاعر الروماني كاتولوس « خصلة شعر برينيقي » [3] (Coma Berenices) ، وهي ترجمة حرفية لما نظمه كاليماخوس في هذه القصة ، نستطيع ان نتبين فحواها ، وهو ان الملكة القورينية برينيقي ابنة ماجاس وزوجة بطلميوس الثالث نذرت للآلهة ان تجز خصلة من شعرها وتقدمها وفاء بنذرها اذا عاد زوجها سالماً من الحرب السورية الثالثة ، وهي التي خاض غمارها بطلميوس الثالث في عام ٢٤٦/٢٤٥ ق. م. دعماً لحق ابن اخته من انطيوخوس الثاني في عرش الدولة السلوقية [4] . وبالفعل عندما عاد

١ Cf. Frs. 63, 64, 66, 67, 92, 93, 95, 96.

٢ Pfeiffer, Fr. 110; Trypanis, pp. 80-85.

٣ Catullus, 66.

٤ انظر ابراهيم نصحي ، الجزء الاول ، ص ص ١٢١ وما بعدها .

بطلميوس الثالث جزت برينيقي خصلة من شعرها وقدمتها قرباناً في معبد ارسينوي افروديتي زفوريتيس (معبد ارسينوي الثانية على رأس زفوريون عند كانوب)، ولكن الخصلة اختفت في ظروف غامضة فأذاع كونون ، فلكي البلاط البطلمي، ان الخصلة ارتفعت الى السماء وتكونت منها مجموعة نجوم تقع بين الدب الأكبر والعذراء والأسد . والقصة تدور على لسان خصلة الشعر فتروي كيف ان كونون كشفها في السماء وسط النجوم بعد أن أهدتها الملكة الى الآلهة ، وكيف ان شقيقاتها بكتهـا عندما حرمت صحبتها ، وكيف ان ما تنعم هي به من مخالطتها لأعظم النجوم لا يخفف من لوعة أساها لأنها لن تحظى ثانية بلمس رأس برينيقي واستنشاق عبيرها الذكي.

ولما كانت هذه القصة التفسيرية (aetion) تتصل بحادث تاريخي وقع في عام ٢٤٦ — ٢٤٥ ق. م. فان هذا يدل على ان كالياخوس أصدر « الطبعة الثانية » للديوان بعد هذا التاريخ . ومن المرجح أن يكون كالياخوس قد نظم هذه القصة ونشرها مستقلة عن غيرها[١] بمناسبة هـذا الحادث ثم ادمجها في الديوان عندما أصدر « الطبعة الثانية » .

ومن بين القصص التي يتضمنها ديوان الأسباب قصص حب أشهرها جميعاً قصة حب اكونتيوس وكوديبي . وملخص هذه القصة هو أن شاباً وسيماً يدعى اكونتيوس رأى فتاة تدعى كوديبي مع مربيتها في أثناء الحفل السنوي لارتميس بجزيرة ديلوس . واذ وقع اكونتيوس في غرام كوديبي من أول نظرة ، تبعها الى معبد ارتميس حيث ألقى في طريق مربيتهـا تفاحة كتب عليها « أقسم بارتميس ان اتزوج اكونتيوس » . وعندمـا أعطت المربية التفاحة الى كوديبي وقرأت ما كتب عليها وأدركت أنهـا عن غير قصد منها ربطت نفسها بيمين ان تتزوج اكونتيوس ألقت بالتفاحة وعادت أدراجها . وحدث بعد ذلك انه كلما رتب أبوها زيجة لها وقرب

---

١ Cf. P. Oxy. 2258, No. 37.

موعد الزواج انتابها مرض غامض في كل مرة . واذ تكرر ذلك ثلاث مرات فانه في المرة الرابعة ذهب والدها الى وحي دلفي ليستشير ابولو في الأمر . وهناك علم ان سر المرض الغامض الذي كان ينتاب كوديبي هو اليمين التي ربطت بها نفسها عن غير قصد . وبناء على نصيحة ابولو زوج الوالد ابنته الى اكونتيوس وفاء بيمينها .

ومما يجدر بالملاحظة ان قصص الحب،وهي التي لم تلق عناية ملحوظة في الماضي ، كانت من أبرز اتجاهات شعراء الاسكندرية . وأشهر القصص القديمة التي من هذا اللون مستمدة منهم بطريق مباشر أو غير مباشر بعد تغيير الأسماء وادخال تعديلات طفيفة على الملابسات ، على نحو ما حدث في حالة قصة اكونتيوس وكوديبي[١] .

وليس معروفاً عدد الأساطير والقصص التي كان يتضمنها كل كتاب من كتب الديوان ، لكنه لا مجال للشك في ان كلاً منها عولجت بطريقة مختلفة . وهذا التباين وكذلك اللمحات الشخصية والواقعية الدافقة بالحيوية التي تتسم بها الرواية تنأى بأجزاء الديوان التي تتناول الأساطير من أن تصبح كتاباً جافاً في الأساطير . ويكتسب باقي الديوان متعة وحيوية عندما ينتقل الى القصص الأخرى وخاصة قصص الحب .

ويرى كثيرون من الباحثين[٢] ان ابولونيوس قرأ « الطبعة الأولى » لديوان الاسباب واعتمد عليها مثل ما اعتمد على ملحمة هكلي في تأليف ملحمة الارجونوتيكا،ويدللون على ذلك بما يتضح من وجوه الشبه المتعددة بين الديوان والارجونوتيكا وبوجه خاص في الاسطورة التي تفسر طابع الطقوس بجزيرة انافي (Anaphe) ، وفي الوعود التي قطعها ياسون

---

١ Cf. Aristaenetus, Ep. I, 10; Ovid., Heroides, 20 and 21.

٢ e.g. Pfeiffer, I, passim, II, p. XII and commentary to individual fragments; Haendel, Beobachtungen z. Epischen Technik d. Apoll. Rhod., Munich, 1954.

على نفسه الإله ابولو ، وفي اشارات ياسون (Jason) المتكررة الى الوحي ، وفي البيت الأخير من قصة بورياس . ويرد البعض الآخر من الباحثين[1] بأن التفاصيل مختلفة في الحالين ، وبأنه إذا كان كالماخوس صاحب الصدارة في مجال الشعر التفسيري الأساطير ، فإن ابولونيوس كان أيضاً معنياً بتفسير الأساطير بدليل انه يوجد في الارجونوتيكا ما لا يقل عن ثلاثين تفسيراً تاريخياً لأسماء وعادات معاصرة ؛ على حين ان كالماخوس لم يعالج إلا أربعة فقط من هذه الموضوعات ذاتها . فلماذا اذن لا يكون كل من الشاعرين ، وكان كلاهما يعملان في المكتبة الكبرى ، قد استمد موضوعاته من مصدر مشترك ؛ بل لماذا لا يكون كالماخوس هو الذي نقل عن ابولونيوس ؟ وردنا على ذلك في ترجيح الرأي الأول هو : أولاً ان المسألة ليست مسألة التماثل في الموضوعات بقدر ما هي وجوه الشبه في معالجة هذه الموضوعات . وثانياً : تعريض كالماخوس في ختام ابيجرامته الثلاثين[2] بأولئك الذين ينقلون عن غيرهم . وثالثاً : اذا صح رأي القدامى والمحدثين — وهو رأي يسلم به الجميع — ويقول بأن كالماخوس قارن بين إبولونيوس والايبيس ، ذلك الطائر الذي يقتات على كل كل شيء ويلوث كل ما ليس له ، فان هذا يقطع بسطو ابولونيوس على مادة غيره من الشعراء — ومن بينهم كالماخوس — ومعالجة هذه المادة على نهجه الخاص قدر امكانه .

خصائص كالماخوس والنزاع الأدبي :

ان الكثيرين من الباحثين يعتبرون كالماخوس أبرز نموذج نمطي لعصره. فقد كان شعراء هذا العصر جميعاً يتسمون بعدد من السمات كانت احداها

---

[1] Webster, pp. 67-8.

[2] Mair, pp. 156-7.

تخلو اشعارهم من تلك العاطفة الوطنية المتأججة التي نألفها فيا نظمه شعراء الأزمنة السابقة لعصر الاسكندرية . وقد كانت هذه السمة نتيجة طبيعية للحياة في عصر غدا فيه الحاكم هو كل شيء ودالت فيه دولة المدينة الحرة حتى أصبحت لا تقوم الا بدور ثانوي في كنف ظله الوارف ، فخلف تملق الحاكم ذلك الشعور الوطني الجارف الذي كان في الماضي يوحي بأروع الأشعار ، وأصبحت الوطنية نوعاً من المحبة الهادئة التي يكنها الشاعر لمسقط رأسه[1] . ويعبر عن هذا الضرب من الوطنية عند كاليماخوس حنينه الى مسقط رأسه قوريني . ويتمثل هذا الحنين ليس فقط في انه استخدم في نشيديه الخامس والسادس اللهجة الدورية الشائعة الاستعمال في قوريني ؛ بل كذلك في ان نشيده الثاني موجه الى ابولو كبير آلهة قوريني ؛ وفي ان نشيده الثالث موجه الى ارتميس الأخت التوأم لأبولو ؛ وفي ان نشيده الأول موجه الى زيوس ، وكان رب الأرباب ، وفي الوقت نفسه والد ابولو وارتميس ؛ وفي ان نشيده الرابع موجه الى جزيرة ديلوس ، وهي التي شهدت مولد ابولو وارتميس ؛ وفي ان نشيده السادس موجه الى دمتر ، وهي التي سلف القول بأن عبادتها أنشئت في قوريني منذ تأسيسها .

وكانت هناك سمة ثانية وهي افتقار أشعارهم الى المشاعر الدينية العميقة نحو الآلهة القدماء . وخير شاهد على ذلك أشعار كاليماخوس ، ذلك انه برغم أناشيده الموجهة الى الآلهة القدماء ، وبرغم كثرة حديثه عن هؤلاء الآلهة ، فإن أشعاره تخلو من الشعور الصادق بالتقوى نحوهم . وقد كان ذلك أيضاً نتيجة طبيعية للحياة في عصر الاسكندرية ، ذلك انه كان طبيعياً ان يفقد الآلهة القدماء مكانتهم الممتازة في عصر كان الملوك البشر يرفعون فيه الى مصاف الآلهة وتقام لهم المعابد وشعائر العبادة في كل مكان. فلا عجب اذن ان نرى كاليماخوس يتخذ من الآلهة الذين يمجدهم موقف المؤرخ

---

[1] انظر فيليب اميل لجران ، ص ٥٢ .

الذي يسجل تاريخهم متوخياً الدقة والعناية . فهو عندما يصف أحداث حياتهم وملبسهم واسلحتهم ، وعندما يتكلم عن خصائصهم ووظائفهم ، وعندما يتحدث عمن يحبون وعمن يكرهون ، يزعم انه لا يقول الا الصدق البحت ، ويحدد المكان والزمان عند تفصيل كل شيء ، ويناقش الروايات المتناقضة على نحو ما نرى مثلاً في مطلع نشيده الأول « الى زيوس » . ان كل ذلك وما يماثله يخلو من كل عاطفة دينية حقيقية . ولا شك في انه لا وجود لمثل هذه العاطفة سواء حيث يصف أهل اوليمب في أثناء قيامهم بأدوار من الحياة العادية ، على نحو ما نرى مثلاً في أول نشيده « الى ارتميس » ، أم حيث يبدو كاليماخوس وكأنه قد استولى عليه الخوف والتقوى على نحو ما نرى في نشيده « الى ابولو » ، ذلك ان التكلف واضح والاصطناع صارخ[1] .

وثمة سمة ثالثة وهي مسايرة الفقهاء والأدباء لركب التقدم العلمي الذي شهدته الاسكندرية في مختلف فروع العلم ، ذلك انهم عكفوا على دراسة الآداب القديمة وتصنيفها وضبط نصوصها ، وكلفوا بالتبحر في فنونها وفي التاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وما يتصل بها من أساطير ، وبإظهار سعة علمهم في مؤلفاتهم . وينعكس ذلك كله في أعمال كاليماخوس النثرية والشعرية وبوجه خاص في ديوان الأسباب وملحمة هكلي والأناشيد ، فهي تتسم بطابع البحوث المكتوبة والمهارة اللغوية واستخدام الألفاظ النادرة .

بيد انه مع حرص كاليماخوس على معالجة الموضوعات التي تظهر تفقهه وغزارة علمه ، ومع افتقار أشعاره الى الحماس الوطني الملتهب والى المشاعر الدينية العميقة ، فإن هذه الأشعار لا تخلو من الاحساسات الانسانية الرقيقة ، على نحو ما رأينا مثلاً في رثاء صديقه الشاعر هراكليتوس ، وفي قصة حب اكونتيوس وكوديبي . وفي ابيجراماته التي تصف ما عاناه من الهوى .

---

[1] انظر فيليب اميل لجران ، ص ص ٥٩ ــ ٦٣ .

وكذلك لا تترك أشعاره مجالاً للشك في تعلقه الشديد بالحياة البسيطة ، ولا أدل على ذلك من حرصه على تصوير الأبطال القدماء وكأنهم من البشر العاديين على نحو ما رأينا من أمر ثسيوس في ملحمة هكلي .

وقد كانت السمة الرابعة تجنب ما هو مبتذل شائع ومن ثم فإنهم كانوا يسعون جاهدين الى اختيار موضوعات جديدة كل الجدة أو قابلة للتناول من زاوية جديدة . وتتضح هذه السمة في كل ألوان الشعر التي نظمها كاليماخوس .

وتتمثل السمة الخامسة في الميل الشديد نحو البساطة الرشيقة في الأوزان مما كان يدفعهم الى أن يتفادوا قدر الاستطاعة الأوزان المعقدة ويبتكروا أوزاناً جديدة لم يوجد بينها وبين الأوزان القديمة أي وجه للشبه . وقد كان من أبرز سمات كاليماخوس كثرة الأوزان التي استحدثها واستخدمها في نظم أشعاره . ومع ذلك فإن شعراء الاسكندرية ، وبخاصة كاليماخوس ، أخضعوا علم العروض لقواعد أدق مما اتبعه أسلافهم .

وعند هذا ينتهي الاتفاق ويبدأ الانقسام الى مدرستين رئيسيتين يمكن تسمية احداهما مدرسة كاليماخوس،والأخرى مدرسة ابولونيوس الرودسي . وكانت المدرسة الأولى ترى ان عصر الملاحم المطولة قد ولى وانقضى ليخلفه عصر القصائد القصيرة المصقولة المعبرة عن روح العصر ، الزاخرة بثمار البحث في كنوز الماضي ، ذلك ان الملاحم المطولة بلغتها وعباراتها وصيغها التقليدية لا يمكن أن تكون سوى صور باهتة مصطنعة لملاحم هوميروس وهسيودس وايسخيلوس . أما المدرسة الثانية فإنها كانت ترى انه اذا لم يكن هناك أمل في ان تجود الأيام بملاحم مطولة أخرى من طراز الباذة هوميروس أو ثيوجونية هسيودس أو اورستية ايسخيلوس،فإن اليأس يجب ألا يتسرب الى القلوب والعقول بحيث يستبعد انتاج ملاحم جيدة غير قصيرة . وقد حاول ابولونيوس التدليل على رأيه بنظم ملحمة الارجونوتيكا وهي تتألف من حوالى ١٠,٠٠٠ بيت من الشعر .

ولعل خير ما يعبر عن وجهة نظر كاليماخوس ما نظمــه في التصدير الذي أعده « للطبعة » الثانية لديوان الاسباب أو من الجائز لمجموعة أعماله الكاملة ؛ فقد جاء فيه (ll. 1 ff.) : « ان التلخينس[1] (Telchines) – وما أجهلهم وأبغضهم الى ربات الشعر – يبرمون بشعري لأنني لم أنظم قصيدة مطولة واحدة تستغرق آلاف الأبيات في مدح الملوك أو الأبطال.. لكن شأني شأن الطفل لا أروي إلا قصة قصيرة ، وان كنت قد بلغت من السن عتياً . وهذا ما أقوله للتلخينس : يا ايتها الفئة المشوكة التي تجيد تبديد نشاطها انني حقاً رجل قليل الكلام ، وان الأشعار الرقيقــة القليلة علمتنـــا ان ميمنرموس أفضل من صاحب الاشعار الوفيرة[2] .... فلينتش الغرنوق بدماء الاقزام[3] وليطر بعيداً عن مصر الى بلاد التراقيين، وليطلق المساجتاي[4] (Massagetae) سهامهم على الميدين عـبر مسافات شاسعة ؛ أما القصائد فان جمالها في قصرها . اغربوا عنا يا أهل الحسد ! ومنذ الآن يجب ان تقوموا الشعر بمعايير الفن وليس بالمقيــاس الفارسي[5] (Schoinos) لأبعاد الأرض . ولا يجب أن تتوقعوا مني نظم الأشعـار الضخمة المدوية ؛ فالرعد لا يصدر عني وانما عن زيوس . ذلك انـني عندما شرعت في الكتابة أوصاني ابولو بأن القربان يجب أن يكون سميناً

١ اعتقد القدماء ان التلخينس كانوا أهــل كريت ورودس وسيكيـون وكيوس أو قبرص . ويقال انهم كانوا اول صناع المعادن ، وانهــم اشتهروا بالخبث والحقد ، ويطلق كاليماخوس هذا الاسم على خصومه من رجال الادب بمعنى انهم حقودون مغتابون .

٢ المقارنة هنا بين ميمنرموس والشاعر انتيماخوس الذي نظــم قصيدة مطولة بعنوان لودي (Lyde)

٣ تروي اساطير الاغريق ان الغرانيق شنت حربا على الاقزام سكان اعالي النيل وابادتهم .

٤ كان المساجتاي شعبا قديما يقطن شرقي بحر قزوين .

٥ كان الأسخونيوس الفارسي مقياسا لطول ابعاد الارض شائع الاستخدام في مصر ويتراوح تقدير طوله بين ٣٠ و ٦٠ ستاديا ، اي بين ٦٠٠٠ و ١٢٠٠٠ ياردة .

أما الشعر فيجب أن يكون رشيقاً . وأوصاني كـــذلك بألا أسلك الطريق العامة وانما الدرب غـــير المطروق وان كان أكثر وعورة . وقد أخذت بالنصيحة فأنا أغني للذين يفضلون صوت المزمار الرفيع على نهيق الحمير».

والمقارنة هنا واضحة بين القصيـــدة القصيرة المصقولة وبين القصيدة المطولة الرتيبة على نحو يبرر تفضيله الأولى . ويستدل مما أورده كاليماخوس عن نصيحة ابولو له منذ شرع في الكتابة أنه اتبع نهجه الذي كان يعيبه عليه نقاده منذ بـــدأ في صناعة الشعر وأنه لم يحد عن هذا النهج طوال حياته . ومن الواضح أيضاً انه في وسط التصدير يعقد مقارنة بـــين شعر ميمنرموس القليل الرقيق وشعر انتيماخوس الغزير غير الأنيق . وقد مر بنا انه في احدى ابيجراماته[1] التي لم يصل الينا منها إلا بيت واحـــد هاجم كاليماخوس ملحمة لودي (Lyde) وهي التي نظمها انتيماخوس في نهايـــة القرن الخامس قبل الميلاد وروى فيها عدداً كبيراً من المـــآسي الغراميـــة مواسياً بها نفسه بعد ان فقد حبيبته .

وفي نشيد كاليماخوس « الى ابولو » نقرأ ما يلي (Hymn II, ll. 105 ff.) :

« وإذ همس الحقد في اذن ابولو قائلاً : لا يعجبني الشاعر الذي لا تعج قصائده بالأشعار عجيج البحر بالأمواج ، ركل أبولو الحقد بقدمه وصاح قائلاً : وما أضخم النهر الاشوري (= الفرات)[2] ولكن ما أكثر مـــا تحمله مياهه من أقذار . ان كاهنات ديمتر لا يجلبن اليهـــا الماء من كل حدب وصوب وانما من أصفى المياه وأنقاها وهي التي يقطرها نبع مقدس نقطة بعد نقطة ؛ سلاماً ، إلهي ، وليبق النقد مقيماً حيث يعيش الحقد» .

ومن الجلي ان كاليماخوس يؤكد في التصدير وفي النشيد على الأصالة في نظم الشعر وكذلك على سمو القصيدة القصيرة المصقولة عـــلى القصيدة الطويلـــة المحشوة بالغث والمبتذل ، وهو ما يؤكـــده في ابيجراماته

---

١ Trypanis, fr. 398, p. 246

٢ Smiley, Hermathena, XXXIX, 1913.

الثلاثين[1] حيث يقول : « أمقت القصيدة الطويلة والطريق العامة والعاهر ، ولا أشرب من النافورة ، فأنا أكره كل ما هو عام ... » ومما يجدر بالملاحظة انه في ابيجرامته التاسعة والعشرين[2] يتخذ من اشادته بالشاعر القديم هسيودس معبراً للهجوم على الشاعر المعاصر اراتوس واتهامه بمحاكاة الشاعر القديم .

ومن الجلي كذلك ان كل هذه الأبيات لا تكشف عن اتجاهات كاليماخوس فحسب بل أيضاً عن معركة أدبية حامية الوطيس تتجاوب أصداؤها في اليامبية الثالثة عشرة[3] . وبفضل البقايا القليلة من هذه القصيدة والموجز القديم نستطيع أن نتبين ان نقاد كاليماخوس كانوا يأخذون عليه كذلك تعدد أنواع ما يستخدمه في أشعاره من الأوزان[4] واللهجات والمفردات التي يمتزج فيها القديم والحديث . وازاء ذلك اطلق كاليماخوس عقال لسانه السليط وراح يسخر سخرية مرة من الشعراء الذين يصلون بعضهم بعضاً ناراً حامية ؛ ويرد عليهم بأنه لم يفعل أكثر مما فعله الشاعر الفحل ايون[5]،وبأنه لا يعيب الصانع الماهر انتاج آنية متعددة الأشكال والأنواع . ومما تجدر ملاحظته ان كاليماخوس لم يذكر اسم أحد من نقاده سواء في هذه القصيدة ام في غيرها من القصائد الأخرى،وان وصفهم جميعاً بأهل الحسد المغتابين (التلخينس) .

---

١ Mair, pp. 156-7.

٢ Mair, pp. 156-7.

٣ Trypanis, pp. 146-151.

٤ بلغ عدد الاوزان التي استخدمها كاليماخوس ستة عشر ، انظر :
Pfeiffer, Index.

٥ كان ايون شاعرا من خيوس ولد حوالي ٤٦٠ ق.م. وكان يحتل مكانة مرموقة عند فقهاء الإسكندرية ، انظر :
A von Blumenthal, Ion von Chios, 1939; Jacoby, Class. Quarterly. XII, 1947, pp. 1 ff.

وانظر الى اليامبية الرابعة[1] حيث يروي كاليماخوس قصة نقاش حاد دار يوماً بين شجرتين أصيلتين – شجرتي الغار والزيتون – نبتتا في اديم واحد ، وكيف انه ما ان فرغت كل منهما من سرد مزاياها وأسباب افضليتها على الأخرى حتى اقحمت نفسها في النقاش شجرة «سنط» وكانت تقف على مقربة منهما طالبة اليهما عدم التمادي في النقاش والتجريح « لئلا نعطي خصومنا فرصة للشماتة فينا ! » فانبرت لها شجرة الغار بقارص الكلام لاجترائها على اعتبار نفسها طرفاً في الخصومة . ومن الواضح ان مغزى هذه القصيدة الساخرة هو ان ذلك النقاش العنيف وتلك الخصومة المريرة بين فحول الشعراء واحتفال كل منهم بالتغني بمزاياه والنيل من قدر غيره ضرب من العبث يحط من قدرهم جميعاً ويتيح الفرصة لكل متأدب مهما يكن قدره ان يدلي أيضاً بدلوه في الدلاء .

ولعل اليامبية الأولى[2] كانت كلمة كاليماخوس الأخيرة في مسألة النزاع الأدبي ودعوة الى التصافي وتناسي الأحقاد[3] . وهذه القصيدة يجريها كاليماخوس على لسان شاعر يدعى هيبوناكس كان يعيش في القرن السادس قبل الميلاد واشتهر شعره بسخريته اللاذعة ونقده المر ، حتى ليقال انه بلغ من عنف القصيدة التي هاجم فيها المثال بوبالوس ان هذا المثال انتحر[4] . وقد تخيل كاليماخوس ان هيبوناكس عاد من العالم الآخر وعقد اجتماعاً لشعراء الاسكندرية الفقهاء في السرابيوم الجديد ليستمعوا الى قصة الحكماء السبعة ، وكيف انه عندما أعطي طالس الكأس المخصصة لأحكم الحكماء مررها الى بابون وهذا مررها بدوره الى حكيم آخر وهكذا الى ان عادت

---

١ Trypanis, pp. 118-127.

٢ Trypanis, pp. 104-113.

٣ Webster, pp. 99-100.

٤ وفقا لسويداس (s.v. Hipponax) صنع بوبالوس واثينيس تمثالا ساخرا لهيبوناكس فهاجمهما هجوما لاذعا بهذين المثالين الى الانتحار .

ثانية الى طالس فأهداها الى الإله ابولو . ومما له دلالته هنــا أمران ، وأحدهما انه يقوم برواية قصة الحكماء السبعة لشعراء الاسكندرية الفقهاء ، وهم الذين كانوا يتقاتلون مع بعضهم بعضاً ؛ شاعر سليط اللسان عائد من العالم الآخر يحرص في مستهل كلامه على ان يقــرر بأن شعره لم يعد ينفث سخيمة الخصام مع بوبالوس ثم يعرض قصة الحكماء السبعة ليبرز من بين ثناياها ما كانوا عليه من تواضع وما كان يسودهم من ألفة . ومعنى رسالته واضح جلي وهو ان ما بين شعراء الاسكندرية الفقهــاء من تنابذ وتراشق غير جدير بعلمهم وحكمتهم وأبعد ما يكون عما يجب أن يتسموا به من تواضع وان يسود بينهم من ألفة ومحبة . والدلالة الأخرى تؤكد الأولى،وهي ان عقد الاجتماع الخيالي وسط تماثيل أئمة العصر الكلاسيكي من أهل العلم والفضل اذ ينم عن ايمان الاسكندريين بأنهم ورثــة التقاليد الاغريقية في مجالي الشعر والحكمة ، يستحث المعاصرين على أن ينسجوا على منوال أسلافهم . ومع ذلك فإنــه لا يفوت كالياخوس ان يقول في هذه اليامبيــة ان « شعره أقوى من عين الحسد » وهو ما يكرره في ابيجرامته الثالثة والعشرين[1] .

• • •

وكيف نشأ هذا النزاع الأدبي الذي يغلفه ظلام دامس ، ويبدو انه كان يقف في أحد جانبيه كالياخوس وثيوقريتوس ؛ فقد كان ينحو نحو شاعرنا ويؤيد اتجاهاتــه ، بدليل ما جاء في قصيدته الحصاد على لسان ليكيداس : « انني أمقت البناء الذي يجهد نفسه في بنــاء منزل مرتفع جداً كقمة الارومدون ، وأبغض عصافير ربات الشعر التي تتعب نفسهـا بزقزقة لا طائل من ورائها اذا ما قورنت بمنشد خيوس » (المقصود هنا هوميروس لأنه ، وفقاً لاحدى الروايات القديمة ، ولد بجزيرة خيوس)[2].

١ Mair, pp. 152-3.

٢ فيليب اميل لجران ، ص ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

وكان كاليماخوس يحب ثيوقريتوس على نحو ما رأينا في ابيجرامته الثالثة والخمسين[1] .

وكان يقف في الجانب الآخر ابولونيوس واسكلبيادس وبوسايديبوس وبركسيفانس . ولعله يفسر الى حد دخول شاعرين من شعراء المراثي مثل اسكلبيادس وبوسايديبوس في نزاع أدبي مع شاعر فحل مثل كاليماخوس ذلك النقد اللاذع الذي وجهه شاعرنا الى انتيماخوس واراتوس على نحو ما رأينا في تصدير ديوان الأسباب وفي بعض ابيجراماته . أما بركسيفانس وهو الذي كتب فيه كاليماخوس رسالة نثرية بعنوان « ضد بركسيفانس» فإن أحد الباحثين[2] يفسر اشتراكه في هذا النزاع بأنه بوصفه من المشائين كان يؤمن بالقصيدة المطولة المحبوكة التي تتسم بالوحدة والترابط .

ويبين مما تقدم أنه لا يبعد ان يكون النزاع الأدبي قد بدأ في مستهل حياة كاليماخوس حول مزايا شعر انتيماخوس واراتوس ، ثم لم يلبث النزاع أن تحول الى قدرات كاليماخوس نفسه . ولم يكتف كاليماخوس بالدفاع عن نفسه بل هاجم بدوره ناقديه والذين يتخذون نهجاً مخالفاً لنهجه، وكان في طليعة هؤلاء ابولونيوس . واذا كان كاليماخوس لم يذكر ابولونيوس بالاسم في اي قصيدة من قصائده ، وكان القدامى من المعلقين على ديوان الأسباب لا يوردون اسم ابولونيوس بين نقاد كاليماخوس ، فإن الشك لا يداخل الباحثين المحدثين في ان ابولونيوس صاحب ملحمة الارجوناوتيكا المطولة كان من بين من عناهم كاليماخوس حين هاجم شعراء القصائد المطولة.

وتذكر المصادر القديمة ان ملحمة الايبيس كانت هجوماً مراً على ابولونيوس قارن فيها كاليماخوس بين ابولونيوس وهذا الطائر المدمر الذي يقتات على كل شيء ويلوث بكل وسيلة ما هو نظيف وليس له[3].

١ Mair, pp. 174-5.

٢ Brink, Class. Quart. 40, 1946, p. 19.

٣ Cf. Suidas, s.v. Kallimachos; Pfeiffer I, p. 307, fr. 382; Mair, p. 5; Trypanis, p. IX; Rose, p. 315; Webster, p. 106.

واذا كنا لا نعرف تفاصيل هذا النزاع بين كاليماخوس وتلميذه ابولونيوس فانه يبدو مما قاله القدماء عن ملحمة الايبيس ، ومن تنديد كاليماخوس بالمقلدين ، ومن وجوه الشبه بين ديوان الأسباب وملحمة هكلي من ناحية والارجونوتيكا من ناحية أخرى — يبدو ان كثرة إقدام ابولونيوس على الاقتباس من مؤلفات استاذه ثم اعادة صياغة ما اقتبسه بأسلوبه وعلى طريقته الخاصة يفسر تلك المرارة التي كان كاليماخوس يستشعرها ، وتحول المسألة من نقاش أدبي موضوعي الى نزاع شخصي بين الاستاذ وتلميذه . ولا يبعد ان يكون قد أسهم في ذلك انه حين كان كاليماخوس في أوج مجده الأدبي كان خصمه وأكبر منافسيه رئيسه الرسمي مع انه كان يوماً تلميذه.

واذا كنا لا نعرف تاريخ نظم الايبيس فاننا نعرف ان ابولونيوس فقد منصبه بوصفه أميناً للمكتبة الكبرى في مستهل عهد بطلميوس الثالث، وهو الوقت الذي رجحنا انه يرجع اليه تاريخ نظم نشيد كاليماخوس الثاني، وهذه المسألة هامة لأن خاتمة هذا النشيد تعتبر اشادة بعزل ابولونيوس وانتصاراً لكاليماخوس في نزاعه مع ابولونيوس[1] . مما اضطر ابولونيوس الى مغادرة الاسكندرية والذهاب الى رودس حيث قضى بضع سنوات واطلق عليه بسبب ذلك لقب «الرودسي» مع انه اسكندري الأصل .

ويقول المعلق القديم على البيت السادس بعد المائة من النشيد الثاني ان كاليماخوس نظم قصيدة هكلي رداً على الذين يتهمونه بالعجز عن نظم القصائد المطولة . واذا صح ذلك فلا بد من ان النقد الذي وجه الى كاليماخوس كان أقدم عهداً من تاريخ هذا النشيد،ولا بد ايضاً من ان رد كاليماخوس لم يكن شافياً ولا مقنعاً مما حدا به الى معاودة مهاجمة خصومه في اليامبيات وفي الايبيس وفي النشيد وفي تصدير ديوان الأسباب . وكل هذا يوحي بأن هذا النزاع دام حوالى الثلاثين عاماً .

---

[1] Wilamowitz, II p. 87.

وفي ضوء ما أسلفناه ولا سيا عزل ابولونيوس من منصبه عند ارتقاء بطلميوس الثالث العرش، لا نستطيع قبول الرأي القائل بأن ذهاب ابولونيوس الى رودس كان في وقت مبكر خلال النزاع الأدبي نتيجة للهجوم الشديد الذي شنه عليه كاليماخوس في ملحمة الايبيس[1] . وعلى كل حال فان القدماء يروون ان ذات البين أصلح بين الاستاذ وتلميذه وان ابولونيوس عاد الى الاسكندرية وان الاستاذ وتلميذه دفنا في قبرين متجاورين[2] .

واذا كان ما وصل الينا من اشعار كاليماخوس لا يكفي لايفائه حقه من التقدير ، فان ما وصل الينا منها لا يدع مجالاً للشك في انه كان شاعراً ممتازاً يصور روح عصره تصويراً صادقاً ، ويتسم بالأصالة والقدرة على الابتكار ومعالجة شتى أنواع الموضوعات والتعبير عن مختلف العواطف بأسلوب دقيق رصين على انقى ما يكون من الصفاء ، حتى ليمكن مقارنة بعض مقطوعات قصائده بأرقى ما كتب باللغة الاغريقية . فلا عجب أن يكون كاليماخوس قد اكتسب من الشهرة والاقبال على قراءة مؤلفاته نصيباً فاق بكثير نصيب اي شاعر آخر من شعراء الاسكندرية . ولا ادل على سمو مكانة كاليماخوس في عالم الأدب من العدد الكبير من البرديات التي كشف عنها وتتضمن اشعاره ، ومن كثرة التجاء علماء النحو والعروض ومؤلفي المعاجم والشراح القدامى الى الاقتطاف من اشعاره على نحو لا نعرفه عن اي شاعر آخر باستثناء هوميروس .

ابراهيم نصحي

---

١ Webster, p. 64.

٢ Cf. Vita Apoll. Rhod., A., in Schol. ed. Wendel, p. 2, 5.

فزان
ودورها في انتشار الاسلام في إفريقية

للدكتور حسين مؤنس
مدير معهد الدراسات الاسلامية في مدريد

الصحراء الكبرى وجزائرها

في خريطة الصحراء الافريقية الكبرى تحتل فزان مكاناً ممتازاً ، ففي بحر الرمال الشاسع هذا ، الذي لا يُشْبَّه الا بالمحيط الأطلسي بل الهادي، تقوم الواحات ومجموعاتها بوظيفة حيوية كبرى ، فهي الجزائر والمعابر التي استطاع البشر عن طريقها عبور هذه الصحراء من طرف الى طرف، وليس من الغريب والحالة هذه ان نجد الواحات تسمى بالفعل في كتب جغرافيينا بالجزائر ؛ في حين ان مصطلح الواحات يكاد ان يكون علَماً على ثلاث من مجموعات الواحات المصرية : الداخلة والخارجة والفرافرة التي تسمى ايضاً الفرفرون .

وتسمية واحات الصحراء الكبرى بالجزائر تدل على ان العرب كانت لديهم فكرة واضحة عن الصحراء الكبرى واتساعها الشاسع وطبيعة ارضها وصعوبة عبورها وقسوة العيش فيها ، بل كانت لديهم فكرة واضحة

عن الحزام الصحراوي الذي يحيط بالكرة الأرضية في نصفها الشمالي فيما بين عرضي ١٠° و ٤٠° على وجه التقريب ، واليك فقرة من كلام ابن حوقل تصور ذلك بأجلى بيان .

قال في حديثه عن رمل الجِفار ، اي صحراء الجفار ، وهي المساحة الممتدة من شرقي دلتا النيل الى برية (= صحراء) فاران ومدين شمالي شبه جزيرة العرب : « ويتصل هـذا الرمل [١] برمل نَفزاوة [٢] من ارض المغرب ورمل سِجِلْماسة [٣] ، ويأخذ [٤] الى ارض أودَغَسْت ، وذلك انه يأخذ من الجفار مُغرِّباً عنها مع جبل المقطم ، ويمتد على ساحل النيل من شرقه وغربه وجنباته ، والنيل يشقه بنواح كثيرة [٥] ... ويمضي على بلد الشفوف [٦] ويستبطن طريق الباطن [٧] ، ويأخذ على غربي عقبة برقة ماراً على الطريق الأعلى وخلف طريق الجادة ، ويقع شيء منه الى ساحل

---

١ الرمل هنا يقابل لفظ الصحراء .

٢ رمل نفزاوة يريد به الصحراء الليبية .

٣ رمل سجلماسة هو الجزء الغربي من الصحراء الكبرى .

٤ اي يتجه . واودغست ، وتكتب أيضا اودغشت ، اقليم كان يقوم حول مدينة بنفس الاسم على الطريق الجنوبي للصحراء الكبرى جنوبي المغرب الاقصى ، ويقع شمالي نهر السنغال فكان المسافرون يخرجون من سجلماسة ويعبرون الصحراء جنوبا الى اودغشت .

٥ المراد ان النيل يقطع اتصال هذه الصحراء التي تبدأ من جزيرة العرب ، وابن حوقل يذكر هنا بعض المدن الواقعة على النيل في مصر فتركت ذكر ذلك .

٦ لم افهم المراد تماما بلفظ الشفوف .

٧ كانت لديهم ثلاث طرق لاختراق المغرب من الشرق الى الغرب وكذلك الصحراء في نصفها الاعلى : طريق الباطن وهو طريق صحراوي صرف يمر بفزان في مستوى مرزوق ، وطريق الجادة وهو طريق الساحل ، والطريق الاعلى وهو يمر جنوب المرتفعات الفاصلة بين الشريط الساحلي والنواحي الداخلية .

برقة (وينقطع) [1] ، ولا ينقطع ما على الطريق الأعلى منـــه حتى يرد قبلة [2] أجدابية وسُرْت فيكون في وسطه [3] ، ويأخذ عن الطريق مُغرباً الى صحارى جبل نفوسة ونفزاوة [4] ويرتفع الى لَمْطة [5] ورمال سلجماسة ويتصل برمل أوْدَغَسْت المتصل بالبحر المحيط . ويتصل رمل الجفار [6] من ناحية القِبْلة في نفس البر الى ايلة ورمال القُلْزُم [7] ويفترش بالساحل [8] وطريق جادة مصر [9] ، ويمضي الى مدينة يثرب ممتداً على ما جاور ارض لخم وجذام وجُهَيْنة وبَلِي [10] وما دنا من ارض تبوك ، ويجتاز بوادي

١ اي انه بعد برقة ينتهي طريق الساحل في حين يستمر الطريق الاعلى الذي يسير جنوب ذلك .

٢ القبلة في المصطلح الجغرافي هي الجنوب ، ولكن المراد بها هنا ناحية صحراوية مسكونة تقع جنوبي منطقة من مناطق الساحل الآهلة ، وقبلة اجدابية وصرت هي واحة الكفرة . وسنتكلم عن القبلات بالتفصيل في صلب المقال فيما بعد .

٣ اي هنا يصل الطريق الاعلى الى منتصفه .

٤ جبل نفوسة ونفزاوة يقع في الشمال الغربي لليبيا حاليا .

٥ لمطه ناحية صحراوية صغيرة كانت تقع الى شمـال اودغشت وكانـت مشهورة بنوع من التيوس الكبيرة يسمى اللمط سميك الجلد ، وكان هذا الجلد يستخدم في صناعة الدروع الجلدية التي اشتهر باستعمالها المرابطون وكانت اخف وزنا واسهل استعمالا من دروع الحديد .

٦ من هنا سيتتبع ابن حوقل سير الحزام الصحراوي في آسيا .

٧ رمال القلزم هي شبه جزيرة سينا .

٨ أي : ويستمر موازيا للساحل ويتسع هناك .

٩ طريق جادة مصر هو الطريق من الحجاز الى مصر محاذيا ساحل البحر الاحمر ثم مخترقا صحراء سيناء .

١٠ منازل هذا القبائل كلها تقع على ساحل البحر الاحمر ، وطريق التجارة الرئيسي من مكة الى الشام يمر بها .

القرى ماراً بديار ثمود مُشرقاً الى جبلي طيء[1] ويتصل برمل الهبير[2] ، ورمل الهبير متصل برمل البحرين ورمال بادية البصرة وعُمان الى ارض الشحر ومهرة. وجميع ارض الشحر ومهرة رملٌ من البحر الى الجبل[3] . (ويعبر البحر[4] فيكون تجاه الشحر ومهرة من بلاد الزَّنج[5] رمل كهيئة رمل الشحر) ويحاذي رأس الجمجمة من نواحي حصن ابن عمارة وأرض هُرموز ، فيمر شمالاً الى اقاصي خُراسان على أعمال الطَّبَسَيْن وهَراة ورمال مَرْو وسَرَخْس. ويُشرِّق بعضه الى أعمــال السِّند والدَّيْبُــل و (سوبارة) وسِندان وصَيْمور ماراً في براري الهند الى التُّبت وبــلاد الصين ، فيشرع في البحر المحيط[6] . وجميع الرمل على وجه الأرض متصــل متناسب ، لا أعرف فيه بلداً رَمْلُه ذو خصل الا القليل ، وكذلك جبال الأرض كلها متناسبة متصلة الا القليل اليسير منها[7] . »

---

١ جبلا طيء كانا على طريق التجارة الرئيسي من وادي القرى الى شمال شرقي شبه الجزيرة وبلاد العراق .

٢ رمل الهبير هو صحراء النفوذ تقريبا .

٣ اي كلها رمل من البحر الى الجبل .

٤ اي ان رمال الصحراء تمتد عبر خليج فارس .

٥ من هنا يمضي ابن حوقل متحدثا عن صحراوات آسيا حتى صحــراء جوبي في الصين .

٦ في تصور ابن حوقل ان صحراء جوبي تمتد الى ساحل المحيط الهادي ثم تستمر سلسلة الصحاري وراء المحيط الهادي ،ولم يخطر بباله قطعا ان هناك الامريكيتين واستمرار حزام الصحارى فيهما ، ولكن كــان تصوره ان استمرار صحارى الصين هو الصحراء الافريقية .

٧ هذه هي خلاصة نظريته في استمرار الصحاري ، واتصال بعضهــا ببعض . وكانوا يقولون ايضا ان جبال العالم كلها متصلٌ بعضها ببعض وكذلك بحاره . وفيما يتصل بالانهار كانوا يرون مثلا ان كل انهار افريقية صادرة من النيل أو هي النيل نفسه في اتجاهات شتى واهمها —

ولم ينفرد ابن حوقل بذلك القول بل ردده بعد ذلك الادريسي وابن خلدون ، وهذه واحدة من الحقائق الكثيرة التي وصل اليها علماء العرب بذكائهم وحسهم العلمي وإخلاص الأفذاذ منهم لما تولوه من فروع العلوم، ولقد وصل هؤلاء الاعلام الى اقصى ما يستطيع الوصول اليه العالم المُفْرَد من العلم بالأرض وما عليها بوسائله المحدودة المتواضعة ، ولكي يصل العلم الجغرافي الى ما وراء هذه الحدود كان لا بد من نظم سياسية واجتماعية جديدة تنمو في ظلالها اشجار معرفة اضخم حجماً وأوفر ثمراً وأكثر ارتفاعاً .

القوافل والرحلات وانتشار الاسلام

ونعود الى ما استطردنا عنه من الكلام على الصحراء الكبرى وعلم العرب بها فنقول انهم عرفوا الطرق الرئيسية التي تشقها من شرق الى غرب ومن شمال الى جنوب ؛ وعرفوا ووصفوا مراحل كل طريق منها وما عليه من الجزائر أو الواحات التي تحط بها القوافل لتستريح وتجدد الزاد والماء، وعرفوا كذلك ما بين كل مرحلة من هذه والتي تليها من المسيرة بالأيام والأميال ، وتحدثوا عما يجده المسافر من أصناف الزاد في هذه أو تلك ، وما يمكن أن يُحمل اليها من البضاعة وما يمكن ان يُصدر به منها ؛ وهذه كلها تفصيلات ومعلومات نقرؤها نحن اليوم عبوراً دون أن نفكر في الجهد الذي بذله اولئك الناس في جمعها وترتيبها وفي العقل

= عندهم ثلاثة : نيل مقدشو وهو النيل الازرق وبه كانوا يربطون كل ما عرفوه من انهار غرب افريقية ، ونيل مصر وهو الذي يصل الى خط الاستواء بما في ذلك انهار بحر الغزال ، ونيل غانه وهو نهر الكونغو والنيجر وكل ما يتصل بهما ويتفرع عنهما .

ابن حوقل ص ١٥٧ ــ ١٨٥ .

العلمي الذي قدمها لنا على هذه الصورة . ثم ان تفاصيـــل هذه الطرق لا تستوقف انتباهنـا اليوم ولكنها في الحقيقــة كانت الشرايين ومراكز الاعصاب التي صنعت ذلك العالم العربي الذي نعيش فيه اليوم ونفخر به. فان قوافـــل التجار والحجــاج هي التي صنعت النسيج الذي يجمـــع اليوم عالم العرب ، ولولا هؤلاء المسافرون المغامرون لما ظهر الى الوجود إلا بلاد عربية متفرقـة ، بل ربما لم يكن من الممكن ان تتحقق لهــا صفة العروبة على النحو الــذي نراه اليوم ، فان مفهوم العروبة نفسه مفهوم فكري علمي روحي قبل أن يكون مفهوماً سياسياً وقد ظهر كنتيجة حركة الرحلات كما ينشأ الثوب نتيجة لحركة المنسج ، وهؤلاء العلماء والطــلاب والحجاج والتجار الذين كانوا يخرجون في القوافـــل وينتقلون بين بلاد العرب هم الذين نسجوا رقعة العروبة بجهدهم الوئيد المنتظم الذي لا يكاد يحس ، كأنه سريان الدم في الجسد دون احساس مـــن صاحبه ، وبينما كان رجال السياسة في البلاد العربية المختلفة يحارب بعضهم بعضاً ويكيد بعضهم لبعض عاملين بهذا على تقطيع الاوصال وتفتيت عالم العرب كان علماء الاندلس والمغرب يمدون جسراً ضخماً بين الشرق والغرب برحلاتهم التي لم تنقطع ، وكان علماء مصر يمدون جسراً آخر بين افريقية وآسيا برحلات الطلب والدرس والحج ، وكان علماء العراق يمدون جسراً ثالثاً بأسفارهم الى الشام ومصر والحجاز وهكذا . فاذا كان هناك اليوم شيء اسمه العالم العربي فهو من عمل اهل العلم والحجاج والتجار، وخذ أي واحد من كتب تراجم العلماء واقرأ مواده واحدة بعد اخرى تر بعينك دودة القز المباركة وهي تنسج خيوطاً لا تراها العين تألف منها فيما بعد نسيج عالمنا العربي .

فزان : طريق رئيسي بين المغرب السودان الأوسط

ليس هذا مجرد استطراد مع خواطر وانما هو دخول في صميم الموضوع،

فان فزان موضوع هذا البحث جزيرة هامة في بحر الرمال الافريقي الواسع الذي لم يكفّ طلاب العلم والتجار والحجاج عن اجتيازه والمغامرة بأنفسهم في أمواج كثبانه ، فقد عرف العرب ثلاثة طرق رئيسية لاجتياز شمال القارة الافريقية من شرق لغرب : طريق ساحل البحر الأبيض ، وهو الذي رأينا ابن حوقل يسميه طريق الجادّة ، وطريقاً ثانياً يسير جنوب سلسلة المرتفعات والجبال الساحلية ، وهي مرتفعات تبدأ في الشرق عند السّلوم على حدود مصر وكانت تسمى بالعقبة الكبرى او عقبة السلوم ، وتأخذ هذه المرتفعات أول الأمر صورة حوائط صخرية تطل على البحر ثم تتقهقر الى الجنوب في منطقة الجبل الأخضر أو جبل نفوسة أو جبال نفوسة ونَفْزاوة وتمتد بهذا الشكل حتى تونس مع انقطاعات هنا وهناك، ثم تبدأ بعد ذلك جبال الأطلس او جبال درن وتستمر حتى المحيط الأطلسي . على السفوح الجنوبية لسلسلة المرتفعات هذه ؛ سار الطريق الثاني الذي عُرف بالطريق الأعلى وهو يمر ابتداء من غربي تونس خلال منطقة الشطوط او البحيرات .

اما الطريق الثالث فهو الذي نستطيع ان نسميه طريق القبلات وهي تسمية مقتبسة من ابن خلدون ، فهو يقول في الفصل المُبدع المسمى : « في ذكر مواطن هؤلاء البربر بافريقية والمغرب » (٦٦/٩٨ وما يليها) ان المغرب ينقسم عرضاً الى مناطق او نطاقات جغرافية يلي بعضها بعضاً من ساحل البحر الى بلاد السودان ؛ وهذه المناطق هي :

١ — البلاد الساحلية من المغرب الأقصى والأوسط وافريقية ، وهو يسمي هذه المنطقة فيما بعد بالتلول وذلك من حيث الجو والنبات ، وهو يسمي ذلك بمزاج التلول وهو مصطلح عنده يقابل ما نسميه بمناخ البحر الأبيض .

٢ — المرتفعات والجبال التي اشرنا اليها وهي عنده « تخوم تلك التلول

ممتدة من لدن البحر المحيط في المغرب الى برنيق من بلاد برقة ، ومبدأ سياج الجبال هذا عند المحيط الأطلسي يسمى جبال درن واستمرارها في المغرب الأوسط افريقية يسمى الأوراس ، ومجموعها هو ما نسميه نحن بجبال الأطلس .

٣ ـ نطاق الجريد وهو نطاق «البسائط والقفار وأكثر نباتها الشجر» وهذه المنطقة هي التي نسميها نحن اليوم بالشطوط ، والشط هو البحيرة الصغيرة الضحلة ، وهو يذكر هنا شط الجريد وشط أمرير وشط حُضنة أو هدنة والشط الغربي وما اليها ، وهو يرى ان الجريد كناية عن النخل ، فهذا النطاق هو نطاق غابات النخيل ،وهو على حق ، فهنا تقوم غابات النخيل المغربية الكبرى ، وفي هذا النطاق يجري الطريق الثاني الذي يسميه ابن حوقل والادريسي بالطريق الأعلى وقد تحدثنا عنه .

٤ ـ والى جنوب هذا النطاق المستعرض يسير نطاق القبلات ، وواحدتها قبلة .. وهذه القبلات مجموعات من الواحات ينشأ من كل منها اقليم مأهول عامر الأرض بالزراعة اذا كثر الماء أو بغابات النخيل اذا لم تكن هناك إلا العيون . وهذا النطاق لا يسير كله على مستوى عرضي واحد ، بل قد يقترب من نطاق الشطوط حتى يتصل به ، وقد يبتعد جنوبه مئات الكيلومترات . وفي بعض الأحيان تختلط نطاق الجريد بنطاق القبلات احدهما بالآخر حتى يصيرا نطاقاً واحداً كما نرى في حالة بسكرة وهي قبلة قسنطينة في غربي الجزائر الحالية : فان بسكرة هي قاعدة نطاقي الجريد والقبلات معاً ، وهذه الأخيرة تمتد حتى تشمل مناطق واحات تقُّرت وغردابة ، وهما منطقتان شبيهتان بمنطقة فزان من بعض الوجوه .

ولما كانت فزان ومناطق القبلات واقعة في هذا النطاق : فسآتي بكلام ابن خلدون على تواليه هنا فهو عظيم الأهمية بالنسبة للبحث الذي نعرضه في هذه السطور :

« وفيا يلي التلول منها وما يقاربها بلاد الجريد ذات نخل وانهــار ، ففي ارض السوس قبلة مراكش ترودانت والقرى فويان وغيرها ، بلاد ذات نخل وانهار ومزارع متعددة عامرة .

وفي قبلة فاس سجلماسة وقراها : بلد معروف ، ودرعة ايضاً وهي معروفة .

وفي قبلة تلمسان فجيج : قصور متعددة ذات نخل وانهار .

وفي قبلة تاهرت القصور ايضاً ، بلاد متتالية على سطر من المشرق الى المغرب ، اقرب ما اليهـا جبــل راشدة وهي ذات نخـل ومزارع وانهار .

ثم قصور مبنيات (أو مسورات أو محصنات) تناهز المائة واكـثر قبلة الجزائر ذات نخل وانهار .

ثم بلد واركلي قبلة بجاية، بلد واحد مستبحر العمران كثير النخل . وهي في سمته الى جهة التلول بلاد ريغ تناهز الثلثماية ، منتظمة على حفافي واد ينحدر من المغرب الى المشرق (وبين بلاد ريغ والتــل بلاد الزاب) تناهز مائة من البلاد فأكثر ؛ قاعدتها بسكرة من كبار الامصار بالمغرب ، وتشتمل كلها على النخل والانهار والفدن والقرى والمزارع .

ثم بلاد الجريد قبلة تونس، وهي نفطة وتوزر وقفصة وبلاد نفزاوة تسمى كلها بلاد قسطيلة (قسطيلية) مستبحرة العمران مستحكمه الحضارة مشتملة على النخل والانهار .

ثم قابس قبلة سوسة ، وهي حاضرة البحر من اعظم امصار افريقية، وكانت دار ملك لابن غانية كما نذكره بعد ، وتشتمل على النخـل والانهار والمزارع .

ثم فزان و ودان قبلة طرابلس : قصور متعددة ذات نخل وانهــار وهي أول ما افتتح المسلمون من ارض افريقية لما أغزاها عمر بن الخطاب عمرو بن العاص .

ثم الواحات قبلة برقة ، ذكرها المسعودي في كتابه . »

الى هنا ينتهي كلام ابن خلدون بخصوص القبلات .

٥ ـ الى جنوب نطاق الجريد هذا نجد بحر الرمال الواسع الذي يسميه ابن خلدون : « الرمال المتهيّلة الماثلة حَجَزاً بين بلاد السودان وبلاد البربر ، وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعِرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب في جهة الشرق على سمت واحد الى ان يعترضه النيل الهابط من الجنوب الى مصر ، فهناك ينقطع . وعرضه ثلاثة مراحل وازيد . »

« ويعترضه من جهة المغرب الأوسط أرض محجرة تسمى الحمّادة من دون بلاد مُزاب الى بلاد ريغ . »

ومن ورائه ـ أي من وراء العرق ـ مجالات المتلثمين كما قلناه : مفاوز معطشة الى بلاد السودان . »

« وما بين بلاد الجريد هذه والجبال التي هي سياج التلول بسائطُ متلون مِزاجها بمزاج التلول تارة وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومياهها ومنابتها وفيها القيروان وجبل أوراس معترض في وسطها الحُضنة حيث كانت طبنة ما بين الزاب والتل . »[1]

نطاق القبلات والطريق الصحراوي

واذن فلدينا على الحدود الجنوبية للمناطق الغنية المأهولة من المغرب ـ

---

١ ابن خلدون ، العبر ج ٦ ، ١٠٠ ـ ١٠١ . وقد نقلت في هذا العرض فقرة « العرق » من موضعها طلبا للايضاح واستعنت في تقويم النص بالترجمة الفرنسية التي عملها البارون ماك ـ جوكين دي سلان واعاد نشرها بول كازانوفا سنة ١٩٢٥ ـ ج ١ ص ١٨٦ وما يليها . انظر ثبت المراجع .

وهي مناطق الساحل فالتلول فالجريد أو الشطوط ـ منطقة رابعة أو نطاق رابع من الجهات المأهولة يسير من الشرق الى الغرب (أو العكس) ايضاً وهو نطاق القبلات ، وهذا النطاق قد يقترب من نطاق الشطوط أو الجريد فيصيران نطاقاً واحداً كما نرى في تونس والجزائر ، وقد يبتعد عن نطاق الجريد فتفصل بينهما رمال الصحراء كما نرى في ليبيا والمغرب الاقصى ، ولكنه رغم ذلك الاختلاف في الارتفاع شمالاً أو الانخفاض جنوباً يظل نطاقاً متصلاً يتكون من مجموعات من جزائر الصحراء أو الواحات ، وكل مجموعة منها تكوّن ناحية يسميها ابن خلدون بالقبلة أي الجنوب بالنسبة لأقاليم الساحل . والمناطق التي يتكون منها هذا النطاق تقوم سياجاً فاصلاً ونهائياً بين المغرب كله والصحراء الكبرى ، وربما وقعت بعض مناطق هذا النطاق في الصحراء نفسها كما نرى في حالة ودّان وفزان ، ولكن فزان في هذه الحالة تعتبر الحد الفاصل النهائي بين ليبيا والصحراء جنوبها رغم أن نفس رمال الصحراء تفصلها عن طرابلس ، ومثل هذا يقال عن منطقة السوس وسجلماسة في المغرب الأقصى .

خلال هذا النطاق سار الطريق الثالث الذي يقطع المغرب كله من الشرق الى الغرب كما ذكرناه . وهو في هذه الحالة طريق صحراوي كطرق الجزيرة العربية : خط يصل بين جزائر الواحات ، وهو ككل طريق صحراوي حافل بالمتاعب والمشاق ولا يخلو من الأخطار ، ولكن كانت له ميزاته وخصائصه التي جعلته عامراً بالحركة طوال العصور الوسطى وفترة طويلة من العصور الحديثة حتى قبيل فترة الحرب العالمية الأولى .

فأما الميزة الأولى فهي أنه كان يسير بعيداً عن السلطان المباشر لدول المغرب التي كانت ترهق القوافل والتجار والسُّفار بالضرائب والأتاوات من كل صنف ، ومن أسف ان دولنا في العصور الوسطى لم تنتبه ابداً الى الخير العميم الذي يعود عليها من وراء حماية التجار والصناع والزراع ،

ولم تكف ابداً عن قتل الأوزة التي تبيض بيضة الذهب ، فالى جانب ما كانت هذه الدول (ورجالها) تفرضه من الضرائب والمغارم على القوافل لم تكن قادرة على حمايتها وتأمين المسافرين فيها ، وظلت مسؤولية أمن القافلة على أهل القافلة نفسها ، أما على الطريق الصحراوي الذي نتحدث عنه فلم تكن هناك – في الغالب – دول او وزراء او كتاب او جهابذة او مكاسون أو عشارون وانما كانت هناك قبائل ، والقبائل التي تقوم منازلها على طرق التجارة حريصة دائماً على ان تكسب ثقة القوافل والتجار لأنهم مصدر رزق وحياة لها ، والأمر هنا لا يقتصر على ان القبيلة تجبي اتاوات خفارة على القوافل ، بل هناك ما هو اهم من ذلك ، وهو ان طريق القوافل هو الصلة بين القبيلة والعالم الخارجي ، عن طريقه تصرف ما يزيد على حاجاتها من منتجاتها اليدوية وتحصل على الآلات والأسلحة ومصنوعات المدن ، وعن طريق طرق التجارة تظل متصلة بالحياة والدنيا . ومن الطريف بالنسبة لحياة الصحراء ان القبيلة التي لا يمر بمنازلها طريق تجاري او التي لا تسعى للاتصال بهذه الطرق بصورة ما لا بد ان تضعف وتتدهور وتتفكك وتتلاشى .

ولهذا فكل القبائل القائمة على طرق التجارة تعنى بالقوافل والتجار وتخفرهم وتؤمنهم ما داموا في ارضها . اما الذين يعتدون على القوافل فهم الصعاليك والنهابون من خلعاء القبائل او شراذم القبائل التي تدهورت وتفككت .

ولهذا كان الإقبال على طرق التجارة الصحراوية دائماً عظيماً . وطريق القبلات هذا بالذات كان دائماً أعمر وأكثر انتظاماً واضخم حجماً من طريق الجادة والطريق الأعلى .

والسبب الثاني هو ان تكاليف السفر على الطريق الصحراوي ارخص وأقل كلفة ، فان المسافر عليه لا يحتاج الى اكثر من الضروري من

الطعام والشراب في حين ان طريق الجادة مثلاً يمر بالمدن وكبار القرى مما يستتبع الانفاق الكثير في الطعام والمبيت ، خلا ما ينفق في الأسواق .

والسبب الثالث ان هذا الطريق اسرع ، فهو قصير نسبياً ومباشر ، يخرج من منزل لمنزل قصداً دون ان يتوقف في مدن او قرى ، وهذا بطبعه يستتبع ضبط المواعيد ، فاذا كانت القافلة ستشرع في المسير في فجر اليوم التالي كان الناس في مواضعهم قبل الموعد ، في حين ان القوافل المارة بالمدن يظل طبل التجمع يدق في المناخ طوال اليوم ليجتمع الرفاق ويشرعوا في السير صباح اليوم التالي . وفي مدن كبيرة مثل القيروان وطرابلس والقاهرة كان الطبل يدق ثلاثة ايام قبل المسير .

والسبب الرابع ان هذه الطرق الصحراوية طرق تقشف ومشقة ومن ثم كانت اقرب الى مزاج الحجاج من الأتقياء والصوفية والمرابطين ومن اليهم ، ومن هنا فقد كانت طرق الصحاري دائماً طرق اسلام ونشر للدين ، وهذه ظاهرة تتجلى لنا في تاريخ الحركة السنوسية ، وفيما يتصل بموضوعنا سنلاحظ ان طريق « طرابلس — فزان — كوار — السودان التشادي كان من اعظم المسالك التي سار فيها الاسلام لينتشر في افريقية.

ونمر الآن مسرعين بمراحل ذلك الطريق حتى تتبين لنا اهمية فزان فيه . يبدأ هذا الطريق عند القُصير على شاطىء البحر الأحمر ويصل الى النيل عند قُفط ثم الى الخارجة في الواحات الخارجة ومنها الى البلاط في الواحات الداخلة ، ويسترسل الى واحات الكُفرة ثم يصل الى فزان عن طريق واحات واو الكبير و واو الناموس وبير معروف ، وهو يدخل فزان عند تُمُّو فزويلة فرزوق ، وهذه الاخيرة كانت قلب فزان وأهم مراكزها في العصور الماضية .

ومن هناك يخترق الطريق هضبة الحَمَّادة الحمراء ويصعد حتى غدامس ثم يتجه غرباً خلال منطقة كثيرة الواحات جنوب الجمهورية الجزائرية

الحالية ، وهي منطقة الأحساء أي الآبـــار وفيها اكثر من اربعين واحة يبدأ اسم كل منها بلفظ حَسْيٍ ،وهي اليوم ايضاً منطقة البترول الجزائري. وهي تشمل ما يعرف اليوم بعمالتي الواحات والسَّاورَة في صحراء الجزائر ؛ وتنتهي هـذه السلسلة عندما يصل الركب الى الحمراء قرب منبـع واد درعة ، وهناك تنقسم القافلة قوافل فمنها ما يتجه شمالاً بغرب نحو سجلماسة والسوس ومنها ما يتجه رأساً الى شِنقيط ومنها ما يتجه جنوباً بغرب الى بلاد السودان الغربي وسنلم ببعض نواحيها بعد قليل .

وعند كل مرحلة من مراحل هذه الطريـــق تتفرع طرق اخرى ، فعند قُفط في مصر يشرع الطريـق الذي يسير شمالاً محاذياً النيـل الى الفسطاط والقاهرة ويسير جنوباً الى اسوان . ومن قفط يتفرع ايضاً طريق الى أسنا ومنهـــا الى دارفور وكُردفان ووادّاي . وعند الكفرة يشرع طريق الى الشمال الغربي الى اجدابية ، ومن هذا يتفرع طريق آخر الى العجيلة ، واجدابية قريباً من خليج سرت والعجيلة عليه .

ومن فزان تتفرع طرق شتى في كل اتجاه سنتكلم عن بعضها بعـد قليل .

وفي منطقة الأحساء تلتقي طرق كثيرة آتية من نواحي الجزائر وخاصة قسطنطينة وبجاية والجزائر ، وقد سبق أن قلنـــا إن نطاق القبلات يختلط هنا بنطاق الجريد ويصـيران نطاقاً واسعاً واحداً كان في العصور الوسطى القلب الحقيقي للقطر الجزائري الذي كان يسمى اذ ذاك بالمغرب الأوسط، فهناك تتصل مناطق بسكره و واركلي وهُدنة أو حُضْنَة والزاب ومزاب وتيزي بعضها ببعض ، وهي مراكز العمران والـثروة والمزارع والغابات والمراعي التي اعتمد عليها رخاء المغرب الأوسط في العصور الوسطى .

وفي هـذا الجزء الأوسط من الطريق قد تتجه القافلة من غـــات الى الجنوب الغربي فتخترق اقاليم الهُقار الذي يسمى الآن بأهُجار ثم يصعد شمالاً بشرق حتى يصل الى تِندوف قرب الحدود المغربية .

فــزان

وفزان دون شك اكبر مراحل هذا الطريق واكثرها واحات ومرافق ومعايش ، بل هي اكبر مجموعة واحات في الصحراء الكبري كلهـا ، وهي نتيجة لهذا اغنى المراكز الصحراوية واكثرها سكاناً ، تطل عليها من الشمال جبال متوسطة الارتفاع تتكون من جبل السوداء وجبل الشرقية ثم مرتفعات هَروج الأسود من الشمال الشرقي ، وهذه المرتفعات تحدد نهاية الهضبة الليبية وبداية مرتفع الصحراء ، أي أن الانسان بعد ان يعبرهـا يُخلّف وراءه منطقة البحر الأبيض المتوسط ويدخل في المنطقة الصحراوية بكل خصائصها الجغرافية والمناخية ، أي ينتقل من مزاج التلول الى مزاج الصحراء على حد تعبير ابن خلدون .

وفزان منخفض واسع من سلسلة منخفضات الصحراء الليبية وامتدادها غرباً ، وتبدأ هذه السلسلة بمنخفض الواحات الخارجة والداخلة في الصحراء المصرية ثم تستمر السلسلة حتى المحيط الأطلسي فتتوالى منخفضاتهـا على مراحل متباعدة . وفي معظم هذه المنخفضات نجد الماء في قيعان الأودية أو يظهر بعـد حفر قليل ، ووجود الماء في هذه المواضـع هو نتيجة لانخفاض سطحها عن عامة الهضبة ومرتفعاتها من حولها .

وفيما يتصل بمنخفض فزان نقول انـه يشمل كل ولاية فزان الشاسعة ، وهو يتكون من حوض تشقـه وديان طولية تتجه في الغالب من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، وتحده من الجنوب جبال تُمّو وتسيلي ، ويحده من الجنوب الغربي خط تقسيم المياه بين رملة مرزوق في ليبيا وهضبـة مُداما – جادو في جمهورية النيجر ، أما في الغرب فيحـده خط تقسيم المياه بين منخفض فزان ومنخفض جانه في الجزائر .

وتقوم الحياة في فزان في الواحات ، وكلها قائمة في الوديان الـتي اشرنا اليها ، وهذه الوديان هي من الشمال الى الجنوب : وادي الشاطىء

ووادي لجال ووادي الحُفرة ووادي الحكمة ووادي تنزوفت .

وأهم هذه الوديان جميعاً واغناها بالماء والمدن والحياة هو وادي الشاطيء ، وهو يمتد بين الحمادة الحمراء في الشمال ورملة الزلاف في الجنوب، ومن هذه المرتفعات تجتمع مياه المطر في الوادي المنخفض الذي يبلغ طوله نحو ٢٠٠ كيلومتر ويتراوح عرضه بين ١٠ و ١٢ كيلومتراً . وحافات هذا الوادي قريبة من القائمة في كثير من الأحيان ، فيبدو وكأنه خانق عميق يجري في قاعه مجرى يصل اتساعه احياناً الى كيلومتر . وفي بطن هذا المجرى يجري الماء احياناً، ولكن مورد الماء الحقيقي هناك هي العيون التي تحمل الماء قريب السطح واهمها عدرى و تمسان ومهروجة وغيرة وبفضل هذه العيون قامت مدن فزان الهامة مثل براك والشاب والشّدة .

ويوازي وادي الشاطيء تقريباً وادي رملة الزلاف وهو على نحو كيلومترين الى الجنوب ؛ وهو اقل امتداداً واتساعاً منه .

أما أهم وديان فزان فهو وادي الآجال وهو يشمل كل المنخفض الواقع جنوب رملة الزلاف ، وهو يبدأ في الشرق عند واحة العُبارى حيث يبلغ اتساعه اقصاه ، ثم يضيق شيئاً فشيئاً كلما اتجه غرباً حتى لا يزيد اتساعه على كيلومترين في طرفه الغربي . ويمتد هذا الوادي امتداداً شاسعاً فيبلغ طوله ٤٨٤ كيلومتراً ، منها ١٩٣,٥ كيلومتراً تقوم فيها الواحات . ويحد هذا الوادي من الشمال الحافة الجنوبية لرملة الزلاف، ومن الجنوب الحافة الشمالية لحمادة مرزوق .

وينحدر وادي لجال انحداراً مستمراً في امتداده من الغرب الى الشرق، وأعلى جهاته هي الشرقية المسماة بالوادي الشرقي ، ويضم هذا الوادي واحات الجريد وتمنهنت وتمنو وزغنو، وتغطي ارضه في بعض الاحيان حشائش تشبه ما يوجد في منطقة الحشائش العالية في السودان .

أما جزؤه الغربي المسمى بالوادي الغربي فيخترقه نهر يسمى وادي

منكوسة ينصب اليه من جبال مرزوق وتنمو في بطنه حشائش صالحة للرعي .

وفي وادي لجال تقوم اكبر واحات فزان وهي سَبْهة (اكبر مدن فزان وعاصمة ولايتها) .

أما وادي الحفرة فهو اكبر وديان فزان حجماً وأقصاها جنوباً ، وهو في الماضي كان الجزء الرئيسي من فزان ، وفيه تقع أهم مدنها الى اواخر القرن الماضي وهي مرزوق. وعلى مقربة منها تقوم واحات طَراغِن وأم الأرانب وتِميسة وفيه مجري وادي عقبة ووادي برجوج . ويحد وادي الحجال من الشمال سرير الغطوس ، ومن الجنوب رملة المرزوق وفي أقصى طرفه الغربي تقوم واحة ام الحمام ، ويسمى الجزء الشرقي من وادي الحفرة بالشرقية ، وأهم واحات الشرقية زَويلة وأم الأرانب و واو الكبير.

أما الواديان الباقيان من وديان فزان وهما وادي الحكمة ووادي تنزوفت فأقل أهمية من الثلاثة الأولى ، والأول من هذين الواديين يشمل منطقة اقليم القطرون وأرضه صخرية قليلة الرمال من الطراز المسمى بالسرير ، وأما الثاني، وهو وادي تِنزوفت فمعظم أهله من الطوارق وواحاته الرئيسية هي غات وتونين وفواريات وبَرْقيط وسَرديس .

والجو في المنطقة كلها قاريّ صرف ، دافىء في النهار ، بارد في الليل ، شتاء . وحار في النهار ومعتدل في الليل ، صيفاً . احسن المواسم للحياة هناك هو الشتاء ، حيث يزداد دفء الجو في الوديان في النهار ، وتقل البرودة في الليل . وينخفض الفرق بين النهايات الصغرى والكبرى، ويظهر هذا بشكل واضح في الواحات حيث تكثر احراش النخيل وتنمو أنواع من الأشجار تحتمل الجفاف ، ويسقط المطر وبلاً حيناً ورذاذاً حيناً ولا يخلو موسم من مَطْرة غزيرة او اكثر فتنبت الحشائش الخضراء

للمرعى . ويكفي ماء المطر لزراعة الحبوب في معظم السنين ، ولكن هذه الزراعة محدودة المساحات والمحصول ، وفي بعض الواحات الأخرى يمكن ريّ الأرض وزراعة مساحات كبيرة بالحبوب والخضر . وهذه الى جانب التمر ولحوم الضأن والماعز والجمال هي قوام الحياة في تلك المنطقة الواسعة .

ومن هذا العرض العام يتبين ان فزان في مجموعها اقليم قليل الموارد، غير قادر على حمل الكثير من السكان ، فان مصادر الأرزاق فيه قليلة وتتطلب مع ذلك جهداً كبيراً في استغلالها ، واذا استثنينا التمر فإن الحاصل منها بعد ذلك لا يسد الا ضروريات الحياة . ولقد كان لهذا اثره في اخلاق الفزانيين على مر التاريخ ، فهم قوم عرفوا بصلابة البنيان ، ومتانة الخلق والصبر على متاعب الحياة مع نظر للمستقبل وتدبير لشؤون المعاش وعناية بالمسافر والضيف وعابر السبيل ، وهم كذلك اهل ايمان وتقشف وتمسك بالموروث من العادات والتقاليد .

فزان : جسر على بحر الرمال

ولكن الموقع الجغرافي لفزان عوضها الكثير عما فاتها من قلة الموارد والأرزاق ، فهي معْبَر عظيم بين شرق القارة الافريقية وغربها ؛ وهي بامتدادها العرضي الواسع تحمل المسافرين جزءاً كبيراً من الطريق ؛ فاذا فرغوا منها ووصلوا الى احدى القرى الواقعة في طرفها الغربي مثل غات او سرديس فقد قطعوا نصف الطريق في سيرهم الى غربي القارة ، وأفضوا بعد ذلك الى مناطق الجريد الواسعة جنوبي المغرب الأوسط — القطر الجزائري حالياً — وهي مناطق كثيرة العيون والواحات وأماكن النزول والراحة والزاد .

ولكن اهمية فزان كجسر بين شمال القارة وقلبها تزيد على اهميتها

كمعبر على الطريق مـــن الشرق الى الغرب وبالعكس ، لأن فزان تقوم في الموضع الذي تبلغ فيه الصحراء الكبرى اقــل اتساعها من الشمال الى الجنوب ، واذا نحن استثنينا طريق النيل والطريق الساحلي الممتد من جنوب المغرب الأقصى الى حوض السنغال لم نجد معبراً آخر للصحراء الا في فزان، لأن القوافل تنحدر من طرابلس الى ودان وفزان في طريق عامر كثير الآبار ، وبعد ان تقطع فزان في طريق معروف عامر بالسابلة وتصل الى تمو على طرفها الجنوبي تدخل في اقليم كوّار ، وهي اقليم آبار وموارد ماء تصل بالمسافرين الى منطقة بحيرة تشاد التي تعرف بالسودان التشادي، وهو المساحة الواسعة من السودان العام الذي يُقسّم عرضاً الى السودان النيـــلي ثم السودان التشادي ثم السودان الغربي ويقطع القارة من شرق لغرب على هذه الصورة في منطقة السهوب المدارية .

ومن هنا كانت لفزان اهمية عظمى من هذه الناحيـــة طوال العصور الوسطى بل الى اواخر القرن المـاضي . وفي منتصف القرن الماضي عندما نشط الأوروبيون لاقتحام القارة عبر الصحراء الكبرى وتوافـــد رحالتهم على افريقية من امثال رينيه كايّيه وبارْت وناختيجال لم يجدوا سبيـــلاً لاختراق القارة من الشمال الى الجنوب الا عن طراق فزان . ولقد حاول اولهم وهو رينيه كاييه ان يصل الى تُمْبُكتو عن طريق المغرب الأقصى فلم يفلح ، فجرب ان يقطع الصحراء من ناحية الجزائر فتبين ان ذلك مستحيل ، فاضطر للذهاب الى القاهرة ومنها الى قفط ثم طريق الواحات وواصل السير حتى وصل الى مرزوق ، ومن هناك استطـاع العبور الى السودان الأوسط فالغربي .

وهذا الموقع الجغرافي وأهميته كمعبر للصحراء من الشرق للغرب ومن الشمال الى الجنوب هو الذي يعنينا في هذا البحث ، فقد وصل الاسلام الى مناطق السودان عن طريق حوض النيل الأعلى آتياً من شرق القارة حيناً ومن شمالها الشرقي حيناً آخر ، ولكـن فزان كانت الطريق المفتوح

دور عظيم في التكوين الديني والحضاري لجزء كبير من القارة الافريقية للاسلام والحضارة العربية بصورة دائمة ، وعن هذا السبيل كان لفزان كما سنراه .

فتوح فزان وكوار

دخل الاسلام فزان من زمن مبكر جداً ، فكان الذي حمله اليها اول الأمر عقبة بن نافع الفهري في سنتي ٢٢ و ٢٣ ﻫ / ٦٤٢ — ٦٤٣ م. بعد استيلاء عمرو بن العاص على برقة مباشرة . فقد ارسل عقبة من برقة مباشرة في بعث فتح زويلة اقرب مدن فزان الى برقة ، وكانت اذ ذاك منفصلة عنها لا تعد منها . وبعد ذلك بقليل ، وبعد ان فتح عمرو ابن العاص طرابلس في نفس العام تقريباً ، أرسل قائداً من قواده هو بُسْر بن أرْطَأة ففتح ودّان . وفي سنة ٦٦١/٤١ اخضع عقبة قبائل غدامس التي كانت ضاربة فيما بين برقة وطرابلس ، ثم احتل غدامس سنة ٦٦٢/٤٢ واتجه الى الجنوب ففتح بعض واحات الصحراء . ومن ذلك الحين الى سنة ٦٧٠/٥٠ ظل عقبة مقيماً في هذه النواحي الصحراوية يستكمل فتحها ويُدخل اهلها في الاسلام ويعلمهم قواعده ويكسب ولاءهم ، ولم يكن هذا بعسير على عقبة ، فقد كان بطبعه رجلاً زاهداً متقشفاً عظيم الايمان تتوق نفسه الى الجهاد في سبيل الله ، وكان مزاجه بدوياً خالصاً لا يألف المدن ولا يميل الى الواحات ولا يطلب من الدنيا شيئاً ، وكان باسلاً مقداماً طلْق اليد لا يبقي على مال ، وهذه كلها خصال تعجب البدو وتفتنهم ، فلم يلبث عقبة ان اصبح بطلاً في أعين اهل وادن وفزان وغدامس وما اليها من الواحات ، ودخل اولئك الناس الاسلام على يد عقبة وعلى طريقته ، فكان اسلامهم من ذلك الوقت المبكر اسلاماً سليماً ، وظل على هذه الصورة بعد ذلك .

وفي سنة ٦٦٦/٤٦ قام عمرو بحملة كبرى وصلت بالاسلام الى اقليم كوّار في الجنوب وغرست جذوره فيها ، وقد اتانا ابن عبد الحكم بقصة هذه الحملة الكبيرة في تفصيل تشوبه لمحات من قصص لا يعسر علينا استبعادها والاحتفاظ بصلب الوقائع التاريخية ، ونورد نصها هنا فهي عظيمة الأهمية لنا ، قال :

« ثم خرج الى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ٤٦ ومعه بُسر بن أبي أرطأة وشريك بن سُمّى المرادي ، فأقبل حتى نزل بمَغْمَداش من سُرت ، وكان قد توجه بسر اليها — كما حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ٢٦ — من سُرت ، فأدركه الشتاء وكان مضعفاً . وبلغه ان اهل ودان قد نقضوا عهدهم ؛ ومنعوا ما كان بُسر بن ابي أرطأة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث اليها بسراً قبل ذلك وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها » .

« فخلف عقبة بن نافع جيشه هناك ؛ واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي ؛ ثم سار بنفسه وبمن خف معه : اربعماية فارس واربعماية بعير وثماني مائة قربة حتى قدم ودّان فافتتحها ؛ وأخذ ملكهم فجدع اذنه ؛ فقال : لمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدباً لك ، اذا مسست اذنك ذكرته فلم تحارب العرب ، واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم : ثلثمائة رأس وستين رأساً » .

ثم سألهم : هل من ورائكم احد ؟ فقيل له جَرّمة ، وهي مدينة فزان العظمى ، فسار اليها ثماني ليال من ودان ، فلما دنا منها ارسل فدعاهم الى الاسلام فأجابوا . فنزل منها على ستة اميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وموكبه ، فأمشوه

راجلاً ، حتى أتى عقبة وقد تعب ، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم، فقال له : لمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً ؟ فقال عقبة : أدباً لك، اذا ذكرته لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلثمائة عبد وستين عبداً ، ووجه عقبة الرحل من يومه ذلك الى المشرق » .

« ثم مضى على عهده الى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى الى اقصاها فسألهم : هل من ورائكم احد ؟ قالوا نعم ، اهل خاوار ، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل ، وهو قصبة كوّار ، فسار اليهم خمس عشرة ليلة ، فلما انتهى تحصنوا فحاصرهم شهراً ، فلم يستطع لهم شيئاً ، فمضى امامه على قصور كوار فافتتحها حتى انتهى الى اقصاها وفيه ملكها ، فقطع اصبعه ، فقال : لمَ فعلت بي هذا ؟ قال ادباً لك ، اذا انت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثلثماية عبد وستين عبداً » .

« فسألهم : هل من ورائكم احد ؟ فقال الدليل : ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة ، فانصرف عقبة راجعاً فمر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة ايام ، فأمنوا وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسمه اليوم فرس ، ولم يكن به ماء ، فأصابهم عطش شديد اشفى منه عقبة واصحابه على الموت ، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله ، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصره عقبة فنادى بالناس أنْ احتفروا ، فحفروا سبعين حسياً فشربوا واستقوا ، فسمي ذلك ماء فرس » .

« ثم رجع عقبة الى خاوار من غير طريقه التي كان اقبل منها ؛ فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلاً ، فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في اسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم . ثم انصرف

راجعاً فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة اشهر ، وقد جمت خيولهم وظهرهم فسار متوجهاً الى المغرب ، وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ الى ارض مزاتة فافتتح كل قصر بها ثم مضى الى قفصة[1] فافتتحها ، وافتتح قسطيلية ، ثم انصرف الى القيروان[2] » .

وقد اتيت بنص هذه الفقرة على طولها لأنها حافلة بالعبارات والملاحظات التي تصور لنا الجهد الذي بذله المسلمون الأول في فتح ودان وفزان وكوّار ، وهو جهد ساعد الله عقبة ليقوم به ، فما كان احد يستطيع القيام به غير مجاهد متقشف عميق الايمان كهذا الرجل ، وقد كان لهذا الجهد اثره الباقي في هذه الناحية فأصبحت من ذلك الحين مركزاً للاسلام الصادق الصافي . والطريف في الأمر ان عقبة اتم عمله ففتح اقليم كوار ايضاً ، وسنرى بعد قليل ان هذا الاقليم يكمل الطريق الى السودان التشادي اي الى قلب افريقية ، فكأن عقبة كان يدرك بالاحساس الفطري السليم الذي ميّز الكثيرين من رجال الفتوح الاسلامية الأولى بأنه يفتح للاسلام بهذا العمل طريقاً واسعاً الى دنيا شاسعة . ولا نستغرب لهذا ان تظل اقاليم ودان وفزان وكوار مراكز للحركات الصوفية ودعوات الجهاد ،

---

١ مكان هذا اللفظ بياض في الاصل المطبوع ، وقد استكملته من البكري ، صفة افريقية ، بتحقيق دي سلان ، الجزائر ١٨٥٧ .

٢ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، بتحقيق تشارلس س. توري ، نيو هيفن ، مطبعة جامعة ييل ، سنة ١٩٢٢ ، ص. ١٩٤-١٩٥ وكذلك طبعة البير جاتو ، الجزائر ١٩٤٧ (مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمة) ، ص ٦٢ - ٦٤ ، وقد نقل البكري هذه الفقرة كلها بنصها ، انظر الجزء الخاص بالمغرب من المسالك والممالك ، بتحقيق البارون دي سلان بعنوان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - الجزائر ١٨٥٧ ، ص. ١٢ - ١٣ ، وانظر كتابنا «فتح العرب للمغرب» (القاهرة ١٩٤٧) ص. ٦٤ - ٦٥ ، ٦٩ - ٧٠ و ١٣٥ - ١٣٧ .

ولا زالت ودان الى الآن بلداً مقدساً في اقليم الجفرة فقد كانت ولا زالت مركزاً من مراكز القوة السنوسية .

اقليم كوّار ، دهليز يؤدي الى قلب افريقية

وما دمنا قد وصفنا فزان وبيّنا مكانها واهميتها كمعبر عظيم القيمة على الطريق من شرقي القارة الى غربها خلال الصحراء الكبرى وكجسر بين شمالها وجنوبها ، فلنقل كلمتين عن بقية هذا الجسر الذي يؤدي بالمسافر فعلاً الى السودان التشادي ونقصد بذلك اقليم كوّار الذي رأينا اجتهاد عقبة بن نافع في فتحه واصراره على تمهيد امره للاسلام .

هذا الاقليم يقع الى غربي جبال تيبستي ويقوم بأسره في جمهورية النيجر السودانية (لا نيجيريا) .

هذا الاقليم طريف من النواحي الجغرافية والبشرية والاقتصادية والحضارية . فأما من الناحية الجغرافية فان كوّار أشبه بمنخفض طولي بين جبال تبستي في شرقه وهضبة جادو في غربه ، أما هضبة جادو فطرفها الشمالي يقع في ليبيا الى جنوبي فزان ، وبقيتها تقع في جمهورية النيجر ، وهضبة جادو مثال للحمّادات أي الصحارى الصخرية التي وصفها الاستاذ احمد توفيق المدني في كتابه عن جغرافية الجزائر (ص ٥٢) بعبارة لطيفة : « وهي عبارة عن صخور صلدة محرّقة يتبع بعضها بعضاً على مسافات شاسعة جداً ؛ هي بلاد الموت والغم والكمد ، لا توجد فيها ولا تكاد ترى فيها نباتاً او حيواناً . »

حمّادة من هذا النوع تفصل بين فزان وكوّار فيما عدا وادياً ضيقاً هو امتداد لوديان فزان الى الجنوب يسير بين سفوح التبستي والحافة الشرقية لهذه الحمادة . هذا الوادي ينفسح احياناً وتنبجس المياه من عيون في قاعه على مراحل لا يزيد بُعد الواحدة منها عن الاخرى مسيرة يوم للقوافل ،

فكأنه على هذا شارع انشأته الطبيعة خلال متوات الحمادة ليكمل الطريق من فزان الى اقليم بحيرة التشاد وما يليه جنوباً وجنوباً بغرب من بــلاد افريقية الاستوائية .

اقليم كوّار نفسه استمرار هذا الشارع . انه شريط من الواحات يمتد من الشمال الى الجنوب يبدأ بواحة تُمّو جنوبي مرزوق في ليبيا وينتهي عند واحة بلما في قرب جمهورية النيجر ، وقد اصاب جورج إيفير (George Yver) عندما وصف الاقليم بأنه دهليز واحات (un couloir d'oasis) وهذا الدهليز نفسه هو طريق التجارة ، وهو الخيط الدقيق الذي يكمل طريق فزان ويصل بالقوافل من مرزوق الى حوض النيجر ، وهذا هو الطريق الذي سلكه الاسلام في الوصول الى هذه النواحي مــن الشمال ، فهو على هذا ممر نور مبارك ، عن طريقه انتقل دين ولغة وحضارة من عالم الى عالم ، وهو ايضاً طريق الرحالة الاوروبيــين في العصر الحديث ابتــداء من رينيه كايـيــه الى ان احتل الفرنسيون هذه البلاد عندما احتلوا تشاد في يوليو ١٩٠٦ وانشأوا الطرق العسكرية الحديثة التي غيرت معالم التكوين السياسي والاقتصادي لقلب القارة الافريقيــة خلال نصف القرن الأخير .

وأما أهمية اقليم كوّار من الناحيــة البشرية فان اصل السكان هناك افارقة سود من التُوبو والكنوري والفوليا أو عرب ، وسنتحــدث عن الكنوري والتوبو ودورهم العظيم في نشر الاسلام في افريقية في فقرة تالية، أما الفوليا فمن سودان العرب الافريقي وهم شعب عفيّ اعتنق الاسلام وعمل على نشره في السودان الغربي ، ومن ثم فليس هنا مكان الكلام عنهم . ولكن يهمنا هنا عرب كوّار والغالبية العظمى منهم ينسبون انفسهم الى العرب الأول الذين دخلوا مع عقبة بن نافــع ، وقد رأينا كيف ان عقبة فتح فزان وكوّار وما قرب منها من نواحي الصحراء وظل يتنقل بين بلادها سنوات طويلة ، ومن هنا فمن المحتمل جداً ان

تكون دعوى هذا الفريق من عرب كوّار صحيحــة ، وهذا يفسر لنا كيف استمر اقليم كوّار يؤدي رسالته الدينية والحضارية عبر القرون ، فقد كان اولئك العرب او المستعربون القدماء يعملون باستمرار على نقل الاسلام والحضارة العربية من فزان الى السودان، فقد كانوا مسلمين عرباً يخدمون الاسلام والعروبة . وهذا بدوره يوضح لنا معنى قولنا ان فزان وكوار كانتا جسراً ضخماً انتقل الاسلام والعروبة عن طريقه الى قلب القارة . وكوار بلد صغير ضيق تحدث الرحالة جميعاً عن قلة موارده وفقر اهله ، ولكنهم تحدثوا جميعاً ايضاً عــن اسلام اهله وايمانهم ، هذا الاسلام الذي دخل الى هذه النواحي في نفس الوقت الذي دخــل فيه الاسلام فزان . وفي مطلع القرن الحديث هاجرت الى كوار جماعات من عرب اولاد سليمان فانضاف دم عربي جديد الى سكــان كوار ، وفي اوائل هذا القرن وصل دعـاة السنوسية الى كوار وانشأوا زاوية في بلما اكبر قرى كوار ومركزها الاقتصادي . وهذا كله تجديــد مستمر للدم العربي في كوار الى عصرنا هذا .

ونتحدث الآن عن التوبو من عناصر سكان كوار . هؤلاء في الأصل شعب مستقل بنفسه يسكن منطقة فقيرة الى غربي كوار وتمتد الى مرتفعات الهُقار التي تسمى عادة بأهُجّار .

وينتشر التوبو في فزان ايضاً ، ومنهم يتكون معظم سكان القَطرون ، ويمتدون كذلك في جبال التِّبِسْتي وما يجاورها من نواحي برقع (Borkü) وبدالة (Bodelé) حتى شمال واداي ، وهناك جماعات منهم في بحر الغزال وفي بلاد الكانم وواحات كوار .

وسر انتشار التوبو على هذه الصورة الواسعة ان بلادهم فقيرة جداً ، ثم انهم قوم مجتهدون مقبلون على العمل والرحلــة ، تعينهم على ذلك صغر اجسامهم واحتمالهم الكبير للمتاعب .

والاسم الحقيقي للتوبو هو التِّيدا ، وبهذا الاسم يسمون انفسهم ، أما التوبو والتيبو فأسماء اطلقها عليهم الأوروبيون ، وهم يسمون في بحر الغزال بالكِتشِيرْوا ويسمون في واداي بأسماء شتى منها أمّا – بورْكْوا وكِريدا نوريا وغرفادة .

وهم ليسوا بيضاً صرحاء او سوداً خالصين ، وانما هم شعب هجين يغلب على الظن انهم من اصل بربري ، ولكنهم مسلمون من زمن طويل ، وهم حيثما ذهبوا يحملون اسلامهم معهم ويجتذبون الناس اليه ، وفي كوار يعملون ادلاء للقوافل وخدماء للتجار ، ويرافقون هذه القوافل مسافات بعيدة بعد ان تخرج من كوار ، لأنهم شعب عفي نشيط يرأسه سلطان ينظم شؤونه مع نفر من الأشراف والمحاربين تسمى طبقتهم بالمايْنا ، ومن اشهر عائلاتهم التّوزابا والجوندا والطَّرْماغيرة وكلها عائلات مسلمة تقيم في جبال تبستي .

اما الشعب فكتلته الرئيسية مفرقة في شعاب تبستي ، وقد عُرفوا منذ الزمن البعيد بالإسلام العميق والاقبال على المشايخ والصالحين ، ومن ثم فقد كانوا دائماً دعاة اسلام ؛ وفي يومنا هذا ينضم معظمهم لطريقة السنوسية ولهم في بلادهم زوايا كثيرة اشهرها زاوية واو وزاوية عين جلاّفة .

ومن الواضح ان التوبو زادوا بنشاطهم وايمانهم اهمية كوار كجسر لنقل الاسلام وثقافته ، فانهم ملح هذا الاقليم وعنصره النشيط ، وهم خميرة صالحة تجدهم منتشرين في كل نواحي السودان النيلي والتشادي .

والآن وقد وصفنا فزان وكوار وتكلمنا عن العناصر التي تسكنها وبينّا اهميتها كطريق اسلامي ثقافي ، ننظر الآن في اثرهما في نشر الاسلام فيما يليها من بلاد افريقية جنوباً .

ونبدأ الكلام هنا عن منطقة كانم وشعبها ومملكتها : فقد كانت من

كبار ممالك الاسلام في السودان التشادي ، وكان اهلها ركناً عظيماً من اركان الاسلام في قلب افريقية ، وكان لهم فضل عظيم في ايصال الاسلام الى شعوب كثيرة جنوبهم وجنوبهم الغربي .

فزان واسلام الكانم

قامت مملكـــة الكانم شرقي بحيرة تشاد وامتدت في الشرق حتى بحر الغزال . وقد ذهبت الآن دولة الكانم كوحدة سياسية ودخل الجانب الأكبر من بلادها في جمهورية التشاد ، ودخلت البقية في جمهوريـــة السودان ولكن اهلها باقون كوحدة بشرية عاصمتها أبشيو وهي واحة ضخمة الى جنوب جبال تبستي وتلالها ، وهي واقعة في منخفض يمكن اعتباره من امتدادات منخفض فزان الواسع ، ودليل الصلة الجغرافية بين بلاد الكانم وبلاد فزان ان منخفضي القطرون او الجطرون ، وهو اليوم جزء اساسي من فزان والمملكة الليبية ، كان في الماضي جزءاً من بلاد الكانم ، وقد كانت ناحية القطرون فيما خلا من العصور بحيرة نشأت من تسرب مياه بعض فروع بحر الغزال واستقرارها في المنخفض ، ثم جفت فيما بعد ، مثلها في ذلك مثل بحيرة تشاد التي تجف الآن شيئاً فشيئـــاً وتتحول الى ارخبيلات صغيرة من الجزر تفصل بين اجزائها المستنقعات ولا يتصل الماء ويعمق فيها الا في الوسط .

وسكان الكانم كانوا خليطاً من اهل كانم الاصليين وهم الكانمبو ، وهم شعب سوداني افريقي اصيل ، ومن جماعات الطنجورية وهم عرب في الأصل ترجع اصولهم الى بني هـــلال ، ولكنهم اصبحو افارقـــة سودانيين مع الزمن ، وقد هاجروا بعد القرن العاشر الميلادي من تونس الى طرابلس ثم الى فزان ، ومن هناك تفرقوا فتوجه بعضهم الى وادي وبعضهم الى كانم ، وتفرق الآخرون اوزاعاً في بـــلاد التوبو والبرنو

الذين سنتكلم عنهم بعد قليل .

ولكن العنصر الاظهر في التكوين البشري لمملكة الكانم هم العرب وهم نفس اولاد سليمان والشُوا الذين سنراهم في واداي ، والشوا تحريف لفظ الشاوية وهم رعاة الشياه الذين يتحدث عنهم ابن خلدون عندما يجيء ذكر اقليمهم الاساسي غربي بجايه على ساحل الجمهورية الجزائرية ، والرعاة الشاوية أو الشُوا في العادة اضعف اقتصادياً واجتماعياً من البقّارة او البجّارة وهم رعاة البقر .

والطريف في امر الشوا او الشاوية الذين نجدهم في واداي والكانم والبُرنو وما اليها ان اصولهم البعيدة ترجع الى جنوبي تونس ، وان معظمهم تيجانية الطريقة ، مما يؤكد انهم من سلائل شاوية المغرب الذين تحدث عنهم ابن خلدون ، ومن المعروف ان الطرق الصوفية تُكسب هذه الجماعات الاسلامية العاملة خارج نطاق الاسلام شخصية وقوة معنوية وتبعث فيهم ايماناً يوحد بين قلوبهم ويقدم لهم تنظيماً سياسياً واجتماعياً هم في اشد الحاجة اليه ، ويبعث فيهم شيئاً من نظام الجندية وقوتها الدافعة ، وللطرق التيجانية والقادرية والسنوسية اليد الطولى في نشر الاسلام في قلب افريقية وشرقها ، كما ان للمرابطين الفضل الاكبر في نشر الاسلام في غرب افريقية . والمرابطون قبل ان يتحولوا الى دولة كانوا جماعة صوفية محاربة ، ولولا ان عبد الله بن ياسين – صاحب الفضل الاكبر في قيام دعوة المرابطين – كان صاحب فتوح ونزوع سياسي لكانت الدعوة المرابطية قد اصبحت طريقة صوفية تعمل عملها الهادىء النشيط في نشر الاسلام كما فعلت التيجانية والقادرية والسنوسية ، ولا شك ان هذه الاخيرة هي النموذج الاكبر لحركة صوفية مناضلة نشيطة كان لها اثر بعيد جداً في سير الاسلام في افريقية .

وصل الاسلام الى بلاد الكانم من زمن بعيد ، فقد حملته اليها قوافل التجار والسفار والمرابطة عن طريق جسر فزان وكوار ، ولكن قيام مملكة

كانم الاسلامية فيها يرجع الى هجرة جماعة من زغاوة اصحاب السيادة في دارفور و واداي قبل قيام دولة الفور . هاجرت هذه الجماعة الزغاوية من دارفور الى كوار ومنها دخلت الكانم وانشأت فيها دولة صغيرة ، ثم اقبل بعد ذلك عرب الطنجور الهلالية عن طريق دارفور و واداي فاشتد بهم ساعد الدولة في القرن السابع عشر .

فزان وشعب زغاوة

واخبار زغاوة هؤلاء كثيرة وغامضة ، فنحن نجد ذكرهم في كل ما يتصل بانتشار الاسلام وقيام دُوله في السودان النيلي والسودان التشادي دون ان نعرف شيئاً محققاً عنهم . فابن خلدون يعطينا شيئاً من المعلومات عنهم في فقرة طويلة نقلها عن ابن سعيد واوردها في فصل تاريخه المسمى « الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف احوالهم وما اتصل بنا من دولتهم » (٦/١٩٨ وما يليها) وهو فصل ممتع جدير بأن يكون وحده موضوع دراسة مطولة . أما فقرة ابن سعيد التي نشير اليها فلا شك انه نقلها عن كتاب ابي عبد الله بن فاطمة ذلك الرحالة المؤرخ الافريقي السوداني الذي لا نعرف عنه شيئاً رغم دَيْننا العظيم له عن طريق ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما . وابن سعيد يُعدد في هذه الفقرة امم السودان التي تمتد مواطنها من ساحل افريقية الشرقي عند ما يعرف اليوم بالصومال الى وسط القارة عند بحيرة تشاد . وهذه الأمم على الترتيب هي : الزنج على ساحل المحيط الهندي وعاصمتهم مُمبسَّة ، فهم على هذا اهل كينيا وتانزانيا الحاليتين — البرابرة ويريد بهم اهل الصومال ومدينتهم اي عاصمتهم عنده مقدشو — امة دَمدَم الى جنوب وغرب البرابرة وهم في رأيه على الفطرة يعيشون حفاة عراة — الأحباش : بلاد دموت الى غربي الحبشة ، وكان عليهم ملك كبير

واسع السلطان – شعب سوداني كبير عاصمته أُوقات ، وكانوا مسلمين عليهم ملك يسمى حق الدين محمد بن علي بن اولصَّمع ، والى شمال هؤلاء يقيم البجَّة او البجاوة وبـلادهم تمتد الى ساحل البحر الأحمر – النوبة اخوة الزنج والاحباش، وكانوا يقيمون فيما يلي النيل شرقاً ومدينتهم دُنقلة ، ويليهم الى الشرق « زغاوة وهم اهل دارفور وهم مسلمون ومن قبائلهم تاجِرة ، ويليهم الكانم ، وهم امة مسلمة ومدينتهم الكبرى تسمى جيمي ، وسلطانهم في الصحراء يمتد حـتّى فزان ، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من اولها » . الى هنا ينتهي كلام ابن سعيد برواية ابن خلدون .

واذن فزغاوة – بناء على هذا القول – جنس من السودان او السود يسكنون شرقي السودان النيلي الى الشمال من بحر الغزال فيما يسمى بدارفور .

ولكن الاشارات التي لدينا تدل على خلاف ذلك وتميل بنا الى القول بأن زغاوة كانوا في الأصل فريقاً من بربر المغرب استعربوا واسلموا ثم هاجروا الى شرقي السودان حاملين اسلامهم معهم الى هناك ، ثم اصبحوا سودان بطول الاقامة في هذه النواحي ومخالطة امم السودان المجاورة لهم، ومن المعروف ان الدول الاسلامية في الكانم والبُرْنو وواداي وما اليها انشأها اولاً عرب مهاجرة او بربر مستعربة ثم خلفهـم على الملك اسر او دول سودانية او متسودنة كما يتجلى ذلك في تاريخ البرنو والتوبو والواداي .

وعندما نحقق في الأمر نجد ان زغاوة هؤلاء كانوا في اصلهم البعيد فرعاً من قبيلة بربرية هامة يسميها ابن خلدون زَوُاغة ويعتمد في الكلام عليها على ابن حزم ؛ وزغاوة هؤلاء يكتبون احياناً زَوُاوَة واحيانـاً اخرى زوازة وربما زوارة . وكلها فيما نرى تحريفات من النساخ للاسم الأصلي وهو زغاوة او زواغة ؛ وهؤلاء كانوا فريقاً من البربر الصنهاجيين

يقيمون قريباً من منازل كتامة على ساحل البحر الابيض الى غربي مدينة بجاية ، ثم هاجرت زغاوة او زواغة ، الى بلاد الجريد جنوبي تونس ثم الى طرابلس ، ومن هناك اخذوا طريق فزان وكوار وأفضوا الى اقليم بحيرة تشاد ثم اتجهوا شرقاً فاستقروا في إقليم دارفور وأعطوا جزءاً كبيراً منه اسمهم . دخلوا هذه الناحية مسلمين حاملين جانباً كبيراً من الثقافة العربية الاسلامية ، فأنشأوا المساجد في بلادهم الجديدة وأصبحوا مركزاً من مراكز انتشار الاسلام وثقافته في السودانيْن النيلي والتشادي .

وقد كان فريق من زغاوة او زواغة هؤلاء هم الذين هاجروا الى كانم وأنشأوا اول دولة اسلامية فيها في زمن يصعب تحديده ، ولكنه قبل القرن الرابع عشر الميلادي على اي حال .

والثابت ايضاً ان زغاوة كانت من اول استقرارها في ناحية دارفور قوةً عاملة نشيطة في نشر الاسلام في كل ما جاورها من البلاد ، فقد اتيح لها بعد ان استقرت في تلك الناحية ان تجمع بين الطريقين اللذين اتخذهما الاسلام في الوصول الى السودان التشادي : الطريق الآتي من مصر والطريق الآخر خلال فزان وكوار ، ومن ثم فقد كان لها اثر بعيد جداً في تقوية اكبر تيار فكري ثقافي دخل القارة في تاريخها الطويل : تيار الاسلام والحضارة الاسلامية .

فزان واسلام واداي

ولكي نوضح ذلك بمثل من واقع التاريخ نلقي نظرة على اقليم واداي وهو اقليم اسلامي فسيح كان يشمل الطرف الغربي من حوض بحر الغزال ونهيراته المتعددة ، ويمتد شمالاً بشرق فيقوم حاجزاً بين كردفان ودارفور في الشرق وبلاد الكانم في الغرب ، ويمتد واداي شمالاً حتى السفوح الجنوبية لجبال تبستي .

ويقع الآن جزء من واداي في جمهورية السودان في حين ان بقيتها تقع في جمهورية تشاد ، وهذه الاخيرة من الجمهوريات الاسلامية الافريقية التي لا يعرف عنها عرب اليوم الا القليل ، وهذا القليل الذي نعرفه عن احوال بلاد اسلامية جارة لنا وشريكة في الافريقية مظهر من مظاهر زهد العرب في كل علم يتطلب مشقة وصبراً .

وأهل واداي ككل الشعوب الافريقية الساكنة جنوبي الحزام الصحراوي خليط من امم شتى ، ولكنهم ينقسمون بصورة عامة الى ثلاثة اقسام : جماعات السود او السودان مثل البديّات والزُغاوة والبْجيجا (وهؤلاء يتكلمون لغات سودانية قريبة من لغة النوبة) وجماعات الافريقيين وأهمها الكنوريُون والتّيدا (وهم المعروفون بالتوبو وقد ذكرناهم) ثم جماعات العرب ويمثلهم اولاد سليمان وعرب الشُوا .

فأما اولاد سليمان فمن الثابت انهم دخلوا واداي في منتصف القرن الماضي عندما اخرجهم الاتراك العثمانيون من فزان ، وأما الشُوا فبعضهم أتي من صعيد مصر وبعضهم الآخر من طرابلس او فزان ، وأهم قبائل الشّوا هناك السّلامات وخُزام والجعادنة والمحاميد والدّكاكير ، وهؤلاء دخلوا واداي من زمن مبكر ، وكان اسلامهم اول الأمر سطحياً غير وثيق حتى دخل بلادهم في القرن السابع عشر رجل من الجُعَليّين يسمى صالح او جامع ، وكان فقيهاً مرابطاً فأصلح عقيدتهم وأثار حماسهم وجعلهم يبنون المساجد ويحرصون على شعائر الاسلام .

فاذا نظرنا الى المجموعة السودانية من سكان واداي وهم البديّات والزغاوة والبجيجا وجدنا اولاً انهم بدو ظواعن فيما عدا الزغاوة فان معظمهم اهل قرار وزرع ، اما بقيتهم فبدو ظواعن يعملون بالتجارة ويسيرون بالقوافل مع اخوانهم البديات والبجيجا ، وهم من سادة طريقي القوافل الرئيسيين : النيلي والفزاني . وقوافلهم تصل الى طرابلس تارة

والى أستنا في مصر تارة اخرى ، وقد سبق ان بيّنـــا كيف ان طريق القوافل هذه كانت ايضاً طريق الاسلام والحضارة .

ومعنى هذا اننا نجد هنا مثالاً آخر لأهمية الدور العظيم الذي قامت به فزان في تاريخ الاسلام في افريقيـــة ، فهي لم تكن طريق الهجرات البشرية للجماعات التي حملت الاسلام فحسب بل كانت طريقاً مفتوحـــاً امام حضارة الاسلام حتى اواخر القرن الماضي .

دولة البُرْنو وأثر فزان في اسلامها

وننتقل بعد ذلك الى اقليم البرنو أو برنو ، وكان الى منتصف القرن الماضي دولة اسلامية ذات نظام وسلطان وتاريخ . وكانت تنشر سلطانها على اقليم فسيح شرقي بحيرة تشاد ، بل مدت سلطانها في وقت ما على مملكة الكانم غربي البحيرة . وقد بلغت هذه الدولة اوجها خلال القرن السادس عشر الميلادي، ولم ينته تاريخها كدولة مستقلة إلا في ٢٣ اغسطس ١٩٠٦ عندما احتل الفرنسيون البلاد وقُتل في الميدان فضل الله بن رباح آخر ملوك البرنو من نسل الأمين الكانمي المعروف بالشيخ لَـمينو، وجدير بالذكر ان محمد الأمين الكانمي هذا اصله من فزان وهـــاجر الى البرنو وانشأ هناك اسرة حاكمة من اوائل القرن التاسع عشر .

وتقع مملكة البرنو جنوبي كوّار ، وهي اول بلاد السودان الاوسط التي يفضي اليها المسافر من الشمال الى الجنوب عن طريـــق ممر واحات كوار ، وهي تقع الى غربي بحيرة تشاد ، وتحدها من الغرب بـــلاد الحوْصة او الهاوسا، ومن الجنوب ناحية ادَماوة ، ومن الجنوب الشرقي ناحية باجرمي ، وهي بلاد غنية يرويها نهران يصبان في بحيرة تشاد ، وتدل الدلائل كلها على ان الذين انشأوا البرنو كانوا رجال قبائل مغربية ضاربة في طرابلس ثم انتقلت الى فزان ومنها الى البرنو ، فان الطبقـــة

الحاكمة في مملكة البرنو كانت دائماً من مستعربة البربر وان كانوا ينسبون انفسهم الى اصول عربية صريحة كالاسرة السَّيفية التي تسمى بلغة البرنو بالسيفاوة ؛ فهم ينسبون انفسهم الى سيف بن ذي يزن الحميري، ثم ان الكثير من اسماء القبائل في طرابلس كان يبدأ بمقطع « بر » مثل برداوة وبراوني وبراوين ، ولهذا فانه يحتمل جداً ان اسم برنو كان اسم قبيلة مغربية طرابلسية هاجرت الى هذه الناحية وانشأت دولتها فيها. وعلى اي حال فان برداوة اسم اول الأسر التي تذكر كتب التاريخ انها حكمت برنو ، وهو اسم قبيلة بربرية كانت تنزل طرابلس ، ومن اهل برنو من يقول ان اصل اسم بلدهم بَر-نُوح وهو تعليل مفتعل ولكنه لا يخلو من دلالة .

وسكان البرنو يسمون بلغة اهلها البراوني ، وهم يتكونون من عناصر شتى اهمها اربعة هي الكَنوري والسودان والعرب والبربر والفولبا .

الكنوري : حملة النور

والكنوري اهم هذه العناصر البشرية في البرنو ، فهم يبلغون اليوم ثلاثة ملايين من تسعة موزعين بين جمهورتي النيجر وتشاد، وهم يقولون ان اسمهم مكون من لفظ من اللغة المحلية هو « كا » ومعناه حامل الشيء ولفظ عربي هو « النور » ، فمعنى اسمهم اذن حامل — او حاملوا — النور لأنهم حملة الاسلام الى اهل هذه النواحي من زمن بعيد ، وهناك من يزعمون ان كانوري اصله كانِمري اي انه مشتق من اسم الكانم الذين غزوا بلاد البرنو واستقروا فيها في القرن الرابع عشر . وعلى أي حال فالكنوري ليس اسم امة ولا هو اسم قبيلة . وانما هو اسمٌ جُماعٌ يطلق على ناس من اصول شتى تجمعهم بعضهم الى بعض روابط الاسلام وطابعه الحضاري .

وقد اتى اوائل الكنوري الى بلاد البرنو من بلاد الكانم في القرن الرابع عشر، وكانوا يتكونون من قبائل تتخذ لنفسها انساباً عربية واخرى من الكانمبو والتوبو وانساباً اخرى غير هذه . فمن القبائل ذات الانساب العربية الباجومي وهم رجال قبيلة متفرقة في نواحي المونيو وزندر وكذلك قبيلة التنجالما – دكو ؛ ومن قبائل التوبو الكايو دازا وهم العنصر الغالب على سكان منطقة كوبام وكذلك التجالما والتَرا وقد اختلط الكنوري بأهل البلاد وتزاوجوا معهم فكثرت اعدادهم واصبحوا العنصر الاغلب بين السكان . وهم من الناحية الجسمانية عنصر طريف يجمع صفات من السودان واخرى من البربر أو العرب ، والوانهم تتراوح بين البني الداكن المحمر والرمادي الاسود الذي يسمى في نصوصنا بالأزرق ، وهم يمتازون بالاقبال على العمل والمهارة في الزراعة والنسيج ولا يقبلون على الخمر اقبال الكثير من أجناس هذه النواحي. وهم بشهادة كل الرحالة الذين زاروا بلاد البرنو وكتبوا عنها ، من اكثر السودان عملاً ونشاطاً ومن اعلاهم في المستوى الثقافي والفكري ، وكل هذه خصائص اتتهم من الاصول العربية البربرية الاولى التي انحدرت اكثريتهم من اصلابها ؛ واذا استثنينا مسألة اللون الاسود وبعض الملامح الزنجية وجدنا ان الكنوري وسكان فزان وطرابلس شيء واحد ، فهم امتداد للمغرب الى جنوبي الصحراء عن طريق فزان ، وهذا هو الذي يهمنا في هذا الباب .

أما ما يلاحظ على مجتمع الكنوري من ملامح لا نعرفها في المجتمعات العربية البربرية مثل الحرية الواسعة للمرأة وسلطان نساء البيت المالك وخاصة أم الملك في شئون الدولة فمظهر من مظاهر البيئة الزنجية التي احتفظت بكثير من خصائص مجتمع الامومة ، وهو الغالب على المجتمعات الزنجية على اعتبار انها لا زالت في المراحل الاولى للتطور الاجتماعي . ومثل هذا يقال عن نسبة الاولاد الى امهاتهم بدلاً من نسبتهم الى الآباء ، وهذه ظاهرة يشتركون فيها مع بعض مجتمعات البربر الضاربة على حدود

الصحراء جنوبي المغرب الاقصى خاصة ، وقد ذهب بعض الباحثين الى ان وجود ظاهرة استقلال المرأة وظهورها في مجتمع الكنوري انما هو اثر من آثار اصلهم البربري ، وليس هذا ضرورياً ، لان التشابه في هذه الظاهرة مرجعه الى التشابه في المستوى الاجتماعي،وسيادة الامهات طور من اطوار التطور الاجتماعي لا مجرد ظاهرة حضارية .

اما العرب في اقليم البرنو فمعظمهم من الشوا او الشاوية ، وهذه التسمية تطلق في الغالب على المستقرين منهم ، اما الذين يقومون بالرحلة والظعن فيسمون بالوصيلي او الاواصيلي ولا زالوا محتفظين بطابعهم البدوي رغم استقرارهم ، ويذهب بارْتْ الى ان بعض قبائلهم أتت من الشرق اي من واداي ودارفور ؛ فهم على ذلك من العرب الذين هاجروا من صعيد مصر الى دارفور عن طريق الواحات الذي كان يبدأ اذ ذاك عند أسنا على مجرى النيـــل ولا ينتهي الا في الفاشير ، ومن هؤلاء الأصيلة والجعمة والسلامات ، وبعضهم الآخر اتى من الكانم اي من طريق بحيرة تشاد ، وعرب الكانم انفسهم اتوا من طرابلس عن طريق فزان فكوّار ، ومن هؤلاء بني خزام واولاد حامد ؛ والاولون اقدم اذ انهم اتوا الى البرنو في القرن السادس عشر في حين ان الاخرين لم يدخلوا البرنو الا في القرن التاسع عشر ، وهؤلاء العرب جميعاً يستقرون ويزرعون ويطلقون مواشيهم في المراعي في فصل الامطار ، ويرحلون طلباً لمواقع الكلأ على السفوح العالية في مواسم الجفاف الطويلة ؛ فهم على هـــذا انصاف مستقرين مثلهم في ذلك مثل الاعراب ؛ وطراز حياتهم بالفعل ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي قريبان مما نجده عند الأعراب عامة .

وغير الكنوري والعرب تسكن بلاد البرنو جماعات مختلفة من اصول شتى منها الطوارق والهاوسا والفولبا .

الطوارق ، قبيل مغربي هاجر الى السودان عن طريق فزان وكوّار

فأما الطوارق فجماعات من بدو الصحراء الكبرى تعيش على الحدود الشمالية للسودان الاوسط ويتوغلون في الصحراء شمالاً حتى يصلوا الى جنوب المغرب معتمدين في سيرهم على آبار ومنازل لا يعرفها غيرهم ولا يصبر على السير اليها احد صبرهم . والطوارق ليسوا زنوجاً ولا بربراً ولا اعراباً وانما هم جنس مستقل بذاته لا نعلم عن اصوله الشيء الكثير ، ولكنهم معروفون لأهل الشمال الافريقي جميعاً باللثام الذي يحجبون وجوههم به فيما عدا العينين ، وهم معروفون كذلك بلون بشرتهم الاسود الرمادي الذي يعرف بالازرق وبنحافة اجسامهم وقوتها وصبرهم على السير الطويل واحتمال قسوة العيش الفقير في الصحراء .

والطوارق مسلمون ، ولكن اسلامهم سطحي لا يكاد يزيد على النطق بالشهادتين ، وقد كثرت الحملة عليهم في الكتب الاوروبية التي صدرت من اوائل هذا القرن ، فوصفوا بالغدر والقسوة والسلب والنهب ، ولكننا بندر ان نجد رحالة اوروبياً في النصف الاول من القرن الماضي ، الى سنة ١٨٨٠ يذكر أنهم سرقوه أو اعتدوا عليه أو على قافلته ، لأن الحقيقة انهم ليسوا لصوصاً ولا نهابين ولا قتلة وانما هم شوارد في الصحراء لا سند لهم الا شجاعتهم وسرعة عدو دوابهم ، وهم يرتزقون من العمل ادلة في الصحارى ، ومن ثم فهم يؤتمنون على حياة الناس واموالهم ، ولكن بلادهم فقيرة جداً وحياتهم قاسية وكثيراً ما تضطرهم سنوات الجفاف المتتابعة وتوالي الموتان في مواشيهم الى الاغارة على ما جاورهم من البلاد طلباً للرزق او اليأساً للامان .

اما القول بأنهم نهابون سفاكون فقد نشأ بعد استقرار قواعد الاستعمار في الشمال الافريقي والسودان من طرف لطرف ، فقد رفضوا الخضوع للسيادات الجديدة وتصدوا للدفاع عن انفسهم وساءت احوالهم بتوقف طرق القوافل وحلول الطرق العسكرية محلها ؛ وهذه الطرق الاخيرة تقطعها

قوافل السيارات المسلحة التي قضت زمناً طويلاً في مطاردة الطوارق والقضاء عليهم ، وبعد صراع طويل اتجه نفر منهم الى الاستقرار فيما قرب منه من البلاد وشجعتهم السلطات الفرنسية والانجليزية على ذلك فأخذ امر الطوارق يتلاشى .

ولا نعرف شيئاً محققاً عن اصل الطوارق ، والرأي السائد دون تحقيق انهم أوزاع من شتى قبائل السودان التشادي والغربي ألقت بهم المنافسات والحروب القبلية الى الصحارى حيث تأبدوا في القفار واتخذوا بعض الآبار مراكز ، واشتغلوا بنقل المسافرين والمتاجر او بالغارة على الاراضي الخصبة اذا اضطرتهم الظروف الى ذلك ، وانضاف اليهم بعد ذلك جماعات من امثالهم واندرجوا فيهم فكثرت جماعاتهم .

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق اصل لفظ الطوارق ولا ما هو معناه الحقيقي ، فالمعروف ان اهل افريقية يلفظون اسمهم توارج او تواري بدون اداة التعريف ، ومن هنا فربما كان لفظ الطوارق تعريباً لاسمهم الاصلي كما تقول الحوصة في تعريب اسم الهاوسا وهو تكلف لا معنى له ، لأن حرفي الفاء والصاد لا يوجدان في لغة الهاوسا ومن ثم فالحوصة قطعاً ليس اسمهم ، وقد رسمها ابن بطوطة هكذا لانه في الحقيقة كان يعرب ويُغرّب .

ولكن ابن خلدون يقدم لنا رأياً جديراً بالتأمل عن اصل الطوارق ، فهو يذهب الى انهم بقية المرابطين وبالذات بقية المسوفيين الذين قضوا سنوات طويلة في حرب طويلة مع الموحدين ، ولهذا فقد اورد ابن خلدون كلامه عن الطوارق في ذيل كلامه عن بني غانية ، وجعل منه ختاماً للكلام عن المرابطين جملة ، وسأورد عبارته هنا على تواليها مصححة قدر الطاقة لان نصها في كل طبعات تاريخ ابن خلدون ، بما في ذلك طبعة بيروت الاخيرة والمفروض انها محررة مصححة ، مليئة بالاخطاء من كل نوع .

قال ابن خلدون بعد ان قص حروب الامير ابي العلا ادريس الموحدي

مع يحيى بن اسحق بن محمد بن غانية وطرده اياه من غدامس وودان وبسكره وتونس واخراج هذا المغامر الذي كان آخر عتاة الفرسان من بني غانية المسّوفين مع بقية الملثمين من كل بلاد الساحل الافريقي اولاً ثم من نطاق القبلات التي ذكرناها ثانية ثم تولّي زكريا الحفصي امور تونس واستقلاله بها وقيام الدولة الحفصية واجتهاد هذا الاخير في الحيلولة دون بني غانية المسّوفين ومن اتبعهم من الملثمين والعودة الى بلاد الساحل :

« فأحسن (ابو زكريا) دفاع ابن غانية عنها (اي عن افريقية وهي تونس) وشرّده في اقطارها ، ورفع يده شيئاً فشيئاً عن النيل من اهلها وديارها ، ولم يزل (يحيى ابن غانية) شريداً مع العرب بالقفار ؛ فبلغ سجلماسة من اقصى المغرب والعقبة الكبرى من تخوم الديار المصرية (في المشرق) . واستولى على بلاد ابن مذكود صاحب السويقة من تخوم برقة ، واوقع بمغراوة بوجر ما بين متيجة ومليانة ؛ وقتل اميرهم منديل ابن عبد الرحمن ، وصلّب شلوه بسور الجزائر .

« وكان (أي يحيى بن اسحق بن محمد بن غانية) يستخدم الجند ؛ فاذا سئموا الخدمة تركهم لسبيلهم الى ان هلك لخمسين سنة من امارته سنة احدى وثلاثين وقيل ثلاث وثلاثين [١] ، ودفن وعُفّي اثر مدفنه يقال بوادي الرّجوان قبلة الاربس ، وقيل بجهة مليانة من وادي شليف ، ويقال بصحراء باديس ومديد [٢] ببلاد الزاب » .

« وانقرض امر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد افريقية والمغرب والاندلس بمهلكه ، وذهب مُلكُ صنهاجة من الارض بذهاب ملكه وانقطاع امره . وقد خلف بنات بعثهن – زعموا – الى الامير ابي زكريا بعهده بذلك الى علجة جابر (او صابر) فوضعهن في يده

١ يريد ٦٣١ او ٦٣٣ وهما تقابلان ١٢٣٣ و ١٢٣٥ ميلادية .

٢ في نسخ اخرى صحراء باديس وتقرن وهو الاصح .

وبلّغه وفاة ابيهن وحسن ظنه في كفالته اياهن ، فأحسن الامير ابو زكريا كفالتهن ، وبنى لهن بحضرته داراً لصونهن معروفة لهذا العهد بقصر البنات . واقمن تحت حراسته وفي سعة من رزقه موصولات لوصاة ابيهن بذلك وحفظهن لوصاته . ولقد يقال ان ابن عم لهن خطب احداهن فبعث اليها الامير ابو زكريا فقال لها : هذا ابن عمك واحق بك ، فقالت : لو كان ابن عمنا لما كفلنا الاجانب . الى ان هلكن عوانس بعد ان مُتّعن من العمر بحظ » .

« اخبرني والدي — اي والد عبد الرحمن بن خلدون — رحمه الله انه ادرك واحدة منهن ايام حياته في سني العشر والسبعمائة تناهز التسعين من السنين قال : ولقيتُها ، وكانت من اشرف النساء نفساً واسْراهُن خلقاً واذكاهن حالاً ، والله وارث الارض ومن عليها » .

« ومضى هؤلاء الملثمون ، وقبائلهم لهذا العهد بمجالاتهم من جوار السودان حجزاً بينهم وبين الرمال التي هي تخوم بلاد البربر من المغربين وافريقية . وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب الى ساحل النيل بالمشرق ، وهلك من قام بالملك منهم بالعدوتين وهم قلّ من مسوفة ولمتونة كما ذكرناه اكَلَتْهُم الدولة وابتلعتهم الآفاق والاقطار وافناهم الترف واستلحمتهم امراء الموحدين » .

« وبقي من اقام بالصحراء منهم على حالهم الأول من افتراق الكلمة واختلاف البَيْن . وهم الآن يعطون طاعة لملوك السودان يجبون اليهم خراجهم وينفرون في معسكرهم » .

« واتصل بنيانهم على بلاد السودان الى المشرق مناظراً لسلع العرب على بلاد المغربين وافريقية » .

«فـكُدّالة منهم في مقابلة ذوي حسان بن المَعْقِل عرب السوس الاقصى» .

« ولمتونة وأنتريكة (في مقابلة) ذوي منصور وذوي عبد الله بن المعقل ايضاً ، عرب المغرب الاوسط » .

« ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسطنطينية » .

« وتاركا في مقابلة سليم عرب افريقية » .

« واكثر ما عندهم من المواشي الابل لمعاشهم وحمل اثقالهم وركوبهم ، والخيل قليلة لديهم او معدومة ويركبون الابل الفارهة ويسمونها النُّجُب ، ويقاتلون عليها اذا كانت بينهم حرب . وسيرها هَمْلَجَة وتكاد تلحق بالركض » .

« وربما يغزوهم اهل القَنْص من العرب وخصوصاً بنو سعيد من بادية رياح ، فهم اكثر العرب غزواً الى بلادهم . وهم يستبيحون من صبّحوه منهم يرمونهم في بطون مغائر . فاذا اتصل الصياح باحيائهم ركبوا في اتباعهم واعترضوهم على المياه قبل فصولهم من تلك البلاد ، فلا يكادون يخلصون ، وتشتد الحرب بينهم ، فلا يخلص العرب من غوائلهم الا بعد جهد ، وقد يهلك بعضهم ، ولله الخلق والامر » [1] .

وهذه العبارة الطويلة الحافلة بالمعاني تضع يدنا على اصل الطوارق وعلاقتهم بأهل المغرب والسودان وكيف تأبدوا في الفقر واتخذوه موطناً ، وهي تعطينا كذلك فكرة عن الطريق الذي سلكوه من الغرب الى السودان .

فالطوارق تعريب لاسم قبيلة من بقايا الملثمين هي تاركا او تارجا التي ذكرها ابن خلدون آنفاً تعربت الى طارقا وجُمِعَت على طوارق . وهذه القبيلة كانت في مقابلة بني سليم من بني هلال الذين استقروا جنوبي افريقية .

وافريقية هي تونس الحالية على وجه التقريب ، واذا نظرنا الى الخريطة وجدنا ان المسافة من فزان الى جنوبي تونس قريبة من المسافة من فزان الى طرابلس ، ومن هنا فان طريق الملثمين الى بلاد السودان لا بد قد كان طريق فزان وكوّار ، وما دامت القبيلة الملثمة التي اعطت اسمها

---

[1] العبر ، طبعة بولاق ، ٦/١٩٦ ـ ١٩٨ .

لبقايا الملثمين جميعاً هي تارجا التي كانت ضاربة جنوبي افريقية فلا بد ان طريق فزان كان هو المعبر الرئيسي لهؤلاء الملثمين الى السودان التشادي ، ويؤيد ذلك ما اشار اليه ابن خلدون من ان الامير ابا العلا ادريس الموحدي اوقع بالملثمين عند ودان وشردهم فيما يليها جنوباً من رمال الصحراء وواحاتها .

ويستبعد ان يكون الملثمون قد عبروا من المغرب عن طريق الصحراء الواسعة جنوبي المغرب الادنى والمراد به الجزائر ، لانه لم توجد هنا طرق مسلوكة معروفة ، ثم ان المسافات شاسعة ، ويحتاج الامر الى الشهرين والثلاثة بين مفاوز مهلكه ومهامه منعدمة المياه او نادرتها ، وقد اشار الى ذلك الادريسي عندما تكلم عن طريق الصحراء الخالص وقال ان المرابطين ساروا فيه ، واهم مرحلة ذكرها على هذا الطريق الصحراوي الصرف هي غات ، وهي من فزان وتقع في الطرف الشرقي منها .

واذن فعن طريق فزان ايضاً عبرت بقايا الملثمين واللمتونيين والمسوفيين الى السودان التشادي ، وهذه البقايا هي التي عرفت بالطوارق سادة الرمال واهل الرحلة في القفار ، وهم في صميمهم مرابطون واصلهم مجاهدون في سبيل الدين ، وقد اعطانا ابن خلدون مثلاً عن قوة نسائهم بعد ان مال بهم الزمان « واكلتهم الدولة وابتلعتهم الآفاق » كما يقول ، ولا يمكن ان يكون رجالهم اقل عزة من ذلك وشهامة . وفي رمال الصحراء كان لهم تاريخ طويل ذهبت به الرياح ؛ ولكننا نجد ذكرهم في بلاد كوار والبرنو وأدماوه والهاوسا وغيرها من ممالك الاسلام السوداني . وهم في عداد الجماعات الاسلامية التي عبرت الى السودان عن طريق فزان وكوار .

ملاحظات اخيرة

واذن فقد كان طريق طرابلس ــ فزان ــ كوار ــ تشاد طريقاً

رئيسياً سلكه الاسلام وسارت فيه حضارته الى السودان التشادي اي الى قلب افريقية ، واذا نحن ذكرنا الطريقين الاخرين اللذين سلكها الاسلام الى قلب قارتنا وجدنا طريق فزان هو الاهم والأبعد اثراً ، فقد وصل الاسلام الى السودان الغربي عن طريق الساحل الافريقي الغربي من السوس الادنى واودغشت وسجلماسة الى حوض السنغال وما يليه جنوباً ، ورجال هذا الطريق وفاتحوه هم المرابطون اي مجموعة القبائل الصهناجية التي تابعت عبد الله بن ياسين ويحيي بن عُمَر واخاه ابا بكر بن عمر في عبور الصحراء عن طريق الساحل الاطلسي في نقل الاسلام الى السودان الغربي . ووصل الاسلام كذلك الى اقاليم السودان النيلي عن طريق مجرى النيل نفسه اولاً وعن طريق سكة الصحراء من أسنا الى الواحات الداخلة الى دارفور وكردفان ثانياً ، فأما طريق ساحل المحيط فلم يبدأ سلوكه بصورة منتظمة الا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، اي بعد دخول اهل ممالك السودان النصرانية وهي عَلَوه ومَقُرَّه ودُنقُله في الاسلام ، وكانت وظيفة هذا الطريق اول الامر نقل الحجاج والمتاجر من قلب افريقية الى الحجاز عن طريق أسنا وقُفط والقُصير وعيذاب ثم عبور البحر الاحمر ، اي انه كان طريق حج قبل كل شيء ، اما طريق طرابلس - فزان - كوّار فقد استعمل وحفل بالسابلة من اقدم العصور وعبر عليه الاسلام من ايام عقبة بن نافع والاسلام الاول اي من عصر الخلفاء الراشدين واستمر بعد ذلك عاملاً نشيطاً على مرّ العصور كأنه نهر سيال لا ينقطع منه الماء ، وحتى لو لم يكن هذا الماء فيضاً زاخراً فان استمراره على القرون كان كفيلاً بأن يجعله شرياناً من شرايين الحياة والحضارة في القارة الافريقية .

ان الطرق التي سلكها الاسلام في اربع من القارات الخمس كثيرة وعجيبة : واذا كنا نعرف مثلاً كيف وصل الاسلام الى مصر فاننا لا نعرف على وجه التحديد والتفصيل كيف اصبحت مصر بلاداً اسلامية ،

واذا كنا نعرف كيف وصل الاسلام الى الهند مثلاً فاننا لا نعرف كيف وصل الى اندونوسيا والفلبين وبورنيو . حقاً اننا نعرف انه وصل عن طريق التجار وقليل جداً من الدعاة المتحمسين ، وفي بعض الاحيان نجد ذكر امير او سلطان مسلم قام بفتح ناحية من هذه النواحي القاصية وادخل الاسلام فيها كما حدث مثلاً في حالة سلطان مَلَقَا الذي فتح جزر خُولُو في اقصى الفلبين جنوباً وادخل الاسلام فيها ، ولكن هذه الجهود القليلة وغير المنظمة لا تفسر لنا ظاهرة كبرى مثل اسلام ارخبيل اندونيسيا كله . مثل هذا حدث بالنسبة لانتشار الاسلام في السودان النيلي والسودان التشادي وجانب كبير من السودان الغربي : قوافل تجار ورجال طرق صوفية وقليل من الدعاة المتحمسين . اما الباقي – وهو اضخم جانب من العمل – فقد قام به الاسلام نفسه ، نشر نفسه بنفسه بقوته الذاتية وفضائله وميزاته وتَفَتُّح القلوب له . ما من مرة تأملت هذه الظاهرة الا احسست ان الله سبحانه وتعالى لا يريد ان يكون لأحد على الاسلام فضل ، بل الفضل كله للاسلام على الناس ، وصدق الله سبحانه حيث قال : « يمنون عليك ان اسلموا ، قل لا تمنوا عليّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين » . (الحجرات ١٧) .

لقد اجتهدت في هذا البحث المتواضع ان اتتبع سير الاسلام ووصوله الى قلب افريقيـــة عن طريق سكة واحدة من السكك التي سلكها وهي سكة فزان وكوّار ، فتبينت الكثير من الحقائق الرئيسية المتصلة بالموضوع ، ولكن الذي لم اتبينه اكثر من ذلك ، فان الامر هنا متعلق بظاهرة حضارية سارت سيرها الوئيد في خفية عن العيون ، ولم يقيض الله لهذه الظاهرة من يعنى بها ويؤرخ لها ، ربما لان ذلك في ذاته مستحيل ، فان الامر لم يحدث دفعة واحدة كما رأينا في حالة فتح عقبة بن نافع لودان وفزان وكوّار ، ولكنه كان عمـــل التجار والمرابطين والدعاة ورجال الطرق الصوفية ، فاما التجار فقلما كانوا يدركون انهم ينشرون الاسلام فعلاً ،

واما المرابطون والدعاة ورجال الطرق الصوفية فعملهم يتجمع مع الزمن ، فهم ينشئون الزوايا والخلوات لانفسهم اولاً ، ثم تقوم هذه الزوايا باجتذاب الناس للاسلام ، وهذه افضل ما في الدعوة الاسلامية : انها دعوة سلمية تفعل فعلها بصورة طبيعية كأنها هي نفسها ظاهرة طبيعية .

لقد حكى فنسان مونتاي في كتابه الحافل بالمعلومات عن الاسلام في افريقية السوداء حكاية لها دلالتها ، قال انه في سنة ١٩٤٩ وصل قس مبشر الى شمال داهومي ، واخذ يدعو لدينه ، وبعد ثلاث سنوات ، اي سنة ١٩٥٢ وصل داعية مرابطي من الفريق الذي يسمى هناك بالمرابوط ، اي المرابطي واخذ يدعو للاسلام . وبعد عشر سنوات لم يكن القس قد نصّر الا حوالي ١٠ اشخاص في حين ان نصف القرية كان قد دخل في الاسلام على يد المرابطي [١] .

فما تفسير ذلك ؟ لقد حاول مونتــاي ان يجيب على السؤال وابدى ذكاء بعيداً في التقصي والاستنتاج . وجدير بنا نحن ان نضع هذا السؤال امام اعيننا ونسعى للاجابة عليه بالذهاب الى هذه البلاد وتتبع سير الاسلام وهو يشق طريقه بنفسه ، وهذا في ذاته هو اقل ما يطلب إلينا وهو جهد العاجز ، لأن الامر يتعلق بالاسلام وهو ديننا ، وبافريقية وهي قارتنا ، وهذا يضع الموضوع وضعه الصحيح ، ويصوره على حقيقته بالنسبة لنا : موضوع مصير وموضوع بحث صبور ودراسات في نفس الوقت .

١ Vincent Monteil, *L'Islam Noir*. Editions du Seuil, Paris 1964 p. 49.

المراجع العربية

ـ احمد بك النائب الانصاري الطرابلسي ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس الغرب ، ليبيا ، الجزء الاول ، بدون تاريخ .

ـ ابن بطوطه ، ابو عبدالله محمد ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاقطار ، القاهرة ١٩٣٤ .

ـ الادريسي ، الشريف ، وصف المغرب والصحراء الكبرى ، قطعة من نزهة المشتاق نشرها مع تعليقات هنري بيربس ، الجزائر ١٩٥٧ .

ـ المغرب وارض السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بتحقيق دي خويه ودوزي ، لايدن ١٨٦٤ .

ـ الاستبصار في عجائب الامصار لمؤلف مجهول من اهل المغرب الاقصى عاش في القرن الثاني عشر الميلادي ؛ بتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

ـ تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان ، نشره هوداس ، باريس ١٨٩٩ .

ـ حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام والعربيــة فيما يلي الصحراء الكبرى وشرق القارة الافريقية وغربها ، القاهرة ١٩٥٧ .

ـ حسن احمد محمود ، الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، القاهرة ١٩٥٧ .

ـ ابن حوقل النصيبي ، ابو القاسم ، كتاب صورة الارض ، القسم الاول بتحقيق دي خويه ثم راجعه وطبعه طبعة ثانية **J. H. Kramers** في لايدن بهولندا سنة ١٩٣٨ .

ـ ابن عبد الحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله ، فتوح مصر واخبارها (المغرب والاندلس) نشره **Charles C. Torrey** في نيوهيفن بالولايات المتحدة سنة ١٩٢٢ ، واعادت طبعه مكتبة المثنى في بغداد بالاوفست .

ـ طبعة ثانية للقسم الخاص بفتح المغرب والاندلس نشره **Albert Gateau**

مع ترجمة فرنسية في مدينـــة الجزائر سنة ١٩٥٧ ضمن سلسلة رقم ٢
Bibliothèque Arabe-Française

ـ احمد توفيق المدني ، جغرافية القطر الجزائري (الطبعة الثالثة) : دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

ـ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ١٢٨٤) ج ٦ .

ـ البكري ، ابو عبيـــد الله بن عبدالعزيز ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو الجزء الخاص بافريقية نشره البارون ماك جوكين دي سلان في الجزائر سنة ١٨٥٧ واعادت نشره بالاوفست مكتبة المثنى في بغداد .

ـ حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

ـ السعدي ، عبدالرحمن ، تاريخ السودان ، حققه ونشره هوداس في باريس سنة ١٨٩٨ .

ـ صلاح صبري ، افريقية وراء الصحراء ، مجموعة الألف كتاب ، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠ .

ـ عبدالرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في شرق افريقية ، القاهرة سنة ١٩٦٥ .

ـ المراجع العربية للتاريخ الاسلامي في غرب افريقية (منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) : القاهرة ١٩٦٨ .

ـ ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ترجمة فرنسية للجزء الخاص بالمغرب عملها جودفروا ديمومبين ، جوتنر ، باريس ١٩٢٧ . (انظر المراجع الافرنجية تحت (Al Omary)

ـ محجوب زيادة ، الاسلام في السودان ، سلسلة اقرأ رقم ٢٠٨ ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٠ .

ـ محمد بن عمر التونسي ، رحلة الى واداي .

ـ محمود كعت التمبكتي ، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس ، بتحقيق هوداس وديلافوس باريس ١٩١٣ .

المراجع الأجنبية

— Agostini, E. di, *Le popolazione della Tripolitania. Notizie etniche — Storiche*. Tripoli, Governo della Tripolitania Ufficio Politico-Militare, 2 vols. 1917.

— *La popolazone della Cirenaica*. Benghazi, Governo della Cirenaica 1922.

— *A. Handbook of Libya* — Naval Staff Admiralty. Oxford Un. Press 1920.

— Ahmadi (Sheikh Mubârak Ahmad) *Kurani Tukufu*. Narrobi, 1963.

وهي ترجمة سواحلية للقرآن الكريم مع تفسيره بنفس اللغة .

— Al-Omari (Ibn Fadl-Allah), *L'Afrique moins l'Egypte* (Masâlik al-Absâr). Traduction française par Gaudefroy - Démonbynes, Paris, Geuthner, 1927.

— Al-Sa'di, *Tarikh al-Sudan*, trad. Fr. par O. Houdas, Paris, Leroux, 1900.

— André, P.J. (Capitaine) *L'Islam Noir*, Geuthner, Paris, 1924.

— Bagnold, Ralph A., *Libyan Sands, Travels in a dead world*, London, Hodder and Stoughten, 1935.

— Barth H., *Reisen und Entdeckungen in Nord — und Central Afrika* 5 Bände, Gotha 1857 - 1858.

— Baulin, Jacques, *The Arab Role in Africa*, (Penguin) 1962.

— Blau, O., *Chronik der Sultane von Bornu*. ZDMG. II, 1852.

— Carbou, H., *La région du Tchad et du Ouadai*, Paris 1912, (Publications de l'Ecole des Lettres d'Alger. Tome XLVII — XVIII).

— Cooley, W., *The Negroland of the Arabs*, London 1941.

— Denham and Clapperten, *Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa*, London 1826.

— Diop, Cheikh Anta, *L'Afrique Noire précoloniale*, Paris 1955.

— Duveyrier, *Exploration du Sahara, Les Touaregs du Nord*. Paris, 1864.

- Evans Pritchard, E. E., *The Sanusi of Cyrenaica*, London, Oxford University Press, 1954.
- Froelich, J. C., *Les Musulmans d'Afrique Noire*, Paris (Ed. de l'Orante, 1962).
- Ghisleri A., *Tripolitania e Cirenaica del Mediterraneo al Sahara*. Milano, 1912.
- Hajjaj, Salem A., *The New Libia, A geographical, Social, Economic and Political Study*. Tripoli, Libya 1967.
- Horneman, *Tagebuch einer Reise nach Murzuck*, Weimar 1802.
- Ibn Khaldoun, *Histoire des Berbère et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale*, 4 vols.

  وهي الترجمة الفرنسية للجزئين السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون قام بها ونشرها في باريس البارون دي سلان وأعاد نشرها ومراجعتها بول كازانوفا ، باريس جوتنر ١٩٢٥ .
- Lennoy de Bissy, *Carte d'Afrique*. Feuille 12, Mourzouk, Paris 1912.
- Leon l'Africain, Description de l'Afrique, Alexis Epaulard ترجمة فرنسية قام بها Maisonneuve, 1956, 2 vol.
- Lewicki, Tadensz, *Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibadites Nord-africain* aux pays du Sudan Occidental du Moyen Age. Cracovie, Folia Orientalia II, 1960.
- Lyon, *A narrative of Travels in Northern Africa*, London, 1821.
- Massignon Louis, *Causes et Modes de la propagation de l'Islam parmi les populations païennes de l'Afrique*. Rome Atti dell'VIII Convegno, Reale Accademia d'Italia, 1940 (pp. 5-12).
- Monteil, Charles, *De St. Louis à Tripoli*, Paris 1894.

— Nachtigal, *Sahara und Sudan*. Leipzig — Berlin, 1879-1889.

— Ngema, Albert, *L'Islam noir*. Paris, Présence Africaine, No. 8-9 Mars 1950.

— Norris, *Grammer of the Bornu or Kanuri language*, London 1853.

— Palmer, H.R., *The Bornu Sahara and Sudan*, London 1936.

— Rohlfo, *«Land und Leute von Fesan» in Petermanns* Mitt. Erganzeband V No. 21.

— Schultz, A., *The Sultanate of Bornu* — Translated by P. A. Benten, Oxford 1913.

— Slimar, P., *Note on the socio-economic and cultural role of Sufibrotherhoods and Maraboutisme in the modern Maghrib*. Acra, First Africain International Congress, Dec. 1962.

— Stenning, Derrick J., *Savanrah Nomads*, Oxford 1959.

— Suret-Canal, Jean, *Afrique noire occidentale et centrale Géographie, Civilisation, Histoire*. Paris, Ed. Sociales, 2ème éd. 1961.

— Trimingham, J. Spencer, *Islam in West Africa*, Oxford 1959.

— *A History of Islam in West Africa*, Glasgow 1962.

— Trimingham, J. Spencer, *Islam in Ethiopia*, Oxford 1950. *Islam in the Sudan*, Oxford 1955.

— Urway, Ives, *Histoire de l'Empire du Bornu*, Paris 1947.

— Vincent Monteil, *L'Islam noir* (Ed. du Seuil, Paris, 1964.

— Yver, George, *Encyclopédie de l'Islam, article* : Bornu — Kanem. Maurice de La Fone. مادة واداي كتبها

حسين مؤنس

ليبيا في مؤلفات أرسطو

للدكتور عبد الرحمن بدوي
رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة عين شمس
وأستاذ بكلية الآداب بالجامعة الليبية

« ليبيا تأتي دائماً بشيء جديد »

هذا مثل يوناني قديم ، أورده ارسطو في كتابه « تاريخ الحيوان [1] » و « تولّد الحيوان [2] » . ونقله عنه بلنيوس في هذه الصيغة [3] : semper aliquid novi Africam afferre (افريقية تأتي دائماً بشيء جديد) . وفي هذه الصيغة يتضح المعنى الذي كان يقصده القدماء (اليونان والرومان) من اسم « ليبيا » ، وهو انه يدل على افريقية الشمالية بوجه عام ، لا على ليبيا الحالية . فهذا هو المعنى الذي نجده عند هيرودوتس [4] .

بيد أن أرسطو ، بالاضافة الى ذلك ، كثيراً ما يذكر قورينا : منطقة ومدينة .

---

١ *De Historia Animalium*, VIII, c. 28, p. 606 b 20.

٢ *De Generatione animalium*, II, c. 7, p. 746 b 7.

٣ *Historia naturalis*, ed. L. von Jan et K. Mayhoff, Leipzig, 1906-1909, VIII, 17.

٤ راجع : S. Gsell : *Hérodote*. Alger et Paris, 1916.

ولنشرع الآن في استقصاء المواضيع التي ورد فيها ذكر ليبيا وقورينا في مؤلفات ارسطو :

أ – في « تاريخ الحيوان »

ولنبدأ بكتاب « تاريخ الحيوان » لأنه اكثرها ذكراً لكلتيهما .

١ – في حديثه عن الزيزان يقول : (المقالة الخامسة ، الفصل ٣٠ ص ٥٥٦ أ س ٢١ وما يليه) : « لا نعثر على الزيزان cicada حيث لا توجد اشجار : وهذا يفسر انه في قورينا لا يوجد زيزان في السهل ، بينا هي توجد بأعداد كبيرة بالقرب من المدينة ، خصوصاً في المواضع التي تنمو فيها اشجار الزيتون [١] ، لأن اشجار الزيتون لا تلقي ظلاً كثيفاً. ذلك ان المواضع الرطبة تبعد الزيزان ؛ لذا لا نعثر عليها في الغابات الظليلة [٢] » .

٢ – وبعد ذلك بثلاثة اسطر (م ٥ ؛ ف ٣٠ ص ٥٥٦ أ ٢٨ – ٥٥٦ ب ٣) يذكر قورينا من جديد فيقول : « والزيزان تضع بيضها في الأراضي القاحلة ، وذلك بخرق ثقب بواسطة عضو محدَّب تحمله في مؤخرتها [٣] ، كما يفعل الجراد ؛ لأن الجراد يضع بيضه في الأراضى غير المتزرعة ، وهذا يفسر وجودها بكثرة في المنطقة المصاقبة لمدينة قورينا » .

---

١ راجع المقالة الثامنة ف١٧ ص ٦٠١ أ٦ من نفس الكتاب ، وراجع اسطرابون 9. و VI, 1

٢ راجع قول فرجيل « الرعوية » الثانية ، ١٣ : « تحت الشمس المحرقة تطن الزيزان في الاشجار » .

٣ للزيز الانثى عضو طويل قوي لوضع البيض . والجراد يدخل بطنه في الارض ، ويحدث فجوة بواسطة زائدتين صغيرتين صماميتين في نهاية .

ومن هذين النصين نستطيع ان نستخلص :

أ — انه لم يكن يوجد اشجار في سهول منطقة قورينا ، بينما وجدت اشجار في المنطقة القريبة من هذه المدينة .

ب — انه كانت توجد اشجار زيتون متناثرة في المساحات المحيطة بقورينا .

ج — وهكذا كانت منطقة قورينا مؤلفة من ناحية محيطة بالمدينة : متزرعة ، وبأشجار الزيتون خاصة ، وناحية اخرى تمتد على مبعدة من المدينة ، وكانت سهلاً غير متزرع .

هذا من ناحية الزراعة ، اما من ناحية الحيوان فان الزيزان والجراد كانت توجد في منطقة قورينا .

٣ — وعند الحديث عن طفيليات السمك يقول (م ٥ ف ٣١ ص ٥٥٧ أ س ٣٠ وما يليه) : « وفي البحر القائم بين قورينا ومصر يوجد سمك يدور حول الدلفين ، ويدعى باسم قُمَّل الدلفين [١] : وهذا (السمك) الطفيلي يصير سميناً جداً ، لأنه ينتفع بغذاء وفير حين يكون الدلفين غادياً للبحث عن فريسة » .

وهكذا نعلم من هذا النص وجود الدلفين في البحر المتوسط في المنطقة الواقعة بين قورينا ومصر ، اي من برقة حتى الاسكندرية . وقد كان للأقدمين (اليونان والرومان) اعتقادات عجيبة في هذا السمك الثديي . فكانوا يعتقدون انه حيوان وديع ، أليف ، يتأثر بالموسيقى . وقيل في الأساطير أنه ساعد إلهَ البحر نبتون على العثور على صاحبته أمفتريت ، وإن فيلانته انقذها الدلفين لما ان غرقت على شواطىء ايطاليا . ولما ألقى أريون بنفسه في البحر حين هدده ملاحو السفينة التي كانت تحمله ، تلقاه

---

١ هو Naucrates ductor

دلفين انجذب اليه بفضل نغمات كنارته ، وحمله على ظهره الى ان بلغ به مرفأً أميناً . واتخذ ابولو شكل دلفين ليقود جماعة الى سواحل دلف . ونبتون تحول الى دلفين ليخطف ميلانته Mélanthe . ولهذه الاعتقـادات كان القدماء يقيمون للدلفين عبادة خاصة : فإله البحر نبتون كان يعبد في سونيوم على شكل دلفين ، وكان من رموز ابولو في دلف : الدلافين. وقد استمرت هذه المعتقدات حية عند الشعوب التي تقطن شواطىء البحر المتوسط ، واتخذوا منه شعاراً لعدة امور . يقول العالم الطبيعي الفرنسي المشهور لاسبيد Lacépède : « لقـد بقي الدلفين رمزاً للبحـر عنـد كثير من الشعوب .. وكـان يرسم متلوياً حول ثلاثية الاسنان trident رمزاً لحرية التجارة ، ويرسم حول منضدة ذات ثلاث ارجل للدلالة على مجلس الكهنة الخمسة عشر الذين كانوا يخدمون معبـد ابولو؛ وحين يلاطفه نبتون ، فذلك علامة على هدوء الأمواج ونجاة الملاحين ؛ واذا رسم حول هلب ، او فوق ثور ذي وجه انساني ، فانه كان يشير الى ذلك المزاج من السرعة والبطء الذي يعبر عن الفطنة » .

ولهذا نجد شكل الدلفين مرسوماً على الأنواط القديمة في تارنت وفي بوستوم Poestum ، وأنواط كورنثوس ، وايجيوم في (اخايا) وأبوبيه وبيزنطة وسرقوسة وليباري وثيره ؛ واتخذه نيرون وفيتليـوس وفسبازيـان وتيتوس من الأباطرة الرومان لينقش على الأنواط التي صدرت بأسمائهم .

٤ ــ وفي الفصل الذي عقده (م ٨ ف ٢٨) بيان كيفية توزيع الحيوان بحسب الأماكـن والجواء يقول : (ص ٦٠٦ أ س ٥ ــ س ٧) :

« لم تظهر الضفادع التي تنق في نواحي قورينا الا حديثاً . وفي ليبيا كلها لا يوجد خنزير بري sanglier ولا أيل Cerf ولا عنزة بريـة chèvre sauvage » .

والقول الأول ورد ايضاً في كتاب « العجائب » المنحول على ارسطو (ف ٦٨ ص ٨٣٥ أ س ٣٣) . أما القول الثاني فقد نقلـه ارسطو عن

هيرودوت (الكتاب الرابع ، الفصل ١٩٢) .

ونحن نعلم ان هيرودوت كان من المصادر الرئيسية التي استعان بها ارسطو في وصفه لبعض الحيوان ، ولكنه لم يأخذ بكل ما قاله هيرودوت. فهو احياناً يلخصه ، وأحياناً اخرى يتوسع فيما يقول ؛ وفي احيان ثالثة كثيرة ينقده . لكن الغريب ان ارسطو ، حين يستلهم هيرودوت ، لا يذكر اسم هيرودوت . لكن هذا لا يُشكِّك في كون ارسطو في هذه المواضع التي حققها الباحثون انما استلهم هيرودوت . وقد ابرز موريس مانكا[1] ثلاثة عشر موضعاً من هذه المواضع ووضع في مقابلها المواضع المتناظرة عند ارسطوطاليس في كتاب «تاريخ الحيوان» . وهذه المواضع هي:

هيرودوت	ارسطو
٣ : ١١١	ص ١٦٦ أ ٨
٣ : ١٠٣	٩٤٩ أ ٢٠
٢ : ٦٨ — ٧٠	٤٨٧ أ ٢٣ ؛ ٤٩٨ أ ١٤ ؛ ٥٠٥ ب ٣٢ ؛ ٥٠٦ أ ١٧ — ٢٠ ؛ ٥٠٨ أ ٥ ؛ ٥٠٩ ب ٥ — ٨ ؛ ٥١٦ أ ٢٤ ؛ ٥٥٨ أ ١٤ ؛ ٥٨٩ أ ٢٢ — ٢٧ ؛ ٥٩٩ أ ٣٠ — ٣٣ ؛ ٦١٢ أ ٢٠
٢ : ٦٩	٦٠٩ أ ١
٢ : ٧١	٤٩٩ ب ٦ — ١٠ ؛ ٥٠٢ أ ٩ ؛ ٥٨٩ أ ٢٤ — ٢٦
٢ : ٢٢	٤٨٧ ب ٢٩

---

١ Maurice Manquat: *Aristote naturaliste*, pp. 37-47. Paris, Vrin, 1932.

٢ : ٧٥ – ٧٦	٦١٧ ب ٢٩
٧ : ١٢٦	٥٧٩ ب ٥ ؛ ٦٠٦ ب ١٤
٣ : ١٠٨	٥٧٩ ب ٢
٢ : ٧٢ ؛ ٤ : ١٠٩	٤٨٧ أ ٢٣ ؛ ٥٩٤ ب ٢٧ – ٥٩٥ أ ٤
٣ : ١٥٣ ؛ ٧ : ٥٧	٥٧٧ ب ١٩ ؛ ٥٩٣ ب ٢٢
٢ : ٧٢	٥٥٩ ب ٢٤ – ٢٩
٤ : ١٩٤	٦٠٦ أ ٦

ويبدو ان ارسطو كان يثق في الملاحظات التي تتعلق بالمورفولوجيا الحيوانية أو السلوك الحيواني في « تاريخ » هيرودوت ؛ ولكنه كان يتحفظ في قبول التفسيرات التي يبديها هذا المؤرخ فيما يتعلق بهذه الامور. وحاول قدر المستطاع ان يتمم المعلومات التي قدمها هيرودوت . وهذا يتجلى خصوصاً في وصفه الطويل للتمساح : فبينما هيرودوت لا يذكر شيئاً عن التشريح الداخلي للتمساح ، يحدثنا ارسطو عن تركيب معدته وامعائه وطحاله . ومع ذلك ارتكب ارسطو ، فيما يتعلق بالتمساح نفسه ، عين الخطأ الفاحش الذي ارتكبه سلفه المؤرخ هيرودوت ، وذلك حين ايده فيما قال بأن الفك العلوي هو المتحرك في التمساح ، لا السفلي . (راجع موريس مانكا : « ارسطو عالماً بالحيوان والنبات » ، ص ٤٦) .

وقد كرر ارسطو بضعة اسطر من هذه الفقرة في «تكوين الحيوان» (م٢ ف٧ ص ٧٤٦ ب ٦ – ١١) .

٥ – وفي نفس الفصل يقول (ص ٦٠٧ أ ١ – ٣) :

ويولد ايضاً حيوانات من تقاطع انواع مختلفة : ففي قورينا يتم تقاطع بين الذئاب والكلبات ، وهذه التقاطعات خصبة » .

ويقصد من ذلك ان من الممكن توالد حيوان من جنسين مختلفين من الحيوان ، وانه في قورينا قد يطأ الذئب الكلبة فينتج عنهما حيوان جديد .

وقد اشار الى نفس الظاهرة بلنيوس (الكتاب الثامن : ٦١) .

لكن ارسطو لم يحدد اسم هذا الحيوان الجديد المتولد من وطء الذئب للكلبة .

على انه من المعروف انه على الرغم من شدة العداوة الغريزية بين الذئب والكلب ، فانه قد شوهدت حالات وطء بين هذين النوعين من الحيوان أدت الى تولد حيوان جديد ، وتم ذلك دون قهر ولا قسر . غير ان وطء الكلب للذئبة اندر من من وطء الذئب للكلبة ، ولكن ثم امثلة على ذلك شوهدت وسُجلت .

فأرسطو مصيب إذن في قوله ذاك . ولا بد انه نقل اليه ان هذه الظاهرة شوهدت وسجلت في قورينا ، ولذا نسبها اليها .

٦ – وفي المواقع الخمسة السابقة ذكر ارسطو اسم قورينا ، وهذا يجعل هذه المواقع متعلقة ببرقة من غير شك .

أما سائر المواقع في كتاب « تاريخ الحيوان » فلا يرد فيها إلا اسم « ليبيا » ، بالمعنى الواسع الذي اشرنا اليه في مستهل هذا البحث ، اي افريقية الشمالية (وتمتد جنوباً الى حدود السودان ، وغرباً الى المحيط الأطلسي ، وشرقاً حتى السلوم) .

وقد اوردنا تحت رقم ٥ الموضع الأول من هذه المواضع التي يرد فيها اسم ليبيا . والموضع الثاني هو (م ٨ ف ٢٩ ص ٦٠٦ ب ٩ وما يليه) :

« وفي ليبيا يبلغ طول الحيات مبلغاً مفزعاً ، حسبما يقولون . ذلك ان البحارة الذين ابحروا في هذه النواحي يروون انهم شاهدوا كميات هائله من العظام الناتجة عن ثيران لا يشك هؤلاء في ان الحيات هي التي التهمتها : لأنهم حين كانوا يأخذون في الإبحار كانت هذه الحيات تطارد سفنهم بسرعة ، وبعد ان تقلب السفينة ظهراً لوجه تقذف في البحر بكثير من الملاحين . وثم ملاحظة اخرى وهي : ان الأسود اوفر عدداً

في ليبيا [1] ، وكذلك في ذلك القسم من اوروبة الواقع بين نهر اخيلوس ونهر نستوس ، ويوجد نمور في آسيا ، ولا توجد في اوروبا . وبوجه عام فان الحيوانات المتوحشة اكثر توحشاً وجسارة في آسيا منها في اوروبا ، لكن في ليبيا تبدى الاشكال الحيوانية غن تنوّع اشد ، وثمّ مثل يقول ان ليبيا تأتي دائماً بشيء جديد . ففي هذا البلد يبدو بوضوح انه بسبب ندرة الماء تتجمع الحيوانات المختلفة الانواع في المواضع التي يوجد فيها شيء من الماء ؛ وهنا ينزو بعضها على بعض ، ويكون النزاء منتجاً إن كان بين انواع تتفق في مدة الحمل ولا تتفاوت كثيراً في طول وحجم القامة . وهذه الحيوانات ، في علاقاتها بعضها مع بعض ، تفقد من شراستها ، بحكم اندفاعها بالحاجة الى الماء ، وضرورة الشرب هذه يزداد شعورها بها في الشتاء اكثر منه في الصيف بعكس ما يحدث للحيوانات في سائر البلاد : لأنه لما كان الماء مفقوداً في الصيف عادة ، فانها تتعود على عدم الشرب في الصيف ؛ وهكذا فان الفئران على الاقل تنفق حالما تشرب . »

وهذه الفقرة من اطول المواضع التي تحدث فيها ارسطو عن ليبيا .

ونلاحظ اولاً على هذا النص :

(أ) ان ارسطو في كلامه عن الأسود وكثرتها في ليبيا قد استمد معلوماته من هيرودوت في تاريخه (الكتاب السابع : ١٢٦) . ومن

---

١ في المخطوطات كلها يرد هنا اسم : « أوربا » بدلا من ليبيا . ولكن ل . دتماير في نشرته الممتازة لنص ارسطو صحح هذا الموضع الى : « ليبيا » استنادا الى النص الوارد عند بوليبوس (الكتاب ١٢ : ٣)

Aristotelis *de Animalibus Historia*, textum recognovit L. Dittmeyer. Leipzig, 1907.

وقد أخذ بهذا التصحيح الناشرون التالون والمترجمون (تومبسون ، تريكو ، الخ) .

اكسينوفون في Cynegeticus (ف ١١) .

(ب) انه يقصد من ليبيا الاجزاء المعروفة من القارة الافريقية (فيما عدا مصر) ، بدليل انه يضعها في مقابل اوروبا وآسيا ، فضلاً عن ان الامور التي نسبها اليها لا يمكن ان تنسب إلا الى القسم الشمالي من القارة الافريقية ، وهو الذي كان معروفاً من افريقية لأرسطو وسائر المعاصرين له من اليونانيين . اما مصر فكانت تفرد دائماً على حدة ، ولا تندرج في هذا القسم الشمالي من القارة الافريقية . وارسطو يذكر اسم مصر في كتاب « تاريخ الحيوان » اثنتي عشرة مرة .

(ج) ان الفئران التي تموت من مجرد الشرب يقصد بها ارسطو الفئران الليبية فقط ، كما برهن على ذلك دتماير في نشرته ، لأنها تعودت العطش ، فاذا شربت نفقت .

والكلام عن الحيات يقودنا الى النص التالي :

٧ — وهو يقول (٦٠٧ أ س٢١ وما يليه) :

« وعضات الحيات تتفاوت ايضاً تفاوتاً كبيراً . والصلّ aspis يوجد في ليبيا : ويستخرج من هذه الحية مادة تسبب التعفن ولا يوجد لها اي دواء . ويوجد في السلفيون حيــة صغيرة تداوى عضتها — كما يقال — بنوع من الحجارة المأخوذة من مقبرة ملك قديم ، ويغمس هذا الحجر في نبيذ ويشرب » .

والصلّ — وهو باليونانية ἀσπίς ،وباللاتينية aspis ،وبالانجليزية asp، وبالفرنسية aspis — هو الناشر المصرية Egyptian Cobra ، وهو البزاقة التي تحدث عنها ابن سينا فقال في وصفها : « ومنها البزاقة : فانها تقدر ان تمجّ بزاقها وتزرقه بعصر اسنانها بعضها على بعض فتقتل مَن يقـع عليه بصاقها او رائحة بصاقها ؛ وطولها ذراعان ، ولونهـا رمادي الى الصفرة » . واسمه العلمي اللاتيني .Naja haje L .

وبهذه الحية — الصلّ — قتلت كليوباترة نفسها لأن الصل او الكوبرا

المصرية كان ذا اهمية ودلالة كبيرتين في الديانة المصرية القديمة . وقد وهم من ظن انها قتلت نفسها بغير الصل aspis ، اذ اجمعت على ذلك المصادر القديمة كما بيّن ذلك Stählin في دائرة معارف باولي فيسوفا Real Enzyclopädie der klass. Altertum Swissen. حـ ١١ ق، (سنة ١٩٤٧) و ف.اسبوردون F. Sbordone في مقال له بعنوان: « موت كليوباترة عند الأطباء اليونانيين » ، في « المجلة الهندية اليونانية الايطالية » ص ١٤ (سنة ١٩٣٠). «La morte di Cleopatra nei medici greci», in Rivista Indo-greco- italica, XIV (1930).[1]

٨ — اما السلفيون — واسمه اللاتيني Thapsia Silphium — فنبات اشتهرت به قورينا في العصر القديم ، وكان يستعمل دواءً وتابلاً من التوابل .

---

[1] وراجع ايضا

a - A - Bouché - Leclerq : *Histoire des Lagides*, Paris 1903-1907, II, pp. 177-332.

b - E. Bevan : *A history of Egypt under the Ptolemaic dynasty*, London, 1927, pp. 350-384.

c - A. Brome Weigall : *The life and times of Cleopatra, Queen of Egypt*, London, 1914, 2nd ed. 1921.

d - W. Spiegelberg, in *Sitzungsberichte der Bayer. Akademie der Wissenschaften*, 1925, fasc. 2.

e - O. von Wertheimer : *Kleopatra, die genialiste Frau der Weltgeschichte*, Leipzig, 1930.

f - G. P. Mahaffy : *The Empire of the Ptolemies*. London, 1895, pp. 445—486.

g - G. Ferrero : *Grandezza e decadenza di Roma*, Milano, II, pp. 417-447; III, 1904 pp. 411-563.

h - E. Kornemann: *Grosse Frauen des Altertums*, 1942.

i - H. Volkmann : *Kleopatra*, 1953.

وقد فصل القول فيه بلنيوس (الكتاب التاسع عشر : ٣ ، ١٥). ومن قبله وصفه ثيو فراسطس (٦ : ٣) فأطال الوصف ، وتحدث عنه ديوسقوريدس (المقالة الثالثة) بالتفصيل . ويذكر بلنيوس العجوز ان هذا النبات كان نادراً جداً في عهد نيرون الى حد انه لم يوجد في قورينا غير شجرة واحدة لإرسالها الى الامبراطور ؛ اما في عهد يوليوس قيصر فكان لا يزال موفوراً اذا صحّ ما قيل انه باع منه ١١١ رطلاً ليواجه نفقات الحرب الاهلية . ولكن هذا النبات كان من الندرة والفائدة بحيث كان يباع بوزنه ذهباً آنذاك . ويرجع بلنيوس العجوز السبب في هذه الندرة الى تسلط القطعان الراعية على هذا النبات حتى قضت عليه. وفي القرن الخامس الميلادي ، على عهد سينوسيوس ، لم يكن من الممكن العثور على هذا النبات في قورينا . ولهذا يرى A. Oersted ان نبات السلفيون اختفى من قورينا قبل الفتح العربي في منتصف القرن السابع الميلادي . ومن ثم صار من الألغاز العلمية التاريخية [1] .

وفي نفس الفصل ايضاً يقول (٦٠٦ أ ١٩ وما يليه) :

---

١ راجع عن السلفيون وتاريخه :

a) A. Oersted: *Sur la plante disparue du sylphium de l'antiquité.* Copenhagen, 1869.

b) F. Hérincq: *La vérité sur le prétendu silphion de la Cyrénaïque.* Paris, 1876.

c) Berendes : « *Ueber das Sylphion der Alten,* » in *Archiv der Pharmazie,* CCXLIII.

d) E. Durand et G. Barratte : *Florae lybicae prodromus,* Genève, 1910.

e) B. Bonacelli : « Il silfio nell'antica Cirenaica », in *Boll. inform. economiche del Ministero delle colonie, 1924.*

f) C. Tedeschi : « L'enigma del silfio cirenaico », in *Notiz ,ecocomico della Cirenaica,* II (1928), idem, «Il silfio : un enigma nella storia botanica della Cirenaica», in *Rev. delle Colonie III.*

« وفي ليبيا ، بين انواع الدواب ، الدواب ذوات القرون تنجم لها قرون ساعة ان تولد، وليس هذا في الحملان فقط كما يقول هوميروس بل وايضاً سائرها . اما في البنطش، على حدود اسقوثيـا ، فالأمر على العكس : الكباش لا قرون لها . »

وارسطو يشير الى قول هوميروس في « الأوديسا » (النشيد الرابع، البيت رقم ٨٥) . ومصدره هنا هيرودوس (الكتاب الرابع، ف ٢٩).

وفي النص هنا بعض الاختلاف . وهاك ترجمة رواية اخرى له :

« وفي ليبيا يولد الكبش الطويل القرن بقرون ؛ وليس الكبش وحده كما يقول هوميروس ، بل وأيضاً النعجة ؛ وفي البنطش ، على حدود اسقوثيا ، يكون الكبش بغير قرون » .

٩ – والموضع الأخير في « تاريخ الحيوان » الذي ذكر فيه ارسطو اسم ليبيا هو الوارد في الفصل ١٥ من المقالة التاسعة (ص ٦١٦ ب س د) وها هو ذا :

« ويقال إن القرقف يبيض بيضاً كثيراً جداً .لكن بعضهم يؤكدون ان الطائر المسمى الميلانكوفورس μελαγχόφυρος هو اكثر الطيور بيضاً بعد زرافة ليبيا : اذ شوهد يبيض حتى السبع عشرة بيضة ؛ والواقع انه يبيض اكثر من عشرين ، لكن عددها دائماً عدد فردي ، فيما يقال» .

والميلانكوفورس ربما كان هو الـ Motacilla atricapilla (راجع : Camus *Histoire des animaux d'Aristote* avec la traduction française, Paris, 1783, II, 795-6.

والقُرْقُف (وهو بالفرنسية mésange. ، وبالانجليزية tit, titmouse) طائر صغير كأنه الصعو ، ويسمى في الشام « سن المنجـل » ، وفي العراق : القرقف او القرقب . وفي « تـاج العروس » : « القرقف كهدهد: طير صغار كأنها الصعاء (جمع صعو) ، او القرقب – بالباء الموحدة – على ما حققه الأزهري » (حـ٦ ص ٢٢١).

ب – كتاب « المسائل » Problemata

١٠ – فاذا انتقلنا من كتابي « تاريخ الحيوان » و « تكوين الحيوان » الى كتاب « المسائل » وجدنا ليبيا مذكورة في ستة مواضع .

وأولها يرد في المقالة ١٢ ، ف٢ ، حين يتحدث عن طيب الرائحة في مختلف اماكن المعمورة فيقول :

« وفي العالم كله ، الأجزاء المعرضة للشمس أطيب رائحة من تلك التي في اتجاه الشمال ؛ ومن بين الأولى : تلك التي في اتجاه الشرق رائحتها اطيب من تلك التي في اتجاه الجنوب ، لأن مناطق سوريا والبلاد العربية أوفر حظاً من الرطوبة ، لكن ليبيا رملية وخالية من الرطوبة . اذ ينبغي ألا يوجد قدر كبير من الرطوبة – لأن كثرة الرطوبة تعسّر الطبخ – ولا ينبغي ايضاً ان يخلو منها ، وإلا لن يتم تبخير » (ص ٩٠٦ ب ١٥ – ٢٢) .

١١ – والموضع الثاني فيه هو (م ٢٣ ف ٢١ ص ٩٣٣ ب ٣٣ – ٤٠) :

« ما السبب في انه اذا حفر المرء حفرة بالقرب من البحر في ليبيا ، فان الماء الذي يتدفق في البداية قابل لأن يُشرب ، لكنه سرعان ما يصير ملحاً ، وهذا الأمر لا يحدث في الأماكن الأخرى إلا أقلّ ؟ الأن الماء الذي يتدفق اولاً هو الماء الذي كان هناك من قبل وقد طبخته الأرض ، لكن بعد مدة يرشح البحر من خلاله ، ولأنه لم يكن لديه وقت ليعاني اي تغير فانه يجعل الماء أشد ملوحة؟ »

وأرسطو يورد ليبيا هنا على سبيل المثال ، لا الحصر والقصر ، بدليل أنه في الفصل ٣٧ من هذه المقالة الثالثة والعشرين يكرر نفس المعنى والسؤال بصيغة عامة ، دون ان يقصر هذه الظاهرة على بلد بالذات ، وهنا يفسرها على اساس ان في البحر بعض العذوبة ، وان الماء العذب أخف من الماء المالح ، ولهذا يأتي الماء العذب اولاً ، وبعد الاختلاط

يصير ملحاً اكثر .

١٢ – والموضع الثالث يعود بنا الى الحيوان في ليبيا اذ يتحدث عن الغنم فيقول (م ١٠ ف ٤٧ ص ٨٩٦ أ س ٢٤ – ٢٩) :

« والنوع الواحد قد يحمل مرة واحدة في بعض الأماكن ، بينما في اماكن اخرى يحمل عدة مرات ؛ فمثلاً الغنم في مغنيسيا وليبيا تحمل مرتين في العام . والسبب في ذلك طول مدة الحمل ؛ لأن الحيوان اذا اشبع شهوته ، لا يشتهي بعد ذلك ، مثلما أنه حين يغتذي فانه لا يطلب مزيداً من الغذاء . ولهذا فان الحيوان حين يحمل تقل شهوته للجماع ، لأن التطهر الحيضي لا يحدث . »

١٣ – والموضع الرابع والخامس يتعلقان بالرياح،ونصه (م ٢٦ ف ١٦ ص ٩٤٢ أ ٥ – ١٦) :

« لماذا تهب الرياح الجنوبية خلال الشتاء وفي بداية الربيع ونهاية الخريف ، ولماذا يكون لها هزيم ودوران في مجراها ، ولماذا كانت باردة على سكان ليبيا على نفس النحو الذي به الرياح الشمالية باردة علينا ؟ الأنه لما كانت الشمس قريبة فان الرياح لا بد ان تتحرك ؟ وخلال الشتاء تسير الشمس في اتجاه الجنوب ، وكأنها في بداية الربيع وعند نهاية الخريف تثبت الحرارة ، بينما في اثناء الصيف ترحل الشمس في اتجاه الشمال وتترك سائر المناطق . والريح الجنوبية حارة لأنها تخرج نسماتها بالهواء في منطقة ليبيا، وهي حارة ؛ ولهذا فان لها هزيماً ، وتجعل الصيف ممطراً ، منحدراً الى البحر . »

وقد اشار ثاوفرسطس الى هذه المسألة (فقرة ٦٠)

١٤ – وعاد ارسطو الى معالجة نفس الموضوع في الموضع الخامس ، وبنفس العبارات تقريباً ، فقال (م ٢٦ ف ٤٩ ص ٩٤٥ ب ٣٥ – ٩٤٦ أ ٣) :

« لماذا كانت الرياح الجنوبية باردة في ليبيا كما ان الرياح الشمالية

باردة علينا ؟ هل اولاً لأن منابع هذه الرياح اقرب الينا واليهم نسبياً ؟ لأنه اذا مرّت الرياح – كما قلنا من قبل (يشير الى ما ورد من قبل س ٢٢ وما يليه) – خلال مجرى ضيق ، فانها تكون ابرد على من هم اقرب اليها بسبب عنف حركتها ؛ وحين تتقدم حركتها أكثر فأكثر ، تتشتت . ومن هنا فان الرياح الشمالية باردة في هذا القسم الذي نسكن من العالم ، لأننا اقرب اليها ونسكن بالقرب من القطب » .

ومن هذا يتبين ان كلا الموضعين الأخيرين يفسر بعضهما بعضاً .

والموضع السادس (م ٢٦ ف ٥٤ ص ٩٤٦ ب ٣٣) يتحدث عن الريح الشمالية في قورينا وكونها ممطرة .

جـ – في « الآثار العلوية »

١٥ – وفي « الآثار العلوية » Meteorologica يذكر ارسطو ليبيا في أربعة مواضع . وأولها يتعلق بمنابع الأنهار ، فيحدثنا عن نهرين في ليبيا لم يستطع الباحثون حتى الآن تحديد المقصود بهما . وهاك نصه : (م ١ ف ١٣ ص ٣٥٠ ب س ١٠ – ١٤) :

والأمر كذلك في ليبيا ، ففيها تنحدر بعض الأنهار ، وهي الاجون Aegon والنوسس Nysès ، من الجبال الحبشية ؛ والبعض الآخر ، وهي أكبر الأنهار التي سميت بأسماء ، وهي ما يسمى باسم خراميتس Chrémétis ، الذي يصب في البحر الخارجي ، والمجرى الرئيسي للنيل فكلاهما ينبع من الجبال المسماة باسم جبال الفضة » .

ونهر خراميتس هو ساقية الحمراء ؛ أما جبال الفضة فهي التي يسميها بطلميوس (« الجغرافية » م ٤ ف ٨ ص ٣٠٧ من نشرة Wilberg) باسم جبال القمر .

٢

١٦ — وثاني هذه المواضع يقول (م ١ ف ١٤ ص ٣٥٢ ب س ٣٢ وما يليه) :

« وليبيا ، بلد آمون ، واضحٌ انها — ضدَّ كل سبب — اشد انخفاضاً وعمقاً من البلاد السفلى . اذ انه من الواضح انه تكونت رواسب نهرية ، تلاها ركود وأرض ثابتة ، وعلى مر الزمان جف الماء الذي بقي وركد، واختفى الآن نهائياً » .

وهنا يستوقفنا في هذا النص قوله : ليبيا ، بلد آمون ؛ لأن هذا يؤذن بأنه يفهم من ليبيا احياناً بلاد برقة في ليبيا الحالية حيث كان الإله آمون يُعبد ، كما كان يعبد في واحة سيوه وفي شمالي الدلتا في مصر.

١٧ — والثالث يقول (م ٢ ف ٣ ص ٣٥٨ أ ٣٥ — ٣٥٨ ب ٣) :

« ورياح الشمال ، لما كانت قادمة من مناطق رطبة ، فانها تكون محملة بالبخار، وتبعاً لذلك تكون باردة . ولأنها تطرد (الغيوم امامها) ، فانها تأتي بالجو الجميل في اقاليمنا، لكنها تكون ممطرة في الأماكن الواقعة في مقابلنا (= أي في الجنوب) ؛ وعلى هذا النحو فان رياح الجنوب تأتي بالجو الجميل في مناطق ليبيا . وهكذا فان ريح الجنوب تحمّل المطر الهاطل بكمية كبيرة من هذه المادة . »

١٨ — وفي الموضع الاخير يعود الى الحديث عن رياح الشمال فيقول (م ٢ ف ٥ ص ٣٦٣ أ س ١ — س ٨) :

« ولأن هذا القسم من الأرض الذي نسكنه يقع في الشمال فان رياح الشمال تهب في الاغلب . ومع ذلك ؛ فان مناخ هذه المنطقة نفسها ، تضعف وتعجز عن التقدم الى الامام : لأنه ، في البحر الجنوبي الواقع بعد ليبيا ، فان رياح الشرق والغرب (الأوروس والزفير) تهب دائماً على التبادل ، على نحو ما تهب عندنا رياح الشمال والجنوب . فمن الواضح

اذن أن ريح الجنوب ليست ريحاً تهب مبتدئــة من القطب الآخر (أي القطب الجنوبي) » .

د – في « العالم » De Mundo

١٩ – وفي كتاب « في العالم » ، وهو منحول على ارسطو ، نجد تحديداً لمعنى « ليبيا » = افريقية لا يدع بعد ذلك مجالاً لأي شك في المقصود عند ارسطو من اسم ليبيا وهو انها تعني افريقية (الشمالية بوجه خاص) .

وفيه يذكر اسم ليبيا مرتين : في الاولى يقول (فصل ٣ ص ٣٩٣ب س ١٨ – ٢٢) :

« واتساع الجزء المسكون من العالم في اقصاه على الارض أقل من ٤٠,٠٠٠ اسطاديا ، في تقدير احسن الجغرافيين وطوله حوالى ٧٠,٠٠٠ اسطاديا . وينقسم الى اوروبا وآسيا وليبيا » .

وواضح من هنا كل الوضوح ان المقصود بليبيا هو القارة الافريقية ، اذ هي في مقابل اوروبا وآسيا .

٢٠ – والمرة الثانية قريبة من الموضع السابق (فصل ٣ ص ٣٩٣ ب س٣١ – ٣٩٤ أ س٤) وفيها يقول :

« وليبيا تمتد من الخليج العربي (= خليج السويس) الى اعمــدة هرقل (= جبل طارق) ؛ ومصر ، ويحيط بها مصاب النيل ، يضيفها البعض الى آسيــا ، والبعض الآخر الى ليبيــا ؛ والبعض يستبعد الجزر من كلتا القارتين ، والبعض الآخر يضيفها الى اقرب ما يجاورها . »

وهذا الموضع يزيــد في توكيد المعنى المقصود من ليبيا عند الاقدمين وهو انها تشمل افريقية (الشمالية خصوصاً)

هـ ــ في « العجائب » De Mirabilibus Auscult ationibus

٢١ ــ وفي كتاب « العجائب » ، وهو ايضاً منحول على أرسطو، نجد قورينا تذكر مرتين ، وليبيا ثلاث مرات .

والموضع الأول عن الفئران في قورينا ، وفيه يقول (فقرة ٢٨ ، ص ٨٣٢ ب س¹ ــ س³) :

« الناس يقولون انه في قورينا يوجد ليس فقط نوع واحد من الفئران، بل انواع عديدة مختلفة في الشكل وفي اللون ؛ اذ بعضها عريضة الوجه مثل ابن عُرس mustela ، وبعضها مثل القنفذ الذي يسمونه اخينوس» .

على أنه يلاحظ على هذا النص ان ابن عرس ليس عريض الوجه . ولهذا فانه لا يُدرى على وجة الدقة أي حيوان يشير اليه ارسطو هنا[1] .

٢٢ ــ والموضع الثاني (فقرة ٦٨ ص ٨٣٥ أ ٣٣) بقوله :

« ويقولون ان الضفادع في قورينا بكماء تماماً »

٢٣ ــ والموضع الثالث (فقرة ١٣٣ ص ٨٤٤ أ ٥ وما يليه) يتعلق بنقش لهرقـــل وزوجته اروثا Erythe وبلد نسبت اليها باسم اروثيـــا Erytheia ، وفيه يقول :

« ويقولون انه لا يوجد في أي مكان في ليبيـــا ولا في ايبريا اسم اروثيا . وفي المدينة المسماة أوتيكا Utica في ليبيا، وتقع ــ حسبما يقولون ــ على الخليج القائم بين رأس هرمس ورأس هبوس ، وعلى مسافة مـــا يقرب من مائتي فصبة بعد قرطاجة (ويقال الآن ايضاً ان أوتيكا قـــد أسسها الفينيقيون قبل قرطاجة بمائتين وسبع وثمانين سنة قبل قرطاجة نفسها، كما هو وارد في التواريخ الفينيقية) ، يقول الناس ان الملح يحصل عليه

---

١ راجع فهرست بونتس ١٤٥ ب س ٤٣

Bonitz : Index Aristotelicus. Berlin, 1870.

بالحفر الى عمق ثماني عشرة قدماً ، وهو في الظاهر ابيض وليس صلباً ، بل يشبه الصمغ الدابق جداً ، وحين يُعرَّض للشمس يصلب ، ويصير مثل المرمر الباریاني ؛ ويقولون انه منه تنحت اشكال حيوان وادوات .»

٢٤ – والموضـــع الأخير في كتاب « العجائب » يتعلق بالعنب او شجر الكروم ، وفيه يقول (فقرة ١٦١ ص ٨٤٦ أ ص ٣٨ – ٨٤٦ ب س ٢) :

« وفي ليبيا عنب ، يسميه البعض العنب المجنون ، إذ ان بعض ثمره ينضج ، والبعض الآخر يصبح مثل العناقيد غير الناضجـــة ، والبعض الثالث يظل براعم زهرية ، وهذا الأمر يستمر وقتاً قصيراً » .

و – « مواقع الرياح وأسماؤها »

Ventorum situs et appellationes ex Aristotelis Libro De Signis

٢٥ – وكتاب « في العلامات » ، ينسب عادة الى ثيوفراسطس ، لكنْ فيه تشابه مع ما اورده ارسطو في « الآثار العلوية » ومع ما ورد في رسالة « في العالم » . وعنه اخذت هذه الرسالة « في مواقع الرياح وأسمائها » .

وقد ورد فيها اسم قورينا ثلاث مرات ، واسم ليبيا مرة واحدة .

والموضع الأول يتعلق باسم الريح الشرقية (ص٩٧٣أ١٤ ، ٢١) :

« هذه الريح تسمى Potameus في طرابلس بفينيقيا ... وفي خليـــج طرابلس تسمى Marsus من اسم قرية Marsus ... وفي بروكونيسوس وتيوس وكريت ويوبوا وقورينا تعرف باسم Hellespontias . وتسبب

في العواصف خصوصاً. في ميناء قورينا المسمى باسم ابولونيا Apollonia (سوسة حالياً) ».

٢٦ — والموضع الثاني بعد هذا بقليل ، ويتعلق باسم الريح الجنوبية الشرقية (ص ٩٧٣ ب س ٤) .

« وفي قورينا تعرف باسم كرباس Carbas وهو مأخوذ من الكربانين في فينيقيا ، ومن هنا فان بعض الناس يسمي هذه الريح نفسها باسم فينيقياس Phoenicias » .

٢٧ — والموضع الثالث يتحدث عن الريح الجنوبية الغربية ، المعروفة باسم لبس ، ويقول (٩٧٣ ب س ١١ س ١٢) :

« لبس (الريح الجنوبية الغربية) . هذه الريح اتخذت اسمها من ليبيا ، اذ منها تهب » .

ز — في كتاب « السياسة » Politeia

٢٨ — ومن المواضع التي ذكر فيها ارسطو ليبيا موضع طريف نجده في كتاب « السياسة » (ص ١٠٦٢ س ١٩ وما يليه) يدور حول الأولاد والآباء وما بين كليهما من مشابه يمكن ان يستدل منها على تحقيق الأبوة والبنوة . قال ارسطو :

« الجغرافيون يقولون إن هذا هو الواقع ، ويذكرون انه في ليبيا العليا ، حيث النساء على الشيوع بين الرجال ، فان الأولاد الذين ينجبون ينسبون الى آبائهم على اساس المشابهة بين الآباء والأبناء . فينسب الولد الى من يشبهه من الرجال» .

وقد اخذ ارسطو هذا القول عن هيرودوت (الكتاب الرابع : ١٨٠) .

* * *

٢٩ — وثم موضع آخر في كتاب «السياسة» يتحدث فيه عن الثورة التي اندلعت في قورينا لأسباب دستورية .

إذ يتحدث ارسطو عن النوع الأخير من الديموقراطية وهو الذي فيه يشارك كل المواطنين على السواء ، وهو نوع لا يمكن كل دولة ان تتحمله ، ولن يبقى طويلاً الا اذا نظمته جيداً القوانين والعادات . ولإيجاد مثل هذا اللون من الديموقراطية وإعطاء السلطة للشعب ، فان زعماء الحزب الشعبي يلحقون في العادة بهيئة المواطنين اكبر عدد ممكن من الافراد ويمنحون حق المواطنين ليس فقط للأبناء الشرعيين ، بل وأيضاً الى غير الشرعيين ، بل والى الابناء الذين يكون احد والديهم فقط ، سواء أكان الأب أو الأم ، مواطناً : لأن هذا الحشد يناسب تماماً الديموقراطية التي من هذا النوع . وتلك هي الطرق المستعملة عادة من جانب الدماجوجيين. وما ينبغي عمله حقاً هو الا يعطى حق المواطن الجديد الا بقدر الحاجة والضرورة من اجل ان تفوق الكثرة في عددها عدد الأعيان ورجال الطبقة الوسطى ، ولا تتجاوز هذا القدر ، لأنه اذا تجووز هذا القدر في هذه المسألة ، فان الشعب يزيد في اضطراب الدولة ، ويضايق الطبقات العليا التي تتحمل الديموقراطية على مضض .

« وهذه العداوة كانت هي السبب في الثورة التي حدثت في قورينا ؛ لأن الضرر الخفيف يمر دون أن يُلحظ ، لكنه حين يزداد خطورة[1] فانه يتجلى بسهولة امام الناظرين . وفضلاً عن ذلك فان الديمقراطية التي من هذا النوع تقدر فائدة النظم المشابهة لتلك التي استعان بها كليستانس Clisthène في أثينا — حين رغب في زيادة سلطة الديمقراطية — واستعان بها في قورينا اولئك الذين اقاموا الحكومة الشعبية : من زيادة

١ أي حين يتجاوز عدد العناصر الجديدة في السكان القدر الحرج .

عدد القبائل والفراطريات ، واختزال العبادات الخاصة الى اقل عدد ، وتحويلها الى اعياد شعبية عامة ، واستخدام كل الوسائل لمزج المواطنين بعضهم ببعض على اكبر قدر ممكن ؛ وحلّ الروابط الاجتماعية التي كانت قائمة من قبل . » (المقالة السادسة ، الفصل الرابع ص ١٣١٩ ب س ١٧ — ٢٦) .

والثورة التي يشير اليها ارسطو ها هنا هي تلك التي وقعت في قورينا سنة ٤٠١ ق. م. (راجع ديودورس ، الكتاب ١٤ : ٣٤) وقد وصفها ديودورس الصقلي فقال :

« وفي ذلك الوقت حدث اضطراب بين اهل قورينا ، منذ ان استولى أرسطون ، هو واخرين ، على المدينة . وقد قُتل من بين أهل قورينا خمسمائة من اكبر المواطنين نفوذاً ، وأجلِي الباقين نُفوا . واضاف المنفيون اهل مسينا الى عددهم واشتركوا في المعركة مع اولئك الذين استولوا على المدينة ؛ وذبح كثير من اهل قورينا من الطرفين المشتركين في القتال ، لكن أهل مسينا قتلوا عن بكرة ابيهم تقريباً . وبعد المعركة تفاوض اهل قورينا واتفقوا على المصالحة واقسموا في الحال على ألا يتذكروا الاهانات الماضية، وعاشوا كتلة واحدة في المدينة.» (ديودورس الصقلي مع ترجمة انكليزية لـ C. H. OLD Father ، حـ٦ ، ص ١٠٩— ١١١ . لندن ، هينمان ، سنة ١٩٥٤) .

• • •

تلك هي المواضع التي اورد فيها ارسطوطاليس ذكر ليبيا وقورينا . وهي كما ترى مواضع وفيرة . ويلاحظ عليها :

١ — ان أرسطو حين كان يقصد ليبيا الحالية كان يذكرها باسم قورينا ؛ ومرة واحدة ذكرها مع وصف محدد باسم « ليبيا ، بلد آمون » .

٢ — وفيما عدا ذلك فان كلمة ليبيا تعني في سائر المواضع افريقية : القارة ، والقسم الشمالي منها بخاصة حتى خط الاستواء .

٣ – انه اعتمد كثيراً في معلوماته عن ليبيا على « تاريخ » هيرودوت . ولكنه لم يأخذه على علاته أو بحروفه ، بل كان احياناً يضيف اليه زيادات وتفصيلات مأخوذة عن مصادر اخرى ، واحياناً اخرى كان يشكك في رواية هيرودوت ، وعلى كل حال فانه كان قليلاً ما يأخذ بتفسيرات هيرودوت للظواهر التي يشاهدها .

٤ – ان معلوماته في الغالب دقيقة ، واذا حاك في صدره الشك فيها ذكر الرواية مصدرة بقوله : « ويقول الناس ... » ، « ويقال » ، و « حسبما يقال » ، الخ من عبارات التشكيك او تبرئة الذمة من عهدة الخبر ، لأن ارسطو لم يَزُر ليبيا ، وإلا لكانت معلوماته اوفر ، ولكان قد قطع هذه الشكوك بيقين المشاهدة .

عبد الرحمن بدوي

ابن الاجدابي

للاستاذ الدكتور عبد العزيز برهام
رئيس قسم اللغة العربية

التعريف به : حياته وثقافته :

هو ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، اللواتي ، الطرابلسي المغربي ، الافريقي ، الملقب بأبي اسحق ، والمعروف بابن الاجدابي، نسبة الى اجدابية ، وهي بلدة على مقربة من بنغازى ، تبعد عنها حوالي ١٦٠ ك. م. جنوباً ، وكان أسلافه ينتمون اليها . اما هو فقد نشأ في طرابلس الغرب ، وأقام بها لم يبرحها حتى توفي ، فدفن بها .

وأول من أشار اليه في الكتب التي بين أيدينا أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي ، في معجم الأدباء (ج١ ص ١٣٠) ، فقد ذكر اسمه

---

١ راجع ترجمته في : معجم الادباء ج١ ص ١٣٠ ومعجم البلدان مادة (اجدابية) ج١ ص ١٠٠ ، وفي انباه الرواة ج١ ص ١٥٨ ، وفي رحلة التجاني ص ٢٦٢ ، وفي (بغية الوعاة) ص ١٧٨ . =

ولقبه ، وشهرته . ثم قال « له ادب وحفظ ، ولغة وتصانيف . ومن مشاهيرها كتابه « كفاية المتحفظ » . صغير الحجم ، كثير النفع ، وكتاب « الأنواء » . ثم أشار اليه في معجم البلدان حين تحدث عن اجدابية ، فقال : « كان اديبا فاضلاً . له تصانيف حسنة منها « كفاية المتحفظ » ، وهو مختصر في اللغة مشهور ، مستعمل جيد ، وكتاب الانواء ، وغير ذلك . »

ثم جاء غيره فاعتمد عليه وزاد . ونقل السيوطي في « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ما أورده ياقوت في معجم الأدباء بنصه .

وذكر القفطي الذي كان معاصراً لياقوت — في أنباه الرواة أنه « .. من أهل اللغة ، وممن تصدر في بلده . واشتهر بالعلم . وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها ، وافادتها . وهو متأخر . وصنف في اللغة مقدمة لطيفة سماها (كفاية المتحفظ) يشتغل بها الناس في المغرب ومصر . »

هذا ، ويذكر التجاني في رحلته (٧٠٦ — ٧٠٨ هـ) ان ابن الاجدابي كان حسن الخط ويقول : « واخبرت ان الأمير ابا زكريا ، رحمه الله ، كان شديد البحث على خطه ، وانه سمع ان كتاب (الفصيح) بخطه بيع في طرابلس ، فبرد بريداً اليها في البحث عنه . فبحث عنه ، ووجهه إليه » .

ويقول : « وكذلك اخبرت ايضا انه سمع ان بطرابلس كتاب (أمثلة الغريب) لابي الحسن علي بن الحسين الحنائي المعروف بكراع ،

— وفي العصر الحديث في (كشف الظنون) حـ٢ ص ٣٩٩ . وفي (هدية العارفين) حـ١ ص ١٠ ، وفي (الاعلام) حـ١ ص ٢٥ . وفي بروكلمان حـ١ ص ٨٣ وذيله حـ١ ص ٥٤١ وفي مقدمة (الازمنة والانواء) ص ٢١ وفي مجلة (المجمع العلمي) بدمشق حـ ٢ مجلد ٣٣ (اول نيسان ١٩٥٨ — ١١ رمضان ١٣٧٧) ، وفي (اعلام من طرابلس) ص ٩٣ .

بخط الفقيه ابي اسحق ، في ملك بعض (بني النقـاد) ، وهم من اعيان طرابلس ، فوجه اليه فيها . فوجه (النقاد) بها اليه . وقد وقفت على كتب (النقاد) بوصول الكتاب المذكور ، والشكر له على بعثته[1] .

ثم جاء المؤلفون المحدثون فنقلوا في ترجمة ابن الاجدابي خلاصة ما ذكرناه ، وزادوا عليه زيادات طفيفة ، ولا سيما في مؤلفاته ، كما سنرى .

والذي اجمع عليه المؤلفون ان ابن الاجدابي لم يغادر طرابلس الغرب طوال حياته . أي انه ظل بها يطلب العلم ويدرسه ، ويؤلف فيه . « وقد سئل : انى لك هذا العلم ، ولم ترتحل ؟ فقـال : اكتسبته من بابي هوارة وزناتة (وهما بابان من ابواب البلد ، نسبا الى مـن نزل بهما في اول الزمان ، ولا يزالان يعرفـان حتى اليوم بهذين الاسمين) يشير الى انه انما استفاد ما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس ، فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين. وكان له اعتناء بلقاء الوفود ، والقيام بضيافتهم[2] » .

لقد كانت طرابلس في ذلك الزمـان في طريق الذاهب من المشرق العربي الى المغرب العربي ، ومـن المغرب الى المشرق ، فكانت لذلك محط رحـال الكثيرين من العلماء الذين يطلبون الرحلـة . وكانت البلاد الإسلامية اذ ذاك بلداً واحداً أو كالواحد ، فلم تكن حركة انتجاع العلم والرحيل في طلبه ، وحركة الحج الى بيت الله الحرام — تنقطع .

وقد استطاع ابو اسحق ان يغتنم هذه الفرصة ، لتثقيف نفسه . فكان المسافرون من العلماء وغيرهم يضطرون بطبيعة الحال الى ان يقيموا بطرابلس فترة من الزمان ، قد تقصر وقد تطول ، طلبـا للاستجمام . وفي خلال هذه الفترة يفيضون على الناس من علمهم . فقد كانت طرابلس ، كما

---

١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤

٢ رحلة التجاني ص ٣٦٤ .

يقول التجاني ، تغص بالمساجد ، وكانت تقام فيها حلقات الدرس . واذا كان التجاني قد مر بها بعد عصر ابن الاجدابي بأكثر من قرنين من الزمان ووجدها على هذه الحال ، فقد كانت ، ولا شك ، اكثر ازدهاراً وحركة علمية في الحقبة التي نحن بصدد الكلام عنها .

كذلك نحس مما أورده التجاني في رحلته عن هذه البقاع انه كان بها علماء وفقهاء يدرسون للناس في المساجد .

كما ان حفاوة أبي اسحاق بالوافدين على البلد ، واستضافتهم دليل على انه كان موسعاً عليه في الرزق ، وانه بذلك كان يجد لديه من الوسائل ما يمكنه من طلب العلم ، والافادة منه .

ويقول التجاني :

« وكان الفقيه أبو اسحق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم ، كلاماً ، وفقهاً ، ونحواً ولغة وعروضاً ، ونظماً ، ونثراً [1] »

« وأخبرني بعض الطلبة ان خط الفقيه أبي اسحاق باق الى الآن في بعض جدر داره من طرابلس ، وهي في وسط البلد ، بمقربة من الجامع الأعظم [2] » .

ويبدو أن العناية بالخط كانت من شيم فريق من العلماء والأدباء . فهذا ابن قتيبة يقول في مقدمة أدب الكاتب : « فأبعد غايات كاتبنا ان يكون حسن الخط ، قويم الحروف [3] » .

أي ان هذه كانت عادة شائعة بين صفوف الادباء . ولكن ذكرها بالصورة التي يعرضها التجاني وتأكيده على هذا الجانب دليل على ان مجيدي الخط في منطقة طرابس كانوا قلة ان لم يكونوا ندرة .

---

١ رحلة ص ٢٦٢ .

٢ ص ٢٦٤

٣ ص٢ ط محيى الدين عبد الحميد .

وتقول ، مع التجاني : « وكفى بهذا الرجل المعظم القدر فخراً لهذا القطر ، ولم تكن له رحلة عن بلد طرابس الى غيرها[1] » .

تاريخ حياته :

يقول التجاني :

« وزرت هناك قبر الفقيه الامام ابي اسحق ... اللواتي الطرابلسي . وهو قبر معظم ، يكثر الناس زيارته ، والدعاء عنده[2] » .

نعود فنقول ان هذا التعليق يدل على مكانة ابن الاجدابي ، بين مواطنيه ، اذ لا يزالون يختلفون الى قبره « بكثرة » بعد مرور قرنين أو يزيد على وفاته .

هذا ، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ الوفاة ، اذ لم يذكر القدماء شيئاً من هذا التاريخ . اما المحدثون فقد ارجموا بالغيب دون ما تحقيق يذكر . على ان الذي اشار الى تاريخ الوفاة هو الزركلي وبروكلمان لا غير .

يقول الزركلي في كتابه (الاعلام) ان ابن الاجدابي توفي حوالي عام ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) ولم يذكر سواه من المؤلفين العرب اي تاريخ للولادة أو الوفاة .

ولسنا ندري علام اعتمد الزركلي في وضع هذا التاريخ ، لأنه لم يفعل اكثر من ذكره ، كأنه امر مسلم به .

وفي اعتقادنا ان هذا التاريخ بعيد الاحتمال جداً ، لأننا رأينا ان ياقوتاً الحموي قد ذكر (ابن الاجدابي) في كتابيه (معجم الادباء) و (معجم البلدان) ، ولم يشر فيهما الى انه لايزال على قيد الحياة بل

---

١ ص ٢٦٤

٢ ص ٢٦٢ .

بالعكس تكلم عنه كأنه متوفى ، فقـال عنه في معجم البلدان : « كان اديباً .... » ثم جاء (القفطي) ، فتكلم عنه ايضاً ، وقال : « .. وكانت له يد جيدة في اللغة .. وهو متأخر » .

من هذين النصين القديمين نرى ان ابن الاجدابي لم يكن على قيد الحياة حين كتبا . فاذا عرفنا ان ياقوتاً توفي عام ٦٢٦ هـ ، وان القفطي توفي عام ٦٤٦ هـ دل ذلك على ان ابن الاجدابي لم يعش حتى عـام ٦٥٠ هـ ، كما يقول الزركلي .

ولذلك نرى انه توفي قبل ياقوت بزمن .

اما بروكلمان فيقول انه توفي قبل عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) .

وهذا ايضا تاريخ بعيد عن الحقبة التي كان يعيش فيها ابن الاجدابي .

على ان التجاني يورد في رحلته حكاية قد تقرب فترة حيـاة ابي اسحق . فقد ذكر ان ابن الاجدابي « حضر يوما بطرابلس عند القاضي ابن هانش فحكم ابو محمد بحكم اخطأ فيه ، فرد عليه الفقيه ابو اسحاق . فقـال له : اسكت يا أحول ، فما استدعيت ، ولا استفتيت » ثم قال التجاني : « وكانت ولاية ابن هانش طرابلس سنة اربع واربعين واربعمائة ، بعد ان فر منها قاضيها محمد بن فاضل البكري الافريقي ، هارباً خوفاً من أهلها . وعزل عنها سنة سبع وسبعين (واربعمائة ضبعـاً) فكانت ولايته اثنين وثلاثين سنة[1] » .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) ج ١ ص ٣٦٦ ان ابن الاجدابي من علماء القرن الخامس الهجري . وهذا ما يعزز ما وصلنا اليه .

ومعنى هذا ان ابن الأجدابي كان يعيش في منتصف القرن الخامس الهجرى . وليس بين أيدينا حتى الآن ما يمكن ان نتخذ منه سنداً نحدد به تاريخ حياة أبي اسحق اكثر من هذا .

---

١ ص ٢٦٣ .

ويبدو ان الدكتور (عزة حسن) الذى نشر كتاب (الأزمنة والأنواء) لم يهتد الى تاريخ حياة ابن الاجدابي ، بل انه لم يحاول ان يحققه ، فقد اكتفى بمـا ذكره الزركلي ، فقال : « وتوفي هناك أيضاً حوالي سنة ٦٥٠ هـ » [١] . أما التاريخ الذى ذكر على غلاف الكتاب وهو ٩٥٠ هـ . فهو بلا شك خطأ مطبعي ، حدث سهواً .

مؤلفاته :

من هذا العرض الذى بسطناه ، ومما ذكره المؤلفون الذين أشرنا اليهم نرى ان ابن الاجدابي ألف :

١ ـ كفاية المتحفظ : ونهاية المتلفظ في اللغة العربية :

وهو بحث في اللغة سنتحدث عنه بالتفصل بعد قليل . وقد طبع في القاهرة عام ١٢٨٧ هـ ثم عام ١٣٢٣ هـ ، وفي بيروت عام ١٣٠٥ هـ ، وفي حلب عام ١٣٤٣ مع كتابين آخرين في اللغة .

ولكن هذا الكتيب توجد منه مخطوطات عدة ، موزعة بين مكتبات العالم ، ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب وفي ذيله اكثرها .

برلين ٧٠٤٣ ـ جوته ٠٤٢٣ المتحف البريطاني ١٠١٠(٢) ـ جار الله رقم ١٦٧ (استنبول) ، ٢٧١ ـ الاسكندرية (فنون) ١٨٨ / ٩ ـ بانتا (الهند) جـ١ ص ١٨٨ رقم ١٧٠٥ كمبردج ٩٣٥ ـ فينا ٨٧ ـ لننجراد .

باريس ٤٢٥٣ ـ الجزائر ١٨٤١ رقم ١٠ ـ لاكلي و (استنبول) ٣٧٤٠ رقم ٨ ـ شهيد علي (استنبول) رقـم ٢٦٦٧ ـ دار الكتب

---

١ ص ٢١ .

(القاهرة) فهرس ط ثانية جـ ٢ ص ٣١ – رامفور (الهند) جـ ١ ص ٥١٤ رقم ٦٣ ورقم ٦٤ .

وفي فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة) جـ ١ ص ٣٦٦ أن هناك في بلدية الاسكندرية نسخة خطية رقم ٣٦٤٨ – ١١٠ ق ٣٣×١٦ سم – وهي نسخة كتبت في القرن الثاني عشر . وان هناك نسخة اخرى في كوبريلي ١٣٢٥ / ٢ ٢٧٠ ق ١٦×٢٣ سم . كتبت في سنة ٦٣٠ هـ . بخط جميل واضح مشكول .

وقد علمت ان فهرس مكتبة (الاوقاف) بطرابلس يذكر وجود نسخة خطية بها .

هذا وقد لقي « كفاية المتحفظ » من العناية الشيء الكثير ، فقد شرح ، ونظم ، واختصر .

شرحه :

شرحه عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي،المغربي . ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، فهرس ط ثانية جـ ٢ ص ٦٦٨٩ ويسمى كتابه هذا « تجريد الرواية في تحقيق الكناية » .

نظمه :

وقد نظم « كفاية المتحفظ » غير واحد .

فنظمه قديماً محمد بن أحمد بن عبدالله الطبري،جمال الدين[1] المتوفى عام ٦٩٤

١ يذكر علي الفقيه حسن في بحثه الذي اشرنا اليه ان اسمه شهاب الدين، وانه توفي عام ٩٦٣ هـ ولا ندري من اين استقى معلوماته هذه .

و (١٢٩٤) كما يقول بروكلمان ، بعنوان « عمدة المتلفظ » . وتوجد منه مخطوطات في فيينا برقم ٨٨ وفي بردسة (تركيا) برقم ادبيات رقم ١٠٤ .

وقد أشار اليه حاجي خليفة رقم ٨٣٥١ بعنوان « عمدة المتلفظ في نظم كفاية المتحفظ » وذكر ان منه نسخاً أخرى مخطوطة في برلين ٧/٩٧٤ وفي ميونخ ٥١ ، وأصفية (هند) ج١ ص٣٠٢ . وقال انه نظمه للملك المظفر يوسف بن عمر . وذكر ان اسم الناظم هو محمد بن احمد « بن جابر الأعمى » الطبري المتوفى سنة (ولم يذكر السنة [1]) .

ويبدو ان الأمر قد اختلط على السيد علي الفقيه حسن ، فقد ذكر انه نظم مرتين : مرة قام بها القاضي شهاب الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (الحولي) المتوفي سنة ٦٩٣ هـ ، ومرة قام بها ابن جابر محمد ابن احمد الأعمى الاندلسي ، وفرغ منها سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر لنا من أين استقى معلوماته هذه . ويخيل الينا ان هذين الشخصين شخص واحد هو . الذي ذكره بروكلمان وأتم اسمه حاجي خليفة . ولفظة الحولي وهم وهي الطبري .

وذكر الاستاذ علي المصراتي ان الكتاب نظم « في ألف وثلثمائة بيت ، ليسهل حفظه ، ولكنه (أي الناظم) خلط حيناً ، وغلط حيناً [2] » .

وقد سمعت من الأستاذ المصراتي ان لديه مخطوطاً من كفاية المتحفظ المنظوم . ولم اعرف منه ان كان هذا المخطوط هو ما اشرنا اليه هنا او انه شيء آخر .

---

١ راجع كشف الظنون ط استنبول ج٢ ص ١١٧١ و ط ١٣١٠ حسن حلمي الكتبي ج٢ ص ١٣٥ .

٢ ص ٩٣ من « اعلام من طرابلس » .

ونظمه حديثا الشاعر احمد حسن الفقيه من طرابلس . ومما قاله في « الباب الاول » « باب صفات الرجل المحمودة » :

يلقب « السخي » با « لجواد »
و « الخرق » من « يحسن للعباد »
كذا الفتى « إن اكثر العطايا »
يدعونه « الخِضَمّ » في البرايا
و « الخِضْرِمُ » : « المكثر للانفاق »
على المساكين ذوي الاملاق
و « الأريحي » « المرتاح للعطاء »
ثم « الحسيب » « الطيب الآباء »
و « الماجد » « الشريف » و « الصنديد »
رئيس قوم « رأيه سديد »
كذلك « الهمام » كالصنديد
« للرئيس العظيم » والشديد
« سَميْذَع » جاء من « الجحجاح »
« لسيد القوم » هما ، يا صاح
وقل ، خليلي ، « للبيب العاقل »
« أريبُ » و « الوقورُ » « للحُلاحِل »
من « جرب الامور » بالتدريب
لقبه « بالمنجد » الأريب
و « مِدْرَه » القوم هو « المقدّم »
وهو « لسان حالهم » وهو الفم

وقل لمن كـــان ذكي القلب
يا « لَوذَعِيّ » يا فريدَ الصحبِ
ومَن « لسانه بليغ » : « مِصْقَع »
أمــا « السَّرِيّ » قدره مرتفع
و « اجمعه » يا صاح على « سَراة »
بفتـح سـين جـاء بالاثبـات

مختصره :

ولكفاية المتحفظ مختصر قام به اسحاق بن ابراهيم بن احمد الطرابلسي . ومنه مخطوط في كوبريللي (استنبول) رقم ١٥٦١ .

٢ – الأزمنة والأنواء :

وقد نشره الدكتور عزة حسن ، وقد طبعته وزاره الثقافة والارشاد القومي بسوريا عام ١٩٦٤ طبعة أنيقة تقع في ٢٣٠ صفحـــة من القطع المتوسط ، وبـــه مقدمة عن الأنواء عند العرب في الجاهلية وأخرى عن الأنواء عند العرب في الاسلام ثم تعريف موجز جداً بالمؤلف .

ويقول الناشر إنه وقف على « نسخة مخطوطة فريدة . بين مخطوطات الشيخ اسماعيل صائب سنجر ، المحفوظة الآن في مكتبة كليـــة البنات في جامعة انقرة . وهي ضمن مجموع صغير ، عدد أوراقه ٩٤ ورقة تشغل منها الأوراق ٥٢ – ٩١ ، ولا أخت لهذه النسخة في العالم فيما نعلم » . ثم يقول :

« وهي نسخة جيدة ، على وجه العموم ، بالرغم من كثرة التصحيف ، وشيوع الغلط فيها . وقد كتبت في حلب سنة ٧٤٢ هـ بخط معتـاد ،

مشكول بعض الشكل ، ورسمت فيها الأبواب بالحمرة ، وبحرف اكبر . قياسها ١٣١/١٨ ومسطرتها ١٩ سطراً[١] »

وقد صور الناشر في صدر الكتاب الصفحات الأولى منه (٥١ ب – ٥٢)، وفيها اسم الكتاب ، واسم مؤلفه ، ثم (٥٢ ب – ٥٣ أ) ، وهو أول الكتاب ، ثم (٥٩ ب – ٦٠ أ) وفيه بعض ثغرات : واخيراً (٩٠ ب – ٩١ أ) وهو آخر الكتاب ، وفيه :

« علقه لنفسه ، ولمن شاء الله تعالى بعده ، أضعف عباده ، وأحوجهم إلى عفوه ، أحمد بن عبد الرحمن بن أبي الحسن التبزي ، ثم الحلبي الشافعي ؛ حامداً الله تعالى ... ... وذلك في سَلْخ رجب الفرد من سنة اثنتين واربعين وسبعمائة ، بمسجد لله تعالى عرف بالزجاجين بحلب المحروسة ، رحم الله منشئه ... »

وهذان الكتابان هما المطبوعان . اما غيرهما مما سنذكره فقد وردت اسماؤها في تضاعيف الكتب ، ولم يعثر على شيء منهـا بعد . ولكن التجاني (ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) يذكر في رحلته انه ذهب الى طرابلس وزار فيها قبر الفقيه ابن الاجدابي ثم عرض لمؤلفاته . وقد ذكر اكثر المؤلفات المفقودة الآن . ويبدو من وصفه لها انه رآها أو رأى بعضها على الاقل أي انها كانت لا تزال موجودة في عصره .

فمن جملة هذه التآليف :

١ – كتابه في العروض .

ويقول عنه التجاني « وناهيك به حسناً وترتيباً ، وتهذيباً . وهو نسختان صغرى وكبرى . »

---

١ ص ٢٣ .

أي أنه صنع كتاباً مطولاً في العروض ثم اختصره في كتاب آخر .

٢ ـ كتابه في الرد علـى (أبي حفص) ابن مكي ، في تثقيف اللسان .

٣ ـ كتاب في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء ، وبيان اعتلال هذه الياء ، على اختلاف أحوالها : من تصغير وتكسير ، وغير ذلك .

ولما استوفى فيه ذلك الكلام استيفاء جميلاً تعرض لشرح المقاطـع الواقعة في سورة مريم [1] ، لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام ، فجـاء هذا التأليف في غاية الافادة والتحقيق [2] .

٤ ـ رسالة تعرف باسم « الحَوَل » تعرب عن أدب كبير ، وعلم غزير .

ويذكر التجاني سبباً لهذه الرسالـة الصدام الذي حـدث بين ابن الأجدابي وبين القاضي ابن هانش ، والذي أشرنا اليه من قبل .

٥ ـ كتاب اختصر فيه كتاب « أنساب قريش » تأليف ابن عبدالله الزبير بن أبي بكر بن عبد بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ابن العوام .

يقول التجاني : وحسبك بهذا التأليف الجليل علماً وفائدة . وهو كما كان الشيخ أبو الحسن علي بن مغيث رحمه الله يقول : « هـو كتاب

---

١ من مثل قوله تعالى :
« قال : اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا • وجعلني مباركا اينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا • وبرا بوالدتـي ولم يجعلني جبارا شقيا • والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا •

٢ الرحلة ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

عجب لا كتاب نسب » .

« ورأيت الفقيه أبا اسحق قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد ، تشتمل على فوائد ، نبه عليها [1] » .

(وبعد) فبين أيدينا كتاباه المنشوران — كفاية المتحفظ والأزمنة والانواء .

ستتكلم عن كل منهما كلمة نقف منها على مكانـــة ابن الاجدابي اللغوية ومدى تضلعه في علوم العربية .

أولا — كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ

لقد ذكرنا من قبل ثبتـــاً بالنسخ الموجودة من هذا الكتاب مخطوطة ومطبوعة ، ولا تزال هناك نسخ مخطوطة بلا شك لم نهتد اليها .

والذي يسترعي النظر ان هذا المؤلف على صغر حجمه : قد وجدت منه مخطوطات متعددة ، متناثرة في شتى مكتبات العالم . وهذا يدل على مقدار العناية والاهتمام به . والحرص على اقتنائه ، حتى نسخه الكثيرون .

وبين ايدينا نسختان منه ، احداهما المطبوعة بالقاهرة ، عام ١٣٢٣ هـ ؛ ويبلغ عدد صفحاتها ٥٤ صفحة من القطع الصغير : والاخرى المطبوعة في المطبعة العلمية في حلب عام ١٣٤٣ هـ . ولم يذكر اسم الذي اشرف على ضبطها . ولكنها موجودة في مجموعة مؤلفـــة من ثلاث رسائل هي احداها . والرسالتان الأخريان هما «مختصر الوجوه في اللغة» لأبي عبد الله

---

١ الرحلة ص ٢٦٤ .

الخوارزمي ، و « كتاب المذكر والمؤنث » لأبي زكريا الفراء « وكلاهما كتب على غلافه » عني بتصحيحه والتعليق عليه مصطفى احمد الزرقا » . ولسنا ندري ان كان هو الذي اشرف ايضاً على « كفاية المتخفظ » أو اشرف عليه غيره ، ولم يذكر اسمه ، ثم جمعت الرسائل في مجلد واحد .

على ان « الشركة الخيرية لاحياء الكتب العربية » التي اشرفت على طبع الكتاب تقول في مقدمة المجموعة . « وقد جعلت فاتحة أعمالها المباشرة طبع ثلاث كتب من نفائس كتب اللغة ، ظفرت بهـا في مجموع في (المدرسة الاحمدية) بحلب ، أولها « كفاية المتحفظ » تأليف الامـام أبي اسحق ، ابراهيم بن اسماعيل بن احمد بن عبد الله ، الطرابلسي ، الأديب المعروف « بابن الأجدابي » . وهو محرر بخط اسماعيل بن محمود ابن آدم الغزنوي ، الحنفي ، الشهير . فرغ من كتابتـه سنة ٥٧٨ هـ . والكتاب على نسق « فقه اللغة » للثعالبي وتجد فيه طرائف اللغة وفوائدها التي يحتاج اليها الكاتب مما لا تجده في غيره » .

وقد أشرنا من قبل الى ان هذه المقدمة ذكرت ان عماد الدين أبو الفداء البعلي (ت ٧٦٤ هـ) قد نظمه . وقالت : « وقد كان طبع في بيروت سنة ١٣٠٥ هـ إلا أن النسخة نفدت من سنين ، وبما ان موضوعه مرتبط بموضوع الكتابين الآخرين أعدنا طبعه ثانية معها[١] » .

وتقع نسخة حلب في ٧١ صفحة من القطع المتوسط . وتكاد كلماتها تكون مشكلة كلها . وقد عارضنا « باباً » في المحال والأبنية » منه على القاموس المحيط للفيروزبادي فوجدناه مضبوطاً ضبطاً صحيحاً ، إلا أن هناك أحياناً اقتصاراً في الضبط على لغة دون اللغات الأخرى . من ذلك مثلاً لفظة « أس » فقد ضبطت بالضم ، وقال الفيروزبادي انها مثلثة ،

١ ص (ب وج) .

أو اختلافاً في التفسير (وهذا يرجع طبعاً للمؤلف) . فقد ذكر ابن الأجدابي ان معناها « ما بقي من الرماد بين الأثافي » وذكر الفيروزبادي ان معناها « أصل البناء كالأساس » . والمعنيان متباعدان .

كذلك « النُؤى » فقد ضبطت بضم النون ، وذكرها الفيروزبادي مثلثة . وقال ابن الاجدابي في معناها « حاجز من رمل يحاط به البيت ليمنع المطر » ، وقال الفيروزبادي « الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل » . والتفسيران مختلفان ، وان كانت الغاية واحدة .

والكتاب ، رغم انه طبع عدة مرات نادر الوجود ، لأنه مرتب بطريقة تجعل كلاً من الشاعر والأديب يحرص على اقتنائه ، لأنه يذكر الألفاظ الدالة على شيء ما ، اسماً أو صفة ، ويبين ما بينها من فوارق تهم كلاً منها .

وفي عصرنا الحاضر يكون هذا النوع من التأليف ضرورة لازمة للمترجم فكثيراً ما تند عن باله اللفظة العربية التي تقابل لفظة أجنبية ينقلها الى العربية ، فيكون مثل هذا الكتاب خير معين له في العثور على اللفظ العربي المناسب . كما يحتاج اليه المنقبون من رجال المجامع ، الباحثون عن ألفاظ قديمة لمسميات حديثة .

سبب تأليفه ومنهاجه :

يقول المؤلف في مقدمة كتابه .

« هذا كتاب مختصر في اللغة ، وما يحتاج اليه من غريب الكلام . أودعناه كثيراً من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشي الألفاظ واللغات ، وأعريناه من الشواهد ، ليسهل حفظه ويقرب تناوله ، وجعلناه مغنياً لمن

اقتصد في هذا الفن ومعيناً لمن أراد الاتساع فيه[1] .

في هذه الكلمات القليلة بيّن المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف كتابه ، والمنهاج الذي اختطه فيه لنفسه ، والسبب في انه جعله مختصراً .

لقد الفه لأهل زمانه الذين يعوزهم التمكن من متن اللغة ، وجمع فيه بين أمرين : أن يكون « مغنياً لمن اقتصد في هذا الفن » ، وان « يكون معيناً لمن اراد الاتساع فيه » . انه يضعه على اول درجة في السلم ، ويرسم له طريق الصعود فيه ، ثم يدعه وشأنه .

ولما كان هدفه ان يستفيد منه من ليس له إلمام واسع باللغة ، فقد راعى فيه سهولة المأخذ ، وسهولة العلوق بالذهن ، فجنبه « حوشي الألفاظ » أي غير المستعمل أو القليل الاستعمال ، « الثقيل على السمع واللسان » و « عرّاه من الشواهد » فجعله متناً للغة ، كسائر المتون ، متون المواد ، يحفظ حفظاً ليكون منه زاد للمتعلم .

والحق أن الالفاظ جثث هوامد لا يبعث فيها الحياة الا الاستعمال ، والاستعمال انما يعرف بذكر الشواهد . فهي التي تحدد المعنى الدقيق . وآفة الكثير من معاجمنا هو سرد معاني الألفاظ ؛ وقد تكون كثيرة كثرة مفرطة دون ذكر الاستعمالات التي وردت فيها هذه الألفاظ . وكثيراً ما يردد مؤلفو المعاجم احتمال اللفظ الواحد لمعان متعددة ؛ وقد تكون متضاربة ، من غير ان تذكر لنا الأمثلة التي تبين لنا بوضوح سبب هذا الاحتمال . وذكر الشواهد قد لا يجعلنا نتفق مع صاحب المعجم أو مع اللغوي في فهمه . وبذلك يصحح الكثير من الدلالات الخاطئة الشائعة ، والتضارب في الفهم .

حقاً ، ان ذكر الاستعمالات الكثيرة يثقل على المؤلف ، ويزيد من

---

[1] ص٢ .

حجم المؤلّف ، ولكنه اكثر امانة ودقـــة . واذا كان كتاب « كفاية الألفاظ » بدون الشواهد يقع في ٥٤ (أو ٧١ حسب الطبعة) صفحة ، فلم يكن هناك ما يضر لو انه احتوى على الشواهد ، وتضاعف حجمه .

خذ لذلك مثلاً : يقول الفيروزبادي في قاموسه المحيط : الوَضَح (محركة) بياض الصبح ، والقمر ، والبرص ، والغرة ، والتحجيل في القوائم ، ومـــاء لبني كلاب ، والشيب ، والدرهم الصحيح ، ومحجة الطريق ، واللبن ، وحلى من الفضة (ج أوضاح) ، والخلخال وصغار الكلأ ... »

ويقول « المُزْن (بالضم) السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ..

ويقول : « المَعْن (بفتح فسكون) ، الطويل والقصير ، والقليل والكثير ، والهين اليسير ، والاقرار بالذل ، والجحود ، والكفر بالنعم ، والاديم ، والماء الظاهر ... »

قرناء ابن الاجدابي (ممن سبقوه أو عاصروه) .

إن هذا النوع من التأليف نشأ منذ فُكر في تدوين اللغة ، فقد بدأ هذا التدوين أول ما بدأ بكتابة رسائل صغيرة في موضوع بعينه تتناوله من نواحيه المختلفة . وكانت هذه الرسائل نواة للمعاجم فيما بعد .

فالأصمعي (ابو سعيد عبد الملك بن قريب) الـــذي كان يعيش في القرن الثاني (ت ٢١٦ هـ) كتب رسائل عن اللبأ ، وعن اللبن ، وعن الخيل ، وعن النبات ، وعن خلق الانسان .. الخ . وهنـاك كثير غيره سلكوا مسلكه .

ودافع آخر دفع الى السير في هذا الاتجاه ، والتوسع فيه ، ولكن دون التوقف عند حد التوسع في موضوع بعينه ، بل الأخذ من كل موضوع

بطرف ، على النمط الذي سار عليه (ابن الاجدابي) ــ هو الرغبة في تزويد الكتاب بأساليب أدبية ولغويه قويمة . وكان ذلك عندمـا شاع الغلط في الاستعمالات اللغوية ، وقصرت همة المتأدبين عن بلوغ المستوى الأدبي واللغوي الرفيع .

ابن قتيبة :

فهذا (ابن قتيبة) الذي عاش قبل ابن الاجدابي بقرنين من الزمان تقريباً (ت ٢٧٦ هـ) يقول مثل ما يقول (ابو اسحق) ، في سبب تأليفه كتابه « أدب الكاتب » وطريقته فيه ، بعد ان افاض في المقدمـة في انصراف الناس عن الادب ، وجهلهم باللغة وبمتنها جهلاً فاحشاً احياناً ، حتى الذين اصطفاهم الخلفاء ليتولوا شئون الديوان :

« فلما ان رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت ان يذهب رسمه ، ويعفو اثره ــ جعلت له حظاً من عنايتي ، وجزءاً من تأليفي ، فعملت لمُغْفِل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة ، وفي تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل ، لأنشطه لتحفظه ودراسته إن فاءت به همته ، وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة ، واستظهر له[1] باعداد الآلة لزمان الإدالة[2] أو لقضاء الوَطَر[3] عند تبيّن فضلِ النظر . وأُلحِقهُ ــ مع كلال الحد[4] ، ويُبْس الطينة ــ بالمرهَفين[5]

١ احتاط له واستوثق .

٢ الاعداد ، تهيئة الشيء لوقت الحاجة . والادالة ــ وقت رجوع الدولة بعد زوالها .

٣ كل حاجة فيها همة .

٤ تشبيه بالسيف القليل المضاء .

٥ المرهف المرقق الحد . ويقصد الأذكياء ذوي الأفهام .

وادخِلُه – وهو الكَوْدَن[1] – في مِضمار العِتاق »[2] .

ويقول :

« ونستحب له (للكاتب) أن يدعَ في كلامه التَّقْعير[3] والتَّعْقيب[4] .. فهذا وأشباهه كان يستثقل ، والأدب غض ، والزمان زمان ، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة ، ويتنافسون في العلم ، ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون ، وبلوغ ما يؤملون – فكيف به اليوم مع انقلاب الحال ، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « ان ابغضكم إليَّ الثرثارون ، المتفَيْهِقُون ، المتَشَدِّقون ؟؟ »[5]

الهمذاني :

أما (الهمَذاني) عبد الرحمن بن عيسى (ت ٣٢٠ هـ ٩٣٣ م في الغالب) فقد وضع كتابه « الألفاظ الكتابية » في هذا الاتجاه . وينسب الى الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) قوله :

« لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى ، مصنف كتاب الألفاظ ، لأمرت بقطع يده . فسئل عن السبب فقال : جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس ، والحفظ الكثير ، والمطالعة الكثيرة الدائمة[6] » .

---

١ البرذون .

٢ العتيق ، السابق من الخيل .

٣ الانتهاء الى قعر الشيء والذي يتقعر في كلامه هو الذي يأتي بالغريب فيه .

٤ التعمق .

٥ ص١٣ .

٦ مقدمة كتاب الالفاظ في ترجمة عبد الرحمن الهمذاني .

يقول الهمذاني في مقدمة كتابه هـذا عن سبب تأليفه : « ووجدت المتأخـرين في الآلة (آلة الكتابة) قوماً أخطأهم الاتساع في الكـلام ، فهـم متعلقون في مخاطبتهم وكتبهم باللفظة الغريبة ، والحرف الشاذ ، ليتميزوا بذلك عن العامة ، ويرتفعوا عند الأغبياء عـن طبقة الحشو . والخَرَسُ والبَكَمُ أحسنُ من النطق في هـذا المذهب الذي تذهب اليه هذه الطائفة في الخطاب » .

« وألفيت آخرين قد توجهوا بعض التوجه ، وعَلَوْا عن هذه الطبقة، غير انهم يمزجون ألفاظاً يسيرة قد حفظوها من ألفاظ كتاب الرسائـل بألفـاظ كثيرة سخيفة من ألفاظ العامة ، استعانة بها ، وضرورة اليها ، لخفة بضاعتهم . ولا يستطيعون تغيير معنى بغير لفظة ، لضيق وسعهم . فالتكلف والاختلال ظاهران في كتبهم ومحاوراتهم ، ان كانوا يؤلفون بين الدرة والبَعْرة في نظامهم .

« فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس ، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة والتلويح ، على مذهب الكتاب وأهل الخطابة، دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين مـن المؤدبين والمتأدبين المتكلفين — البعيدة المرام ، على قربها من الأفهام في كل فن من فنون المخاطبات ، ملتقطة من كتب الرسائل ، وأفواه الرجال ، وعرصات الدواوين، ومحافل الرؤساء، ومتخيرة من بطون الدفاتر ، ومصنفات العلماء » .

ثم يبين الغاية من هذا كله ، فيقول :

« فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من الكتابة أو تقـوم مقامها في المحاورة ، إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمجاورة فاذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية ، وعوناً ظهيراً . »

فالهمذاني اذاً يهدف من وضع كتابه هـذا أن يزود الكتاب بألفاظ وتراكيب مترادفة أو تؤدي معنى متقارباً يستطيعون أن يستعملوها ، حتى لا تضيق بهم السبل عند الكتابة ، وخصوصاً اذا كانوا يريدون الكتابة بصور مختلفة في موضوع بعينه كالتهنئة أو التعويذ أو الوعد أو غيرها .

فيقول مثلاً « باب الارشاد » :

« يقال – أرشدت الرجل إلى الرأي وغيره إرشاداً ، وهديته هداية، ودللته دلالة ، وأدللته عليه إدلالاً .

« وهديت الرجل في الدين هدىً ، وفي الطريق والرأي هداية ... وسدّدته تسديداً ، ووقّفته توقيفاً ، وعرّفته تعريفاً ، وعلّمته تعليماً ، وبصّرته تبصيراً ، وثقّفته تثقيفاً ، وفهّمته تفهيماً ، وأفهمته ، وبيّنته له وقوّمته تقويماً ، وأيّدته تأييداً بالرأي » .

هذا هو لون المعالجة التي عالج بها (الهمذاني) متن اللغة . انه لم يشرح أو يوضح منها شيئاً . بل اكتفى بسرد ما تراءى له أنه مترادفات سرداً ، ونسي أو تناسي الفوارق الدقيقة التي توجد بين الالفاظ التي ظاهرها الترادف ، وليست في حقيقة الأمر كذلك . فهناك مثلاً فرق بين علم وعرف ، وفرق بين ثقف وعلم ، وبين هداه ودلّه وبين سدده ووقفه على كذا ...

ولكنه حقق الهدف الذي من اجله ألف الكتاب وجمع امام الكاتب أو الخطيب أو الشاعر ... الألفاظ التي تؤدي (في اعتقاده) معنى واحداً أو معاني متقاربه . وليس كذلك عمل (ابن الاجدابي) ، فهو اكثر دقة .

الثعالبي :

اما ابو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) الذي كان معاصراً لابي

اسحق أو عاش قبله بفترة وجيزة ، فقد انتحى في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » نحواً آخر يختلف عما سبقه ، ينم عنه الاسم الذي اختاره لكتابه نفسه . وطريقته التي اتبعها هي الطريقة التي سار عليها ابن الاجدابي . ولكن كتاب الثعالبي كان أعم ، واكثر تنوعاً ، وأغزر مادة ، واكبر حجماً . فهو يصل الى ٤٧٥ ص من القطع الصغير . وقد ختمه بذكر بعض موضوعات في اللغة ، غاية في الدقة ، ومنها ما يدخل في « فن البديع » من الكلام ، فتكلم عن معنى الاستعارة ، لغـة واصطلاحاً . وضرب الامثلة لها ، وعن التجنيس ، وعن الطبـاق : وفي الالتفات والحشو ... وجارى في ذلك ما كان شائعاً في عصره عن هذه المناحي . ويبلغ هذا الملحق نحواً من ١٢٥ ص .

ونحن لا نستطيع أن نجزم أي الاثنين كان أسبق في التـأليف من الآخر : الثعالبي أو ابن الاجدابي . وان كان الثابت أن الثعالبي مات في اوائل الربع الثاني من القرن الخامس على حين ان ابن الاجدابي كان لا يزال على قيد الحياة . وقد حدثت بينه وبين ابن عايش القصة التي اوردناها ، ولسنا ندري متى حدثت على وجه التحقيق ؛ وكم من الزمن عاش بعدها .

وعلى اية حال فان كتاب الثعالبي كان قد عرف واشتهر قبل وفاته . وهو لم يحدد لنا متى ألفه . وهل كان ذلك في اواخر ايامه أو في أوائلها . وان كانت المقدمة تنم عن انه حين ألفه كان لا يزال في صحة تامة ، فهو لم يشك في عمله كلالاً ، ولا أظهر في عزلته التي اختارهـا لنفسه لكي يؤلفه تبرماً . كل ما صدر عنه من شكوى ان هذه العزلة طالت ، فحرمته من مجالس ولي الفضل عليه ، عبيد الله بن أحمد الميكالي ؛ الذي اشار عليه بتأليفه ، ورسم معه خطة العمل .

فهو اذاً قد ألف في اواخر القرن الرابع أو اوائل القرن الخامس أي

قبل ان يؤلف ابن الاجدابي – فيما يبدو – كتابه بفترة كافية . بقي أن ندلل على وصول كتاب الثعالبي الى يد ابي اسحق أو عدم وصوله . وهذا أمر تعوزنا عليه الادلة حتى الآن . ان صاحب « فقه اللغة » قدم لكتابه بمقدمة طويلة أوضحت سيرته ، وأبان في هذه المقدمة عن المصادر التي استقى منها ، المتن » الذي وضعه بين أيدينا . اما ابن الاجدابي فلم تزد مقدمة كتابه عن بضعة اسطر غاية في الايجاز ايضاً ، كايجازه في متن الكتاب .

واذا كانت الطريقة التي سلكها كل من الثعالبي وابن الأجدابي واحدة ، فان هناك كذلك تشابهاً بينهما في الدقة البالغة التي اتسمت بها مادتاهما ، كما سنرى من الامثلة التي سنختارها لكل منهما .

ويعترف الثعالبي أنه أخذ مادة كتابه عن كتب الأئمة السابقين له ، من امثال الخليل بن احمد ، والاصمعي ، وابي عمرو الشيباني ، والكسائي ، والأزهري .. ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة الى سهولة البلاغة [1] »

ويحدثنا في مقدمة كتابه حديثاً طويلاً عن سبب تأليفه ، وان الذي دفع به الى هذا المجال هو الأمير ابو الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي . وهو الذي رسم له الطريق الذي يسير عليه ، وان مجلسه « كانت تجري فيه نكت من أقاويل ائمة الأدب في أسرار اللغة ، وجوامعها ، لطائفها وخصائصها ، مما لم ينتبهوا لجمع شمله ، ولم يتوصلوا الى نظم عقده . وانما اتجهت لهم في اثناء التأليفات ، وتضاعيف التصنيفات لمع يسيرة كالتوقيعات ، وفقر خفيفة كالاشارات ، فيلوح لأبي منصور « بالبحث عن أمثالها ، وتحصيل اخواتها ، وتذييل ما يتصل بها ، وينخرط في

---

١ ص ١٦ – ١٧ .

سلكها ، وكسر دفتر جامع عليها ، واعطائها من النيقة [1] »

وقد قسم الثعالبي كتابه الى ثلاثين باباً ، يضم كل منها عدة فصول، ويمتاز بأنه ينسب أحياناً كل معنى الى قائله أو قائليه .

يقول مثلاً في الثياب :

« عن أبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، والليث : كل ثوب من قطن فهو سَحْل . كل ثوب من الأبريسم فهو حرير . كل ما يلي الجسد من الثياب فهو شِعار ، وكل ما يلي الشعار فهو دِثار. كل ملاءة لم تكن لِفْقَين (قطعتين متضامتين) فهي رَيْطَة . كل ثوب يبتذل فهو مِبْذَلة ومِعْوز . كل شيء أودعته الثياب من جُوقة أو تَخْت أو سَفَط فهو صُوان وصِيان . كل ما وقى شيئاً فهو وقاء له [2] »

ويقول أبو اسحق في باب « اللباس » :

« السَّب هو الثوب الرقيق . والبُرْد المسهَّم هو المخطّط . والمُفوّف الذي فيه نقوش . والسَّحْل الثوب الرقيق من القطن . والشَّف الثوب الرقيق يُظهر ما خلفه . والسابِري مثله .

« الحصيف من الثياب الكثيف الساتر . والأنْحَمِيَّة برود منسوبة إلى أنْحَم ، من أرض اليمن . والمَجاسِد الثياب الحمر واحدها مُجْسَد .

والمُعَصْفر المصبوغ بصُفْرة خفيفة . والمُفَدَّم المشبَّع بالصبغ . والسَّرَق شقاق الحرير الواحدة سَرَقَة .. الخ .

١ ص ١٣ ـ النيقة اسم من تنيق أي تجود وبالغ .

٢ ص ٣٥ .

هذا ، وقد ذكر الثعالبي في مواضع اخرى من كتابه كثيراً من الأسماء التي أوردها ابن الاجدابي في الثياب . وقس على ذلك سائر الأبواب .

مادة كتاب ابن الاجدابي

كفاية المتحفظ :

الكتاب مصنف أبواباً عدتها واحد وخمسون باباً . منها الطويل الذي يستغرق صفحتين ، ومنها القصير الذي لا يجاوز بضعة أسطر .

والمتتبع لسير هذه الأبواب يجد أن منها أحد عشر باباً تتحدث عن الرجل والمرأة . عن الصفات المحمودة عند كل منهما ، والصفات المذمومة. ثم عن الألقاب التي يلقب بها الرجل في صلته بالنساء ؛ وأسماء الحلى التي تتحلى بها النساء ، وعما يحتاج اليه من معرفة خلق الانسان . ثم ألقاب الانسان في أطوار حياته ، رجلاً كان أو امرأة ، والصفات الخِلْقية في كل منهما .

وستة ابواب في الابل والخيل ، في ألوانها وسيرها ، وألقابها ...

وثمانية أبواب في الحرب والسلاح : في اسماء الحرب ، وفي السلاح ، محموده ومذمومه ، وأجزاء السيف ، والرماح والسهام ؛ والدروع والبيض.

وسبعة أبواب في الحيوان : في السباع والوحش ، وفي الظباء ، وفي البقر الوحشية ، وفي الحمير الوحشية ، وفي النعام ؛ وفي الطير ، ثم في النحل والجراد والهوام ، وصغار الدواب .

وثلاثة أبواب في الفيافي والجبال : في نعوت القفار والأرضين ، وفي الرمال وفي الجبال ، والأماكن المرتفعة ، والأحجار وما شاكلها .

وباب في المحال والابنية .

وأربعة أبواب في مظاهر الطبيعة : في الريــاح وفي السحاب وفي المطر ، وفي السيول والمياه .

وأربعة أبواب في النبات : في النبات وفي الزهر ، وفي الكروم ، وفي النخل . وخمسة أبواب في الطعام والشراب : في الاطعمة وفي انواع الأكل . وفي الأشربة وفي اللبن وفي العسل ، وفي أسماء الخمر .

وباب في الآنية .

وبابان في اللباس . وباب في الطيب ، وآخر في الآلات وما شاكلها .

والمتتبع للمادة التي أوردها ابن الاجدابي في هذا الكتاب الصغير يدرك سعة اطلاعه ، ومبلغ دقته ، وبصره بالفوارق اللغوية الدقيقة بين المسميات واسمائها ، ولا كذلك الهمذاني . كما يدرك مبلغ الثروة الهائلة التي تتمتع بها اللغة العربية ، ومبلغ الدقة البالغة في اختيار الألفاظ ، وانها تستحق ما قاله عنها شاعر النيل ، حافظ ابراهيم .

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق آيات لمخترعات ؟

كذلك يبين لنا ان كثيراً من الألفاظ اللغوية التي نظن اليوم انهـا مترادفة هي في حقيقة وضعها ليست كذلك . هي ألفاظ متقاربة الدلالة في الوضع ثم تنوسي هذا التقارب لبعدها عن نقطة انطلاقها ، فظن انها مترادفة . ولو عملنا على تجلية هذه الفوارق ، وانصرفت اليه مجامعنا اللغوية بهمة لوجدنا أنفسنا امام لغة غاية في الدقة والتحديد ، وهـو ما ينقص

لغتنا اليوم . ولو اننا أعدنا النظر في معاجمنا ، في ضوء النصوص الواردة عن العرب ، لنحينا كثيراً من المعاني المتأرجحة ، و « العائمة » ولأزلنا من معاجمنا ، ومن شروح آدابنا كثيراً من صور الشك والتردد والابهام .

هذا مثلاً باب يتحدث فيه المؤلف ، عن اجزاء جسم الانسان ، فيقول :

الأسنان : أسنان الانسان اثنتان وثلاثون سناً ، اربع ثنايا ، وأربع رباعيات ، وأربعة أنياب ، وأربعة ضواحك ، واثنتا عشرة رَحى ، ثلاث من كل جانب ، ثم اربعة نواجذ ، وهي اقصاها . فقالوا ، والناجذ ضرس الحلم . والنواجذ والأرجاء هي الأضراس .

فاذا سقطت أسنان الصبي قيل – قد ثُغِر الصبي ، فهو مثغور . فاذا نبت قيل قد اتّغر واثّغر (بالتاء والثاء مع التشديد فيهما) .

واللسان يذكر ويؤنث ، وجمعه إذا ذكّر ألسنة ، فاذا أنث فالجمع ألسُن . » وعَكَدة اللسان أصله . والصُّرَدان العِرقان المستبطنان له .

ثم يتحدث عن غير الفم والاسنان فيقول :

« والجيد العنق ، وهو التَّليل ، والهادي ، والطُّلْيَة ، والجمع طُلىً .

والأخدعان عرقان في موضع المَحْجَمَتَيْن .

والوريد عرق في العنق يتصل بالقلب .

والأوداج العروق التي يقطعها الذابح من الشاة ، واحدها وَدَج .

واللغاديد : لحم باطن الحلق ، مما يلي الأذن .

والقَصَرة أصل العنق .

والضَّبع العضد .

والمأبِض باطن المِرفق . وهو باطن الركبة ايضاً .

والنواشر عروق باطن الذراع . وكذلك الرَّواهش أيضاً . وقيل النَّواشر عروق ظاهر الذراع . والرَّواهش عروق باطنها .

والمِعْصَم موضع السِّوار .

والزَّنْد طرف الذراع الذي انحسر عنه اللحم . فرأسه الذي انحسر عنه الخِنْصر هو الكُرْسُوع ، ورأسه الذي يلي الابهام هو الكوع .

والراحة الكف . وفيها الاصابع . وهي الإبهام ثم السبابة ثم الوسطى ثم البِنْصر ثم الخِنْصر . وكذلك أسماؤها في الرِّجْل ايضاً .

والسُّلاميات : العظام التي بين كل مَفْصِلين من مفاصل الأصابع .

والرَّواجب بطون السُّلاميات وظهورها .

والبَراجم رؤوس السلاميات من ظَهْرِ الكف ، وهي ظهور مفاصل الأصابع .

والكاهل مقدم الظهر مما يلي العنق ، وهو الكَتِد والثَّبَج .

والصُّلْب من الكاهل الى عَجْبِ الذَّنَب .

والمَطا الظَّهر ، وهو القَرا ، مقصور أيضاً .

والحَيْزُوم الصدر ، وهو الكَلْكَل ، والبَرْك ، والجَوْشَن ، والجُؤْشُوش .

ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر بقية أعضاء الجسم ، ثم يذكر ما في الصدر ، وما في الجوف والبطن ...

هذه الدقة المتناهية في ذكر الاسماء التي تدل على اجزاء الجسم ، ظاهرها وباطنها ، تدل على أن المؤلف بذل جهداً محموداً في استخلاص كل هذه الاسماء من ثنايا كتب اللغة ، وكتب الأدب والرسائل ، والمعاجم ، وغيرها ، في صبر وأناة بالغين ، ومعرفة دقيقة بالمسميات نفسها .

إن وجود هذه الاسماء بهذه الدقة يؤيد ما قلناه من ان اللغـة العربية ليست فقيرة ، وانما العيب فينـا نحن الذين اهملنا هذا التراث القيم فلم نستفد منه في نهضتنا الحاضرة التي هي في حـاجة ماسة الى كل هذه الالفاظ ومئات غيرها .

ان لدينا نهضة في جميع فروع المعرفة ، وهي محتاجة الى ألفاظ لتدل بها على ما جد من مستحدثات العلوم ، وتراثنـا العربي مليء بالألفاظ التي يمكن أن تفيدنا في هذا المضمار ، وليس علينا الا تجلية هذه الأسماء . اننا نحتاج الى بعض الصبر والمقدرة على ذلك ، ولكننـا واثقون ، اذا اخذنا في الاسباب ، أن نصل الى ما نريده ان لم يكن كله فجله . علينا ان نحيي الكتب القديمة وما جاء فيها من الفاظ ، بدل ان نعيب اللغة ، ونتهمها بالقصور ، والقصور في واقع الامر انما هو فينا نحن ، وبدل ان نسخر من الالفاظ التي تحت ايدينا لأن ألسنتنا لم تألفها ، فالألفاظ الأجنبية التي نلجـأ اليها لا تقل غرابة ، بل انها تحتاج الى توضيح لمعانيهـا أطول وأعوص .

الأزمنة والأنواء

هذا هو الكتاب الثاني الذي عثر عليه ونشر من كتب (ابن الاجدابـي) وقد نشره الدكتور عزة حسن عام ١٩٦٤ ، وتولت الانفاق عليه وزارة الثقافة والإرشاد بسورية « احياء التراث القديم » .

وهو مطبوع طبعاً أنيقاً ، ويقع في ٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط ، إذا استبعدنا المقدمات التي ليست للمؤلف : والمراجع التي رجع اليهـا الناشر .

وقد قدم له الناشر بمقدمة عن « الأنواء عند العرب في الجاهلية » ثم عن « الأنواء عند العرب في الاسلام » ، وأعقب ذلك بالكلام عن الكتاب نفسه فقال « بعد أن أبان أن » العلماء كادوا ينقطعون عن التأليف في الأزمنة والانواء انقطاعاً تاماً مع إطلالة القرن السادس للهجرة»_ أن الكتاب « يضم بين دفتيه زبدة علم الأزمنة والأنواء عند العرب في الجاهلية والاسلام ، مضافاً اليها فصول من هذا الفن أخذها العرب من الأمم الأخرى التي اتصلوا بها بعد الاسلام ، وفصول اخرى مستمدة من علوم الهيئة والنجوم التي نشأت عند العرب بعد الاسلام ايضاً ... » ثم قال :

« وقد تبع ابن الاجدابي خطة الايجاز في تأليف كتابه هذا ، فلم يحشر فيه الآراء المختلفة ، والنظريات المتضاربة حشراً ، ولم يأخذها بحذافيرها ، ولم يذكر تفاصيلها الجزئية الدقيقة . وانما ذكر منها الخطوط العامة التي تحيط بالقضايا ، والمسائل الهامة ، وعرض الأفكار الأساسية في الأبواب ، في بساطة ويسر ، وفي لغة نقية سهلة ، بعيدة عن التعقيد العلمي . وكأني به قد قصد من وضع كتابه الى تبسيط فن « الأزمنة والأنواء » وتقريبه من أذهان جمهور القراء في عصره . ولم يقصد به كبار العلماء من ذوي الاختصاص . فكان موفقاً في عرض أبوابه وفصوله في صورة جميلة ، محببة إلى النفوس ، فجاء كتابه لذلك مختصراً لطيفاً ، يمضي فيه القارىء مضياً سهلاً ، دون أن يصطدم فكره بمشكلات العلم الصعبة أو يتعثر في مسالكه البعيدة المجهولة [1] » .

ونزيد أن هذا العمل لا يمكن ان يقوم به الا شخص ملم كل الالمام بتفاصيل الفن الذي يكتب عنه . وتكون اصوله وفروعه واضحة في ذهنه كل الوضوح ، حتى يستطيع أن يعريها من كل الشوائب ويستخلص منها

---

١ ص ١٨ .

الأفكار الأساسية الضرورية ، ويصوغها للقارىء في أسلوب سهل مبسط مستساغ .

والذي يستعرض المادة التي قدمها ابن الأجدابي في كتاب « الأزمنة والأنواء » يجد أن الطابع اللغوي يسودها الى جانب الطابع العلمي ، وان ابا اسحق لم ينسَ ، وهو يكتب في الأنواء ، انه عالم لغوي ، وانه وضع « كفاية المتحفظ » .

فهو مثلاً حين يتكلم عن الشمس حين تطلع وحين تغرب ، وحين تملأ الأفق ، وحين تنتصفه .. الخ ، لايكتفي باعطاء القارىء ما هو في حاجة اليه من هذه البيانات ، بل يقول :

« وللشمس عند العرب اسماء ، منها ذُكاء ، ممدود لا ينصرف ، سميت بذلك لأنها تَذْكُو النار . ولذلك قيل للصبح « ابنُ ذُكاء » ، لأنه من ضوئها .

ومن أسمائها ايضاً الغزالة ، وبُوح ، وبَراحِ ، والجَوْنَة . سميت جَوْنَة لشدة بياضها . والجَوْن ايضاً الأسود ، وهو من الأضداد .

ومن اسمائها الإلاهة ، ويقال لاهَة ، بغير ألف ولام . قال الشاعر :

تَرَوَّحنا من اللَّعْباء قصراً فأعجَلْنا الإلاهةُ أن تئوبا

ولا تسمى الشمس « الغزالة » الا في ارتفاع النهار خاصة . وقد قيل إن الغزالة ارتفاع النهار نفسه . يقال « لقيت فلاناً غزالةَ الضحى » ، ورَأد الضحى أي في وقت مدّ الضحى ، وارتفاع النهار .

ويقال : ذرت الشمس ذُروراً ، وشَرَقَتْ شروقاً إذا طلعت . فاذا استقلت وخلّص ضوؤها قيل: قد أشرقَتْ إشراقاً ، وبَزَغَتْ بزوغاً .

« وقَرْنُ الشمس أولُ ما يبدو منها في الطلوع .
وحواجبها : نواحيها . وآياتها ، وأياؤُها: ضوؤُها وشُعاعها .
« والصبح ما يقع على الأرض من ضوئها ... الخ » .

نحن إذاً امام كتاب لغوي – فلكي . لغوي يتعقب المعنى تعقباً كاملاً أو شبه كامل حتى يجلوه . واذا كان « كفاية المتحفظ » قد عرض لموضوعات شتى في مختلف نواحي الحياة،واستطاع مؤلفه ان يعرض علينا فيه خلاصة ما قيل من اسماء للمسميات التي ذكرها ، فإن كتاب « الأزمنة والأنواء » لا يعرض إلا لناحية واحدة هي موضوعه . ومع ذلك فان ابن الاجدابي قد وفاها حقها اللغوي ، فذكر الأزمنة ، وقسمها الى اقسامها ، وذكر اسم كل قسم منها (الساعة واليوم والشهر والسنة) ، ثم ذكر شهور السنة بالتفصيل وعدد أسماءها وما قيل فيها ، وعلامات الشهور العربية ... واستمر على هذا المنوال حتى آخر الكتاب .

كذلك نحن أمام كتاب أدبي . فالمؤلف كثيراً ما يؤيد كلامه بشواهد من كلام العرب وأشعارهم ، يستدل بها على المعنى الذي قال به .

ونستطيع ان نقول هنا مع ناشر كتاب « الأزمنة والأنواء » إن قيمة الكتاب متعددة الجوانب ، فيها جانب علمي ، وآخر أدبي ، وجانب ثالث لغوي ، ورابع تاريخي .

« وتتجلى قيمته العلمية في بيان ما كان معروفاً عند العرب في العصر الجاهلي من معارف في الأزمنة والأنواء ، ثم في بيان ما كان معروفاً ، ومستعملاً من هذا الفن في البيئة العربية بعد الاسلام الى عصر المؤلف . وكثير من هذه الامور التي أوردها المؤلف في كتابه ما زالت معروفة ومستعملة كذلك في أيامنا هذه ، ولا سيما الأمور التي تتصل بالسنين والشهور وفصول السنة على المذاهب المختلفة .

وقـد أجاد المؤلف حقاً في كلامه عن الشهور السريانية التي كانت شائعة مستعملة في المشرق العربي في عصر المؤلف ، وفي كلامه عما يكون فيها من المواسم الزراعية وغيرها . وما زلنا ، نحن العرب، نستعمل هذه الشهور في المشرق العربي الى اليوم .

« أما من الناحية الادبية ، فالكتاب يفيدنا في فهم كلام العرب الذي ترد فيه أشياء عن الأزمنة والأنواء من اشعارهم ، وأسجاعهم ، وامثالهم في الجاهلية والاسلام . وهي مبذولة ومبثوثة في دواوين الشعراء ، وفي كتب الأدب واللغة .

« هذا الى شواهد الشعر والنثر من كلام العرب التي نثرهـا المؤلف هنا وهناك في ثنايا كتابه مع شرح لألفاظها ، وايضاح لمعانيهـا ، في اغلب الأحايين .

والباب الأخير من الكتاب هو باب معرفة الشهور الشمسية ، وأسمائها عند الأعاجم وما يحدث في كل شهر منها من طلوع المنازل أو سقوطها – معرض حافل بأسجاع العرب التي قالوهـا في الأنواء والأزمنة التي توافق طلوع النجوم الثابتة . وفي هذه الأسجاع جمال ادبي خـاص ، غني بالموسيقا ، ينشأ من رشاقة الألفـاظ ، وايجاز العبارة ، وارنـان السجع . مثل قولهم « إذا طلع الذراع ، كشفت الشمس القناع ، وأشعلت في الأفق الشعاع ، وترقرق السراب بكل قاع » ومثل قولهم « اذا طلع سهيل ، برد الليل ، وخيف السيل ، وكان لأم الحوار [1] الويـل » . ولم يهمل المؤلف شرح ألفاظ هذه الأسجاع ، وايضاح معانيها ايضاً .

« وأما في اللغة ، فالكتاب يفيض بالألفاظ الدائرة في موضوع الأزمنة

---

١ ولد الناقة ساعة تضعه أو الى أن يفصل عن أمه (ج) أحورة وحيران .

والأنواء كثيراً . ومعظم هذه الألفاظ قد أصبحت من اصطلاحات هذا الفن مع الزمن .

« ومن استقراء هذه الألفاظ في كتب الأزمنة والأنواء التي وصلت الينا وفي كتب اللغة معاً ؛ ثم من قياس بعضها ببعض بعد ذلك ــ تمكننا كشف التطور الذي طرأ على مدلولات هذه الألفــاظ خلال العصور . وسيكون هذا الاستقراء سبيلاً إلى وضع معجم لغوي ، يضم شتات هذه الألفاظ ، كما سيكون هذا المعجم خطوة في سبيل وضع المعجم التاريخي للغة العربية . وما أحوج العرب في نهضتهم الحديثة الى مثل هذا المعجم .

« وللكتاب أخيراً قيمة تاريخية . ذلك أنــه يفيد الباحثين في مسألة تاريخ العلوم في الحضارة العربية ، ويعتبر مرجعــاً قيماً ، ووثيقة جيدة في أيدي هؤلاء الباحثين . وهذا الى انه سيمثل منحًى من مناحي الفكر العربي في مرحلة فسيحة من مراحل تاريخه الطويل المجيد »[١] .

وبعد : فالكتابان اللذان عــثر عليهما من تراث (ابن الاجدابي) الفكري يدلان على اصالة في التفكير ، وسعة أفق لغوية ، واطلاع أدبي بعيد المدى ، وقدرة فائقة على تبسيط المادة مع وضوحها .

ولعل الأيام تكشف عن كتبه المفقودة حتى يتكامل بناء الحــكم على هذه العقلية العلمية الأدبية العميقة .

حقاً ان الكتابين مختصران . و « كفاية المتحفظ » غاية في الاختصار، إذا ما قيس بغيره من الكتب التي عالجت موضوعه . ولكن وضع « المتون » كان أصلاً من أصول التأليف عند العرب ، ولا سيما بعد القرن الرابع، بسبب تأسيس المدارس في المدن ، وللأسباب الأخرى التي ذكرها المؤلفون في مقدمات كتبهم التي أشرنا اليها .

---

١ ص ١٩ ــ ٢٠ .

كانت هــذه المتون إذاً كالكتب المدرسية في أيامنا . وكانت كذلك زاداً لأوساط الناس الذين كانوا يرغبون في أن يتزودوا بشيء من الثقافة العامة دون أن يتوغلوا فيها . وهذا هو الذي حدا بفريق من المؤلفين إلى أن يضعوا في العلم الواحد كتابين أو ثلاثة : مختصر ومتوسط وطويل . و (ابن الأجدابي) نفسه فعل هذا في فن العروض . فالمختصر لطالبي العلم من التلاميذ ، والمتوسط لأوساط الناس ، والمطول يضم شتات المسائل، ويحيط بأطراف المادة . واذا اقتصر على مؤلفين كان الموجز منهما للطائفتين الأولين .

مراجع البحث

١ ــ كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ لابن الاجدابي

٢ ــ الأزمنة والانواء لابن الأجدابي ــ دمشق ١٩٦٤

٣ ــ رحــلة التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد) ــ تونس ١٩٥٨

٤ ــ أدب الكاتب لابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم) .

٥ ــ فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور الثعالبي .

٦ ــ بغية الوعاة لجلال الدين السيوطي .

٧ ــ الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني ط. الاب لويس شيخو .

٨ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي (لابي عبد الله ياقوت بن عبد الله) بيروت ــ روائع التراث العربي ــ مكتبة خياط .

٩ ــ معجم الادباء لياقوت الحموي .

١٠ــ الاعلام لخير الدين الزركلي .

١١ـ كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة (مصطفى ابن عبد الله) .

١٢ـ اعلام من طرابلس لعلي مصطفى المصراتي .

١٣ـ انباه الرواة على انباه النحاة لجمال الدين أبي الحسن القفطي (دار الكتب ـ القاهرة ١٩٥٠) .

١٤ـ بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي .

١٥ـ مجلة المجمع العلمي بدمشق جـ٢ مجلد ٣٣

د. عبد العزيز برهام

الحياة العقلية عند الانسان

جانبها الفسلجي ومستلزماتها الاجتماعية

الدكتور نوري جعفر

يعتبر تاريخ علم النفس ، في جوهره ، تاريخ الصراع الفكري المرير الذي نشب بين النزعتين المتنافرتين: النزعة الفلسفية المثالية التي وضع افلاطون (٤٢٨ – ٣٤٧ ق. م.) جذورها التاريخية والنزعة الفسلجية التي تعود أصولها الى بقراط (٤٦٠ – ٣٧٧ ق. م) من جهة وبين الاتجاهات المتعددة التي تقع ضمن اطار كل من هاتين النزعتين من جهة اخرى .

ولا شك في ان قضية البحث في طبيعة العقل عند الانسان والصلة بينه وبين الجسم أو بين الظواهر السايكولوجية (الحياة العقلية) وبين الظواهر الفسلجية وتحديد الفرق الرئيس بين الانسان والحيوانات العليا لا سيا القريبة منه في سلم التطور البايولوجي من ناحية النشوء والارتقاء وقضية الاختلافات الفكرية والثقافية الموجودة بين الاجناس البشرية المعاصرة وبين افراد الجنس الواحد والمجتمع الواحد كلها من القضايا الكبرى في الوقت الحاضر من الناحية العلمية النظرية المحضة ومن الناحية الاجتماعية الثقافية .

يتلخص جوهر النزعة المثالية في علم النفس في انها تعتبر العقل ، الذي هو موضوع علم النفس ، « كياناً » قائماً في حد ذاته مستقلاً عن الجسم ومختلفاً عنه في طبيعته ووظيفته . معنى هذا انها تغفل دور الجهاز العصبي المركزي لا سيما الدماغ في نشوء الحياة العقلية وفي تطورها . كما تغفل أيضاً دور الظروف المعاشية والعلاقات الاجتماعية في نشوء الادراك وتطوره . ولا تهتم إلا عرضاً وبشكل عابر بالدور الذي يلعبه اختلاف ظروف العيش التي يتعرض لها المجتمع الواحد في مراحل تاريخه المتلاحقة والمجتمعات المختلفة أيضاً باعتبارها العوامل التي تؤدي الى اختلاف اشكال العلاقات الاجتماعية والمستويات الفكرية التي نشاهدها بين المجتمعات وداخل كل منها . اي ان هذه النزعة تفسر الحياة العقلية بأسرها تفسيراً نابعاً من خارجها ولا تنظر الى الادراك من حيث هو انعكاس نشط للعالم الخارجي في ذهن الانسان . وهذا يعني ، بعبارة اخرى ، ان النمو العقلي لدى النوع الانساني وعند الفرد هو ، بنظر أصحاب هذه النزعة ، تفتّح أو انفتاح ذاتي لقدرات عقلية فطرية موجودة سلفاً لا دخل للظروف البيئية فيها إلا من حيث كون هذه الظروف هي الوسط أو المجال الذي يحدث فيه ذلك الانفتاح .

وبما ان تلك النزعة تجريدية لا تاريخية فقد عرقلت تقدم علم النفس كما عرقلت تقدم العلوم الاخرى . وكان لا بد ، لتقدم علم النفس ورفعه الى مستوى العلوم الاخرى ، من نشوء نزعة تاريخية تطورية تفسر النمو العقلي عند النوع الانساني ولدى الفرد ايضاً عبر مراحل تطور المجتمع الانساني المختلفة ولدى افراد الفئات الاجتماعية والمراتب داخل المجتمع ايضاً . ولكي يدخل علم النفس حظيرة العلوم لا بد ان يعيد بناءه على اساس معطيات العلوم الفسلجية والعلوم البايولوجية الاخرى المستندة الى نظرية النشوء والارتقاء من جهة والى قوانين العلوم الاجتماعية الحديثة من جهة اخرى . فيصبح علم النفس عندئذ أحد العلوم البايولوجية الفسلجية التي

تدرس العقل من حيث اساسه الجسمي او وعاؤه الفسلجي . كما يصبح أحد العلوم الاجتماعية التي تدرس العقل من ناحية محتواه باعتباره ظاهرة اجتماعية تاريخية . ولا شك في ان هذا سوف يؤدي ايضاً ، في المدى البعيد، الى تحوُّل علم النفس من علم يُعنى بالدرجة الاولى بتسجيل العمليات السايكولوجية وبتحليل طبيعة الشخصية الى علم يسعى الى تحسين تلك العمليات ورفع مستواها من حيث المقدار والنوع .

لقد اعتبر دماغ الانسان ، منذ عهد بقراط ، مركز النشاط الفكري أو اداته الفسلجية . وبما ان بقراط لم يبحث هذا الموضوع من وجهة نظر علم النفس بل من الناحية الطبية لهذا فان ارسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق.م.) يعتبر بنظرنا اول من بحث حقائق علم النفس من هذه الزاوية وذلك في رسالته التي عنوانها « حول العقل » . ثم تبعه بعد ذلك باحثون كثيرون يأتي في مقدمتهم جالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ م) طبيب الامبراطورية الرومانية . ولعل ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) الفيلسوف الفرنسي وعالم الفسلجة والرياضيات اول من حاول ، من وجهة النظر الحديثة، ان يدرس العلاقة بين العقل والجسم دراسة تتسم بالمسحة العلمية بالنسبة لظروفه العلمية والاجتماعية . وقد توجت تلك الابحاث بنشوء مبدأ « سيطرة الجهاز العصبي على الجسم » (Nervism) الذي وضعه بافلوف (١٨٤٩ — ١٩٣٦) في مطلع القرن الحاضر والذي يعتبر الجهاز العصبي المركزي لا سيما اقسامه العليا الاداة الفسلجية التي تربط اجزاء الجسم ببعضها من جهة وتربط الجسم بأسره (باعتباره كياناً متماسكاً) بالبيئة المحيطة الاجتماعية والطبيعية من جهة ثانية وأنه ايضاً الأساس الفسلجي لجميع مظاهر سلوك الانسان وبخاصة حياته العقلية .

يستلزم المبدأ الفسلجي الآنف الذكر ، من الناحية السلبية أنْ يُقلع المعنيون بالدراسات السايكولوجية في الوقت الحاضر عن الافتراض المغلوط الذي يعتبر حياة الانسان العقلية نتاج التفاعل بين ظاهرتين متنافرتين هما

الوراثة البايولوجية الفطرية والبيئة المحيطة وبخاصـة الاجتماعية . وذلك لأن المزايا السايكولوجية لشخصية الانسان هي ، بعد التحليل الدقيق ، حصيلة تطور حياته ونشاطه في خضم هذا النمط من العلاقات الاجتماعيـــة السائدة أو ذاك وفق المرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع الذي يعيش فيه والفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها . وان القوى الدافعـــة أو المحرّكة التي تكمن وراء تلك المزايا السايكولوجية هي جميع اوجه الحياة الاجتماعية السائدة . كما يستلزم هذا المبدأ (أي « سيطرة الجهاز العصبي على الجسم ») ايضاً نبذ وجهات النظر الثلاث المغلوطة التي تنتشر بين بعض الأوساط العلمية المعاصرة . وهي :

أولاً : النزعة التي مفادها ان الجوانب العقلية والخواص الفسلجيـــة الموجودة عند الانسان وجهان مختلفان لعملية واحدة . ووجه الخطأ في هذه النزعة هو انها تسدل ستاراً كثيفاً يخفي الترتيب التصاعدي في حياة الانسان العقلية الذي ينطلق من القاعدة الفسلجية الى قمتها السايكولوجية المشتقة منها والمستندة اليها .

ثانياً : النزعة الثانية التي تتعارض والنزعة المشار اليها . وفحواها انفصام الظواهر العقلية عن الظواهر الفسلجية باعتبارهما ظواهر متنافرة في الأساس من حيث طبيعة كل منها ووظيفته . ومعلوم ان هذه النزعة تأخذ منطلقها من علم النفس الفسلجي القديم الذي كان في اساسه الفلسفي مثالياً ومادياً ميكانيكياً في آن واحـــد . ولا شك في ان وضع الظواهر السايكولوجية والفسلجية بهذا الشكل يؤدي ، بعد التحليل الدقيق ، الى « انصهار » أو « ذوبان » الظواهر الفسلجية في الظواهر السايكولوجية ويفقد الاولى منهما فاعليتها ويؤدي كذلك الى ظهور الظواهر السايكولوجية على غير حقيقتها النوعية المميزة التي تنفرد بهـــا باعتبار انها شكل خاص متميز تعبّر فيه القوانين الفسلجية عن نفسها (على هيئة قوانين سايكولوجية أرقى مـــن الفسلجية) في مجرى التطور فيزول التعارض المزعوم بينهما مـــن جهة

و « الانصهار » من جهـــة ثانية والانقطاع أو الانعزال التام بينهما من جهة ثالثة .

ثالثاً : الاتجاه القائل بأن قوانين الفسلجة المخية (neurodynamics) لا تنطبق إلا على الاساس الجسمي للظواهر العقلية في حين ان هذه الظواهر العقلية لا تخضع ، في جوهرهـــا ، إلا للقوانين السايكولوجية التي هي « البناء الاعلى » الذي يتوّج القاعدة الفسلجية . ان هذه النزعـة مضللة وضارة لأنها باتخاذها القوانين الفسلجية اساس أو قـاعدة علم النفس تبدو كأنها تعطينا تفسيراً علمياً للعلاقـــة بين الظواهر السايكولوجية والظواهر الفسلجية في حين انها ، بعد التحليل الدقيق ، نظرة ثنائية مغلّفة أو مقنّعة لأنها تسير باتجاه عامودي من القاعدة الفسلجية الى قمتها السايكولوجية أو بنائها الأعلى تماماً كما تفعل النزعـة السابقة التي تسير باتجـاه افقي . معنى هذا انتفاء وجود ايـة علاقـة بين قوانين عمل المخ (neurodynamics) وبين الظواهر السايكولوجية باعتبـــار ان تلك القوانين تنطبـق فقط على الجانب الفسلجي للعمليات السايكولوجية كما بينا . وهذا الافتراض الخاطيء لا يراعي مطلقـــاً الارتباط المتداخل والمتلاحم الموجود بـــين الجانبين السايكولوجي والفسلجي ولا يعتبر الظواهر العقلية شكلاً خاصاً تعبّر فيه قوانين عمل المخ عن نفسها . ولا شك في ان هـــذه النزعة اللاعلمية ، بمقاييسنا الراهنة ، هي في جوهرها عمليـــة انعاش أو بعث للنزعة الخاطئة القديمة التي كان اساسها الفلسفي مزيجاً غريب الشكل من المثالية والمـادية الميكانيكية .

ذلك ما يتصل بالجانب السلبي لمبدأ « سيطرة الجهاز العصبي عـــلى الجسم » الذي مرت الاشارة اليه . اما جانبه الايجابي فستمدّ من المعطيات العلمية الحديثة التي تقول ، من ناحية ، إن القوانين الأعم والاشمل التي يخضع لها كل مجال أو مستوى من مستويات تطور الكون والمجتمع والفكر هي قوانينه الخاصة به التي تعيّن أو تحدّد خواصه النوعية التي ينفرد بها والتي

تميزه عن غيره من المستويات الاخرى تمييزاً جوهرياً ، وان القوانين الدنيا الاضيق والأخص موجودة دائمـاً (بشكل ضمني ثانوي الأهمية) في القوانين العليا أو الاشمل والأعم ، من ناحية ثانية ، وان هـذا الوجود الضمني لا يعيِّن أو يحدِّد ، بأية حال من الأحوال ، الصفة المميزة التي تنفرد بها القوانين العليا لأن القوانين الدنيا تصبح خاضعة للعليا أو تابعة لها في عملية التطور ، مـن ناحية ثالثة . فالعمليات الفسلجية والظواهر البايولوجية عموماً وان كانت خاضعة في الأساس للقوانين الكيمياوية الأدنى منها في سلم التطور (بمعنى ان العمليات الفسلجية ناجمة في الاصل التطوري عن العمليات الكيمياوية في الماضي السحيق) إلا أن العمليات الفسلجية ، مع ذلك وفي الوقت نفسه ، شكل جديد أرقى تعبِّر فيه القوانين الكيماوية عن نفسها على هيئة قوانين فسلجية . أي ان العمليات الكيمياوية السابقة قد تحولت، بعبارة أخرى ، الى ظواهر فسلجية تخضع في الاساس لقوانين فسلجية جديدة لم تكن موجودة في السابق من الناحية التطورية . معنى هذا ان الكشف عن الطبيعة البايوكيمياوية للظواهر الفسلجية لا يؤدي مطلقاً الى تغيير طبيعتها الفسلجية المميِّزة بل هو يعمِّق معرفتنا بها .

وبما ان النشاط العقلي هو في أساسه الفسلجي نشاط يقوم بـه القسم الاعلى من الدماغ – القشرة المخية – (Cerebral Cortex) لذا فإنه يخضع في الاصل لقوانين عمـل الدماغ التي لا يمكن ، بدون الاستناد اليها ، تفسير حدوث الظواهر العقلية تفسيراً دقيقاً شاملاً . معنى هذا أنَّ من غير المستطاع علمياً أن يقف البحث السايكولوجي موقفاً يتعارض مـع الدراسة الفسلجية لقوانين عمـل الدماغ أو أن ينعزل انعزالاً تاماً عنها . غير ان الظواهر العقلية وان كانت ملتحمة بالعمليات الفسلجية التحاماً غير قابـل للانفصال إلا أنها مع ذلك تختلف عنها اختلافاً جذرياً ذلك لأن الظواهر العقلية، كما ذكرنا، شكل خاص جديد نوعياً بدأت تعبِّر فيه قوانين عمل الدماغ عن نفسها عندما بلغت عملية التطور مرحلة معينة أثناء سيرها

الحثيث الى الامام من الادنى رتبةً الى الأعلى . فظهر ذلك التعبير في تلك المرحلة على هيئة قوانين خاصة بعلم النفس . معنى هذا ، بعبارة أخرى ، ان الظواهر العقلية تبقى ظواهر عقلية خاصة متميزة وان كانت في الوقت نفسه تعبيراً خاصاً عن قوانين فسلجية في الاصل على غرار كون الظواهر الفسلجية ذاتها تبقى كذلك وان كانت تعود في الاصل ، من الناحية التطورية ، الى القوانين الكيمياوية المعبّر عنها تعبيراً فسلجياً كما ذكرنا .

يتلخص مبدأ « سيطرة الجهاز العصبي على الجسم » ، من ناحية النشوء والارتقاء ، في ان الجهاز العصبي نشأ لدى بعض الحيوانات في مجرى عملية التطور واخذ هو نفسه بالتطور وفق مستلزمات ظروف العيش لدى الانواع (species) المختلفة التي تتألف منها المملكة الحيوانية . وقد بلغ هذا الجهاز ارقى اشكاله عند الانسان الحديث من الناحيتين التشريحية والفسلجية على حد سواء . فقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر ان الانواع الحيوانية كلما ارتفعت الى الاعلى في سلم التطور البايولوجي خضعت مراكزها العصبية المختلفة المستويات للقسم الأعلى من الجهاز العصبي المركزي صعداً الى ان يصل الأمر الى الانسان حيث تخضع اقسام جهازه العصبي المركزي بأسرها للقشرة المخية . وقد دل تاريخ تطور الدماغ على ان المراكز الدماغية الدنيا أو السفلى الاقدم تتزاح اهميتها البايولوجية جانباً وتصبح ثانوية بفعل تطور المراكز الدماغية الأعلى والاحدث في نشوئها بالاضافة ايضاً الى خضوع الدنيا لسيطرة العليا . معنى هذا ان المراكز الدماغية السفلى لا تفقد اهميتها البايولوجية فقداناً تاماً بسبب انتقال الوظائف الدماغية المهمة الى المراكز الدماغية العليا بل تصبح ثانوية الاهمية وتابعة تستمر على العمل في الجهاز العصبي المركزي السليم . أي أنها تستبقي بعض وظائفها وتحوّل بعضاً آخر الى المراكز العليا التي نشأت بعدها وعلى اساسها في مجرى التطور اللاحق . وعندما تتعرض المراكز العليا لاضطرابات عصبية فسلجية أو تشريحية فان المراكز الدماغية الدنيا التابعة لها تبدأ بممارسة نوع من

الاستقلال النسبي ويقوم ما استبقته من وظائفها القديمة مقام المراكز العليا المتوقفة عن العمل وان كان ذلك القيام يتم بشكل بدائي . كل هذا يدل على ان تطور المراكز الدماغية العليا لا يؤدي مطلقاً الى تعطيل وظائف المراكز الدماغية الدنيا بل يجعلها ، كما بينا ، خاضعة لتأثير المراكز العليا عند ممارستها وظائفها القديمة . أي ان الدماغ يتطور وفق مبدأ « تراكم الطبقات » (stratification) : أي باضافة طبقات دماغية جديدة الى الطبقات القديمة وعلى اساسها وان الطبقة القديمة لا تزول أو تختفي عن الوجود عندما تنشأ فوقها طبقة جديدة بل تُزاح جانباً بفعل الطبقة الجديدة : أي أن الطبقة الجديدة ، بالتعبير الفلسفي الهيكلي ، تنفي الطبقة القديمة نفياً ديالكتيكياً .

يتضح اذن أننا كلما ارتفعنا من اسفل الجهاز العصبي المركزي الى الأعلى وجدنا اقسامه المتعددة ، التي يقع بعضها فوق بعض والتي نشأ الجزء الاعلى منها نشوءاً تدريجياً تطورياً على أساس الجزء الذي يقع اسفله ، كلما ازدادت تلك الاقسام تعقيداً في تركيبها وفي وظائفها وفي دقتها وتنظيمها وتكامل وظائفها وارتفاع مستوى اهميتها الحيوية بالنسبة للجسم صعداً الى القشرة المخية . ان هذا التعدد المزدوج او « تعدد المثيلات » وازدواجها (Multiple Duplication) الذي يتصف به الجهاز العصبي المركزي من الناحيتين التشريحية والفسلجية هو في حقيقته ترتيب هرمي عامودي تصاعدي حصل في مجرى عملية التطور وانتهى عند« الانسان الحديث» (homo sapiens) باخضاع جميع الوظائف الدماغية للقشرة المخية (Corticalisation) — وهو الاساس الفسلجي الذي يستند اليه تماسك الجسم ووحدة عملياته الداخلية من جهة وهو ايضاً اداة ارتباط الجسم بالبيئة المحيطة لضمان انسجامه معها من جهة اخرى . كما انه في الوقت نفسه شيء اكثر من مجرد استنساخ حرفي (Duplication) من ناحية التركيب والوظائف . فهذا الازدواج أو التعدد ليس استنساخاً حرفياً تقوم بـه الاقسام الدماغية العليا الواقعة بين الحبل

الشوكي والقشرة المخية . انه استنساخ ذو خواص جديدة يرتفع مستواه بارتفاع موقع تطورياً صاحبه وبازدياد مرونته وتكامل بنائه التشريحي والوظيفي . ويلاحظ في هذا التعدد المتدرج الصاعد تمتع الاقسام الدماغية المختلفة بما يشبه الاستقلال النسبي أو الجزئي مع خضوع الادنى رتبة الى الأعلى وهكذا صعداً الى القشرة المخية على نسق ما يجري في قطعات الجيش من حيث تسلسل الرتب والخضوع ، في آخر المطاف ، لقيادة واحدة عليا . والحكمة البايولوجية في استمرار المراتب الدنيا في الدماغ جنباً الى جنب مع العليا التي انتقلت اليهـا الوظائف العصبية المهمة هي ان الأقسام الدنيا تصبح احتياطياً للتعويض (الجزئي البدائي) عن الوظائف التي تمارسها الاقسام العليـا عندما تتعرض هذه الاخيرة لاضطربات عصبية تقعدها عن ممارسة نشاطها . معنى هـذا ان الجهاز العصبي المركزي لا سيما الدماغ ينتفع بايولوجياً من اندماج مبدأ الاستقلال النسبي لأقسامه المتعددة مـع مبدأ الخضوع المتدرج للمراكز الدماغية العليا وذلك في حالة الطوارىء ، كما ذكرنا ، اثناء تعرض بعض مراكزه للتلف حيث تقوم المراكز السليمة بوظائف الاقسام المعطوبة . هذا بالاضافة الى ان الاحتفاظ بالمراكز الدماغية السفلى يفيد من ناحية تنفيذ الافعال الحيوية الآنية السريعة التي يحتاج اليها الجسم بشكل اوتوماتيكي الحدوث (لا تساهم فيه بشكل مباشر المراكز الدماغية العليا) مما يساعد هذه الاخيرة على التفرغ للنشاط الفكري المعقّد. كل هذا يدل على ان التنظيم العصبي المتعـدد الطوابق لا يعوق المراكز الدماغية السفلى عن ممارسة نشاطها حتى عند توقف القشرة المخية عن عملها باعتبارها المنظّم الاعلى لجميع أوجه نشاط الجسم . كما أنه يُعفي ، من الجهة الثانية ، المراكز الدماغية العليا عن القيام بالوظائف العصبية البدائية لتنصرف الى القيام بالوظائف العقلية العليا مثل التفكير والتذكر والتخيل والانتباه . وبالنظر لديناميكية هـذا التنظيم العصبي فان توقف المراكز الدماغية الدنيا عن اداء واجباتهـا تشعر به المراكز العليا فتعبىء جميع

امكانيات إعادة هذا الوضع الشاذ الى حالته الطبيعية . مع العلم ان المراكز الدماغية العليا لا تتداخل في وظائف المراكز السفلى في الظروف الطبيعية مع سيطرتها عليها . ومع ذلك فان مركزية الوظائف العصبية العليا تحمل جوانب سلبية ايضاً . فبالرغم من الخدمات البايولوجية الكبرى التي يقدمها التخصص الضيق في المراكز العصبية الموجودة في الدماغ والحبل الشوكي من ناحية دقة استجابات الجسم للعوامل البيئية وسرعتها وإحكامها فان هذا التخصص يؤذي الجسم عند تعطل احد مراكزه العصبية . وقد دلت التجارب المختبرية على ان الاضطرابات التي تعتري الجهاز العصبي المركزي ، حتى الجزئية منها ، يتعذر احتمالها كلما ارتقى الحيوان في سلم التطور البايولوجي من جهة وكلما ارتقى موقع المركز العصبي المعطوب من جهة اخرى . ويحتل المخ لا سيما قشرته مركز الصدارة من هذه الناحية حيث تخضع له وظائف جميع اعضاء الجسم كما ذكرنا .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مرة اخرى لغرض التأكيد : إن اهم مزايا الدماغ الفسلجية الأستقلال النسبي الذي يتمتع بـه جميع مستوياته جنباً الى جنب مع الخضوع التام أو الانقياد للمركز الاعلى صعُداً الى القشرة المخية . أي ان المستويات الدماغية الدنيا الموجودة في هذا السلم الصاعد (الذي يتصف به الجهاز العصبي المركزي وبخاصة الدماغ) لم تفقد اهميتها البايولوجية بعد نشوء المخ والقشرة المخية اذ ما زالت قادرة على المساهمة المباشرة في التوجيه الاعلى . فقد استبقاها الجسم كآخر ملجأ احتياطي للطوارىء . معنى هذا ان الاستنساخ المتعدد الطوابق يمكّن المستويات الدماغية الدنيا ، كما سلف ان بينا ، من التعويض عن بعض وظائف المستويات الدماغية العليا التي ينتابها الخلل الفسلجي وان كان ذلك التعويض دون مستوى الأصل لأن المراتب أو المستويات السفلى ابتداءً من العقد العصبية الواقعة تحت المخ ونزولاً الى الحبل الشوكي تفتقر ، بحكم امكانياتها الفسلجية المحدودة ، الى القدرة على السيطرة الشاملة الناجزة على

جميع ارجاء الجسم والتي هي وظيفة المخ (وقشرته المخية بالذات باعتبارها القائد الاعلى للسلوك) ولهذا فان تلك المراتب الدنيا تعجز عن ادارة جيش الخلايا العصبية العرمرم المنتشر في جميع ارجاء الجسم وليس بمقدورها، في افضل الاحوال، ان تقوم بعمل يتجاوز حدود المحافظة على قدرة خلاياها العصبية دون سواها على مشاغلة الخصم في الدفاع عن النفس ضد المايكروبات مثلاً الى ان تصلها الامدادات من «مركز القيادة».

لا شك في ان الملاحظات التي مر ذكرها تشير الى ان اقسام الدماغ المختلفة قد وصلت في مجرى عملية النشوء والارتقاء الى مستويات مختلفة لدى كل نوع حيوان (Species) وبالنسبة للأنواع المختلفة. وقد استأثر المخ (Cerebrum) أو نصفا الكرة المخيان (cerebral hemispheres) عند الانسان بحوالي ٨٠٪ من وزن الدماغ واكتسبت قشرتها المخية تركيباً هائل التعقيد. وقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر ان الحيوان كلما كان صغير السن او كان تنظيمه العصبي ابسط واوطأ في سلم التطور البايولوجي تضاءل الدور الذي تلعبه قشرته المخية، في حالة وجودها لديه، في تنظيم نشاطه الجسمي. معنى هذا بلغة بافلوف، أن الحيوانات الحديثة الولادة، بما فيها طفل الانسان، والحيوانات الاوطأ في سلم التطور البايولوجي يقتصر سلوكها على المنعكسات غير الشرطية (unconditioned reflexes) (أو الغرائز بلغة بعض علماء النفس). وبالعكس: كلما كان الحيوان أعلى تنظيماً عصبياً ازدادت اهمية خبرته الفردية (أو منعكساته الشرطية conditioned reflexes) في مجرى حياته. وعلى هذا الاساس فان تجمع الخبرة الفردية المكتسبة ونقلها بالتعلم عبر الاجيال المتعاقبة قد لعب الدور الحاسم في تقدم الحيوانات الراقية بالموازنة بتحول بعض الصفات المكتسبة الى فطرية ونقلها بالوراثة البايولوجية. وقد بلغ ذلك ارقى اشكاله عند الانسان. وقد دل البحث العلمي الحديث على ان تركيب جسم الانسان من الناحية البايولوجية قد استمر دون تغير جوهري ملحوظ عبر

عشرات الآلاف من السنين الماضية (منذ ظهور الانسان الحديث homo sapiens قبل زهاء ٦٠,٠٠٠ سنة) في حين ان تقدمه المادي والاجتماعي الهائل منذ ذلك الحين قد حدث بتأثير حياته الاجتماعية .

يخضع سلوك الانسان بأسره ، وفي مقدمته حياته العقلية ، لتأثير القشرة المخية التي بلغت ارقى درجات تطورها البايولوجي كما بينا : وهي قشرة رقيقة سنجابية اللون تغطي سطح نصفي الكرة المخيين ويتراوح سمكها ما بين (٢ ـ ٤) مليمترات وتبلغ مساحة سطحها بما فيها الاخاديد (sulci) والتلافيف (gyri) حوالي ٢,٢٠٠ سم٢ ويتجاوز مجموع خلاياها العصبية (١٤) الف مليون خلية عصبية .

نشأت القشرة المخية متأخرة في الزمن ، في عملية النشوء والارتقاء ، بالنسبة لأقسام الجهاز العصبي المركزي الاخرى . فقد ظهرت للمرة الاولى تاريخياً في الزحافات واخذت في التطور صعداً في الفقاريات العليا الى ان بلغت اقصى حدود تطورها الحديث عند اللبائن حسب تسلسلها في سلم التطور البايولوجي وانتهت عند الانسان الحديث . معنى هذا ان القشرة المخية مفقودة لدى الحيوانات التي هي دون مستوى الزحافات في سلم التطور البايولوجي وان تطورها تختلف درجته باختلاف الانواع الحيوانية التي تملكها ولهذا فان مساحتها السطحية لا سيما الفصان الجبهيان (frontal lobes) تتناسب طردياً مع درجة تطور نوع صاحبها من الناحية البايولوجية . ويبدو ان وظيفة هذين الفصين المخيين اللذين ينفرد بهما الانسان من ناحية تكامل تطورهما عنده هي القيام بجميع ما يتصل بالعمليات العقلية والمدركات (concepts) والالفاظ المكتوبة او المتحدث بها : اللغة بعبارة اخرى .

كان يظن في الاوساط الفسلجية حتى سبعينات القرن الماضي ان مناطق القشرة المخية المتعددة ليست بذات اختصاصات متميزة بل تلعب جميعها بالاشتراك دوراً واحداً متكافئاً . وقد اطلقوا على هذا المبدأ الفسلجي اسم

« مبدأ التكافؤ » (Equipotential) . وقد عززت هذا الرأي تجارب Flourens في اوائل القرن الماضي . غير ان الوضع الفسلجي العـام قد تبدل بعد سبعينات القرن التاسع عشر بنتيجة تجارب Sherrington و Hitzig و Fritsch و Ferrier و Munk وآخرين . واصبحت احدى اهم قضايا فسلجة القشرة المخية منذ مطالع القرن الحاضر قضية الارتباطات بين الوظائف المختلفة التي تمارسها القشرة المخية من جهـة وبين نشاط مختلف مراكزها من جهة اخرى . وقد لعب نشاط الانسان الاجتماعي وجهوده الفكرية والجسمية اثناء مغالبة الطبيعة لاخضاعها لمشيئته كما لعبت اللغة دوراً كبيراً في تركيز الاختصاصات المتعددة في مراكز القشرة المخية .

يقول بافلوف : إن الاتصال بين اسلاف الانسان الحديث وبين البيئة المحيطة كان يحدث عبر اعضاء الحس وحدها أو « المنظومـة الاشارية الاولى » وذلك عن طريق الانطباعات الحسية المباشرة التي تتركها الظواهر والاشياء البيئية المحيطه في اعضاء الحس : في نهاياتها العصبية (receptors) التي تنقلها عبر الاعصاب الحسية الى المراكز المخية المختصة . معنى هـذا ان عملية التطور آنذاك لم تسمح بعد بتكامل نشوء المراكز المخية المختصة بنقل الانطباعات اللغوية أو « المنظومة الاشاريـة الثانية » وذلك لانتفاء وجود اللغة ذاتها . ويبدو ان بواكير الاسس الفسلجية للغة قد نشأت لدى احـد انواع اسلاف الانسان الحديث وهو النوع المنقرض المسمى : (sinanthropus) في وقت اكتشاف النار وصنع أول أدوات العمل قبل زهاء نصف مليون سنة . وقد ادت طلائع الحياة الاجتماعية والجهد الانساني المشترك في مغالبة الطبيعة العاتية ونشوء بواكير اللغـة على هيئة اصوات واشارات مبهمة الى نشوء مراكز فسلجية للكلام في قشرة الانسان المخية مكنته بعد ذلك من تسلم الاشارات الكلامية المتحدث بها في اول الأمر ثم المكتوبة بعد ذلك وزودته بالقدرة على نطقها . ولم يكتمل نضج المراكز المخية للكلام واعضاء النطق إلا في مجرى عملية تاريخية حثيثة طويلة الأمد

فسلجية في أول الامر ثم اجتماعية بعدها وعلى اساسها مع تعزيزها أو دعمها وتطويرهـــا ايضاً . واللغة أو « المنظومة الاشارية الثانية » ذات جانبين مترابطين متكاملين ومختلفين متميزين : هما — الجانب الفسلجي الذي هو الاساس الجسمي للغة ، والجانب الاجتماعي الذي هو محتوى اللغة بما في ذلك الفاظها المتحدث بها والمقروءة . وقد ادى نشوء اللغة وتطورهـــا فسلجياً واجتماعياً الى حدوث تبدل جذري في خبرة الانسان . يتضح هذا اذا تذكرنا ان الحيوان مثلاً لا يمتلك سوى مخزون خبرته الخاصة الفرديـة بالنظر لفقدان اللغة عنده . في حين ان الانسان يكتسب، في مجرى حياته الفردية ، عن طريق اللغة المتحدث بها والمكتوبة ، خبرة الاجيال المتعاقبة المدونة في الكتب والمنقولة على افواه الناس . هذا بالاضافة الى ان اللغة عند الانسان هي وسيلة التعبير والتفكير لأن الكلمة تتصف بالتعميم والتجريد .

يتضح مما ذكرنا ان الحياة العقلية عند الانسان تستلزم الدمـــاغ السليم الذي هو جانبها الفسلجي من ناحية كما تستلزم بيئة (اجتماعية بالدرجـة الاولى) ملتحمة به ومستقلة عنه في آن واحد تتبادل معه الأثر عبر الحواس واللغة والمعرفة من ناحية اخرى . معنى هذا ، بعبارة أخرى ، ان الحياة العقلية وظيفة الدماغ عند تفاعلة مع البيئة المحيطة حيث تنعكس في الدماغ صور الاشياء والظواهر كما تنعكس في المرآة الصافية صور الاشياء . غير ان هناك فرقاً جذرياً بين العمليتين الانعكاسيتين لا بد من مراعاته : هـو ان انعكاس الصور reflection في المرآة عملية فيزيائية بسيطة تفسرهـــا قوانين الفيزياء . في حين ان انعكاس صور الاشياء في الدمـــاغ عملية فسلجية واجتماعية معقدة . يضاف الى ذلك ان الدمـــاغ اداة فسلجية فعالـــة نشطة اثناء حدوث عملية الانعكاس يتأثر بما ينعكس فيـــه ويؤثر فيه بصورة عديمة الانقطاع . اما المرآة فاداة سلبية منفعلة جامدة . معنى هذا ان الدماغ اداة فسلجية فاعلة ومنفعلة في آن واحد اثناء حدوث الصور الذهنية فيه تؤثر في تلك الصور وتتأثر بها باستمرار . ومن الجهة

الثانية فـان الصور الذهنية تختلف عن الصور الفوتوغرافية التي تنطبع في المرآة أو في آلة التصوير . ولا بـد من التمييز هنا بين الصور الذهنية نفسها وبين العمليات العقلية الفسلجية التي تجرى في الدماغ أثناء حدوثها على نسق التمييز بين الطعام وعملية الهضم .

وفي ختام هذا البحث نود ان نلقي مزيداً من الضوء على الدور الذي تلعبه البيئة الاجتماعية وبخاصة التعلم المدرسي في نشوء « القدرات الفكرية الخاصة » كالقدرة الرياضية مثلاً التي يعتبرها علماء النفس الذين يجهلون فسلجة المخ « قدرة فطرية » تميز بعض الاشخاص عن غيرهم . ولكي نلم بهذا الجانب من جوانب البحث الماماً كافياً نرى ان نبدي الملاحظات العامة التالية لتكون اساساً للبحث . وسوف نعرضها عرضاً مكثفاً بشيء من الايجاز غير المخل : لقد دل البحث الفسلجي المضني الذي قام بـه بافلوف وزملاؤه منذ مطلع هذا القرن على امكانيـة نشوء قـدرات فكرية خاصة ليس لها في الاصل اسس فسلجية مستقرة ومباشرة في الدماغ . اي ان الطفل (اثناء تكوين قدراته العقلية بالاستعانة بما في المجتمع الذي يعيش فيه من ادوات فكرية (اللغة والمعرفة) ومادية ، بتوجيه الراشدين ومساعدتهم) تنشأ لديه في مجرى حياته الفردية « اعضـاء مخية وظيفية » تبدو في اول الامر على هيئة « قدرات نامية جديدة » (newgrowth is) : ادوات فسلجية جديدة تنشأ في المخ على نسق اعضـاء الحس المعروفة . وهذا يعني ان الانسان لا يولد وهو مزود باعضاء فكرية جـاهزة سلفاً ومتكاملة او « قدرات فكرية فطرية خاصـة » كما يسميها علماء النفس غير الملمين بفسلجة المخ او علم الدمـاغ الحديث بل يكتسبها في مجرى حياته . ولا شك في ان مسألة نشوء « منظومات مخية وظيفية » (دون ان يكون لهـا مسبقاً اساس مورفولوجي موروث محدّد المعالم في القشرة المخية أو دون وجود اعضاء حسية خاصة بها) تبرز للعيان على انهـا قضية علمية على جانب كبير من التعقيد وربما تبدو ، لأول وهلة، كأنها

تتعارض مع كل ما ذكرناه في مطلع هذا البحث الذي مفاده ان الوظائف العقلية العليــا عند الانسان تستند الى اساس مورفولوجي فسلجي مسبق . ان هذا التعارض الظاهر العــابر يزول اذا تذكرنا ان فسلجة المخ قد ألقت الضوء الساطع على هذه القضية العلمية العويصة مــن حيث الاساس وذلك بافتراضها الضمني الذي فحواه ان « هذه القدرات المخية الوظيفية » تستند في نشوئها وتطورها الى القشرة المخية في الاصل دون وجود مراكز مخية خاصة بها . اما محتواهــا فاجتماعي دون شك وهو الذي يؤدي الى حدوث انطباعها في الذهن كما تؤدي الاشياء المادية الى نشوء انطبــاع صورها على آلة التصوير . وبقدر مــا يتعلق الأمر بالظروف الاجتماعية المحيطة فان تلك « الاعضاء المخية الوظيفية » قد لا تنشأ اطلاقــاً لدى بعض الافراد لعوامل بيئية صرفة . وقد تنشأ بشكل مغلوط أو ناقص أو ممسوخ عند بعض آخر . كل ذلك يجعل هذا الفرد او ذاك متخلفاً عن اقرانه في بعض النواحي الفكرية المفقودة لديه فنتهمه بالبلادة أو الغباء .

واذا تتبعنا لغرض التوضيح (في ضوء ما ذكرناه) نشوء القــدرة الرياضية ونموها لدى بعض الاطفال في مجرى حياتهـم المدرسية أمكننا ان نبرهن على انها قدرة فكرية مكتسبة كغيرها من القدرات الفكرية الاخرى. وان نعزو الفروق الفردية الكبيرة والكثيرة التي نشاهدها لدى التلاميذ في هذه الناحية الى اختلافهم البيئي في كيفية نشوئهــا : فقد تتخذ الشكل المتكامل المتنامي في الاتجاه السليم عند بعضهم . وقد تنعدم بعض حلقاتها عند بعض آخر . وقد تنمو بشكل ناقص أو ممسوخ عند بعض ثالث . ومعلوم ان نشاط التلاميذ ، عند قيامهم بحل مسائل حسابية بسيطة يستند ، أولاً وقبل كــل شيء ، الى نشاطهم المخي التحليلي — التركيبي الذي يختلف عمقه باختلاف كمية العناصر الجديدة الموجودة في المسألــة الحسابية التي يواجهونها وبمقدار العناصر المألوفة التي سبق ان واجهوا امثالهــا في خبراتهم السابقة . فالتلميذ الذي قام بحل مقدار من المسائل الحسابية ذات

النمط المماثل يصبح بالتدريج قادراً على ادراك العلاقات بين عناصرها الأساسية بعد ان يستوعب اوجه الشبه بينها بصرف النظر عن خواص كل منها وتفاصيله الذاتية . والاساس الفسلجي الذي يستند اليه هذا التلميذ في هذه الحالة هو نشوء « منظومة مخية وظيفية » خاصة ترتبط بحل جميع المسائل الحسابية التي تقع في نطاقها بسرعة وسهولة وبشيء من الاوتوماتيكية. اما حل المسائل الحسابية الجديدة التي لم يألفها هذا التلميذ بالذات من قبل أو حل العناصر الجديدة في مسألة مألوفة فانه يستلزم نشوء « منظومة مخية وظيفية » اخرى جديدة ذات مستوى عال من التحليل المخي وذلك لتجزئة هذه المسألة الحسابية الجديدة الى عناصرها الاولى والقيام في آن واحد بعملية تركيب مخي يؤلف بين عناصرها من جديد . أي اعادة تأليف تلك العناصر التي عزلها ذهن التلميذ عزلاً نظرياً مصطنعاً . معنى هذا ان عزل عمليتي التحليل والتركيب المخيين عن بعضها في العملية الحسابية امر عقيم ومصدر إخفاق في حل المسائل الحسابية . ويتحتم على المدرس الناجح ان يراعي ذلك مراعاة تامة . ولا بد ، من الجهة الثانية ، ان يأخذ المدرس الناجح بنظر الاعتبار ان الاساس السايكولوجي الضروري لنشوء المدركات العقلية (concepts) أو المفاهيم المجردة الصحيحة المتعلقة بالحساب والرياضيات عموماً ينطوي على استيعاب الطالب تلك المدركات استيعاباً عميقاً واعياً بحيث تنشأ فيه « المنظومات المخية الوظيفية » الملائمة التي تؤلف بين العناصر المجردة والعناصر المحسوسة في عملية التفكير الرياضي : أو بين الكلمات والرموز أو الارقام التي تحتوي المسألة الرياضية عليها وهي امور محسوسة وبين صورها الذهنية التي تنشأ لدى التلميذ وهي العناصر المجردة في عملية التفكير . ويستلزم نشوء « المنظومات المخية الوظيفية » الخاصة في هذه الحالة ان يجهز المدرس التلميذ بمدركات حسية (percepts) مرئية تتعلق بموضوع الحساب لتصبح اساساً ترتكز عليه المدركات العقلية أو المفاهيم الرياضية المجردة . ولعل اخفاق كثير من المدرسين في تكوين تلك

« المنظومات المخية الوظيفية » بشكلها الملائم وفي وقتها المناسب يجعلنا تواجه صنفين من التلاميذ الضعفاء في الرياضيات : أولها الصنف الذي ليس لديه الاساس القويم من المدركات الحسية الأمر الذي يؤدي الى أن تتكون عنده معرفة رياضية صورية أو شكلية مجردة محفوظة حفظاً آلياً ببغاوياً دون فهم أو استيعاب ، وثانيها الصنف الذي تكونت لديه مدركات حسية مفرطة تجاوزت الحد الذي يحتاج اليه بحيث انه اصبح مفتقراً الى المفاهيم المجردة الضرورية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان تعامل التلميذ مع الاشياء المحسوسة في مجرى حياته العامة (اثناء نشوء المفاهيم المجردة والمدركات الذهنية في عمليات الحساب المدرسي) هو مرحلة ضرورية في التعليم . غير ان الاعتماد على المحسوسات هذه أو الاستعانة بها لغرض تكوين المفاهيم الحسابية المجردة يجب ألا يستمر زمناً طويلاً كيلا يعرقل نمو عملية التفكير المجرد ويجعلها تقصر عن بلوغ حدها المطلوب في الوقت المعيّن الأمر الذي يؤدي الى حدوث نتائج سلبية ضارة بعملية التعميم ولا يستثير الاشكال العليا من التحليل والتركيب المخيين اللازمين لحل المسائل الحسابية اللاحقة . والمدرس الناجح ، من هذه الزاوية ، هو الذي يسير بالتلميذ خطوة فخطوة من الصور الذهنية البصرية أو المدركات الحسية الى التعميمات والتجريدات أو المدركات العقلية . على ان استيعاب التلميذ ذلك كله لا يستطيع لوحده وفي حد ذاته ان يجعل التلميذ قادراً على حل المسائل الحسابية التي يواجهها وان كان استيعابه إياه شرطاً لا بد منه. ان تلك المعرفة لا بد ان ترافقها قدرة نشأت لدى التلميذ تهيئه لاستعمال تلك المعرفة في الوقت المناسب وبالشكل الملائم الفعّال . اذ ان من الملاحظ ان كثيراً من التلاميذ يخفقون في حل مسائلهم الحسابية لأنهم لا يستطيعون تعبئة المعرفة الموجودة لديهم وترتيبها بشكلها الملائم الفعّال في الوقت المناسب فتبقى خامدة (inert) في اذهانهم . ولا بد من تعويد التلميذ على قراءة المسألة الحسابية التي بين يديه بدقة وامعان وتؤدة والنظر اليها

بارتباطاتها الداخلية . مع العلم ان مجرد التحليل اللفظي لعناصرها لا يضمن استيعابهـا . لذلك ينبغي ان يعتاد التلميذ على تقسيمها أو تفكيكها الى عناصرهـا الاولية وتحليل تعقيداتها تحليلاً منطقياً ثم اعادة تركيبها لمعرفة المطلوب اجراؤه بصدد حلها .

لا شك في ان الرياضيات علم يستند الى المجردات والرموز والمعادلات . فلا بد اذن من النظر اليه ايضاً من زاوية انقسام الناس فسلجياً قسمين على وجه العموم (من ناحية العلاقة بين المنظومتين الاشاريتين الحسية واللغوية) حيث تتغلب المنظومة الحسية على الاخرى عند بعض الناس وتتغلب المنظومة اللغوية على الحسية عند بعض آخر . معنى هذا . بلغة المسائل الحسابية التي ذكرناها ، تَغلُّب محتوى الصور الذهنية البصرية للتفكير (أي طغيـان جانب الادراك الحسي أو المنظومة الاشارية الاولى) على المحتوى اللفظي المنطقي (يعني على جانب المدركات العقلية أو المنظومة الاشارية الثانية) عند بعض التلاميذ أو بالعكس . وهي امور فطرية على ما يقول بافلوف ولا صلة كبيرة لهـا بالاكتساب أو التعلم . لقد ثبت ان هذه الظاهرة الفسلجية ذات اثر ضئيل نسبياً في نشوء القدرة الرياضية لدى التلاميذ مع ان تصنيف التلاميذ على هذا الاساس ذو فوائد تعليمية من بعض الوجوه . غير ان الباحث يواجه بالضرورة تصنيفاً آخر مستنداً ايضـاً الى فسلجة بافلوف يتعلق بخواص المنظومتين الاشاريتين ليس مـن ناحية علاقاتهما المتبادلة التي تحدثنا عنها فحسب وانما ايضاً من ناحيـة مستوى نمو كل منهما على انفراد . كل هذا يجب ألا يفسَّر على انـه نكران لمبدأ الفروق التشريحية والفسلجية الموجودة بين التلاميذ . انه يردعنا عن المبالغة في تقدير قيمة تلك الفروق وبخاصة اذا تذكرنا ان الاساس الفسلجي الفطري العام للعمليات العقلية متماثل لدى جميع الناس الاسوياء .

لقد ثبت عن طريق المشاهدة العلمية والتجريب المختبري ان نمو القدرات العقلية وتطورها عن طريق الاكتساب البيئي لا يتم دفعة واحدة بل يجري

بشكل متدرج ومع نمو المعرفـة والنضج الجسمي والاجتماعي الذي يمر بسلسلة من المراحل التحولية تنشأ في ثناياها « الاعضاء المخية الوظيفية » التي تحدثنا عنها والتي يستند كل منها على ما قبله ويسند ما بعده. ولكن بعضها قد لا ينشأ ، لعوامل اجتماعية محضة ، كما ذكرنا ، أو يتصف عند نشوئه بعدم تكامل نموه الى الحد المطلوب في الوقت المناسب أو انه ينشأ ناقصاً أو ممسوخاً . كل ذلك يجعل التلميذ ضعيفاً عندمـا تستدعي حالته التعليمية الراهنة الاستعانة بالاعضاء المخية المفقودة أو غير النـامية بالاتجاه السليم. ويصدق الشيء نفسه على حالة الطفل قبل التحاقه بالمدرسة. فاذا سعى المعلم الى الكشف عن الاعضاء المخية المفقودة أو الممسوخة وعمل على اعادتها الى وضعها السليم فان التلميذ المتخلف يجد الفرصـة المؤاتية للحاق بمن سبقوه في هذا الميدان. ومعلوم ان التلميذ الضعيف يقف موقفا عاطفياً سلبياً ازاء موضوع ضعفه ولا يبذل فيـه الجهد الفكري المطلوب الأمر الذي يعرّضه الى مزيد من الضعف. ويتم التغلب على ذلك بطريقتين : اولاً التغلب على الموقف العاطفي السلبي لنشاطـه الفكري وذلك باحلال عواطف ايجابية جديدة كالرغبة في الدراسة والثقـة بالنفس وبذل الجهد الفكري المطلوب. وثانيهما ان نمرّنه تمريناً واعياً ايجابياً يساعده على تكوين « الاعضاء المخية الوظيفية » الملائمة ويزوده بالمعلومات المطلوبة والمهارات التي يفتقر اليها . ينطبق هذا ايضا على التلميذ الذي يواجه مضطراً (اثناء دراسته في فترات مختلفة من العام الدراسي أو اثناء انتقاله من مدرسة الى اخرى أو من مرحلـة دراسية الى التي تليها) قضايا تعليميـة تستلزم ممارسة عمليات تعليمية اكثر تعقيداً وعلى مستوى أعلى مما سبقها دون ان يستوعب اركانها الاساسية الامر الذي يدفعـه الى التشبث بأساليبه البدائية القديمـة بالنسبة للمرحلـة الجديدة ، وقـد ينجح هـذا النمط من التلاميذ

احيانا في التغلب على بعض تلك المصاعب الدراسية فيتوصل بتلك الاساليب البدائيــة الى اجابات صحيحة تخدع المدرس الذي ينصب اهتمامــه على الاجابة ذاتها دون التفات الى الاسلوب الذي اتبعه التلميذ في التوصل اليها فيرفع صاحبها الى مستوى تعليمي ارقى يستلزم مواجهة قضايــا تعليمية جديدة اكثر تعقيداً دون تدريبه التدريب الكافي والملائم لازالة نقاط الضعف الخفية التي جازت عند معلمه .

اهم مصادر البحث

1) A simov, I., The Human Body,
New American Library, New York, 1963.

2) Banton, M., editor, Darwinism,
Tavistock, London, 1961.

3) Berkner, L. V., The Scientific Age,
Yale University Press, New Haven, 1964.

4) Bernard, C., An Introduction to the Study of Experimental Medicine,
Dover, New York, 1957.

5) Cuny, H., Pavlov : The Man and His Theories,
Fawcetl World Library, New York, 1962.

6) Hadamard, J., the Psychology of Invention in the Mathematical Field,
Dover, New York, 1954.

7) Hillman, J., Emotion,
Roulledge, London, 1960.

8) Langley, L.L., Outline of Physiology,
McGraw-Hill, New York, 1965.

9) Mander, J. M. Thinking,
John Wiley, London, 1964.

10) Miller, G. A., Psychology,
Cox, London, 1964.

11) Pavlov, I. P., Selected Works,
Foreign Languages Publishing House.
Moscow, 1955.

The Mental Life of Man

Its Physiological Basis and Social Prerequisites

Nouri Jaffar, Ph. D.

The theoretical basis of our approach to the construction of a new psychological theory is the principle of Physiological Nervism which states that: all animal organisms, including man, are always exposed to unnumberable environmental influences. The nervous system responds to various external stimuli with certain reactions... the human organism cannot live without constant and close interaction with the surrounding world. The organism adapts itself to the external influences and maintains a continuous fine balance with the environment by means of the nervous system... The human brain is the chief regulator of all the vital activities of the human organism. The brain, its cortex in particular, operates the most complex processes of our mental life.

Since mental activity is an activity performed by the brain, it is subject to all laws of neurodynamics as well as to the laws of psychological processes. Nevertheless, while remaining inseparable from physiological processes, mental phenomena differ from them. Mental phenomena appear as the effect of the action of physiological laws just as the latter are subject to the laws of biochemistry. Physiological processes are a new specific form of manifestation of chemical laws. Mental processes are similarily a new specific form of manifestation of the laws of physiology. The lower laws are always included in the higher ones, but only as a subordinate factor which does not determine their specificity.

The radical and fundamental difference between man's historical development and the biological evolution of the animal species is well known; that is why, to the extent that man's historical development differs from the biological evo-

lution of the animal species, the cultural type of evolution of the behavior must apparently differ from the biological type of development, since the two processes form part of more general processes — history and evolution.

Pavlov's theory of the second signalling system, which crowns his entire creative scientific work, discloses the physological principale not only of speech and thinking, and also laid a firm basin of the physiology of the brain, but also of such branches of science as psychology and psyciatry.

نقد الكتب

للدكتور عبد الرحمن بدوي

– ١ –

رسائل ابن باجة الإلهية

حققها وقدم لها د. ماجد فخري
دار النهار للنشر – بيروت سنة ١٩٦٨

كتبنا في مجلة « معهد الدراسات الاسلامية » بمدريد (سنة ١٩٦٩) مقالاً مفصلاً عما نشر من رسائل ابن باجه حتى الآن ؛ وما هنالك من مخطوطات جديدة تحوي رسائل جديدة ، ونشرنا على إثر المقال ثلاث رسائل جديدة لابن باجة لم يسبق نشرها ، وذلك على أساس مخطوطة جديدة .

ولهذا نحيل القارىء إلى هذا المقال .

ونتحدث مباشرة عن هذه النشرة التي قام بها الدكتور ماجد فخري وتشتمل على الرسائل التالية :

١ ــ تدبير المتوحد .

٢ ــ في الغاية الانسانية .

٣ ــ الوقوف على العقل الفعال .

٤ ــ رسالة الوداع .

٥ ــ قول يتلو رسالة الوداع

٦ ــ اتصال العقل بالإنسان .

وقدم لها بمقدمة (ص ١١ ــ ص ٣٤) تناول فيها ظهور الفلسفة في الاندلس ، وسيرة ابن باجة وتآليفه الفلسفية ، ومصادر فلسفته ، وفلسفته الإلهية والخلقية .

ومن هذه الرسائل الست نشرت قبل ذلك الرسائل التالية :

١ ــ تدبير المتوحد ، الذي نشره المستشرق الأسباني العظيم أسين بلاثيوس مع ترجمة إلى الأسبانية سنة ١٩٤٦ ، وكان قد نشر قسماً منه قبل ذلك و. م. دنلوب في JRAS مع ترجمة انجليزية .

٢ ــ اتصال العقل بالانسان . وقد نشرها أسين بلاثيوس مع ترجمة اسبانية في مجلس « الأندلس » سنة ١٩٤٢ . وعن هذه النشرة أعاد طبعها الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ملحقاً بـ « تلخيص كتاب النفس » لابن رشد ، سنة ١٩٥٠ .

٣ ــ رسالة الوداع ، ونشرها أسين بلاثيوس مع ترجمة أسبانية في مجلة « الأندلس » سنة ١٩٤٣ .

وكنا نرجو من الأستاذ المحقق أن يجيء تحقيقه لهذه الرسائل خيراً من تحقيق أسين بلاثيوس ، وإلا لما كان ثمت داع لإعادة النشر .

لكننا بمراجعة النشرتين وما أجراه الدكتور ماجد فخري من قراءات مخالفة لقراءات أسين ، تبيّن لنا أن الأمر ليس كما توقعناه ، بل إن

نشرة أسين لا تزال أفضل النشرات وأن الصواب حالفه في أكثر المواضع خيراً من المحقق الجديد . فضلاً عن أنه كان في المخطوط الأصلي – مخطوط بوكوك برقم ٢٠٦ Pococke – قراآت أفضل من التصحيحات التي أجراها .

ونكتفي بالشواهد التالية :

ص	س	ما في نشرة ماجد	ما نقترحه
٤٣	١٢	وهؤلاء هم الذين يعنهم الصوفية بقولهم الغرباء	... يعنونهم (كما في المخطوط بمعنى : يسميهم، ينعتهم) .
٤٤	٣	هذين الصنفين ... لم تعدا	... لم يعدا
٤٤	٨	الطبيعية – وفي الهامش: كذا ولعلها الطبية	النص صحيح ، ولا معنى لهذا التصحيح
٤٥	١١	وقد يستعصي ما يباين	وقد نستقصي ما ... (إذ لا يستعصى بيان الفوارق بين الانسان والحيوان غير الناطق !)
٤٦	٥	على أمر تملك	على أمر مُملِك (كما قرأ أسين)
٤٧	٣	المتعقل الطبع	المنفعل الطبع – (راجع كلامه عن الانفعال في السطور ٥، ٧، ١٠، ١٦)
٤٧	٥	عرض للنافع أن كان سبباً	... شهياً – (كما قرأ أسين ، لأن الكلام على النافع والشهيّ)

٤٧	١٤	ليجيد فعله	ليجد فعله (كما في الاصل وفي نشرتي أسين ودنلوب)
٤٩	١٢	داخلة	في الأصل : دخلة ، وصوابها بالتاء المفتوحة : دَخَلَتْ ؛ أو ربما الأصح ما جاء في هامش الأصل: دخيلة ، إذ وردت بعد ذلك في سطر ١٤
٥٠	١	هيولانية لأنها معقولات هيولانية [و] لأنها ...	هيولانية لأنها المعقولات الهيولانية ولأنها — (كما في المخطوط)
٥٠	١٧	أدركه مدرك كالتخيل	أدركه مدرك بالتخيل
٥٢	٣	حس المحرورين الأشخاص التي يخاطبونها حس كاذب	حسّ الممرورين...(وإلا فلا معنى للعبارة . والممرور — بالميم — هو الذي تتراءى له أشباح وخيالات)
٥٣	١٩	وأكثر ما يوجد هذا لمن كثرت تجربته ، وذلك بالإمعان في النسب	النص سقيم وفي حاجة إلى تقويم
٥٤	٥—٦	أن يكون ... وإما لا يكون	أن يكون ... وأن لا يكون (كما في نشرة أسين)
٥٥	١٨	أجمعت القوى الثلاث	اجتمعت القوى الثلاث

٦٢	١٠	تقصيه كل واحد من هذه غاية	ينصب كل واحدٍ من هذه غاية
٦٢	١٩—٢٠	إنما يتنقل الهول عن أخبار الامم على أيدي هؤلاء	إنما نشغل الدول عن ...
٦٣	١٠	كثير من عليه هذه الطبيعة	كثيرٌ ممن على هذه الطبيعة
٦٧	٤—٦	لمن قصد ... قاصد السمعة	الجملة مقلوبة وفيها تحريفات كثيرة
٦٧	١٤	تعينه	بعينه (كما قرأها أسين)
٧٨	٢	منة العنق	متة العنق (بالتاء — كما في أسين)
٧٨	٣	كما يفعل	كما فعل
٧٩	١١	فلا جسماني واحد سعيد	فلا جسماني واحداً سعيد
٨٢	٢	إن لم يقل على نحوي الوجود اعتياد	إن لم يقل ... اعتياداً (أو : باعتياد)
٨٤	١٠	الخاصة للبرهان ، وبالجملة بالقياس	الخاصة بالبرهان ...
٨٦	٧	فيما تميازه من النفس ، فتعطيها النفس الصورة	فيما تمتاره ... (بالتاء والراء المهملة) أي تطلبه
٩١	٧	فهي نافعة في الأقل وبالعرض	... في الأقل بالعرض
٩٥	٦	يفعلون بتلك المعقولات على أنهم قابلون لها	ينفعلون ...

٩٥	٧	وتسند على جهة ما الآثار في المواد	وتشبه — على جهة ما — الآثار (كما يرى أسين)

ونجتزىء بهذه الشواهد لتدل بها على أن نشرة أسين بلاثيوس لهـــذه الرسائل الثلاث لا تزال أفضل النشرات ، وأنه كان على المحقق الجديد أن يأتي بعمل أضبط وتحقيق أدق .

وقد قررنا نشر كل ما بقي لدينا من رسائل ابن باجـة ، خصوصاً بعد أن اكتشفنا مخطوطات جديدة من شأنها أن تزيد جداً في عدد الرسائل الباقية له ، وأن تعين على مزيد من التحقيق .

— ٢ —

كتاب الملة ونصوص أخرى للفارابي

حققها وقدم لها وعلق عليها الدكتور محسن مهدي
أستاذ الدراسات العربية والاسلامية بجامعة شيكاغو
دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)
بيروت سنة ١٩٦٨
في ١٣٤ صفحة من قطع الثمن

محقق هذه النصوص من أدق المحققين وخيرة الباحثين . وقـــد اهتم بمؤلفات الفارابي — ولا يزال معظمها غير منشور ، مع الأسف الشديد — وها هو في هذا الكتاب ، والكتاب الذي يتلوه بعدُ ، ينشر النصوص الصغيرة التالية :

١ — كتاب الملّة (٤١ — ٦٦) .

٢ — في العلم المدني وعلم الفقه وعلم الكلام (٦٧ — ٧٦) .

وهو قطعة من الفصل الخامس من «احصاء العلوم» للفارابي .

٣ — فصول مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة (٧٧ — ٨٦) .

٤ — دعاء عظيم (٨٧ — ٩٢) .

٥ — من الامثلة اللامعة والأجوبة الجامعة .

وقد نشر الأول عن نسختي ليدن و التيمورية ؛ والثاني عن نسخ في الاسكوريال وكوبريلي وبرنستون، والثالث عن نسخة قلج علي في استانبول ، والرابع عن نسخة شهيد علي باستانبول ، والخامس عن نسخة أياصوفيا .

وقدم لذلك التحقيق بمقدمة جيدة تقع في ٢٧ صفحة .

وفيما عدا النص الثاني فإنه لم يسبق نشر النصوص الأربعة الأخرى .

ونحن نرى أنه كان عليه — فيما يتعلق بالنص الثالث — أن يرجع إلى مخطوطة طشقند وفيها نص أفضل لـ « فصول مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة » . وسننشره نحن مع ما وجدناه من رسائل جديدة للفارابي حققناها في صيف سنة ١٩٦٨ .

كذلك نلاحظ أن الرسالة الخامسة (« من الاسئلة اللامعة والأجوبة الجامعة ») — وهي مجرد أخبار موجزة تافهة عن الأنبياء من آدم إلى النبي محمد — لا يمكن أن تكون بقلم الفارابي ، ولا بد أنه فارابي آخر غير أبي نصر الفارابي الفيلسوف ، ونخالف الدكتور محسن مهدي في قوله : « إن نسبة الكتاب لأبي نصر الفارابي الفيلسوف لا يمكن رفضها على أساس أسلوب الكتاب أو موضوعه»(ص ٣٧) مع علمه أن مترجمي الفارابي لم يذكروا له كتاباً بهذا الاسم . إذ ليس ثمّ إلا النقد الباطن ، أعني دراسة أسلوب الكتاب وموضوعه ؛ لبيان من هو صاحب الكتاب . وأسلوبه ومادته يقطعان بأنه لا يمكن أن يكون لأبي نصر الفارابي الفيلسوف.

وما أكثر المنسوبين إلى فاراب !

ونبدي هنا بعض ملاحظات على التحقيق :

ص	س	ما في نشرة مهدي	ما نقترحه
٤٦	١١	يكاد (١)	يكادان
٤٨	١	وكانوا أولئك ليس ممن لا يفهم	ولأ (ن) منزلتهم أنهم لا يفهمون—(كما في نسخة ت)
٥٥	١٤	(يسمى)انسان جاهلي	(يسمى) انساناً جاهلياً
٥٥	تعليق ٣١		فارغ !!
٥٦	١	بلا إرادته	بغير ارادته (كما في ت)
٦٥	٢	غير أن بين التدبيرين تناسب	تناسباً (كما في ل)
٧٩	٩	الفصل الأول الشيء الذي	الفصل الأول في ذكر الشيء الذي
٧٩	١٠—١٣		في النص اختلاف ونقص، يمكن تصحيحه على أساس مخطوطة طشقند كما يلي : « وما جوهره ، وعلى أي جهة هو سبب وجودها ، وأيّ الأسماء ينبغي أن يسمى بها ، وبأي صفة ينبغي أن يوصف ، وكيف حصلت الموجودات عنه ، وماذا تعرف به رتبة هذا الشيء في الوجود ...

وقد راجعنا نص « فصول مبادىء آراء أهل المدينة الفاضلة » كما نشره الدكتور مهدي على نص مخطوط طشقند ، فوجدنا الأخير أكمل جداً وأصح بكثير من مخطوط قلج علي باشا الذي نشر عنه الدكتور مهدي .

- ٣ -

كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق

تأليف أبي نصر الفارابي

حققه وقدم له وعلق عليه : محسن مهدي

دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)

بيروت سنة ١٩٦٨

وهذا النص أهم من النصوص السابقة . وقد نشره المحقق عن أربعة مخطوطات : ديار بكر ، فيض الله ، كرمان ، مجلس ملي في طهران . واتخذ أساساً نسخة ديار بكر لقدمها وصحة خطها .

وكتب الفارابي المنطقية وفيرة جداً ، وقد بقيت لنا منها مجموعة كبيرة بدىء في السنوات العشر الأخيرة في نشر بعضها . وقد توفرت الآنسة توركر على نشر عدد كبير منها ، ولكن نشراتها – مع الأسف الشديد – بعيدة عن تحقيق النص الى درجة مذهلة ! إذ كثيراً ما تضع القراءات الصحيحة في الهامش ، بينما تضع في الصُّلب القراءات المحرفة ! كذلك نشر كوتش شرح الفارابي على كتاب العبارة ، ولكن تحقيقه لا يزال بحاجة إلى مزيد من التدقيق . ومثل هذا يقال أيضاً على ما نشره دنلوب. ولكن ليس ها هنا موضع تفصيل ذلك .

ويرى المحقق : الدكتور مهدي ، أن كتاب « الألفاظ المستعملة في المنطق » هو الجزء الثاني من كتاب جـامع للفارابي في المنطق يسمى « الأوسط الكبير » أو « المختصر الكبير » . ولكن هذا الحكم بحاجة الى مزيد من التحقيق ، لأن الكتاب اقرب أن يكون رسالة قائمة بذاتها تتناول موضوعات عامة في المنطق كله كما يبين من فصوله :

الفصل الأول : أصناف الألفاظ الدالة .

» الثاني : الألفاظ المركبة وأصناف المعاني .

» الثالث : أصناف المعاني الكلية .

» الخامس : أصناف المعاني الكلية المفردة .

» السادس : » » » المركبة .

» السابع : القسمة والتركيب .

» الثامن : أنحاء التعليم .

» التاسع : الأمور التي ينبغي أن يعرفها المتعلم لصناعة المنطق .

» العاشر : افتتاح النظر في صناعة المنطق .

فمثل هـذه الموضوعات لا يمكن أن تكون قسماً من كتاب يسمى « الأوسط الكبير » ، بل هي بالأحرى تأملات عامة في بعض أمـور المنطق بوجه عام ، مما يجعلنا نرجح أن تكون رسالة قائمة برأسها .

أما عن تحقيق النص فلنا عليه الملاحظات التالية :

ص	س	ما في نشرة مهدي	ما نقترحه
٤٣	٢	ويستعمل	ويستعمله – (كما في د)
٤٣	١٥	استعملنا	فإنا نستعمل – (كما في ف)

٥٢	١٧	والكيفيات لما كانت منها ما يفاد به	والكيفيات لما كان منها ما يفاد به – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
٥٤	٦	يتشابهان ... ومختلفان	... ويختلفان
٥٦	١٤	حينئا	حينئذ
٧٠	١	في جميع التي ...	في جميع الكليات – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
٨٠	١٦	جزء جزء	حد حد – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
٨٤	١	المتقدمة عن تلك المتقابلة	زيادة لم ترد في م ، ولا محل لها فيجب حذفها
٨٧	١٥	فتنفع	تنفع – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
٩٤	١٤	قانع	بالغ – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
٩٧	٤	يعم الجنس للأنواع	يعم الجنسُ الأنواع – (كما في الثلاث نسخ الأخرى)
١٠٥	١	باري ميناس ومعناه العبارات	... ومعناه : العبارة
١٠٥	١٠	المغالطات التي قصد مستعملوها ... من غير أن يكونوا كذلك	من غير ان تكون
١٠٥	١٤	فيظن	يظن
١٠٧	١٤	ننظر	ينظر – كما في ف ، ك
١٠٩	٩	لأن من آ ل فوثاغورس رجلان كل واحد منهما يسميان بارخوطس	لأن ... رجلين كل واحد منهما يسمى بارخوطس

وهي هنات هينات بالنسبة إلى المجهود الممتاز الذي قام به المحقق في التنقيب عن المخطوطات وفي محاولة ضبط النص .

— ٤ —

« تاريخ طرابلس وولايتها : من الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ »

Storia di Tripoli e della a Tripolitania dalla Conquista araba al 1911

تأليف اتوري روسي Ettore Rossi

رقم ٦٠ من مطبوعات معهد الشرق ، روما سنة ١٩٦٨
في ٢٢ + ٣٩٨ صفحة

هذا كتاب حافل في تاريخ طرابلس وولايتها ، وهو أوفى ما كتب حتى الآن في هذا الموضوع . واستعان فيه مؤلفه بكل المصادر الممكنة : كتب ، نقوش ، رحلات ، مراسلات دبلوماسية ، محفوظات للسفارات والقنصليات ، الخ .

والمؤلف كان من أعلام المستشرقين الايطاليين الذين أتقنوا العربية والتركية معاً وصاحبه هذا الكتاب طوال حياته العلمية : بدأ في جمع مواده منذ أن عمل مترجماً لمحافظة طرابلس في الفترة من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٢ . واستغل هذه المواد في بحث قدمه سنة ١٩٢٢ إلى حكومة طرابلس بناء على مسابقة دعا إليها ج. فولبي محافظ مصراته آنذاك ، ونال بـه جائزة . ومن ثم أخذ روسي في تنمية هذا البحث الذي لم ينشره آنذاك ، حتى تمخض عن هذا الكتاب الذي نتحدث عنه ، وكان تمامه تقريباً في سنة ١٩٢٨ . ثم انصرف عنه حيناً إلى أبحاث أخرى . بيد أنـه نشر بعضه مقالات في مجلات مختلفة .

وتوفي روسّي سنة ١٩٥٥ ، وهو في نضج الكهولة ، دون أن يطبع الكتاب . فأفكر « معهد الشرق » في روما في نشره ، ووكل إلى الآنسة ماريا نلينو أستاذة الآداب العربية في جامعة فينيسيا الاشراف على طبعه، وإضافة بعض المراجع التي ظهرت بعد وفاة المؤلف ، واحداث بعض التعليقات والتصحيحات ، فقامت بهذا خير قيام .

وقد استعرض المؤلف في المقدمة المصادر المتعلقة بتاريخ طرابلس وولايتها ، وأبرز أهمية محفوظات وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والايطالية والعثمانية والاسبانية في تاريخ طرابلس قبل الفتح العربي : السيطرة الفينيقية القرطاجية ؛ السيطرة الرومانية ؛ الوندال والبيزنطيون . واهتم ها هنا – كما في كل أبواب الكتاب – بالبحث في أسماء البلاد القديمة وما يناظرها حالياً .

ثم أقبل على الموضوع الأصلي للكتاب وهو الفتح العربي وما تلاه حتى سنة ١٩١١ . فاستعرض الغزوات المتوالية .

وأبرز في الفصل الرابع من القسم الأول ثورات الخوارج الإباضية في منطقة طرابلس ؛ وعلل أسباب نجاح مذهب الخوارج بأن « نظرية الخوارج في الإمامة اتفقت مع نزعة البربر وقد تعودوا النظام القبلي ، نزعتهم إلى تكوين مجتمع حرّ يقرر أموره بنفسه ، ويكره السيطرة الأجنبية ، ولا يريد الخضوع للعرب كما لم يرضَ بالخضوع لغيرهم من الغزاة . » (ص ٣٨) .

ويأتي عهد الأغالبة ، والعبيديين وبني زيري . ويتحدث عن استقلال طرابلس في عهد بني خزرون .

ويعقد فصلاً (السادس) لغزوة بني هلال وبني سليم وما كان لهاتين القبيلتين العربيتين من أثر في طرابلس ثم في تونس والجزائر من نشر العربية بين البربر ، ونفوذها في التلول والجبال بعد الأودية والمدن . يقول

المؤلف : « إن هـذه الغزوة كانت حادثاً كبير الأثر خصوصاً لأنها وردت إلى المغرب عنصراً عربياً قوياً كبير العدد ، أحدث تغيراً بارزاً في التكوين العنصري والوضع اللغوي للبلاد ، وهزّ – وحطم جزئياً – العنصر البربري السائد آنذاك وأثر في الوضع السياسي للبلاد .»(ص ٥٧) .

واستولى النورمان على طرابلس في ١٧ أو ١٨ يونيو سنة ١١٤٦ ، كما استولوا في سنة ١١٤٨ على المهدية وصفاقس وقابس . واستمر حكمهم لطرابلس حوالي اثني عشرة سنة ، إلى أن خلّصها منهم الموحدون ، تلك القـوة السياسية الدينيـة الجديدة في المغرب ، في سنة ٥٥٣ هـ (سنة ١١٥٨ م) . لكن لم يطل حكم الموحدين ، إذ جـاء من مصر مغامر يلقبه المؤرخون العرب بلقب « الأرمني » وهو بهاء الدين قرقوش ، فاستولى على طرابلس ، حوالي سنة ١١٨٥ م . ولم يطل حكمـه ، إذ قضى عليه يحي الميورقي ، من بني غانية ، وطارده حتى ودان بمساعدة بني رباب ، وقتله هو وأحد أولاده وصلبه في سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) . ثم جـاء الحفصيون واستولوا على تونس ومدوا سلطانهم حتى طرابلس شرقاً وتلمسان غرباً ، في القرن الثالث عشر .

ويعقد المؤلف فصلاً خاصاً (الثامن) لرحلة التجاني ، الذي قـام سنة ١٣٠٦ م برحلة من تونس بصحبة أبي يحي زكريا اللحياني ، زعيم الحفصيين ، الذي رحل للحج . واستخرج المؤلف ما في « الرحلة » من بيانات مهمة عن الأماكن الرئيسية والمعالم البارزة في طرابلس :

١ – ضريح عمرو بن العاص ، بالقرب من موقف الغنَم .

٢ – الجامع الأعظم الذي بناه أبو عبيد .

٣ – المصلى .

٤ – عدة مدارس ، أجملها « المستنصرية » التي أمر ببنائها الفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا في السنوات ٦٥٥ إلى ٦٥٨ هـ (١٢٥٧ م – ١٢٥٩ م) .

٥ – القوس الرومانية ، قوس ماركس أوريليوس .
٦ – المقابر .

وكذلك ما في ضواحي طرابلس آنذاك من مساجد وأضرحة ومزارات .
ويختم القسم الأول بنظرة عامة على العلاقات بين طرابلس وأوربا في العصر الوسيط .

ويبدأ القسم الثاني بسيطرة الأسبان وفرسان مالطه على طرابلس (١٥١٠ – ١٥٥١) وبه تبدأ الإفادة من المخطوطات والوثائق الأوربية والعثمانية ، وتتضح معالم تاريخ طرابلس أكثر فأكثر .

صحيح أن الدراسات عن هذه المرحلة ، أي من ابتداء القرن السادس عشر حتى سنة ١٩١١ ، وفيرة في اللغات الأوربية المختلفة . لكن المؤلف ، إلى جانب استيعابه لها ، قد قام بأبحاث خاصة في دور المحفوظات ، وركّب مواده بوضوح وتسلسل منطقي ، وبعث الحياة في الصور التي يعرضها . ومن هنا كان هذا القسم الثاني أفضل ما في الكتاب ، على أنه يستغرق معظمه (من ص ١٠٩ إلى ٣٥٢) .

ويستولي العثمانيون على طرابلس في سنة ١٥٥١ من أيدي فرسان مالطة ، ويتوالى الباشوات العثمانيون حتى تبلغ عدتهم ٣٦ باشا فيما بين سنة ١٥٥١ و سنة ١٧١١ . ويتلوهم القرمانلية (نسبة إلى قرمان ، وهو الاسم الذي أطلقه الأتراك على المنطقة الجنوبية من الأناضول) . الذين استمروا حتى سنة ١٨٣٥ ، فعادت طرابلس إلى الحكم العثماني المباشر .

وهذه الفترة حافلة بالعلاقات مع دول أوربا ، حتى كاد تاريخ طرابلس أثناءها أن يختلط بتاريخ الصراع بين الدول الكبرى في البحر الأبيض المتوسط من القرن السادس عشر حتى سنة ١٩١١ ، ويبرز دور قناصل هذه الدول .

ويرسم المؤلف صوراً حية للصراع بين هؤلاء القناصل ، خصوصاً لذلك الذي قام بين قنصل فرنسا : روسو ، وقنصل انجلترا وارنجتون .

وكان الأول مستشرقاً ، يحسن العربية ، ولهذا استطاع أن يعقد صلات وثيقة مع الأدباء العرب في طرابلس . أما وارنجتون فكان عسكرياً فظاً قليل الثقافة مغروراً أهوج . على أنه كان في خلفية الصراع بينهما قصة غرامية حامية بين ابن روسو وبنت وارنجتون ، ورفض هـذا ان يزوج ابنته من ابن روسو ، وأرغمها — على سبيل النكاية — على الزواج من رحالة يدعى الكسندر جوردون لينج ، الذي قام برحلة استكشافية غداة الزواج ،ومضى في رحلته حتى وصل إلى تمبكتو،وفي اثناء عودته منها قُتِل !

• • •

وقد اتسمت أحكام المؤلف بالموضوعية ، بالقدر الذي يمكن به أن يكون موضوعياً ، إذ جلّ الوثائق والمصادر عن هذه الفترة أجنبيـة . وليس منها من عربي غير كتاب « التذكار » لابن غلبون ، وقد ترجمه المؤلف إلى الإيطالية وعلق عليه ، ورحلة العياشي وبعض المصادر الثانوية هنا وهناك .

ولقد كنا نود لهذا الكتاب الممتاز أن يخلو من بعض الهنات البسيطة ، التي نذكر بعضاً منها ، وهي تتعلق ببعض الأسماء العربية :

ص ٤٩ — ٥٠ : عبد الله — وصوابه : أبو عبد الله .

ص ٥٠ : مقنون بن دباره — وصوابه : ماكنون بن ضبارة .

ص ٥٢ : أبو يزيد مرخلد بن كيداد — وصوابه : أبو يزيد مُخَلّد أو مَخْلد بن كيداد . — وما شاكل ذلك .

وبالجملة ، فهذا الكتاب عمل عظيم ، يسد نقصاً كبيراً ، ويعد من الأعمال التاريخية الممتازة التي قام بها المستشرقون .

عبد الرحمن بدوي

الموسم الثقافي

المحاضرات التي القاها الاساتذة الزائرون

١) الاستاذ الدكتور عبد العزيز السعيد
«رئيس معهد واستاذ العلاقات الدولية
في الجامعة الامريكية بواشنطن »

PROF. ABDELAZIZ SAID,
Head of Dept. of Political
Science, American University
Washington, D.C.

تاريخ الزيارة : ٦٨/١٠/٢٧ الى ٦٨/١٠/٣١

عنوان المحاضرة: مشاكل التطور السياسي في البلاد النامية

٢) مايكل آدامز

PROF. MICHAEL ADAMS

تاريخ الزيارة : ٦٩/١/٢

عنوان المحاضرة: كيفية كسب الرأي العام العالمي للقضايا العربية

٣)السيد هارولد ماينر
من جامعة استيتسن

PROF. HAROLD MEYNER
Head of Dept. of Political
Science, Stetson University,
Delund, Florida.

تاريخ الزيارة : ٦٩/١/٢٣

عنوان المحاضرة: مشكلة السلام في الشرق الاوسط

The Elusive Peace in the Middle East.

٤) الاستاذ جون كلارك
استاذ الجغرافية بجامعة درهام

PROF. J. I. CLARKE
Department of Geography,
University of Durham.

تاريخ الزيارة : ٦٩/٣/١٧ الى ٦٩/٣/٢٥

عنوان المحاضرات : ١) سكان المغرب العربي

٢) التوزيع الديمغرافي للسكان في تونس .

٣) السكان في الاقطار النامية

٤) الكمرون

٥) سيراليون

٥) الاستاذ جان لويس مياج
استاذ التاريخ المعاصر بجامعة اكس
آن بروفانص — بفرنسا

PROF. JEAN-LOUIS MIEGE
Department of History,
University of
Aix-en-Provence.

تاريخ الزيارة : ٦٩/٣/٢٩ الى ٦٩/٤/٦

عنوان المحاضرة ١) تاريخ التوسع الاوروبي في القرن ١٩

٢) طرق البحث والمراجع والوثائق

٣) تاريخ البحر المتوسط في القرن ١٩

٤) المشاكل الثقافية في الدول المستقلة حديثاً مع التأكيد على الغرب .

٦) الاستاذ اميل بيترز
استاذ ورئيس قسم الانثروبولوجيا
الاجتماعية بجامعة مانشستر بريطانيا

PROF. E. L. PETERS
Department of Social
Anthropology & Sociology,
University of Manchester.

تاريخ الزيارة : ٦٩/٤/٦ الى ٦٩/٤/١٢

1. Cyrenaican Ecology and Lineage System.
2. Al-gisr al wahid: an analysis of Bedouin corporation.
3. The significance of marriage.
4. Two forms of social control: Welsh youth groups compared with Azande witchcraft practices.
5. Sex differentiation in two Arab communities.

SINESIO DI CIRENE

du Cesare Casini

I. Discendente di Leonida.

Come Dio, in una filosofia-religione orientale, trae il mondo esterno da sé medesimo, a somiglianza del ragno la propria tela; anche Sinesio estrae e tèsse tel la della propria vita — e un p' del proprio tempo e paese — da sé medesimo, specialmente nel suo prezioso epistolario.

« Da Eurìstene che condusse da Sparta i Dorienti » — antico popolo originario della Dôride, poi insignoritosi del Peloponneso, che fondô Sparta, Taranto, Cirene — « nei documenti pubblici le successioni genealogiche arrivano fino a mio padre » (lett. 57) : chiara allusione alle emigrazioni greche del secolo 7° che raggiunsero le coste africane. Dall'isola doriese di Tera essi emigrarono, nello stesso tempo, su la costa libica e kettarono le fondamenta di Cirene.

In Cirene, dunque, da illustrissimi genitori nacque Sinesio verso il 730 d. C. E' il periodo storico — questo in cui s'inserisce tanto operosamente, anzi drammaticamente, la breve vita di Sinesio — ch'egli stesso descrive, oltre che, a rapide pennellate, nelle lettere, anche in altri due suoi brevi scritti : **Catastasis, in qua pentapolitana calamitas describitur** (**Synesii episcopi Cyrenes Opera quae extant omnia graece ac latine primum coniunctim edita,** interprete Dionysio Petavio, Lutetiae 1612, 298-303) e **Constitutio sive elogium Anysii,** (ibid. 304-305).

« Finora, ieri e ierl'altro » — egli scrive — le cose della Pen-

tapoli erano in potere dei romani, i quali, recensendo le loro prefetture, la trascurarono. Ora la Pentapoli non esiste più affatto, rovinata dalle fondamenta... » **Catast.** loc. cit. 298).

Lontana origine delle miserrime condizioni di questo lembo nord-africano fuil riordinamento amministrativa dell' imperaisre diocleziano (375-415). Egli distinse questo territorio in Libia inferiore e Libia superiore, entrambe unendole alla diocesi d'Oriente. La prima comprendeva la Marmàrica, la seconda la Pentapoli : Cirene, Tolemaide, Apollonia, Tchira, Berenice. Capitale della Pentapoli fu, per lungo tempo, Cirene; poi Tolemaide.

A capo della Pentapoli erano, di solito, due autorità : la civile (il preside o egèmone o arconte) e la militare (il duce). Spesso le due autorità s'accentravano nel còmite.

Oltre quella remota — la divisione amministrativa dioclezianea — altre cause prossime della decadenza della Pentapoli erano : il nomadismo delle popolazioni, l'insicurezza del commercio e perciò il suo progressivo languire e l'eccessiva ampiezza della prefettura, comprendente Egitto, Libia e Cirenaica : ciò che non consentiva l'esistenza d'un'amministrazione politica ben definita e personale (Francesco Valori **Storia della Cirenaica** Sansoni, Firenze, 1961, 58-62).

Per tutto ciò regnava il massimo disordine : in tanta necessità d'un esercito ben organizzato e consapevole, qual era stato quello romano d'una volta, c'era soltanto un'accozzaglia di mercenari barbari.

Nessuna meraviglia, allora, se Ammiano Marcellino, sul finire del secolo 4° scriveva : **In Pentapoli Lybia Cyrene est posita, urbs antiqua, sed deserta** (F. Valori **op. cit.** 62-63).

Eppure il preludio sinesiano a tanta tragedia s'avvia con note quasi sinfoniali : «A me — egli scrive infatti — fu concesso fin da fanciullo quel divin bene che è il tempo libero e la felicità del vivere : ciò che qualcuno dice conveniente agli ingegni divini : cioè di coltivare la mente e conciliarla con Dio che la possiede e ne gode. Di tutto ciò che i fanciulli sogliono avere o ottenere, io almeno

partecipai, come anche di ciò che si vede negli adolescenti e nei giovani.

Quando poi raggiunsi l'età virile, nulla discordò dal fanciullesco per quel che riguarda la quiete e la tranquillità del vivere, ma, pacatamente conducendo la vita, come celebrando una festa, conservai l'anima in uno stato non turbato da tempesta alcuna » (lett. 57).

Gli consentiva tanta serenità, oltre l'indole sua penso e meditativa, la agiatezza di cui godeva nell'avita Cirene. Scriverà infatti più tardi all'amico Pilemeno : « Ti è ben permesso di venire da me : troverai la casa d'un fratello. Non siamo ricchi, o uomo buono, ma ciò che abbiamo è sufficiente per me e per Pilemeno. Forse, anzi, se tu sarai con me saremo più ricchi.

Nelle stesse riserve dei beni familiari altri hanno fatto ricchezze più che mediocri : io invece sono un cattivo economo. Tuttavia, nonostante ciò e a dispetto della massima incuria, finora un patrimonio che possa mantenere un filosofo sussiste. Né tu devi pensare ch'esso sia da disprezzare se vi s'impegni cura e diligenza » (lett. 134).

Della bellezza del luogo Sinesio scrive, un'altra volta, invitando il fratello, febbricitante « presso l'ardente Ficunte » : « Ma, se un nume t'assista, tu puoi bene, migrando da noi, ricuperare la salute, dopo che ti sarai liberato dalle infette arie palustri e dalle acque salse e tiepide, e ferme al punto che le si possono ben dire morte.

Che piacere adagiarsi finalmente su la sabbia della spiaggia che è il nostro unico rifugio ! Dove vi volgerete, voi ? Da noi invece ci si può sedere all'ombra degli alberi e, se tu t'infastidisci, dall'ombra dell'uno passare a quella dell'altro albero e da un boscua un altro. E che piacere traversare un ruscelleto che scorre da presso ! Quanto è soave lo zeffiro che scuote lieve i rami ! Né mancano i concenti vari degli uccelli, né il ricamo dei fiori, né gli arbusti nei prati, in parte opera della coltivazione e in parte dono della natura, tutti odorosi, vigore della sana terra. Non ti farò le lodi della grotta delle Ninfe : ci vorrebbe Teocrito. E oltre ciò v'è dell-saltro ancora» (lett. 114).

Quanto Sinesio scriverà poi circa gli studi e i libri, e la sua stessa vasta eletta cultura, sono comprova che, ragazzo, nella stessa Cirene siasi messo a scuola d'egregi maestri.

Ma ben presto la non lontana Alessandria d'Egitto, fiorente allora di neoplatonismo e di cultura cristiana, attrae il giovine. E la dotta e sapiente Ipazia l'accoglie a scuola e, oltre illuminargli e ornargli la mente, gli accende in cuore un riverente ma vivo affetto che, fino al precoce troncarsi dell'una e al lento estinguersi dell'altra, lega soavemente le due nobili vite.

Non sappiamo esattamente quando Sinesio si recò in Alessandria né quanto vi stette. Sappiamo che dopo qualche tempo ne tonò e, direttamente o indirettamente, passò nella «sacra Atene» (lett. 54). Dalla citata lettera al fratello sappiamo d'una circostanza in cui si determinò questo viaggio. « Moltissimi di qui » — scrive da Cirene? Sinesio) — «moltissimi di qui, sia privati che sacerdoti, accozzando certi sogni, ch'essi chiamano rivelazioni, sembran lì lì per farmi credere per visione un male, se non stéssi per arrivare fra poco nella sacra Atene. Ogni volta perciò che t'imbatterai nel nocchiero del Pireo, scrìvici, ché riceveremo colà le lettere. Non solo, poi, da tal partenza trarrò il vantaggio di sciogliermi dai presenti mali, ma anche questo : che di poi non adorerò più in nome della scienze e della erudizione coloro che vengono di colà; i quali, punto dissimili da noi mortali — salvo quel che si riferisce all'intelletto d'Aristotele e Platone — tuttavia tra noi passano per semidèi, parché hanno visto l'Accademia e il Liceo e quel Portico policromo dove Zenone filosofava — che ora cessò d'essere policromo perché il proconsole ne tolse le tele : e così vietò loro d'essere troppo arroganti per via della scienza » (lett. 54).

Da Atene, egli che aveva chiesto al fratello corrispondenza spistolare, gliela ricambia. Gli scriveva, infatti: «Trarrò da Atene tutto il vantaggio che tu vuoi : tanto mi sembra d'esser fatto più ricco d'un palmo e d'un dito. E perciò è bene che tu faccia esperimento di quella sapienza divina. Ecco, ti scrivo da Anagirunte, e visitai Sfetto, e Trio, e Cefeso e Falero. Che gli dèi e le dèe pèrdano quell'infelice nocchiero che mi trasportò qua ! Atene infatti non ha

più nulla di splendido, altro che i celeberrimi nomi dei luoghi. Ma come d'una vittima consumata avanza soltanto la pelle, segno dell'animale ch'era stato una volta : così, dedotta di là la filosofia, non resta, andando intorno, che ammirare l'Accademia e il Liceo e anche quel Portico variopinto dal quale prese nome la sètta di Crisippo : che ora poi non è più variopinto. Infatti, il proconsole asportò il lastricato di tavole ove Polignoto tarsio aveva adunato tutta la sua arte. Ora, al tempo nostro ci nutre l'Egitto e la dotta e sapiente signora Ipazia.

Atene poi fu una volta città, domicilio di sapienti : ora la rendono famosa i coltivatori di miele. Ai quali aggiungi anche quel che è dei sapienti Plutarchei, che attraggono ai teatri non già con la fama dei loro discorsi ma con le ampolle di miele dell'Imetto ». (lett. 136).

Come si vede, Sinesio è disilluso d'Atene.

Comunque, non ha certo dormiti i mesi (o il più lungo tempo) trascorsi colà. Ornata la mente d'eletta cultura, proteso lo spirito verso il bello e il bene, egli torna in patria, a Cirene. Siamo verso il 390.

II. I suoi anni venti.

Sinesio è su i vent'anni. E' il suo buon tempo, di cui scriverà poi, con tanto rimpianto : « ...io vivevo, con la migliore speranza, nel mondo come entro un chiostro, da essere libero liberamente diportandomi, dividendo il mio tempo fra la preghiera, i libri e la caccia. Infatti, affinché l'animo e il corpo sien sani, bisogna e affaticarsi e chiederlo a Dio » (lett. 57).

Abbiamo còlto un accenno alla passione di Sinesio per i cavalli e la caccia e le armi : precoci passioni, queste, in lui, come egli stesso confessa : « Sin dalla puerizia (sono) dèdito allo smodato amore delle armi e dei cavalli» e «avido di gioco» (ltt. 105).

I cavalli, infatti, entrano spesso nell'epistolario sinesiano : « Avrei desiderato molto » — scrive un giorno all'amico Olimpio — « di vedere una buona volta quel cavallo italiano che tu con il tuo

parlare ornato mi lodasti : tanto più che l'avevi promesso padre d'eccellenti puledri », e, accennando a un pericolo che il cavallo venisse o già fosse stato destinato altrove e altrui da chi avrebbe dovuto portarglielo per nave, soggiunge : « E' assurdo che un cavallo simile sia perduto per me e per te» (lett. 133).

Certo più tardi, sempre a proposito di cavalli e dimostrandone una conoscenza notevole, a Uranio scrive ancora Sinesio: «Ti ho mandato un cavallo in dono, che ha tutte le virtù del cavallo in misura eminente : perché tu lo possa usare nelle gare di corsa, quando andrai a caccia, e negli assalti guerreschi. Potrai anche usarlo quando celebrerai il trionfo dopo la vittoria africana : non saprei infatti s'esso sia più idoneo alla caccia o ai salti del gioco o alle parate militari.

Se non è bello da quanto i cavalli nisseni, perché ha capo tumido, garretti asciutti, ciò forse dipende dal fatto che Dio non concede tutti insieme i doni né ai cavali né agli uomini.

Ma non so se questo — aver avuto da natura più del duro che del molle — non gli s'aggiunga alle qualità predette. Si sa infatti che le ossa più della carne sono resistenti alla fatica. Per questo i vostri cavalli sono superiori per carne, i nostri per ossa » (lett. 40).

Accenni alla caccia sono sparsi nelle lettere; con l'accorato ricordo della selvaggina rintracciata per le ampiezze simidesertiche della Cirenaica. A proposito di quella, arriva perfino a biasimare Omero, ch'egli adora e tanto spesso cita nelle sue opere. « ...Né minor abbondanza procaccia — scrive a Olimpio — alle nostre mense la caccia frequente con cani e cavalli — la quale non so perché Omero la dica non glorisa per gli uomini e che gli uomini non ci si possano rendere illustri, mentre di tal lode onorò la piazza, da dove escono omuncoli sfrontati e scelleratissimi né punto sani... » (lett. 148).

E la caccia fu avvio alla sua bella e abbondante attività letteraria. Inchino infatti a credere che il poema oggi perduto, **Cinegetica,** di cui il titolo dice il contenuto, sia appunto di questo tempo.

All'opera fa cenno, elegantemente schermendosi, scrivendo a Pilemeno (lett. 101); ma v'accenna anche in altra occasione, e stavolta facendocene indovinare i pregi : « ...quando la mia Cinegetica, non so come, uscì fuori dalle mie case, destò subito una gran voglia di sé in alcuni adolescenti che amavano le grazie e la facondia greche; e qualcosa, derivato con impegno dall'arte poetica, comprovava che riteneva in sé un che della mano antica — come siamo soliti dire delle statue — » (lett. 154).

Pur di quegli anni giovanili sono alcuni suoi viaggi. D'uno, forse soltanto da Cirene a Ficunte, ove abitava il fratello Evozio, riferisce una lettera sinesiana : « Non dispongo né dell'asino né del cavallo, li ho lasciati andare al pascolo, per raggiungerti... Volevo assolutamente fare il cammino a piedi, ma i miei mi dissero che non dovevo, per non far ridere chi avremmo incontrato. Ché, considerano costoro, quali ch'essi poi sieno, sapienti al punto e di mente così sagace, che ciasuno meglio di questo povero diavolo possa indovinare cosa mi convenga... » (lett. 109).

E già fin d'allora Sinesio doveva aver avviato quella corrispondenza epistolare che desta, a distanza di quindici secoli, ancora un così vivo interesse. Né deve avere scritto soltanto le 156 lettere che abbiamo, né soltanto una quarantina — quanti sono i destinatari di queste — dovettero avere il piacere ch'esse recavano. Ma anche da queste soltanto sappiamo quali erano i problemi, gl'interessi e poi i sentimenti che le ispiravano e che vi palpitano sì vivamente.

Molte di queste lettere raccomandano persone — perché possano entrare in familiarità con gli amici suoi, perché sieno soccorsi, difesi, protetti. Molte, forse le più sono espressioni del suo prepotente bisogno d'intrattenere questi in ragionameni filosofici o d'effondere la sua nell'anima loro. Non soltanto amicizia traspira da esse, ma addirittura amore — un amore talvolta vivissimo, ardente, soavissimo sempre. E la politica, la guerra e la pace vi hanno la parte del leone, naturalmente.

III. Legato alla corte di Costantinopoli.

Benché non toccasse ancora la trentina, il discendente d'Euristene, non solo s'è già fatto notare dai concittadini, ma gli stessi responsabili della cosa pubblica gli han messo gli occhi addosso, per una missione importante e delicata. Le cose della Pentapoli — per le ragioni avanti accennate — volgono al peggio : il giovine imperatore Arcadio, di qualche anno più giovine di Sinesio (nato nel 377, premortogli nel 408) là in Bisanzio ha troppe cose cui pensare e provvedere, per pensare e provvedere sufficientemente a quelle della Pentapoli : bisogna andare a attrarre la sua attenzione anche su quest'infelice Paese.

L'assemblea provinciale di Cirene scegli Sinesio. Egli s'imbarca nel 399, e, certo, un animo aperto come Sinesio, in procinto d'avviarsi per una missione diplomatica alla corte imperiale, non avrebbe mai fatto « come le rondini, che si frammischiano quasi in amiciza con gli unomini con la voce e lo stridio, me emigrano in amiciza con gli unomini con a voce e lo stridio, ma emigrano al fratello Evozio amatissimo in quella circostanza ?

Comunque, la lettera non c'è.

Ce n'è, invece, un'altra che accenna le circonstanze drammatiche della sua partenza. Era il periodo in cui il terremoto — di cui Sinesio scriverà anche in sèguito — terrorizzava e devastava la Pentapoli. « Di giorno, spesso, la terra si scoteva, e qua e là gli uomini correvano alla preghiera : i più, chini, perché il suolo traballava. E io — dice Sinesio — pensando che il mare e l'altomare fossero più sicuri della terra, correndo, mi affrettai verso il porto, senza dir nula a nessuno eccetto che al beato Fozio, chiamandolo da lontano e per cenni significandogli che stavo per andarmene.

Colui che lasciò, senza nemmeno salutarlo, il Console e amico Aureliano, fu già di ciò scusato presso il mésso Asterio, e la cosa andò appunto così » (lettera 61).

Non subito — come ci s'aspetterebbe — ma solo dopo una lunga e tediosa attesa ammesso, il giovine legato, alla presenza

dell'imperatore, con franchezza ammirabile e più ammirabile maturità filosofica e politica, intrattiene il sovrano e la sua corte, che dovettero stupire, a sentirlo.

Preannuncia, all'imperatore e agl'imperiali assessori, ch'egli non indulgerà a lusinghe, ma, nell'intento di giovare all'impero, a chi lo regge, alla Pentapoli e alla città che l'invia, parlera francamente.

« Mi manda a te — per incoronare d'oro il tuo capo e l'animo tuo di filosofia — Cirene, città greca, antico e venerando nome, celebrata una volta da infiniti carmi di sapienti, ora povera e umile, cumulo di deserti ruderi, che abbisogna della regia munificenza, s'essa vuol fare qualcosa che non sia indegno di quella sua origine » (Il regno, Op. omn. 2).

Accennata la grandezza dell'impero all'augusto auditore lasciato dal padre Teodosio il Grande, Sinesio tratteggia il profilo del re ideale, arditamente esortando Arcadio a esserlo, evitando ogni debolezza e vizio, impegnandosi all'acquisto delle virtù che fanno un sovrano amabile al popolo, temuto da nemici, valoroso in guerra, ammirabile in pace.

La filosofia, dice Sinesio, insegna come divenire e poi conservarsi tali.

Ma il legato è là per volgere l'animo del sovrano verso la Pentapoli. Sinesio ne è ben consapevole : il suo discorso si fa più vivo animato appassionato.

« ...Tu, imperatore, sii colui che rinverde l'antica felicità, e dàcci un capo che di nuovo amministri l'impero. Ché, la situazione in cui siamo, per ignavia, non può continuare così, né può progredire in meglio. Ora infatti tutti sono al comando, e abbisognamo dell'aiuto di Dio e dell'imperatore, che spezzi questo destino dell'impero romano : destino che, ordito da tempo, sta per venire in luce ... che sta per compiersi, se con sapiente e forte imperio non venga scongiurato... (loc. cit. 21).

E, con il pensiero alle varie cause dei gravi mali della Penta-

poli, il legato prosegue : « ...Il re deve intrattenersi spessissimo con i soldati... che Platone paragona ai cani. Ma nemmen Platone mette fra i cani i lupi... per non mettere in pericolo i greggi, che ai cani s'affidano... Così, nemmeno il legislatore deve dare le armi a coloro che non son nati sotto le leggi del Paese né ivi s'educarono. Ché, un audace o uno che prevede l'avvenire, bisogna che non abbia a temere, nelle ore critiche, al vedersi attorno una numerosa gioventù formata da leggi straniere, che s'attiene a costumi che le son propri, esercitarsi nelle cose della guerra — ma simili uomini non dànno nessuna garanzia di benevolenza —. Infatti, o bisogna credere molto sapienti simili legislatori o, se saggiamente disperiamo ch'essi sien tali, dobbiamo pensare che su la repubblica stia, sospeso a funi tenuissime, il sasso di Tàntalo ... » (loc. cit. 21-22).

Coloro, infatti, invaderanno — prosegue Sinesio — la repubblica non appena parrà che i loro sforzi sieno per aver successo. Di tali cose già ci sono preludi e scaramucce : alcune parti della repubblica s'infiammano per tumore, come membra del corpo quando elementi estranei non riescono a fondersi armoniosamente a sanità del medesimo. E, come si dice essere dovere del medico asportare o espellere quanto è estraneo al corpo, così è dovere dell'imperatore allontanare dalla città quanto le è estraneo...

Ma non sostituire a queste, forze contrarie; indulgere a quelle che, come fossero nostre, chiedono licenza, e lasciare che gli altri che son nel paese si occupino in altre cose, che altro è se non agire da uomini che s'affrettano verso la rovina ?

Anziché permettere che portino le armi gli Sciti che si trovan qui, bisogna chiamare dai campi amici coloro che li difendano, fino a che — staccato il filosofo dalla sua scuola, l'operaio dal venal lavoro, l'avvocato che prezzolato v'esercito l'arte sua dal fôro, la plebe ignava come i fuchi che oziosamente indugia nei teatri — non li avremo persuasi a agire seriamente, prima di passare dal riso al pianto...

Come in famiglia, così anche in repubblica, la protezione e la difesa tocca ai maschi, la cura e la sollecitudine per le cose dome-

stiche alle femmine. Come mai, allora, si tollera, da noi, che i maschi sieno stranieri ? e non è anche più turpe che gli uomini cedano altrui un impero floridissimo per gloria e gesta guerresche? Io mi vergognerei d'aver da essi qualcosa in prestito pur se riportassero moltissime vittorie a nostro vantaggio.

Io sento e so

infatti (quel che è noto a ognuno che pensi) che, pur senza che se ne dia l'occasione, costoro — maschi e femmine, non fratelli né cognati (nostri) — vorranno prima o poi dominare su i cittadini, e un giorno gl'imbelli s'azzufferanno con coloro in lotta armata.

Perciò, prima che s'arrivi colà, verso dove già siamo incamminati, i romani devono rianimarsi, riassuefarsi a poco a poco a usare per conto proprio delle vittorie, in modo da non tollerare il consorzio di coloro, allontanando recisamente da ogni categoria tutto ciò che è straniero. Sieno quindi allontanati anzitutto dalle cariche, sieno esclusi dagli onori del senato coloro cui finora furono di vergogna le cose proprie dei romani e che sembrano bellissime.

Penso che la stessa consigliera Temi e il dio che preside alla guerra si nascondano per vergogna, ogni volta che un uomo vestito della pelliccia barbarica guida alla guerra quelli che portan la clàmide, o ogni volta che qualcuno, deposto il mantello di pelle in cui s'avvolgeva, indossa la toga e, avuto dal console il seggio, gli uomini genuini sedendo dietro di lui, sentenzia dello stato delle cose con i magistrati romani. Essi poi, appena usciti di curia, riprendendo i loro vestiti di pelle, deridono la toga — s'erano stati fra i còmiti — dicendo che male, con essa, si stringe la spada.

Come di molte altre cose, di questo specialmente io assai mi meraviglio (**loc. cit. 22-23**).

I barbari — continua il legato — sieno servi, come di solito fra noi : non compartecipi degli uffici e delle cariche e delle armi. Da servi, anzi da schiavi, al tempo di Criso e di Spartaco, i romani ebbero ben gravi danni, una volta ch'essi si rivoltarono e, armati, insorsero. E, come allora, anche adesso...

Bisogna perciò distruggere questa minaccia e tener lontana quest'occasione malefica, prima che la frattura allargandosi appaia e l'animo ostile degli ospiti si manifesti con maggiore evidenza... Così fece il tuo augusto padre Teodosio il Grande. Imitalo... ...se tu m'ascolti, questo che è difficile, apparirà facilissimo, accrescendo il numero dei soldati, i loro vantaggi, rianimandoli, e, organizzati gli eserciti nostri propri, aggiungili all'impero, da cui furono staccati. Omero attribuisce agli uomini più eminenti come cosa eccellente questo :

Grandissima suol essere l'ira d'un principe divino.

Animo, dunque, ci vuole contro quegli uomini, e o coltiveranno d'imperio la terra, come una volta, deposte le armi, i messeni servirono gli Spartani; o riprenderanno la fuga per la stessa via, e annunceranno a coloro che abitano oltre il fiume che i romani non sono più remissivi, ma che loro duce è un giovine coraggioso, un uomo fiero che nessuno più biasimerà. (loc. cit. 24-25).»

Mentre svanisce l'aureola che intravvedevamo attorno al capo dell'eloquente oratore là nel fasto 'cortese' bizantino, Sinesio ci riappare nella concretezza sua e dell'ambiente e del tempo.

Nella Pentapoli, alla sua partenza, il terremoto : in Tracia, qui a Costantinopoli (come si chiamava Bisanzio, dal 330, quando Costantino vi trasferì da Roma la sede dell'impero) a Costantinopoli il legato trovò i rigori del freddo.

In attesta dell'udienza o delle udienze imperiali — ci riferisce egli stesso — dovette « dormire davanti al gran padiglione del tribunale » : per difendersi dal freddo comprò un gran tappeto egiziano, « non da mettere sotto alla sovracoperta, ma che poteva esso stesso servire da sovracoperta ».

Uno degli scrivani, Asterio, vede il tappeto : se ne innamora : lo chiede a Sinesio, e Sinesio — riferisce — « Promisi che glielo avrei lasciato in dono alla mia partenza, ché, non potevo, mentre combattevo con le nevi della Tracia, lasciare un tale oggetto ».

Rientrato in patria, Sinesio si ricorda della promessa, e scrive

all'amico Pilemeno — evidentemente residente in Costontinopoli— pregandolo di darglielo e di presentare le scuse. E, perché il destinatario del dono possa essere individuato, Sinesio lo descrive all'amico : « Egli è siriano di nazione, è nero di colore, macilento nel viso, di statura media. Ha delle case presso la reggia, non pubbliche ma rasenti quelle che, già di Ablavio, ora sono di Placidia sorella dello imperatore... » (lett. 61).

Come si vede, il lungo soggiorno costantinopolitano ha resa familiare al legato anche un po' della topografia della città.

IV. Prime opere letterarie.

Intanto, dopo la **Cinegetica** e **Il regno**, veniamo a conoscenza d'un'altra opera letteraria di Sinesio.

Quale ?

Per ingraziarsi un alto personaggio, durante il soggiorno presso la reggia di Arcadio, Sinesio — valendosi delle cognizioni astronomiche e, per dir così, cartografiche acquisite, e coadiuvato dalla coltissima sua maestra Ipazia, per quel che riguarda l'esecuzione tecnico-artistica commettendola « a mani abilissime a lavorare l'argento » — fece un astrolabio e lo donò al mecenate, accompagnandolo con uno scritto : **Discorso circa il dono dell'astrolabio a Peonio (Op. omn. 306-312).** Il breve scritto à, insieme, elogio del sapere, specialmente astronomico, descrizione dell'oggetto, inseritivi alcuni versi didascalici.

Della legazione, poi, lo stesso Sinesio, scrivendo, anni dopo, a Ipazia [e, con due altre opere inèdite, inviandole copia del **Discorso** or ora citato e precisandole che Peonio era « un uomo che poteva molto presso l'imperatore» (lettera 154)] afferma: «E da quel libro e dono qualche utilità la Pentapoli la conseguì » **(ivi).** Ciò malgrado che «Arcadio, allora poco più che ventenne, di carattere debole e fiacco, succube della moglie e del prefetto del pretorio fosse assolutamente incapace di comprendere, nonché di seguire, i virili consigli del filosofo di Cirene » (F. Valori **op. cit.** 64).

Siamo al 402 : il trentenne legato lascia Costantinopoli, rientra in Cirene, ove l'accompagna il ricordo e l'amicizia d'illustri uomini colà conosciuti, che gli saranno d'aiuto nella vita avvenire, così intecciata al turbinio politico-militare della Pentapoli.

Provenienti dalla regione sirtica (la duplice grande insenatura che la costa settentrionale dell'Africa presenta proprio di fronte alla Sicilia e precisamente fra il 10° e il 20° meridiano) una tribù ignota agli storici e ai geografi antichi, gli Ausuriani, penetrati profondamente nelle rotte e boscose regioni cirenaiche dell'Wadi el-Kuf, di là si spargevano nelle fertili e ancora relativamente popolose zone dell'altipiano — nel cuore della Pentapoli (F. Valori op. cit. 65; Enciclop. Ital. voc. **Sirti**).

Immune — per il suo distacco dalla stessa Tripolitania e dalle altre regioni sempre più all'ovest dell'odierno Maghreb — immune dalle grandi invasioni e dei Vandali e dei Goti che v'infuriarono, e anche da «una guerra vera e propria», la Pentapoli fu afflitta e devastata e insanguinata da queste strne tribù: gli Ausuriani, i Batti, i Maceti; oltre che dagli Andronico e suoi simili, perché s'avverasse l'antichissimo oracolo :

Le cose della Libia rovineranno per la cattivèria dei duci.

Contro queste minacce bisognava predisporre piani politico-militari. Il reduce dalla corte bizantina dovette ripetere nell'assemblea provinciale di Cirene quanto aveva sostenuto alla presenza d'Arcadio e quanto, maturato attraverso la riflessione e l'evidenza, si potrebbe dire il credo politico sinesiano.

Occorre, per salvare la patria pericolante :

— porre ogni sollecitudine e impegno nello scegliere a guida della Pentapoli uomini probi (lett. 73);

— allontanare dal governo coloro che calpestano ostilmente le leggi (**ibid.**);

— cacciare coloro che, violando le leggi, riducono in propria balìa la propria patria (**ibid.**);

— mandar via dal governo coloro che spillan denaro dai cittadini, come da campi ipotecati (ibid.);

— non dare le armi ai non nati né educati sotto le leggi del Paese (Il regno loc. cit. 22);

— riportare le città libiche sotto l'amministrazione del prefetto d'Egitto (lett. 95);

— organizzare un esercito di soli elementi nativi e accrescerlo numericamente e equipaggiarlo convenientemente (Il regno loc. cit. 26).

Queste cose Sinesio propugnava da tempo e propugnerà sempre e le ridiceva in assemblea provinciale: ma qui e fuori c'erano i senatori Giuli a osteggiarne la realizzazione. Guide idonee al governo : proprio queste mancarono, allora, quasi sempre. Un esercito quale lo sognava e per il quale parlava e operaraval Sinesio : anch'esso mancava, e Andronico, intanto, mercanteggiava la suprema carica della Pentapoli e, ghermìtala... vedremo che ne farà.

V. Dum Cyrenes consulitur...

I nefasti preludi di sciagura che Sinesio aveva denunciati alla presenza d'Arcadio (Il regno loc. cit. 21), per l'opposizione a quanto egli proclamava nell'assemblea provinciale cittadina o per l'ignavia con cui si procede nel tradurli in realtà, hanno sciagurato seguito.

Scrive Sinesio al confidente fratello : « Miseremente, così anche da noi... abbiamo abbondanza soltanto d'annunci infelici da trasmetterci vicendevolmente. Ecco, infatti, i Batti ci hanno saccheggiato, hanno fatto scorrerie in Aprosili, hanno incendiato le aie, hanno devastato i campi, hanno trascinato in ischiavitù le donne. Né si risparmiano in nessun modo i maschi, sebbene prima si fosse solleciti di prender vivi i ragazzetti. Ma, penso, ora sentono d'essere numericamente insufficienti per assegnare troppi custodi alle prede e per sottrarre alla guerra, in caso d'irruzione, quanto è rimasto.

E nessuno di noi si sdegna, ma ce ne stiamo comodamente a casa, aspettando aiuto dal fico, cioè dal soldato, e abbiamo in bocca gli agi della pace e lo stipendio, come se con coloro si dovessero scambiare opinioni, e non cacciarli. Non la smetteremo dunque mai di gingillarci ? non cominceremo mai a aver giudizio e, di coloro che coltivano la campagna adunato un esercito, a opporci ai nemici, per le mogli, per le nostre case, anzi, per gli stessi soldati ?

Bellissime cose a dirsi in tempo di pace, queste : che noi li difendiamo e nutriamo !

Ma queste cose io non le dico soltanto stando a cavallo, ma ho costituito coorti e centurie che bastino al momento. Mi si aduna a Ausamante un numero di soldati di cui non ci sarà da pentirsi : ho infatti fissato ai Soefti il giorno in cui devono essere a Cleopatra. Spero che non appena cominceremo a avanzare, e si saprà che intorno a noi è raccolta un'eccellente schiera, ci saranno molti di più dei chiamati : affluiramo d'ovunque, i migliori certamente per cogliere parte almeno d'un'impresa illustre; i pessimi, poi, a strappare le spoglie » (lett. 125).

Oltre i pessimi, accorrenti a strappare le spoglie, nel certo pittoresco esercito che Sinesio s'ingegnava di mettere e tenere in piedi e allenare alla guerriglia di resistenza contro gl'improvvisi e imprevidibili attacchi nemici, non poteva mancare qualche **miles gloriosus** di plautina memoria. Non mancò, infatti, e Sinesio medesimo pare si diverta a riferirne le ridevoli gesta.

Scrive infatti al fratello : « E' dovunque molto iniquo che gli stessi uomini tu li veda in tempo di pace audaci, in guerra ignavi. Perciò mi sembra che di questo si debba essere grati alla guerra : che è il miglior modo per provare qual sangue ciascuno ha attorno al cuore : e moltissimi che ci sono andati arroganti ce li rende più moderati : ché non credo che d'ora in poi scorrazzerà più per la piazza superbamente quel feroce Giovanni, né attaccherà col pugno, né molesterà con calci alcuno più modesto.

Ieri un tale dimostrò vero quel proverbio o oracolo — davvero è un oracolo, come tu ben sai : —

Nessuno, che non sia Cinedo, cura i capelli.

Per alcuni giorni s'annunciò un'improvvisa incursione nemica e il tribuno aveva condotto fuori ordinatamente i Balagriti. Poi, uscendo in campo apertó, ci coprimmo. Quella non comparendo, ciascuno di noi se ne tornò a casa, essendosi convenuto che saremmo stati presenti il giorno dopo. Intanto Giovanni il frigio non c'era affatto — voglio dire che non appariva manifestamente, ma spargeva voci : che nel frattempo s'era spezzata una gamba e che gli doveva essere amputata; che a volte era asmatico e, alle volte, che gli era successo qualcosa di grave. Così avevamo qua e là alcuni portatori di novelle : l'uno diceva di venire da un luogo, l'altro da un altro, affinché non si sapesse con certezza dove fosse rimasto sotterrato o dove si nascondesse Giovanni.

E, raccontando, deploravamo l'inopportunità di questa calamità, e lacrimavano. « Ora, ci sarebbe stato bisogno del tuo audace spirito ! ora, della tua mano ! Che cosa avrebbe fatto ? che cosa sarebbe accaduto?» — E intanto, oh infelicità del fato!, mentre ciascuno aveva detta la sua e battute le mani, si ritiravano.

Essi eran del numero di quelli che presso di lui venivano educati a nulla di buono : capelluti anch'essi, senza niente di sano,

E che apertamente solevano rapire agnelli e capretti.

E, perdio, talvolta anche delle donne : un simile manipolo, mise insieme, col quale nemmeno si sforzava d'apparire uomo, ché sarebbe difficile; ma astuto com'è, provvide a che si vedesse che è virile di animopiù degli altri, che tali sono davvero : ma a me pare che la sorte contrasti egregiamente i suoi progetti.

Avendo già avanzato con le armi per tanta parte della giornata, mentre i nemici saccheggiavano i campi della provincia, colui — ormai disperando del tutto del loro arrivo, in quanto non avrebbero mai osata penetrare nell'interno — accorre e di nuovo empie ogni cosa di scompiglio.

Nessun cenno più di malattia, anzi derideva coloro che avevan sopportato di ascoltare ciò, e diceva ch'egli era di ritorno da non

so qual lontano paese, d'essersi scosso per portare colà il suo aiuto: per questo solo eran salvi i campi di quelli che l'avevano chiamato e i nemici non avevan fatta irruzione, perché percossi dalla fama dell'arrivo di Giovanni. Una volta messa ogni cosa al sicuro, diceva ch'era subito corso là, in quella parte della provincia ch'era oppressa.

Egli aspettava, se tra poco, celandosi la sua presenza, non divulgandosi il suo nome, venissero. D'improvviso perciò turba e confonde ogni cosa, immischiandosi maldestramente nell'ufficio di duce, e promette che presto darà d'arte di vincere. Di tanto in tanto urla: — di fronte! in falange! a corno!; — e ripete : — in ordine bislungo ! — gridando parole d'ordine senza saperne il significato. Per questo a qualcuno parve ch'egli fosse qualcuno, ne lodavano l'indole e desiderano d'essergli discepoli.

Già si faceva sera e s'avvicinava l'ora d'attaccare, perciò, dipartitici in breve dai monti, ci allontanammo, quando quattro adolescenti vestiti da contadini, gridando a squarciagola, s'affrettano a corsa verso di noi, sì che non c'era bisogno di profeta per indovinare ch'essi paventavano i nemici e frettolosamente volevano mettersi in salvo presso l'esercito.

Prima d'aver finito di sentirli annunciare che i nemici eran vicini, vediamo degli omarini miserabili a cavallo che, a quanto pareva, si reggevano a guida della fame, preparatissimi a affrontare, per i nostri beni, la morte.

Avendoli visti e essendo stati visti, prima che si venisse al lancio dei dardi; alcuni, scesi da cavallo, s'accingevano alla battaglia come di solito, e a me parve ottima cosa imitarli, in ciò. Il luogo stesso non era idoneo al cavalcare.

Ma quel magnanimo disse che non sarebbe mai venuto meno ai diritti dei cavalieri, ma avrebbe attaccato battaglia equestre.

Che fa dunque ? Tôrti violentemente i freni, voltandosi, con quanto impeto poteva, fuggiva, insanguinando il cavallo, rilasciate del tutto le briglie e spronando a tutto potere, e intanto l'incitava

col suono della voce e di sempre più frequenti nerbate. In tutto ciò è difficile dire se uno avrebbe lodato più il cavallo o il cavaliere : ché, quello era portato, sia attraverso poggi e balze, sia attraverso l'intreccio degli alberi, sia attraverso il terreno brullo. D'un salto varcava fossati e s'elevava su collicelli. Credéo che perfino ai nemici un simile spettacolo riescisse elegante, e moltissimi vorrebbero vederne di simili.

E tuttavia, per quanto stette in noi, non si rideva, ma, com'era giusto, fummo con l'animo più angustiato, molto disillusi nella speranza che avevamo riposto in questo ricciuto. Perciò riordinammo la schiera, come in attesa d'essere aggrediti, senza però deciderci a avventurarci noi stessi alla guerra. Ché, anche chi era valoroso e forte, riguardando il recente esempio, diffidava del commilitone.

E nulla pareva intanto più turpe dell'immobilità in cui ciascuno stava: così noi si stimava meglio uscire in battaglia. Ma non so se lo stesso avessero in animo i nemici. Ché, sebbene schierati, ci attendevano, come per resistere se attaccati. Dopo che da nessuna delle due parti fu attaccata battaglia, prima essi alla sinistra, poi noi ci volgemmo all'altra parte dello schieramento, né gli uni né gli altri accelerando il passo ma con andatura molto lesta, affinché questa ritirata non sembrasse una fuga.

Poi, sebbene fossimo a questi punti, ci chiedemmo però dove mai fosse Giovanni. Egli, d'un soffio arrivando fino a Bomba, s'era nascosto in una grotta, come entro agresti mura.

E' Bomba un monte concavo, che arte e natura cooperando resero castello fortificatissimo. Già anticamente, a ragione, celeberrimo, alcuni lo paragonavano ai cuniculi egiziani. Ora poi, a giudizio di tutti, supera tutti i muri e le fortificazioni ché, colui, più d'ogni altro provvidentissimo per proprio conto, per non dire, scioccamente, paurosissimo — che è la parola giusta — colà sta nascosto per la sua salvezza e preferisce quel monte a tutti gli altri. L'ingresso è sùbito tôrto in curve e giravolte, difficili da descrivere, ma proprie alla fuga di Giovanni » (lett. 104).

Non certo per merito di simili eroi, né per la saggezza del senatore Giulio, né per l'energia dei conti o dei duci predecessori dello sciagurato Cereale — così insignificanti, costoro, che di essi non sopravvive nemmeno il nome — possiamo ben dirlo : per merito di Sinesio e degli arditi uomini da lui fatti soldati, « la situazione » ai primissimi del 400 » lentamente andò migliorando e sebbene i barbari non fossero definitivamente battuti, le loro incursioni divennero meno frequenti. E ciò era logico perché, ripetiamo, non si trattava di un'invasione vera e propria, ma di incursioni di predoni, imbaldanziti dalla debolezza e dalla pusillanimità delle guarnignioni bizantine» (F. Valori op. cit. 66).

VI. Ritorno di Sinesio in Alessandria.

Forse proprio per questa temporanea calma e relativa garanzia d'un periodo di tregua; forse perché bisognoso d'un po' di riposo; forse per perfezionare i suoi studi; forse per ragioni sentimentali — probabilmente per tutte queste regioni — Sinesio tornò in Alessandria.

Del viaggio riferisce in una lettera al fratello: «Partiti allo spuntar del giorno da Ficunte, sul far della sera approdammo in un golfo del Mar Rosso, ove sostando quel tanto che fu necessario per attingere e bere acqua (nello stesso golfo spicciano sorgenti d'acqua pura e bonissima) protetti dagli Scàrpanti sovrastanti, di nuovo navigammo al largo. Il vento spirando moderatamente e sempre da poppa, pensando che, anche perdurando il giorno, non avremmo fatto molto percorso, assai audacemente tirammo innanzi. Di lì a cinque giorni, vista lontano una fiaccola posta in cima a una torre a segnale per i naviganti che approdano, più rapidi che non si dica, sbarcando, arrivammo all'isola di Faro : un'isola sterile, ove non c'è né selva naturale né frutto alcuno, ma solo un po' di sale (lett. 51).

L'isola di Faro è prossima alla spiaggia d'Alessandria : la torre accennata è il celebrate faro eretto da Tolomeo Filadelfi, alto circa 150 metri, recante l'epigrafe : **Sòstrato di Cnido, figlio di Dexifane, per chi naviga sul mare.**

In Alessandria è facile pensare gl'incontri con l'elemento studentesco e culturale; gl'intrattenimenti con l'illustre e affezionata maestra di filosofia Ipazia. Chissà ? forse proprio nell'ambiente studentesco o culturale l'ex-studente di filosofia neoplatonica scelse colei che fece sua moglie.

Perché in questo suo secondo soggiorno alessandrino Sinesio si sposò.

E' strano che nel folto epistolario Sinesio riserbi a sua moglie soltanto fuggevoli e rari accenni.

Ma, tornando un passo indietro — come direbbe un narratore popolare — chi accompagnò Sinesio nel suo viaggio verso Alessandria e nel suo soggiorno o parte del suo soggiorno colà ? Parrebbe, da una lettra all'amicissimo Erculiano, che questi sia uno. Infatti, si legge in essa: «Se Omro dice che dell'errare d'Ulisse questo fu il vantaggio : vedere città, conoscere i costumi di molti uomini, e specialmente avvicinando non già gente colta e aggraziata ma i Listrigoni e i Ciclopi : senza dubbio la poesia avrebbe celebrato mirabilmente la tua e mia peregrinazione, attraverso la quale ci fu concesso d'esperimentare cose che, udite per fama, sembravano incredibili. Infatti noi stessi fummo uditori della guida dei sacerdoti della filosofia » (lett. 137) : evidente allusione, quest'ultima, alle lezioni della maestra di filosofia Ipazia.

L'amore del sapere, la compagnia d'un illustre e grande amico (e non sarà stato solo), i frequenti e dotti colloqui con l'illustre figlia di Teone, dottissima in matematica e astronomia, oltre che in filosofia; e poi lo sposalizio... tutto ciò dovette rendere fugace il tempo che Sinesio restò in Alessandria che, dall'accenno contenuto in una lettera all'amico Troilo, pare un biennio : « Quando tornai dall'Egitto in patria e lessi tutte assieme le tue lettere di tutto un biennio versai su quei fogli di molte lacrine » (lett. 123).

Raccomandando, in un'altra lettera, una non oscura persona al fratello, scriveva, Sinesio : « Questo senatore è della medesima città in cui nacquero i miei figli. In certo qual modo tutti quelli

d'Alessandria noi dobbiamo rispettarli e onorarli come concittadini » (lett. 18).

« ... Alessandria ... la città in cui nacquero i miei figli ... ». E' risaputo che Sinesio ebbe tre figli (F. Valori **op. cit.** 69; P. Francesco Rovere **Sinesio di Cirene Vescovo di Tolemaide Metropolita della Pentapoli Libica** 1940, 11; lettere **passim**). Che Sinesio abbia qui usata un'iperbole, dicendo « i miei figli » per dire uno di essi ?

L'attività politica e militare di Sinesio, i suo viaggi, la vita familiare avviata non devono farci dimenticare Sinesio scrittore : ché, come tale, specialmente, egli sopravvive alle infinite persone e cose che i quindici secoli e mezzo corsi da lui a noi travolsero e seppellirono nell'oblio.

Il suo secondo soggiorno alessandrino dètte un altro frutto dell'insonne ricerca filosofico-storico-politico-letteraria di Sinesio : **il Dione o proprio modo di vivere** (Op. omn. 33-62). L'opéra precede la nascita del suo primo figlio : « Questo avevo a dire di Dione a quel figlio che finalmente mi nascerà » (**Dione** loc. cit. 41). Appunto perché il figlio nascituro abbia — come il padre del libro e suo — una norma di vivere quale si conviene a un discendente degli spartani, Sinesio rievoca la vita e le opere del grande filosofo e oratore del tempi di Triano (+ 117).

Questo, dunque, il tempo approssimativo dell'opera e il suo fine remoto, Sappiamo però anche il suo fine prossimo : dalla lettera indirizzata alla maestra di filosofia, contassegnata col numero 154. La riferiamo perché ci fa conoscere sempre meglio questo grande scrittore e più grande uomo.

« Quest'anno ho pubblicato due libri : l'uno, mosso da Dio; l'altro, dagli oltraggi degli uomini. Infatti, alcumi che portano la palandrana candida, altri che la portano scura, cianciavano che io pecco contro la filosofia, perché nelle parole io cerco la venustà e l'armonia, e perché non nomino mai Omero né le figure proprie dell'artificio oratorio : come se il filosofo debba essere odiatore delle lettere, teso soltanto all'investigazione delle cose divine. E coloro sono ben contemplatori di ciò che si comprende con l'intel-

ligenza : a me dunque non è lecito sottrarre alla vita qualche parte di riposo per limare la lingua e per ricreare di qualche ilarità la mente. E son condotti tant'oltre da dirmi atto soltanto alle cose ridevoli ... » (Qui Sinesio fa il già citato accenno alla Cinegetica).

Ma di essi alcuni, l'ignoranza andando innanzi all'audacia, sono più degli altri pronti a cominciare discorsi su Dio; ne' quali se tu t'imbatti, sentirai subito certe cose circa ragionamenti raccolti a vanvera, e, sebbene trattino d'altro, questi siffatti discorsi li mescolano a ciò che, penso, li interessa in particolare.

Di questo genere sono coloro che che tengono concioni nelle città — che è lo stesso che se tu dicessi il corno di Amaltea, del quale essi pensano che si debba usare—.Tu, credo, conosci questa facile e proclive razza di uomini, che biasima il generoso intento d'ell'animo. Costoro mi chiedono di passare alla loro scuola, promettendomi che, per opera loro, in breve io diverrei audacissimo nelle cose divine, tanto che potrò, poi, aggiungere le notti ai giorni disputando.

Altri che hanno miglior sentire sono anche più infelici sofisti. Vorrebbero spiccare per questa capacità, ma sono infelici in questo, che non riescono a conseguirla. Tu hai conosciuto alcuni che, spogliati nelle aule di ragioneria o spinti da una qualche altra disgrazia perché, per così dire, nel mezzodì della vita filosofassero, solo alla maniera di Platone giurando a Dio,negarono o affermarono qualcosa, affinché da prima l'ombra sembri che debba dire qualcosa d'utile e d'importante. E tuttavia la simulazione è mirabile. Infatti, quanto sussiego, càspita ! La mano regge il mento : nel resto per la gravità del volto superan l'immagine di Senòcrate.

I quali poi si sforzano anche di prescriverci quei diritti, che sono utilissimi a lore: che nessuno che sappia qualcosa di buono lo insegni pubblicamente; stimandosi essi stessi ripresi, se qualcuno che sembri filosofo non sia ignaro d'eloquenza. Credono infatti di potersi celare sotto quella simulazione al punto d'essere creduti, dentro, pieni di sapienza.

L'una e l'altra specie di uomini mi calunniano, come se fossi

occupato nello studio di cose inutili: quelli, perché io non ciancio delle stesse cose; questi poi, perché non ho la bocca chiusa né ho messo alla lingua il lucchetto.

Contro costoro è stata elaborata quest'opera, che si oppone e alla voce degli uni e al silenzio degli altri. Infatti, benché vada specialmente contro quei muti e invidiosi (e ciò stesso, con quanto idonea e graziosa forma, tu pensi ?) : tuttavia essa raggiunge anche questo : come, insieme, trascinare anche quelli. Né vuol meno essere un saggio d'erudizione, che una lode.

Infatti, non ho ricusato la colpa che m'è stata rinfacciata, ma affinché si mordessero ancor più, ho trattato moltissime cose con grande impegno e con maggior ambizione.

E finalmente nel seguito stesso, investigando gli stati della vita, l'opera elogia la filosofia, come la più sapiente di tutti gli stati e le condizioni del vivere; e, che si debba pensare che tale sia, védilo nell'opera stessa.

Finalmente contiene la giustificazione dei nostri scrigni, dov'era sparsa qualche accusa perché contenevano libri non senza mende : infatti, quest'invidiosi e lividi uomini non si sono astenuti nemmeno da questo.

E ora, disposte a le singole cose secondo l'ordine conveniente, tutte spiegate con una certa bellezza e decoro, apportunamente si passa alle discussioni che premono d'ogni parte. Pur distinguendo l'opera in singoli capitoli, a imitazione di quelle del divino, cioà del Fedra — opera insieme d'ogni genere del bello, che editò Platone —; tutto però converge a un unico proposito e scopo. Se in qualche luogo la narrazione è pigra e giacente, vien però sostenuta da prove idonee; e dalla prova — per quanta ce ne possa essere in tali cose — sorge la dimostrazione e ciò che vien assunto per causa d'altro : tutto ciò fu dono dell'arte e della natura.

Se uno non è rozzo e inesperto da non conoscere una qualche sembianza divina che si nasconde sotto più vil forma (come spesso facevano in Atene gli artisti, che Venere o le Grazie o le altre bellezze di questa specie di Numi vestivano dei simulacri dei Sileni e

dei Sàtiri) facilmente egli scorgerà che in quell'opera si spiegano innumerevoli verità di cose sacre e arcane, che pur avendo apparenza di cose vuote e inutili, e a caso e, come sembra, con semplicità sparse nel discorso, facilissimamente restano oscure agli altri.

Allo stesso modo, infatti, che i rinfrescamenti che provengono dall luna sono sentiti soltanto da coloro che soffrono della malattia comiziale, così le illustrazioni delle conoscenze mentali percepisce soltano colui, in cui, avendo sano e purgato di cispositià l'occhio della mente, Dio accende il connaturale lume, il quale,a chi è dotato d'intelligenza, è causa per cui sono intellette.

Così la nostra visibile luce congiunge l'occhio con il colore, presente il quale, se tu togli la luce, la facoltà visiva di quella resta oziosa e senza attività.

Di tutto ciò attendiamo il tuo giudizio. E se poi tu decreterai che questa opera sia da presentare, sarà presentata egualmente agli oratori e ai filosofi. A costoro recherà piacere, a quelli utilità : a ogni modo, solo da te, che puoi giudicare, sarà rigettata o presentata. Che se ti sembri indegna di greche orecchie, con Aristotele mettendo la verità avanti all'amicizia, sia avvolta d'alta e densa caligine e non si faccia d'essa menzione fra gli uomini. Ma di questo or basta.

Un'altra opera, scritta per ordine di Dio, e da lui esaminata e pesata, è stata composta per forza d'immaginazione come dono d'un animo grato. In essa si pone la discussione dell'anima affissa ai simulacri e vi si svelano alcune altre verità delle quali nessun greco sinora disputò. Ma di ciò che comporta qui dire di più ?

Tutta quest' opera fu composta in una solo notte, o piuttosto in parte d'una notte, in cui ebbi l'idea di scriverla. Che anzi in alcune parti del discorso, quasi due o tre volte, come se fossi un altro, divenni uditore di me stesso con coloro ch'erano presenti. E ogni volta che rileggo l'opera, son colpito in un certo mirabil modo e mi suona intorno, come narrano i poeti, una certa voce divina. Se poi non io soltano sia così tocco, ma ciò accada anche a altri,

anche questo mi dirai. Tu infatti, dopo di me, prima fra tutti i greci leggerai.

Queste opere finora inedite ti ho mandato, e perché il numero sia perfetto aggiunsi quel libro **Il dono** che una volta, al tempo della legazione, scrissi per un uomo che allora poteva molto presso l'imperatore. E da quel libro e dono qualche utilità la Pentapoli la conseguì » (lett. 154).

Abbiamo qui la documentazione — oltre che del già noto e illustrato **Il dono** — d'altre due opere sinesiane : **Dione ecc. e Le visioni;** e la loro gènesi e i pregi che l'autore immaginava in essi e che l'approvazione d'Ipazia garantisce.

VII. Ritorno di Sinesio a Cirene.

Pur immerso negli studi e nel dolce clima degli affetti d'amici antichi e nuovi e della moglie e dei figlioletti, il paese natale, le tombe illustri degli avi (lett. 124), ma specialmente la minaccia incombente d'altre scorrerie — che l'inefficienza del governo della Pentapoli, nonché scongiurare, pareva attrarre — tutto ciò dovette indurre Sinesio, ai primissimi del 400, a riprendere la via del ritorno.

Avventuratamente abbiamo la narrazione di questo viaggio in una delle più interessanti e belle lettere sinesiane.

«Alzate le vele a Bendidio avanti il crepuscolo mattutino, appena sul mezzodì doppiammo Faro Mirmece, due o tre volte la nave avendo urtato contro il fondale del porto. Cio che parve sinistro presagio: e si sarebbe deciso — tratti questi primi presagi sinistri — di scendere dalla nave: ma ci vergognammo d'essere da voi tacciati di timidezza, e perciò,

già non era lecito né fuggire né trepidare.

Se ci toccherà qualche disgrazia, periremo per colpa vostra. Benché, poi, che c'era di grave nel vostro ridere, mentre noi eravamo fuori d'ogni pericolo ? Ma, come dicono, Epimeteo,

neglesse di riguardarsi ma non mancò di pentirsi :

così noi, che, mentre potevamo allora esser salvi, ora, consegnati ai littori, piangiamo in coro, e, intravvedendo per quanto era possibile Alessandria, e la materna Cirene, potendo raggiungere questa, l'abbandonammo, e non possiamo trovare quella : facemmo esperimento di ciò che speravamo non ci toccasse nemmeno in sogno.

Senti, se vuoi provare piacere : anzitutto come ci venne un supplemento nautico. Il nocchiero, gravato di debiti, desiderava di morire : dodici erano i marinai (il tredicesimo era il capitano) e più della metà, questo compreso, giudei — gente infida, persuasa di far cosa pia facendo morire quanta più gente possibile —. Gli altri erano gregari, contadini che da un anno non toccavano il remo : questi e quelli mutilati dell'una o dell'altra parte del corpo. Per questo, prima che s'affacciasse il pericolo non usavano già chiamarsi per nome ma per soprannomi d'infortunio : zoppo, ernioso, monco, stràbico. Ognuno aveva un segno, cosa che ci divertiva assai.

Nel momento del pericolo, però, non c'era di che ridere, anzi per questo gemiamo, i più di cinquanta naviganti che siamo, e quasi un quarto donne, molte anche giovani e belle. Ma non hai da invidiarci. Infatti, una cortina ci separava, e fittissima : non si sarebbe pensato più facile lacerare quel lembo di velo, di quel che tessevano a Semiramide gli antichi, simile a un muro. E non so se lo stesso Priapo non si sarebbe frenato se avesse navigato con Amarante, mentre per l'estremo pericolo che ci sovrastava non s'ebbe un solo momento di riposo.

Non appena avemmo oltrepassato il Tempio di Nettuno che è dalle nostre parti, a vele gonfie tendiamo verso Tafosiride, pericolando per Scilla, che da quanto imparammo dai libri abbiamo in abominio. Non appena l'intravvedemmo alzammo le voci, ma non prima d'essere già in pericolo prossimo : a stento la nave, spinta a forza, cessò di contrastare con gli scogli : ritratta di là, tu l'avresti vista, ora, lanciata in alto-mare per quanto era possibile, e sempre contrastando con i flutti. Poco dopo, il vento di mezzodì

soffia favorevole e subito ci toglie la vista della terra, e ci trasferiamo su navi leggere a due vele, ché, non già verso la nostra Libia, ma c'incamminavamo per altra via.

Supplicando poi, noi, e lagnandoci d'essere di tanto discosti da terra, quel Giapeto Amarante, dritto sopra-coperta, gridava feroci imprecazioni d'estrema rovina :

— Non voleremo mica via, noi; ma a voi, che temete e la terra e il mare, chi mai può dar soccorso ? —

E gli avrei ben risposto :

— O ottimo Aramante, ma no : basta d'essi usar bene. A noi non importava già di Tafosiride : vivere, noi volevamo : e anche adesso, che bisogno abbiamo dell'alto-mare ? Tendiamo, io direi, verso la Pentapoli, discostandoci da terra appena il necessario, affinché se accada qualcosa di difficile — e in mare gl'incerti sono molti : quest'incerto esiste e tale noi lo diciamo — un qualche porto ci accolga da vicino. —

Ma per quanto io dicessi non potei persuaderlo. Lo scellerato s'era fatto sordo, finché da settentrione non ci venne sopra un vento impetuoso e rese gonfi e aspri i flutti. Subitamente irrompendo rovesciò la vela e dove s'ergevano i cavalloni fece il vuoto. A stento la rabberciammo. E quell'Amarante che ci aveva indotti in tristezza e gemiti, « Tanta è l'arte del governare una nave ! » disse. « Di momento in momento m'aspettavo il vento dal mare : per questo appunto si naviga al largo. Ora che per un momento il vento chetasi, conviene navigare di traverso, per guadagnare un po' di spazio. In questo modo si naviga, ma non mica se avessimo puntato verso il lido, ché, la nave si spezzerebbe ».

Noi approvavamo colui che così parlava, finché c'era luce e il pericolo non s'avvicinava ancora : ma esso venne crescendo sempre più, con il calar della notte, ingrossando le onde.

Era la festa che i giudei chiamano la parasceve, la cui notte còmputano congiuntamente con il giorno seguente : per tutto questo spazio di tempo a nessuno è lecito lavorare, anzi, la festa consiste specialmente proprio nell'astensione da ogni fatica.

Perciò, non appena il nocchiero congetturò che il sole fosse tramontato, lasciò il timone e si buttò a terra, sì che ogni passeggero lo poteva calpestare. Non intuendo subito la ragione del suo modo di fare e pensando che così facesse per disperazione, lo supplicammo di non toglierci l'ultima speranza. Infatti, ci stavano sopra i flutti decuplicati, tumultuando con essi tutto il mare. Questo avviene quando, al cessar del vento, le onde non ancora da esso mosse, sono confidenti, ma una volta mosse validamente, resistono al crescere del vento e quando esso cade, con maggior impeto gli si oppongono.

Mi toccò usare parole grosse e grandi per far capire nella loro gravità gl'ingenti mali. La vita dei naviganti è, come si suol dire, sospesa a un sottil filo. Che se il nocchiero, poi, è anche un dottore in legge mi sai dire in che stato d'animo si dovesse essere noi... Dopo che s'ebbe capito perché egli avesse abbandonato il timone, colui se ne stava a leggere un libro. Disperando di poterlo convincere con le buone, cominciammo a usare la forza. Navigan con noi molti arabi del corpo di cavalleria e uno di essi, sguainata cavallerescamente la spada, lo minacciò di tagliargli la testa, se non riprendeva il governo del battello. Ma colui, da autentico Maccabeo nell'ossequio alla sua religione, pareva irremovibile nel suo proposito.

Finalmente, a mezzanotte, torna spontaneamente al timone. « Ora », egli dice, « trattandosi di pericolo di vita, la legge permette di riprendere il lavoro ».

A questo punto, riprende alto il tumulto, il piangere degli uomini, l'urlare delle donne. Tutti implozano cinto, invocano la protezione degli dèi, rammentano à propri cari. Unico allegro era Amarante, come se stesse per defraudare dei creditori.

Per conto mio — lo giuro per il nume della filosofia — ero atterrito da quel detto omerico secondo cui, davvero, la morte degli annegati è insieme la fine delle anime. Dice infatti egli in un punto del suo libro :

Morì Aiace ucciso dai salsi flutti bevuti :

che significa che la morte in mare è la peggiore di tutte le morti : dice infatti che nessuno, di essi, morì, ma ognuno

morendo è caduto all'inferno.

Perciò in due esequie il minore Aiace non compare mai, in tutto il dramma, come se la sua anima non fosse agl'inferi. Anzi, il fortissimo Achille, pur audacissimo nell'affrontare i pericoli, tuttavia teme la morte in acqua e la dice esiziale.

Mentre me ne sto tra me e me rimuginando tali pensieri, ecco, vedo tutti i soldati stringere le spade e, interrogati, li sento dire tra gli sbadigli : — Bella cosa spirar l'anima mentre si sta all'aperto, non già tra le onde —. Pensavo che essi ripetessero questi detti omerici spontaneamente, e vi consentivo, quando sento uno che proclama di sospendersi al collo quel che d'oro ognuno avesse. Chi ne aveva se lo mise al collo, non oro soltanto, ma tutto ciò ch'era stimabile in oro. Perfino le donne, adornandosi, davano parte de' propri ornamenti a coloro ch'eran nel bisogno, essendo state edotte di ciò antecedentemente. E questo si fa perché i naufraghi devono sborsare il prezzo della sepoltura. Chi infatti s'imbatte in essi e avrà fatto un simile guadagno, rispetterà le leggi d'Adraste, largendogli una piccola parte del molto più grande guadagno fatto.

E io, standomene seduto, rimpiangevo quell'infelice borsellino ch'era il deposito dell'ospite. Lo sa il dio tutelare degli ospiti : non già (io m'attristavo) perché mi toccasse di morire, ma perché bisognava defraudare dei denari affidatimi da quel trace, cosa di cui avrei avuto rossore pur dopo morto. Qui, dunque, morire era un guadagno, e, insieme, morire e sfuggire alla sensazione di morire.

Ciò che costituiva pericolo imminente altro non era se non che la nave era trascinata a vele spiegate : né le si potevano ammainare : ché, avendo spesso aggredito le sàrtie, eravamo stanchi e

le carrucole ci addentavano. Né più leggero timore ci assaliva di non potere — pur emersi dalla tempesta — apparecchiata notte-tempo ogni cosa, raggiungere la sponda.

Per avventura sorge intanto il giorno, vediamo il sole, giocondo come forse mai. Il vento cominciò a ammollare le funi, cominciò a essere possibile maneggiare le vele. Ci fu tuttavia impossibile sostituire una vela all'altra, ché tutte erano impegnate : adattammo perciò quella disponibile in forma di piega delle tonache, e in meno di quattr', ore approdammo a un luogo deserto, sogguardato momento per momento dalla morte : non un campo vicino, non una città, lontano circa centotrenta stadi dal coltivato. E la nave fluttuava al largo, essendo quel luogo importuoso — fluttuava, la nave, dalla parte d'una delle àncore, pur fissa all'altra : né Amarante disponeva d'una terza àncora.

Appena adunque raggiunta la terra desideratissima cominciammo a abbracciarla come una madre viva, e secondo l'usanza cantando in coro inni di gratitudine a Dio, guatammo alla recente tempesta, cui insperatamente eravamo scampati, soffermandoci ivi altri due giorni, mentre il mare continuava a infuriare.

Non potendoci incamminare verso alcun luogo non comparendo anima viva, ci riaffidammo al mare. Alzando le vele sul far dell'alba, il vento spirando propizio navigammo tutto quel giorno e il seguente : al tramonto di questo anche il vento cessò e ci ritrovammo in grande tristezza.

Bisognava bene che desiderassimo il ritorno del bel tempo, ché, eravamo al tredici del mese.

Sovrastandoci tanto pericolo, e — per le congiunzioni degli astri e per quella famosa tempesta — trovandoci in tal congiuntura che nessuno mai si ritrovò sicuro, mentre bisognava che restassimo in porto, da imprudenti, invece, fummo di nuovo trascinati in alto-mare.

La tempesta cominciò con i venti del settentrione e, per la

più gran parte della notte illune, piovve. I venti infuriavano e il mare sempre più s'agitava. Senza che io stia a ripetermi, attorno a noi accadeva quel che in simili congiunture suole accadere. Ci venne in aiuto, stavolta, la stessa grandezza della tempesta, a cominciare dal fragore della nave. Mentre, intenti alle gòmene, cercavamo d'assicurare la nave, ecco che questa, mezzo spezzata, fu per ammazzarci tutti. Non essendo noi morti, ciò stesso ci salvò. Non c'era altro modo di sostenere la violenza dei venti. Di nuovo deveniva difficile manovrare la vela, né la si poteva avvolgere. In questo modo, sbattuta da violento impeto, avanzò poi inevitabilmente e continuatamente tutto il giorno e tutta la notte : non ci accorgemmo nemmeno che per poco non avevamo cozzato contro uno scoglio che di tanto spuntava dalle onde da prender forma d'una testuggine.

Allora si levò un gran clamore di tutti e uno consigliò di gridare aiuto verso terra : il gridio si fece più grande a discorde : i marinai erano terrorizzati, noi — non sapendo perché — battevamo le mani per gioia incontenibile. Si diceva che quello era il massimo dei pericoli per tutti corsi sino allora.

Quando ormai fu giorno chiaro, uno in veste di contadino ci fe' cenno, indicandoci i luoghi infidi in cui potremmo affondare sicuramente : dopo un po' egli stesso venne, su veloce legno a due remi, l'attraccò alla nave e prese il timone. Il siriano gli cedé quell'arnese senza rincrescimento. Guidata la nave per meno di cinquanta stadi, approdò a un piccolo ma ameno porto (credo che si chiami Azario) e ci sbarcò sul lido, e noi tutti lo chiamammo salvatore e genio benefico. Poco dopo ci guidò anche, prima una, poi un'altra navicella, sì che prima di sera quel divin vecchio ben cinque ne aveva tratte in salvo in faccia a quella che fu una volta Nauplius.

Né quelle navi soltanto colui strappò in questo modo alla tempesta : altre ne furono salvate il giorno dopo, tra le quali alcune che un giorno avanti a noi erano partite da Alessandria. Ora, un'intera flotta siamo in un angusto angolo.

Cominciando poi a scarseggiare le vettovaglie, essendo noi nuovi a simili aventure né sapendo se avremmo oltrepassato il tempo stabilito, razionammo i viveri, ma non ne usavamo parsimoniosamente. E quel vecchio anche a questo male applicò un rimedio, non già chiedendoci alcunché — eppure non pareva che possedesse cosa — ma indicando degli scogli tra i quali disse che stava celato, per chi avesse voluto lavorare, il cibo per ogni giorno.

Già da sette giorni vivevamo ivi di pesca. I più robusti acchiappavano murene e locuste grossissime; i più giovani sono felici per l'abbondanza dei gobi e dei polipi. Io poi e il monaco romano Conchide facciamo buona pesca di lepidi (il lepide è un'ostrica concava che s'attacca allo scoglio che riesce a afferrare). Da prima, a dir vero, vivevamo parcamente di quella pesca : ciascuno pigliava quel che prima trovava senza che uno ne facesse parte all'altro. Intanto tutti ci trovavamo così in maggior abbondanza.

Le donne alle donne e le libiche volentieri avrebbero dato ai naviganti perfino latte di galline : offrono quanto il cielo e la terra producono : formaggio, farina, focacce d'orzo, carne di castrato, galline, uova di galline. Qualcuna offerse perfino un'ottarda (uccello, una specie di anitra) squisitissima, che al solo vederla un contadino la scambierebbe par il pavone.

Tali doni quelle donne portano alle navi, dicono poi a tutti quello che hanno in contraccambio; e gli uomini ci portano quello che hanno acchiappato acciando. Arrivano uno dopo l'altro, un ragazzo dopo un adulto, dopo un uomo un ragazzo, portandomi di quando in quando qualcosa : un pesciolino che ha pescato, uno; un altro qualcos'altro, ma sempre qualcosa di quanto di buono ha trovato tra gli scogli.

Ma non mi piace d'accettare dalle donne qualsiasi cosa — e ciò faccio per riguardo a te — per non stringere con esse un qualche patto : ché, dovendo poi confessare ciò con giuramento, non stia in forse di negare. Del resto, che cosa vieta di godere delle delizie presenti ? tante di esse dovunque affluiscono attorno a noi.

E tu di certo attribuisci a virtù questa magnificenza con cui gli abitanti son portati verso gli ospiti : ma ciò è ben lontano dal non meritare d'essere ricordato, in tant'abbondanza d'ozio. Il furore di Venere in quella regione infuria più di quel che si possa pensare : certo, esperimentano questa calamità al pari di quelli di Lenno : alle donne le mammelle si rizzano in maniera straordinaria oltre il petto, al punto che i lattanti prendono il capezzolo non per le ascelle, ma, innalzato, dalle spalle. A meno che non si dica che le abitanti d'Ammone e la terra d'Ammone siano piuttosto allevatrici di pecore che di bambini, per il fatto che a bestiame e a uomini più grossi la natura dètte anche più abbondanti le fonti del latte e perciò furono necessarie più capaci poppe o vasi.

Perciò quando gli abitanti di là, che talvolta ebbero contatti con gli stranieri, sentono dagli altri che non dappertutto eguale è la condizione del sesso, non lo credono punto : e non appena s'imbattono in una donna straniera l'accolgono gentilmente e nulla tralasciano per osservare e esaminare loro a fondo il seneno. E quel che uno riesce a conoscere subito lo dice all'altro, chiamandosi a vicenda, come si dice che facciano le cicogne. E quelle spesso accorrono allo spettacolo portando perciò con sé dei doni.

Noi avevamo per nostra comodità una servetta del Ponto che, natura e arte collaborando, avevano — più della stessa formica — fatta tronca e stretta alle mammelle. Tutte le attenzioni delle donne erano per lei e ella ne ritraeva di molto guadagno : perfino in anticipo di tre giorni le vicine più ricche se la chiamavano vicino dall'una all'altra casa. E colei era sì procace che si denudava anche.

Con questo dramma comico Dio stesso volle, per te, addolcire la nostra tragedia, e altrettanto io faccio con te con questa mia lettera.

So di essermi dilungato eccessivamente ma, come agendo in tua presenza, così anche scrivendo non mi sazio mai. Siccome dubito di poter mai più parlare con te, così, per quanto è lecito, soddisfo ora il mio desiderio. Sebbene se volessi adattare questa

mia lettra ai miei Diari che compilai con cura ci dovrei pensare su moltissimi giorni.

Vale, e salutami tuo figlio Dioscoro con sua madre e sua zia che io amo come sorelle. Fa' anche i miei migliori saluti alla veneranda maestra di filosofia a Dio carissima e al suo felice coro dalla voce divina, tra gli altri, anzitutto al santissimo padre Teotecno e al confratello Atanasio. Non dubito che tu, che hai i miei stessi sentimenti, vorrai porre fra i nostri Gaio che mi è intimo. Salutamelo con i precedenti e, insieme, l'illustre grammatico Teodosio che, essendo poeta, ce lo volle celare. Prevedendo ciò che ci sarebbe accaduto, lasciò cadere la volontà che aveva di partire con noi. E tuttavia io l'amo e lo saluto. Tu poi guàrdati dall'affidarti mai al mare, a meno che tu non ne abbia necessità, ma almeno non farlo a mente persa ». (lett. 4).

VIII. Il perfido Cereale.

Dicevamo che una delle probabili ragioni per cui Sinesio tornava d'Alessandria in patria doveva essere la minaccia incombente su la Pentapoli, d'altre, invasioni : erano le invasioni degli Ausuriani, che già conosciamo, e dei Maceti, che a un certo punto s'unirono a quelli.

Contro di essi c'erano le insufficienti milizie di Bisanzio e le truppe regolari dei Balagriti « costituite da Sinesio stesso qualche anno prima e che con tutti i loro difetti rappresentavano ormai la sola difesa efficiente del paese » (F. Valori op. cit. 67).

C'era poi — non sappiamo se dire a presidio della Pentapoli o per sua sventura — l'autorità locale.

Siamo ormai al 404. Assomma in sé, come comite, le funzioni civili e militari Cereale : un losco figuro. Infatti Sinesio, facile, a dir vero, come al giuramento così all'invettiva, anzi all'imprecazione, ne scaglia di roventi e feroci contro di lui. « Il perfido Ce-

reale malamente perisca, se non sia già morto prima della imprecazione, tant'era degno che la recente tempesta lo togliesse via di mezzo » (lett. 130).

Qual è dunque questa tempesta ?

E' sufficientemente descritta in una lettera di Sinesio a Simplicio.

« Quando ci mandasti a salutare da Cereale gli facesti questo servizio, che per cinque giorni restasse celata la sua iniquità : infatti, delle città sperarono qualcosa di buono da un uomo che Simplicio sperò non soffrisse a essere conosciuto. Ma colui subito fece vergogna, non certo a te (non sia mai che le cose tue dipendano da altri) ma a se stesso, piuttosto, e al suo magistrato; e, per non farla lunga, alla repubblica romana.

E' un uomo che lo si compra con così poco ! dispregiatore del buon nome e della stima, imperito nell'arte della guerra, importuno in pace, che da pochissimo tempo ha acquistato. Ché, come se per una qualche legge le sorti dei soldati appartenessero al duce, appropriandosi di quel che ognuno poteva avere, largiva in cambio licenze e immunità a proprio arbitrio, largheggiando nel concedere a tutti di recarsi dove speravano di poter andare. Non potendo mungere denaro ai forestieri, con i sistemi accennati lo munse alle città indigene, migrando — trasferendovi l'esercito — non dove fosse opportuno, ma dove sperava ci fosse maggior guadagno. Oppresse dal suo stanziarvi, le città davano oro.

Questo esperimentarono ben presto i Maceti; poi, la fama d'una tal cosa, dai semibarbari si diffuse tra i barbari :

Di qui, spuntavano come foglie e fiori a primavera.

Ahi, gioventù nostra malamente perduta ! ahi, proventi dei frutti invano da noi sperati ! Abbiamo seminato i campi per le

fiamme nemiche. Moltissimi di noi avevano ricchezze in greggi, in armenti di cammelli, in paia di cavalli : tutto perduto, tutto rapito! Mi sento, per il dolore, non più padrone di me stesso, ma perdona, ti prego : son cinto e assediato entro mura, e queste cose ti scrivo assediato : spesse volte il giorno, guardando le fiaccole, e accendendole io stesso, le alzo a segnale. Allora mi s'insinua nell'animo il ricordo delle lunghe cacce delle quali per molto tempo godemmo sicuri.

Tutto rovina. Spesso emettiamo gemiti, quando rammentiamo quella giovinezza, la sua sagezza, i suoi pensieri : ora tutto è calpestato dagli zoccoli dei cavalli e i nemici occupano tutta la regione in largo e in lungo. Io, appollaiato fra le torri presso le mura, combatto col sonno.

Focaccia a me astato si dà,
Bacco ismàrico in asta :
mentre m'appoggio all'asta, bevo.

Non so se non convenisse piuttosto a Archiloco scrivere queste cose.

Il perfido Cereale malamente perisca, se non sia già morto prima dell'imprecazione, tant'era degno che la recente tempesta lo togliesse via di mezzo. Egli, quando vide in quali pericoli aveva gettata la provincia disperò di tutta la terra. Portato perciò su una navicella a due vele tutto l'oro, sta all'àncora e in alto-mare : le sue lettere vengono portate sa un piccolo brigantino, ordinando ciò che noi già facciamo : che, cioè, ci si trattenga entro le mura; che nessuno esca fuori dai fossati e che non attacchiamo uomini invincibili, altrimenti — giura davanti a Dio e agli uomini — lui non ci avrà nessuna colpa.

Comanda, inoltre, di mettere sentinelle a quattro a quattro, come se tutta la nostra speranza fosse posta nel sonno. In queste

cose pare esperto, lui, assuefatto alle disgrazie e alle miserie. Benché non abbia voluto essere, con noi, partecipe nemmeno delle disgrazie. Non sta presso le fortificazioni, ma ai remi — come un Sinesio filosofo.

Perciò se desideri le poesie che mi chiedesti, benché in esse non conosciamo nulla degno di lode, fuorché l'argomento... a quando mi sarà concesso di pregare e respirare dalle armi a Cirene. Ché, nell'attuale stato di cose, non abbiamo punto tempo a tirar fuori i libri dagli armadi » (lett. 130).

In un'altra lettera, più sinteticamente ma anche più drammaticamente : « Certo, una volta visto, dosne vociferanti a percotentisi il petto a stracciantisi i capelli, o denunciate ai nemici, può sembrare più tollerabile. Benché a Platone paia intollerabile che — come le galline a proteggere i pulcini — non si osi opporsi a chiunque, anche validissimo, ma si diffonda una pessima fama, del genere umano : ch'esso sia il più ignavo di tutti gli animali.

Tu invece — scrive al fratello Evozio — tutto questo fai : di notte sei travagliato dai terrori e dalle intemperie, a balzi su, e di tanto in tanto alzi la voce, fronteggiando il barbaro sotto le porte stesse delle guarnigioni : (queste, alcune delle cose che di te mi sono state riferite) : si può dunque sopportare questo ? sebbene altrimenti bisognerebbe sopportare l'una e l'altra cosa : che colui che è mio fratello sia pauroso.

A ogni modo io, sùbito allo spuntar della luce, cavalcando il più a lungo possibile, con la vista e l'udito spio quanto posso dei ladri di bestiame. Né chiamerò nemici ma ladroni e malandrini o, se c'è, con un altro nome più abbietto costoro, che non da bravi fanno resistenza a chi il attacca, ma solamente spogliano e scannan come armento i timidi e gli storditi.

Di notte, poi, con un pugno di giovani vado attorno alla collina, dando la tranquillità del sonno alle donne, che sanno che qualcuno veglia per la loro salvezza. Sono con me anche alcuni soldati

della legione dei Balagriti. Costoro prima che Cereale comandasse la provincia eran cavalieri sagittari; dopo che costui ebbe conseguito il comando, tolti loro i cavalli, furono ridotti a semplici sagittari. E a me bastano anche senza cavalli. Abbiamo bisogno di sagittari presso i pozzi per avere abbondanza d'acqua, ché, entro le mura non ce n'è : del resto chi porrà divieto a chi accondiscende a sopportare quest'assedio con suoni di flauto e pranzi ? Bisogna, infatti, o vincere combattendo, o affrontare il nemico azzuffandosi, piuttosto che morir di sete, che è la cosa più misera che possa accadere.

Così, dobbiamo disporre d'uomini, magari adunatio a forza. E anche tu fa' in modo d'esortare gli altri, e ordina che ti sia condotto quel paio di voraci cavalli che vengono mantenuti come tributo. Nessuna proprietà, in questi tempi, può essere più utile e opportuna del cavallo. Ché, precorrere, osservare e in brevissimo tempo riferire, tutto ciò consentirà facilmente il cavallo. Se ti sono necessari i sagittari, chièdili, e subito saranno costì.

Nell'aiuto dei rematori ficuntini ci conto come in quello de' miei ortolani. Desidero pochi uomini che non ismentiscano d'essere uomini. Se m'imbatto in alcuni di questi — sia come da me detto a Dio — sarò di buon animo. Se poi si deve morire, allora utile e opportuna è la filosofia, perché non mi sembri acerbo andarmene da questo sacco di carne. Che però, di fronte alla moglie e al figlioletto, io possa restare a occhi asciutti, questo non oserò mai affermarlo. Così fosse che la filosofia arrivasse a tanto ! ma non m'accada mai di farne la prova, te ne prego, o difensore della salvezza e sella libertà (lett. 132).

IX. Delitto politico ?

Vedremo presto le tristi conseguenze militari di questo malgoverno stigmatizzato da Sinesio — l'aver cioè Cereale appiedati i Balagriti togliendo loro i cavalli, con l'immaginabile conseguente demoralizzazione di coloro che, in una guerriglia, cui è elemento

fondamentale la rapidità dei movimenti, erano ridotti a semplici sagittari —. Ma il malgoverno è spesso occasione, se non causa almeno concomitante di delitti più o meno politici, come l'esperienza storica documenta ampiamente.

Uno di questi delitti viene in fosca luce da un'altra lettera sinesiana, che viene così a datare approssimativamente da questo torno di tempo, verso il 404.

Oltre questa, indirizzata all'accusato o sospettato del delitto, Giovanni, un'altra, diretta al fratello, vi allude. Le riportiamo integralmente, quali documenti importantissimi — specialmente la prima — per conoscere l'uomo, il filosofo, il cittadino, il politico Sinesio.

« A Giovanni. Come spesso, altre volte, a tempo opportuno mi t'offersi utile a allegerirti la tua sorte o parlando o operando, per quanto stava in me, virilmente; così, non potendo ora l'opera mia, circa quanto t'accadde, mi sembra di doverti prestare il mio parere o giudizio. A Sinesio, finché egli respiri, non è permesso non essere a disposizione degli amici in tutti i modi e fin dove può.

Ascolta dunque quanto io devo discutere bellamente con te, dal momento che è fama (quella che al dire d'uno dei nostri poeti è dèa) che tu abbia ucciso il beato Emilio, non commettendo ma deliberando il parricidio. E hai macchinato addiritura un barbaro spettacolo, mettendo avanti proprio il più crudele de' tuoi gregari.

Questo attesta la fama e, essendo dèa, non le è lecito mentire. Altrimenti Esiodo scherza.

Molte cose si dicono temerariamente, e questa che di te si dice è una delle tante : e così fosse ! ché, ben più della perdita del denaro io sento quella d'un amico. E ora, se incolpevole senti dir male di te, tu sei infelice, ma non iniusto : e volesse il cielo che tu non fossi nemmeno infelice ! nel primo caso tu giustissimamente saresti odiato, in questo ti si dovrebbe compassione. Benché io mi

senta così legato a te d'amicizia e di familiarità da detestare quanto si diceva, se fu commesso, e tuttavia avendo misericordia di te.

Ora, è proprio di chi ha misericordia recare aiuto, potendo, e cercare per qual ragione egli pensi di poter giovare. Percò io devo, nell'un caso e nell'altro, fare per te quel che mi pare il meglio. Ma una medesima cosa pare giovevole a uno che abbia commesso il delitto e a un innocente.

Vedi di consegnarti alla legge e di affidarti al giudice assieme con tutti i gregari, se tu hai cura d'essi e di te. Che se hai commesso il delitto supplica, contendi, non cessare di gettarti ai piedi altrui finché per sentenza del giudice tu non sarai consegnato ai carnefici e non avrai espiata la pena. Ti sarà molto utile nei giudizi infernali, amico Giovanni, se morrai avendo prima espiato.

E non pensare che questa mia esortazione sia parole soltanto, né che io ti voglia burlare : no, per la sacra filosofia, per i miei figli ti giuro che se tu non mi fossi amicissimo non t'avrei mai raccomandato ciò che caldamente chiedo per i miei nemici :e Dio voglia ch'essi giammai abbiano questo in mente : essere meglio che affronti pene volontarie chi fece ingiuria : ma nei mali che fanno godano una certa qual perpetua felicità affinché sieno scellerati più lungo tempo e poi colà sottoposti a tutti i supplizi.

Ma a te, per la particolare amicizia oserei rivelare qualcosa d'arcano.

Non è lo stesso, scontare le pene in un corpo rozzo o in un simulacro e in un idolo : Dio infatti è più forte dell'uomo. E le cose umane non sono che un'ombra dell'amministrazione e del governo divino. Ora, tutte le crudeli forze vendicatrici della natura prestano lo stesso servizio che in uno Stato prestano i carnefici, che sono come le mani delle leggi. Alcuni demòni sovrintendono all'espiazione dei delitti, esercitando su le anime le stesse arti che i lavandai esercitano su le vesti sporche. Se le vesti fossero sensibili, che pensi tu che farebbero, quando son messe sotto i piedi,

vengono sfregate col nitro e vengono scardassate in tutti i modi ? Con questi torcimenti vengono terse le vecchie immondezze e le macchie penetrate addentro... E non sto a dire come, nel più dei casi, quelle brutture aderiscano così addentro, che difficilmente si possono fare andar via senza che le vesti, corrotte e lacere, vadano in brandelli, invece di tornare com'erano prima, per il fatto che il vizio è divenuto natura, sia ciò avvenuto per la lunghezza del tempo, sia per la sua grandezza.

Chi sia affetto nell'anima, capace di corruzione, dovrebbe comportarsi allo stesso modo. Ma i peccati in certa qual proporzione corrispondono appunto a queste macchie che non si possono tergere. L'anima non è come quella veste logora che non regge al lavaggio, ma, essendo immortale, sconta pene eterne quando si lega a una colpa illavabile che intimamente le aderisce.

Ma se uno è punito in quella vita nella quale peccò, egli non porta certo pienamente insito e inserito quest'affetto, ma — per così dire — l'anima infetta di recente presto si lava, e per questo si deve subire la pena quanto più presto è possibile, punendoci gli uomini e non i demòni.

Anzi, nei discorsi di certuni fu sentenziato — e io me ne persuado facilmente — che coloro che ricevettero l'offesa sono àrbitri del castigo e possono farlo più lunge o più breve. E similmente accade che a uno solo si reca un male grandissimio mentre a moltissimi non si fa che una piccola ingiustizia. Ciascun si vendica dell'altro e è necessario che tutti pàghino la pena.

Quando però uno è tale che può guarire, molto conta presso il giudice ch'egli già abbia sofferto spiritualmente tanto, perché possa trovare misericordia perfino presso coloro che hanno sofferto l'ingiustizia.

E quando mai, dunque, è verosimile che i beati mani d'Emilio sieno placati ? Io penso, anzi sono persuaso che a chi implora avendo già espiato si abbia ogni riguardo. Anche da noi, talvolta,

chi si faceva avanti, offrendosi a espiare, per ciò stesso che confessava la sua colpa e si dichiarava meritevole di castigo, ne fu liberato. Ma gloriarsi e in certo qual modo banchettare, delle cose con cui s'è recato ingiuria — sieno esse ricchezze o corpi — questo fa che sia più offeso, colui che ricevette l'ingiuria.

E verso dove ti volgerai, dopo che, o per una qualche violenta pena o per qualsiasi altra causa, avrai lasciato il tuo corpo, quando vedrai gli stessi mani e, non solo la tua lingua non negherà il tuo delitto, ma le tue stesse mani ne porteranno visibile e quasi scolpito il segno recente ? Non sarai allora preso dalle vertigini ? non resterai perplesso ? Tacito e muto sarai portato innanzi e messo davanti al giudice. Tu e chiunque non avrà prima, con pubblica penitenza espiato. Bisogna essere costante, forte e generoso uomo, forte infatti io ti desidero; vogliamo che, per aver mancato, tu trascuri i tuoi diletti: né ci dobbiamo vergognare degli uomini, ma bisogna confessare al giudice il delitto, e le furie vendicatrici bisogna placare con il pronto castigo.

Infatti, massimo bene essendo il non peccar punto, essere richiamato al bene vien subito dopo nell'ordine dei beni. Chiunque infatti, pur facendo ingiuria, tuttavia resta per lungo tempo impunito, costui bisogna considerarlo infelicissimo, di cui né Dio né gli uomini si curano.

Riflèttici. Essere impunito lo si dice o sente dire un male : allora l'essere punito lo si deve considerare un bene : ché, la ragione attribuisce cose contrarie a cose contrarie.

Se io ti fossi presente non ti toccherebbe questa molestia, né dovresti arrossire e ti denunceresti. Io mi ti offrirei spontaneamente per avvocato e ti condurrei davanti alle leggi come dai medici. E qualcuno forse mi chiamerebbe stolto. Tu però considereresti utile che Giovanni venisse accusato da Sinesio perché io ti perdonassi e avessi cura di te, per questo appunto accusandoti io, affinché tu, per quanto nei mali, potessi essere felice.

Ma così penso si debba fare se si è commesso il delitto, ciò che io non vorrei che fosse, per amor tuo e della città che tutta intera è contaminata per il parricidio commesso con l'uccisione d'un parente.

Se poi tu sei innocente di mano e di volontà — e così fosse !— sono allora da detestare coloro che queste cose inventano contro di te, e i supplizi che sono negl'inferi attendono anche loro : ché, nulla è a Dio così esecrabile come il fare del calunniatore che nelle tenebre infligge ferite. Essendo egli ignavissimo reca i più grandi mali, e si dice essere destinati al gregge. Cinèdi, questo essedei, tra gli altri, il loro vizio principale : ché sono anche, fra gli altri, in molte cose astuti e sagaci.

Se qualcuno venga sorpreso a diffondere false voci, non interrogare e non dubitare, ma per quanto egli ti sembi sicuro e costante, sicuramente di' ch'egli è un anfibio, un genuino seguace di Cotitone.

Ma a te si dà somma facoltà di convincere di falso il concetto che si ha di te, se tu sottoponi a giudizio te e i tuoi. Parla, offrendoti davanti a tutti. Ci sono alcuni miei calunniatori occùlti che, già condannati davanti a se stessi, tuttavia vogliono restare occulti, e intanto mettono avanti molte acerbe cose, e sembrano anche volerle dimostrare a alcuni, tanto sono astuti e abili a diffondere dicerie. Così è per i delitti per i quali tu hai mala fama, e cioè per le nozze e l'indegno parricidio.

Giacché si dice che c'è presso di te un certo Spàtalo che, da te subornato, avrebbe perpetrata quella strage. Costui porta davanti ai giudici, e sùpplicali e indùstriati in ogni maniera affinché non venga dimesso senza giudizio, né venga condannato senza che la causa sia stata dibattuta. E non allegare, o ottimo fra i duci, ché, perché nessuno ha pronunciato il tuo nome manifestamente, tu non debba ordinare che lo ti si consegni, senza che tu usi ogni genere di questioni per investigare e mettere in luce la verità.

Quello Spàtalo, di cui tutti parlano, proprio lui è l'uomo che tu devi tenere stretto, devi usare del suo corpo, se qualcosa è stato commesso, bisogna fare di lui, come di me, un accusatore. E se tu lo chiami a testimone e egli non ubbidisce, il giudice e questo stesso fatto saranno per noi da più di molti uomini. Altra cosa è s'egli si mostrerà umano e per riguardo a te vorrà adire la causa. Ivi, allora, val la pena d'istruire questa e coprire di vergogna i tuoi diffamatori e raffrenarli. Ma quello Spàtalo non lo si dovrà certo trattare a delizie, ma lo si leghi, lo si sospenda, gli si scavino i fianchi. I carnefici sono meravigliosi nel vincere la simulazione : essi hanno escogitato certi artigli dotati della forza del ragionamento delle scienze e del sillogismo. Perciò, quel che vien tirato fuori con la forza loro è verità certissima.

Se in questo modo tu sarai assolto, tòrnatene via dal giudizio vittorioso e trionfante e, sia per ciò stesso e sia per l'opinione degli uomini, puro e innocente.

Ma se tu non fai nulla di ciò che t'ho suggerito di dover fare in questo tuo caso, e non ti presenterai al giudice, allora ha visto e conosce la verità delle cose la giustizia.

Allora bisogna dire che addirittura è l'occhio di Dio quello che fa credere ogni cosa, e allora esso vide la Libia, e quella lunga valle, e quella diceria, vera o artificiosa che sia, e il cammino d'Emilio, e ciò ch'egli ha sofferto, ciò ch'egli ha detto e udito. E questo, inoltre, sa anche se tu davanti a Dio sei innocente e scevro di delitto, perché questo essecrando delitto tu non l'hai commesso né agendo né consigliando, e tuttavia tu non potrai sembrare innocente finché tu non ne sarai purgato.

E non ti stringeremo la mano né t'accoglieremo alla nostra mensa, ché, abbiamo orrore delle furie d'Emilio che con il tuo contagio tu non riversi anche su di noi la tua scelleratezza. Non ci mancano macchie domestiche, perché noi ce ne dobbiamo tirare addosso d'altrove » (lett. 44).

Quanto questo delitto offendesse l'anima integra e pura di Sinesio, oltre che dalla lettera, citata, appare da quella che, circa quello e circa coloro che v'erano, come sospetti o come spargitori di sospetto, implicati, egli scrisse al fratello. Anche quest'altra lettera va riportata integralmente.

« Giovanni (dice uno) ha ucciso Emilio; e un altro dice questa un'invenzione de' suoi nemici che governano la repubblica. Perciò, in questa faccenda, la verità la conosce la giustizia, e il tempo la rivelerà. Per me, sebbene la cosa sia tuttora incerta, penso che l'uno e l'altro siano egualmente detestabili: quello perché è tale che, sebbene non abbia commesso ciò, e fosse stato certamente per commetterlo, nemmeno sopporta un'accusa che discordi da' suoi costumi; questi poi, anche se non hanno inventato, perché erano per inventare, questo delitto sta loro benissimo.

Infatti, quando il genere di vita d'uno discordi da un qualche sospetto, se anche molti, congiurando, testimoniano, tuttavia non arrivano a provare. Se, per esempio, uno accusasse Aiace di stupro, sarebbe coperto dalle risa di tutti. Alessandro, invece, che non era Cinèdo, ma effeminato sì, è soggetto a quest'accusa.

Io poi odio Sìsifo e Ulisse perché, anche se qualcosa di vero dicessero, sono però tali che spessissimo mentirebero. Io, nella mia stessa disgrazia, sono fortunatissimo perché non ho questi amici né nemici di questa risma. Mi sia preclusa ogni relazione con tutti, né abbia io nulla in comune con nessuno di essi. Resti straniero fra stranieri. Gli stessi costumi, prima ancora dei luoghi, ci hanno separati.

Io compiango l'illustre terra di Cirene che una volta era abitata da Carneade e da Aristippo, e ora dai Giovanni e dai Giuli, con i quali opportunamente non vivendo, opportunamente peregrino.

Ma tu non mi scrivere nulla di quanto avviene costì e non mi raccomandare i litiganti, ché io non mi darei più a alcuno di essi. Infatti, io sarei ben infelice se, privo degli agi della patria che mi è

cara più d'ogni altra cosa, m'immischiassi poi in liti e faccende che mi distraessero dagli ozi della filosofia, e se avendo amata la povertà come un immenso guadagno per aver pace, m'asservissi poi gratuitamente ai comodi altrui » (lett. 50).

In queste due lettere — e in altre sue — Sinesio si rivela il discendente dei signori di Sparta, ma, insieme, uno degli ultimi romani : dei romani legislatori, codificatori di leggi e cultori della maestà delle leggi. Può disilludere, appenando, quell'apologia della tortura ch'esce dalla sua penna sdegnata : è un'ombra che non avremmo voluto vedergli addosso o, almeno, è il mancar d'una luce che avremmo voluto vedere splendere, con altre cento, nell'aureola ideale che l'incorona. Ma siamo nel Quattrocento, al tempo dello scorrazzare dei barbari, non solo per la Pentapoli, ma per tanta parte del mondo. Gli fa onore, invece, la sua convinzione dell'insostituibilità dei tribunali e della necessità dell'espiazone.

X. Ausuriani e Maceti.

Ma dicevamo delle tristi conseguenze del malgoverno di Cereale.

Quasi attratti dallo svigorito — da Cereale, appunto — esercito dei Balagriti, ecco riaffacciarsi i già noti Ausuriani che, alleati a un'altra tribù, quella dei Maceti, prendono a scorrere di nuovo per il territorio della Pentapoli, anzi dell'intera Cirenaica (F. Valori op. cit. 68).

Sappiamo già qualcosa degli Ausuriani, ma, chi erano i Maceti ? Una tribù — ora alleatasi con quelli ai danni della Pentapoli — che, presa stanza nelle oasi disseminate fra la Cirenaica e la Tripolitania, fra il 363 e il 367 aveva devastato questa : ora si volgono verso l'oriente libico (Id. ibid. loc. cit.).

E intanto nella Pentapoli il governo è inoperoso.

Sinesio lo constata con sdegnato stupore. « Proprio così ? Che si debbano vedere uomini miserabili subire spontaneamente la morte per non essere costretti a restituire ai proprietari cose, quali che siano, rubate; e noi, per le nostre case, per le cose sacre, per le leggi, per gli averi cui la lunga consuetudine ci ha assuefatti, non esporremo la vita a qualunque rischio, ma cercheremo di salvarla ? Davvero che sembreremmo uomini !

A me però, chiunque io mi sia, pare doversi andare diritti addosso a colore e fare esperimento d'uomini tanto audaci che osano insultare i romani, quali che essi sieno. Infatti, si dice che il cammello, anche rognoso, regge il peso di molti asini.

Per l'appunto, in simili circostanze, mi par quasi un morire, quell'affannarsi tanto, di coloro, per la vita; e un vivere, invece, quello di chi la vita getta allo sbaraglio. Io sarò uno di questi. Combatterò come morituro, e son certo che sopravvivrò. Io infatti discendo dagli Spartani, e lo documenta un seguito, a ritroso, d'incarichi nostri fino a Leonida. Combattendo come se si fosse lì lì per morire non morremo » (lett. 113).

Nell' « ignavia dei duci » per cui « i nemici s'impadroniscono del paese senza combattere » e restano «superstiti soltanto» coloro « che riparano in luoghi fortificati, mentre tutti quelli che vengono sorpresi in luoghi campestri vengono sgozzati come pecore », e mentre si teme che « protraendo » — gl'invasori — « la loro dimora in quei luoghi costringano alla resa moltissimi paesi per sete » — in una tale situazione il grido di Sinesio è veramente rivelatore d'una tempra romana o spartana.

Infatti, egli è già passato all'azione. «Mi hanno già fabbricato più di dieci spade a doppio taglio. Da noi non si fabbrica questa specie d'arnesi lunghi, ma penso che gli stòcchi più validamente s'affondino nei corpi nemici : perciò useremo questi. E, se ce ne sarà bisogno, abbiamo anche delle clave, ché da noi ci sono ottimi oleastri. Alcuni di noi hanno ciascuno delle scuri alla cintola, aguzze da una parte sola, con la quale percotendo i loro scudi li costringia-

mo a combattere con noi armi pari, non avendo noi nessuno schermo alle armi... » (lett. 108).

Poi, come è nell'indole di Sinesio — che ama cospargere, di tanto in tanto, di un pizzico d'umorismo o d'ironia le sue pagine austere — scrive al fratello : « Sei ameno, perché mentre i nemici occupano largaments tutto, e tutto deprèdano, e per giorni interi sgozzano il popolo in massa, e nessun soldato è presente né compare, tu ci dissuadi dal fabricare le armi. Così stando le cose, negherai ancora che sia lecito ai privati portar armi ? e dirai lecito invece morire, se la repubbllica irrida coloro che provvedono alla sua salute ?

Ma se non altro, guadagnerò questa cognizione almeno : che leggi e diritti imperano per quelle esecrande pesti.

Quanto pensi tu che io stimi, semmai io riveda la pace, un tribunale adorno e un mésso intimante il silenzio ? Che io muoia subito, dopo che la patria avrà riacquistata la prisca forma » (lett. 107).

« Dopo che la patria avrà riacquistata la prisca forma »... per ora si tratta di salvare quel simulacro che ne resta. Sinesio è insonne, a ciò. Fabbrica armi e ne chiede. All'illustre Olimpio che vuol mandargli doni, a stento vincendo la propria ritrosia a accettarne, finalmente acconsente : « ma siano doni militari : archi e frecce; queste e, insieme, lance. Degli archi intanto posso acquistarne anche altrove, o aggiustare quelli che ho già; difficilmente invece si possono aver frecce buone da usarsi : infatti, queste egiziane rigonfie a nodacci sono troppo sottili fra nodo e nodo, perciò per se stesse si rendono inutili, simili a coloro che fin dalle prime mosse sono ostacolati e inciampano.

Le nostre sono piuttosto lunghe e s'arrotondano in figura di cilindro — ciò che solo conferisce a drizzare il volo. Di queste tu mi manderai, e freni da cavalli idonei all'uso... » (lett. 133).

Per conto suo egli è all'opera, l'ora è critica. « Non sappiamo infatti, o carissimo e illustre uomo » — scrive sempre a Olimpio — « se avremo poi più la possibilità di salutarci vicendevolmente, perché... » — sappiamo bene perché. Sinesio abbozza un cenno di scusa per non aver risposto a una recriminazione dell'amico, riguardante i doni accennati. « Non ne ebbi il tempo, occupato com'ero alla costruzione d'una certa macchina. Lavoro a come lanciar dalle torri, quanto più lontano possibile, sassi di non disprezzabile peso » (lett. 133).

Ancora al fratello invia tristi annunci. « Le cose nostre erano state finora in prospero stato : ormai, sia le private che le pubbliche mi percuotono di tristezza con impeto di fiume che va e viene.

Vivo, e non già da privato, in una regione infestata, e tutti vengono a lagnarsi con me delle proprie sciagure, e molte volte il mese devo recarmi in fortezza, come se io fossi addetto a una compagnia militare e non già a elevare preghiere... » (lett. 89).

I preparativi par s'avviino a essere coronati di successo.

« A quanto arguisco » — scrive al fratello — « attaccheremo battaglia domani. Ché, essendosi, alcuni dei nemici, imbattuti nei nostri esploratori, e avendoli inseguiti con tutte le forze, quando quelli s'accorsero che i nostri erano troppo veloci per poterli catturare, ci ordinarono di rinunciare : giocondissima cosa appunto, se noi non abbiamo più da andare in giro su le tracce d'uomini che s'insinuan nelle vaste regioni del continente. E dissero ch'essi volevano restare, per conoscere finalmente che uomini siamo, noi, che non abbiamo dubitato di staccarci dalle nostre sedi in tanti giorni di viaggio, per azzuffarci con uomini bellicosi che vivono sparsi e segregati, retti da una stessa forma di governo, di campagna di guerra e d'esercito.

Perciò, siccome domani, con l'aiuto di Dio, supererò i nemici o, se così sarà necessario, li risupererò (perché non vorrei pronosticare nulla di male) affido alla tua fedeltà la cura de' miei figli :

tu che sei zio, devi trasfondere in essi il ricordo della gratitudine che ti serbo » (lett. 108).

Restiamo nell'ansia di sapere se poi ci fu la prevista battaglia, e dove, e con qual esito. Ma Sinesio, nelle sue lettere, non risponde, mi pare, a queste domande. E d'altra parte, in questo genere di guerra non esistevano battaglie decisive. Nessuna meraviglia, quindi, che possano essere successive alle precedenti le lettere che verremo ancora citando. Esse accentuano l'ansia e fanno pensare a un aggravarsi, per ora, della situazione.

Intanto Sinesio appoggia e cerca d'aprir la via a quanti intendono collaborare alla salvezza della Pentapoli. A Pilemeno raccomanda un giovine di belle speranze : «Nemmeno la tua Fraclea penso sia ignara d'Alessandro, che coltivò presso di noi la filosofia, uomo che ha viaggiato ovunque con grande gloria e stima :

Muto è colui che non abbracciò Alcide.

Il figlio di colui, mio cugino, ti consegnerà questa lettera : egli si comportò come il padre, non all'abito, ma spiritualmente. Va perciò a uomini iniquissimi, per purgare di essi la patria, come Ercole. Ebbe quindi bisogno di Dio e d'Ercole, ma anche del collega a dell'amico d'Iolao. E certo egli piegherà a sé Dio con ogni mezzo e con l'integrità della vita. Noi, poi, gli conciliamo, per quella d'Iolao, la tua amicizia per lettera. Tanto perciò tu concederai alla sua, quanto concedi alla nostra amicizia. E se userai della confidenza del giovine, dirai, senza dubbio, che io non sono stato cattivo lodatore » (lett. 150).

Ma evidentemente le cose volgono al peggio. Scrivendo all'arcivescovo e patriarca d'Alessandria Teofilo, gli dice : « Tu stesso hai cura della Pentapoli : avrai pexciò lettere dal pubblico. Ma dal latore della presente dentiraci che sono accaduti più numerosi e gravi mali di quelli che le lettere di coloro fanno temere. Costui viene per raccogliere aiuti, come par assalirli di costì : ma i nemici non hanno nemmeno atteso la partenza e prima ancora si sono sparsi per tutta la regione.

Tutto è perduto, perduto totalmente : superstiti alcune città soltanto, superstiti fino a questo momento in cui scriviamo : quel che accadrà domani, Dio solo lo sa. Perciò v'è bisogno delle tue preghiere : di quelle preghiere, voglio dire, che sogliono piegare e fare più mite Dio.

Io spessissimo, pubblicamente e privatamente, ho pregato invano. Che dico invano ? Tutto mi s'è vòlto contro. Questa è la condizione, per i molti e gravi peccati » (lett. 69).

E la descrizione dello scempio e della desolazione si fa ancora più viva e accorata. Scrive alla grande e illustre confidente Ipazia :

Se nell'Erebo affonda in oblio dei morti la vita

Io però laggiù potrò ricordarmi almeno della cara Ipazia : io, circondato dai mali della patria e tediato da essi, ché, di giorno vedo armi di nemici e gli uomini sgozzati come pecore, e respiro aria infetta dalla consunzione dei cadaveri, in attesa d'essere anch'io tale fra poco. (Chi infatti può bene sperare, mentre perfino l'aspetto dell'aria è tristissimo, riflettendo nell'animo l'ombra dei carnivori ?). E tuttavia tra questi io sia sepolto. Che posso fare, essendo africano, nato quivi e quivi contemplando i non ignobili sepolcri degli avi ? Per te soltanto mi sembra di poter rifiutare la patria, e, non appena ne avrò il tempo, poter emigrare » (lett. 124).

Un'altra volta, certo sempre in questo frattempo, tra serio e scherzevole, alla stessa destinataria scrive : « Son sommerso nelle avversità a tal punto che mi occorre un idroscopio : fammelo costruire e comperare » (e glielo descrive graziosamente e minutamente) (lett. 15).

Un altro tocco al fosco quadro del tempo è nell'inciso d'un'altra lettera al lfratello, e a queste confuse e quasi fantomatiche scorrerie degli Ausumanti e dei Maceti dà finalmente una precisazione

topografica — per noi che sappiamo Cirene la residenza di Sinesio — : egli parla delle soverchierie d'uno dei bravacci (se ci è lecita un'allusione manzoniana) d'Andronico : quel Giulio (Op. omn. nota alla lettera, p. 57) che già conosciamo. Sinesio, dunque, confessa la propria impotenza a farlo desistere dalle sue birbonate : impotenza di prima, e tanto più d'«ora che — dice Sinesio — ne' miei poderi hanno posto i loro accampamenti i nemici, usandone come di fortezza e difesa contro Cirene » (lett. 95).

Cirene è a mezza costa, sul declinare del Gebel verso la vasta piana d'Apollonia e il mare. Una fortezza e difesa contro Cirene, evidentemente doveva sovrastarle : a ridosso, dunque, del suo « cumulo di deserti ruderi ».

Ma un giorno dalla non lontana Derna arriva a Sinesio una notizia non solo consolante, ma rianimatrice. La descrive commosso in un'altra lettera al fratello. « Tantissimi beni ai sacerdoti di Axiils (degli Aussidìti) che, quando i soldati si rintanarono nei nascondigli dei monti e vollero serbare il loro sangue, adunando la plebe rustica, dalle chiese stesse per dritta via li condussero d'improvviso contro i nemici e, elevate preghiere a Dio, innalzarono il trofeo in Mirsinitide — questa lunga e fonda valle densa di selve. I barbari, siccome nessuna arma guerresca si faceva loro incontro, audacemente avevano affrontato anche quelle aspre e rozze. Ma stavano per offendere anche l'animoso e valoroso Fausto che, in sacris, adempie l'ufficio di diacono.

Egli è colui che, primo, inerme, affrontò un soldato armato e, da vicino, lo percosse alle tempia con un sasso, rompendogliele — non già lanciandolo (il sasso), ma avventandoglisi contro con il pugno micidiale. Questo caduto, spogliatolo delle armi, moltissimi altri abbaté sopra di lui.

Semmai in quel tempo si vide qualche altro uomo valoroso, al solo Fausto si deve attribuire la gloria del tutto, e per le sue gesta e per quel che per quel tempo disse.

Ma io ben volentieri coronerei tutti coloro che parteciparono alla gesta e li esalterei con voce d'araldo. Essi infatti si offersero, primi, autori di quelle opere agregie, per far vedere a questi attoniti e furiosi ch'essi non erano coribanti né demòni seguaci della madre Rea, ma uomini, come noi esposti alle ferite e alla morte.

Se anche noi fossimo uomini, in cose simili nemmeno le seconde parti sarebbero senza onore. E forse ci sarebbero assegnate le prime, se non combattessimo in quindici soltanto, disponendo insidie nelle convalli e disposti a depredare con felice successo, ma decidessimo di combattere, schierate le squadre in aperto apparato, in legittimo combattimento » (lett. 122).

« Sinesio aveva a Bisanzio-Costantinopoli amici potenti e affezionati, da lui conosciuti durante la sua permanenza alla corte di Arcadio e con i quali era rimasto in costante relazione epistolare : si affrettò a informarli della situazione e riuscì a ottenere che un nuovo governatore, Gennadio, prendesse il posto dell'inetto Cereale » (F. Valori op. cit. 68-69).

XI. Una pausa. Affetti e impegni familiari.

Con Gennadio le cose, ormai avviate in meglio, procedono in questa direzione.

Approfittiamo di questa pausa e, prima che la vita di Sinesio riprenda un ritmo anche più rapido concitato turbinoso — siamo verso il 405 — quasi a indulgere a un suo struggente desiderio, di posare e godere un poco della pace domestica e de' suoi diletti studi, tentiamo d'abbozzare questo suo ambiente.

Posson esserci gracile ma non fallace guida, ancora, le sue pregevolissime lettere.

Sappiamo che suo padre discendeva dallo spartano Euristene, della dinastia dei re spartani Agiadi, di cui Ettodoto dà la discen-

denza : Agide, Echestrato, Labota, Dorisso, Agesilao, Archelao, Teleclo, Alcamene, Polidoro, Euricrate, Anassandro, Euricratida, Leonte, Anassandrida, Leonida... Questo nome faceva balzare il cuore di Sinesio, ché — diceva — « Io infatti discendo dagli Spartani, e lo documenta un seguito, a ritroso, d'incarichi nostri fino a Leonida » (lett. 113).

Del padre, precisata tale ascendenza, nessun'altra indicazione abbiamo da Sinesio — almeno, nessuna nelle lettere — : non ne sappiamo né il nome né fin quando visse, né qual uomo era. Della madre, poi, null'affatto egli dice.

Del fratello Evozio — che gli era superiore in età (lett. 95) — potremmo delineare un profilo attraverso l'epistolario sinesiano: s'indovina ch'egli doveva esser degno del grande fratello e che ricoperse pubbliche cariche — altrimenti Sinesio non lo metterebbe a parte di tante cose, di tal genere appunto —.

D'una cugina anonima questi fa un'amara caricatura, concludendo, dopo aver narrato della sua leggerezza : « Non che per tutto questo noi ci siamo offesi, ma con un simile comportamento si fa vedere manifestamente a tutti quanto stupidi parenti noi abbiamo» (lett. 3) — che è una frecciata degna dell'arco sinesiano.

Quasi a compenso, Sinesio fa un'alta lode d'una sorella, che dice di non comune bellezza, se per essa scrisse il verso ch'egli stesso cita, scrivendo a Nicandro :

Quest'immagine o è della bella Ciprigna o di Stratonice.

Tu sai di certo che (questo verso) fu scritto da me per la sorella e almeno dal verso hai potuto capirlo. Di questa, che delle sorelle è quella che più mi è cara e l'ho stimata degna di una statua e d'un carme, è marito un armigero dell'imperatore Teodosio — che, se pensi alla durata e all'assiduità del servizio, già da

tempo avrebbe dovuto essere a capo della provincia, ma gli appoggi e le amicizie valgono più del tempo. Aiutalo dunque... » (lett. 75).

Di qui sappiamo, dunque, che altre, oltre questa, erano le sorelle di Sinesio.

Della moglie sua, poi, nulla affatto sappiamo : solo, l'averla egli sposata in Alessandria, ce la fa pensare alessandrina. E alessandrini di nascita egli dice i suoi figli (lett. 18), senza peraltro precisare quanti erano, quando egli scriveva la citata lettera al fratello : se due, o se tutti i tre ch'egli ebbe.

Naturalmente, Sinesio — trasferitosi in Cirene con la moglie e con i figli — oltre gli « ortolani » di cui fa cenno, ironizzandoli, in una lettera già citata, addetti ai « molti terreni ereditati dai suoi » (P.F. Rovere op. cit. 7) e alle « molte ville e terre nei dintorni di Cirene » (Id. ibid.) ; doveva avere, anzi, aveva anche dei servi addetti alle faccende domestiche.

A proposito di questi nelle lettere c'è l'aspra parola «comprare» (lett. 32) : espressione che se non può non toccare penosamente noi, uomini del Novecento, sonava comunissima a' tempi suoi (e anche in tempi molto più vicini a noi che a lui...). Sappiamo però l'umanità sua verso i servi da un'altra sua lettera, nella quale dice dell'educazione liberale ch'era data loro, trattati quasi con gli stessi riguardi che si usavano a lui, sì ch'essi amavano chi li comandava quasi per elezione, più che non lo temessero padrone legale (lett. 145).

Tuttavia, dispiaceri non ne mancarono, nemmeno a un così umano padrone, da parte d'almeno due de' suoi servi : uno fugge, un altro è un fior di birbante. Sinesio ne scrive, dell'uno a Erculiano, dell'altro al fratello, con quel suo stile agile e colorito e vivace, cui s'accompagna tutta la partecipazione dell'animo consapevole e austero : ne vengon fuori due pagine quasi plautine.

« A Erculiano. Un mio servo è fuggito — non de' miei paterni o, comunque, che furono nutriti con me : (questi, avuta un'educazione, e trattati quasi con gli stessi riguardi che si usano a me, amano chi li comanda quasi per elezione, più che non lo temano padrone legale).

Ma Filòramo — questo è il nome del fuggitivo — servo di mia cugina figlia di Amelio, fu fatto servo appunto per lei : ma, educato indisciplnato e dissoluto, non resse a un regime degno d'un filosofo e d'un lacònico. E ora, acquistato, al mio posto, un padrone alessandrino, va con lui in Egitto.

Un certo Arpocrazio è dei satelliti d'Eracliano, della classe di quelli che aiutano gli Aiutanti (questo pare significhi la parola Sabàudiuva). Filoramo è presso costui.

Io, per quel che mi riguarda, vorrei ch'egli stesse bene. Come si può infatti ammettere che i peggiori non abbisognino dei migliori ma che, invece, i migliori abbian bisogno dei peggioni? Ma la padrona di quell'infelice non la si può ancora indurre a filosofare, sì che sdegni coloro che non hanno alcuna sollecitudine per se stessi. Con ogni mezzo ella mi sollecitò a mandare qualcuno che lo che io, appoggiato a Dio-guida, licenziai con la promessa d'un soccorso umano. Questa lettera sia perciò consegnata in tue mani soltanto : le altre cose, dopo che tu hai afferrato tutto l'argomento, le affido a Dio e a te stesso e a Aitale » (lett. 145).

E « Al fratello. Colui che è servo di nome e d'animo, che comperai senza saperlo maestro di ginnastica tra gli eredi di Teodoro, davvero è iniquo da sempre : infatti è nato male e male educato, né acquistò l'educazione, per natura e per indole essendone alieno, ravvoltolato fin da ragazzo nei ricettacoli dei commedianti, nei giochi d'azzardo e nelle taverne. Ora poi — come direbbe Lisia — è sfrenato, è finito, è il non plus ultra della molestia. Infatti, non ha nessuna familiarità con Mercurio e Ercole protettori della palestra, è invece sagrestano di Cotitto e degli altri Priapi attici e, se ci son altri diavoli di tal risma, tutti han cura di lui e lui di loro.

Del resto io non l'avrei nemmeno punito : a ciascuno è sufficiente castigo la sua iniquità. Ma siccome l'esperienza l'ha sufficientemente dimostrato inidoneo a vivere con i signori filosofi, vagabondano a infamia di coloro che ne abitan le case, torni a casa sua. Così, che vedrà quel fornicatore bighellonare superbamente per tutta la piazza, ebbro d'unguenti e gozzovigliante, incoronato, pieno di ogni genere di libidine, cantante cantilene degne d'una tal vita, trasferirà ogni delitto ne' suoi eredi.

Pertanto, te ne prego, vedi d'affidarlo a un nocchiero e costringilo a navigare diritto verso il suo paese. In tal modo colui più facilmente lo tollererà. Navighi però legato al banco, e non scenda nell'interno della nave : altrimenti non ti meravigliare se voterà a mezzo molte anfore. Che se la navigazione si prolungasse, berrebbe fino in fondo il vaso che avrà fiutato e condurrà i compagni di viaggio a fare altrettanto. Perché, tra l'altro, è un birbante lusingatore se ce n'è uno, che va avanti agli altri ai piaceri. E chi mai, tra la gente dell'equipaggio, avrebbe tanta costanza da non gongolare d'allegria al veder quello sciagurato menar la danza andando in giro col bicchiere saltellando ? E fa molte altre buffonerie, contro cui bisogna che il nocchiero sia premunito.

Anche Ulisse, perché non perisse per le lusinghe del piacere, oltrepassò le spiagge delle Sirene legato. E costui, affinché non corrompa a suo piacere i portatori con le lusinghe del diletto, sia incatenato » (lett. 32).

XII. Altre opere di Sinesio e distensione.

E' facile immaginare la vita di famiglia di Sinesio durante i brevi periodi — come quello cui veniamo accennando — in cui al filosofo è consentito un allentamento al suo 'salire alla città e discendere dalla città' e al suo sì frequente doversi 'recare in fortezza' (lett. 89) : egli s'intratteneva con la famigliola, impartiva ordini ai servi e agli ortolani, teneva corrispondenza con autorità religiose (il patriarca d'Alessandria Teofilo) e con quelle politiche

e militari, con amici e congiunti, offriva loro ampia e signorile ospitalità, e, non appena il tempo glielo consentiva, rientrando dalla caccia o dal cavalcare, gioiosamente — come Niccolò Machiavelli undici secoli dopo — «entrava nelle antique corti degli antiqui uomini, dove, da loro ricevuto amorevolmente, si pasceva di quel cibo, che **solum** era suo, e che egli era nato per lui » (lettera di N. M. a Francesco Vettori).

A quest'ora Sinesio doveva aver già composto gran parte delle sue opere : la **Cinegetica, Il Regno**, il **Dione**..., **il Dono dell'astrolabio**... Penso che sia di questo tempo l'altra sua opera, **Elogio della calvizie**, composto appunto, come egli dice « al cominciare di questo male, quando, cadendogli i capelli, il suo animo prese a esserne afflitto » (Op. omn. **Calvitii encomium** 63). Nell'opera è profusa una vasta erudizione storico-letteraria, attraverso la quale, certo ridevolmente, Sinesio dimostra che, la calvizie essendo espressione di sapienza, i sacerdoti e i filosofi specialmente sogliono esserne 'adornati'. Intanto, dalla dotta e forbita opera in lode della calvizie, veniamo a sapere qualche altra virtù e passione e qualità fisica o morale dell'autore. E che egli era « circa res venereas iuris atque aequi observantissimus, tanto da poter emulare la pudicizia di Bellerofonte » (**Calv. enc.** loc. cit. 63) ; e ch'egli si considerava non del tutto cattivo poeta (**ibid.** 65) ; ch'era, naturalmente, calvo **ibid.** 66) ; ch'era diligente cultore delle piante, appassionato cacciatore, sì che le sue dita s'erano (egli dice) sciupate piuttosto al lavorno degli spiedi e dei giavellotti che non a quello della penna (**ibid.** 66).

Comunque, l'austero Sinesio ci lascia con un sorriso su le labbra quando afferma : « Ogniqualvota tu vedrai una testa accuratamente depilata, sappi che quella è sede della prudenza e tempio della divinità » (ibid. 70).

Inchino a datare da questo tempo anche l'altra opera sinesiana : « **La Provvidenza ossia l'Egizio** che, in due parti composte in due tempi diversi, narrando dei due fratelli Osiride e Trifone, così opposti per indole e per gesta, trae dall'ambiente egiziano elementi fecondi per delinear quasi un trattatello politico-teologico.

L'indicazione introduttiva — che la prima parte dell'opera fu scritta sub Tauri filiis, e che alla prima seguì poi la seconda, determinata da contingenze storiche o poetiche del contrasto fraterno (Op. omn. De Prov. 88) — è troppo generica, perché se ne possa trarre la data di composizione de **La Provvidenza.** D'altra parte, le turbinose vicende che stanno per reinvestire il prossimo vescovo di Tolemaide non gli avrebbero poi più consentito d'attendere a un'opera, non lunga, ma densa di riferimenti storici e di pensiero.

L'accennato periodo di calma, invece, rende una lettera, che perciò inseriamo qui, in mancanza d'altri elementi che aiutino a fissarne la data : e, del resto, questa lettera è troppo importante, per tralasciarla o riportarne soltanto dei brani : essai, infatti, ci dà molto dell'ambiente pentapolitano quattrocentesco.

« A Olimpio. Ho tralasciato di pagare le mie parti del tributo e il dono. Ma che fare, se nessun greco che abita in Libia vuol mettere in mare una nave oneraria ? Ma esimo anche te da ogni pagamento, ché, nemmeno i siri curano d'approdare ai porti cirenaici. Che se qualche volta avvenisse, ciò accadrebbe a mia insaputa : perché né io son vicino al mare, né frequento il porto, ma all'austro, ai confini della Cirenaica ; e vicino a noi abitano, quali Ulisse in Itaca con la mano al timone andava cercando, attirando, secondo l'oracolo, l'ira di Nettuno,

mortali che non conoscono il mare,
né mordono alimenti conditi di sale.

Ma perché tu non abbia a pensare che io abbia detto questo a caso, i nostri non usano del commercio marittimo nemmeno per il sale : non credere, tuttavia, che per questo noi cibiamo carni e facacce insulse.

C'è da noi, lo giuro per la sacra Vesta, c'è da noi del sale

terrestre che dista meno dall'austro che non il mare dall'aquilone. Questo sale da noi si chiama sale d'Ammone. Esso s'alimenta e si copre d'una pietra polverizzabile, che, posata a modo di crosta, togliendola, con facile fatica si può fendere il terreno sottostante con le mani e con sarchi. Ciò che si scava è sale, alla vista stessa e al piacere del gusto, dilettevolissimo.

Ma non pensare che sia un'insolenza sofistica, questo intèssere una narrazione circa il sale vernacolo : a noi rustici non s'appicicca ambiziosa contesa di gloria. Tu chiedi di sapere specificatamente le cose che sono presso di noi : sopporta allora la loquace lettera, a sconto di pena per l'importuna curiosità. Perché è difficile persuaderci di ciò che è alieno dall'educazione e dall'esperienza di ciascuno. Perciò non è piccola faccenda poter persuadere un siro del sale terrestre.

Io, a mia volta, qui ho molestia, interrogato spesso circa le navi, le vele e il mare. Mi ricordaste che una volta che filosofavo con voi, guardai quel coso, cioè il mare, e pensai a Faro, a quel vasto e salso lago di Canobo. E allora, per caso, si tirava una barca, e una la si conduceva con le vele in alto, un'altra con i remi. E mi deridevate perché la dicevo simile a un animale con molti piedi.

Ma quelli allo stesso modo si meravigliano, come noi quando sentiamo narrare delle cose che sono oltre Tule — qualunque poi sia questa Tule — la quale autorizza coloro che vi fossero arrivati, a narrarle senz'essere tacciati di menzogna.

Costoro, però, comunque ammettano le cose che delle navi si dicono, o sembrino riderne, sono i primi, poi, a rifiutarsi di credere questo : che il mare possa somministrare alimenti per gli uomini. Questo pensano debba essere principalmente e particolarmente il compito della genitrice terra. E io, una volta, mentr'essi negavano quel che dei pesci si narra, prendendo un vaso di creta e spezzandolo contro un sasso, feci loro vedere molto pesce salato, e subito balzarono in fuga, temendo le lische come non più miti del veleno dei denti.

Tra costoro, uno più avanzato in età e sagacissimo nel giudicare, disse che a malapena riusciva a persuadersi che nell'acqua salsa vivesse qualcosa di buono da mangiare, dal momento che nelle migliori acque di fonte e potabili non si genera altro che rane e sanguisughe, che nessuno è così pazzo da volerne gustare. E non a torto ignorano questo :

ché non di notte suscita — già questo l'onda tumida

del mare, ma essi conoscono i nitriti del cavallo e i greggi belanti delle capre e il belare delle pecore, e il muggito dei tori. Di là ai primi raggi del sole il ronzio delle api che, per che riguarda il piacere, non la cede a un concerto musicale.

Non ti sembra forse che noi narriamo cose d'Anchemaco, noi che abitiamo un luogo così diverso dalla città, per le vie e il mercato e i maligni costumi ? Noi infatti abbiamo agio a filosofare, punto a malfare.

Tutte le adunanze sono compagnevoli per tutti; ci aiutiamo vicendevolmente nell'agricoltura, con i greggi, tra pastori, nella caccia molteplice di ciò che la terra produce. Non è permessa, a noi né ai nostri cavalli, di prender cibo senza fatica. Ci nutriamo di polenta, soavissima come cibo e come bevanda, come, in Omero, a Nestore la scodella Ecamede. Dopo una fatica violenta questo cibo è rimedio al calore estivo. Abbiamo anche focacce di grano e frutti mangerecci degli alberi e domestici e agresti, tutti del luogo, prodotti dell'ottima terra; né mancano i favi delle api, né il latte caprino — presso di noi non si usa mungere le vacche. Né minor abbondanza procaccia alle nostre mense la caccia frequente con i cani e i cavalli — la quale non so perché Omero la dica non gloriosa per gli uomini e che gli uomini non ci si possano rendere illustri, mentre di tal lode onorò la piazza, da dove escono omuncoli sfrontati e scelleratissimi né punto sani, ma oltraggiosi, astuti orditori di sofferenze, che qua e là siamo soliti di deridere, ogni volta che nelle piazze stesse s'intrattengono con noi.

Inorridiscono, infatti, quando vedono trar fuori dal forno carni ferine. Che dico ferine ? ma addiritura più presto il veleno che non quelle, da noi, inghiottirebbero. Il vino poi lo vogliono sottilissimo, il miele densissimo, l'olio leggerissimo, il frumento pesantissimo. Perché non celebrano patrie di costoro Cipro e non so quale Imetto e Fenicia e la sponda di Barberìa ?

Il nostro territorio poi, anche se per le singole cose è superato da ognuno di quelli che ottengono somma lode per quei frutti, negli altri, tuttavia, supera ciascuno. E dei minori qui c'è quel principato che Peleo e Temistocle, avendolo conseguito, celebrarono come l'ottimo fra tutti quelli celebrati tra i greci. Sebbene ammettiamo questo, che il nostro miele sia meno buono di quello d'Imetto, è tuttavia tale che, avendolo, non fa che desideriamo quello straniero. Tra le varie qualità degli oli, senza dubbio eccelle il nostro, se non se ne lasci il giudizio a quelli la cui maniera di vivere è guasta. Ché, costoro son soliti pesarlo, misurando la bontà dal peso e ripongono la sua qualità singolare nella leggerezza. Per noi, anche se non s'inventi alcuna bilancia per l'olio, se questo però si deve fare, diciamo che è conforme a natura che, in questo genere, si preferisca ciò che è più pesante. E certamente quell'eccellente olio, da vendere per i lucignoli, per la sua leggerezza non può alimentare la fiamma : quello che nasce presso di noi, per la sua generosità, desterebbe un rogo e, mentre c'è bisogno d'una lucerna, t'appresta quasi un sole artificiale. Inoltre è buono per ingrassare la pasta e, a chi esercita il corpo, a riscaldare i nervi.

Ma anche la musica è comune tra noi, eccome ! C'è l'anchemachete, una piccola lira pastorale, rozza e inelegante ma di felice accordo quantomai virile — non a torto idonea a educare i figli nella repubblica di Platone — perché non si presta a inflessioni di modulazioni, né è temprata a ogni specia di suono. Chi la suona s'adatta alla semplicità delle corde. Non vi si eseguono tèmi spezzati e molli : ma celebre modo di cantare, da noi, è l'elogio dell'ariete, o si onora della lode del canto il cane mutilato della coda — e penso che giustamente lo si lodi, perché non teme le iene e stràngola i lupi —. Con questo carme si celebra specialmente il cacciatore, che

salvaguarda la tranquillità dei pascoli e ci dà copiosi conviti di carni d'ogni genere. E la lira non isdegna nemmeno la pecora che, partorendo gemelli, d'anno in anno fa più numeroso il gregge.

Cantiamo spesso anche il fico e la vite, méssi in versi e in istrofe : ma nulla così frequentemente come certe preghiere e cantici e impetrazioni dei beni che sono propri degli uomini e delle piante e delle gregge.

Questi e tali sono, i beni contemporanei e insieme antichi e dei poveri, da noi.

Del resto, l'imperatore e gli amici dell'imperatore, e tutta quella danza della sorte e del caso (di cui, nel vivere quotidiano, sentiamo alcuni nomi, a guisa di vertice e di gloria delle fiamme, destati e poi rispenti) di tutte queste cose, dico, alto è il silenzio presso di noi, e da un tal genere di suoni le nostre orecchie non sono percosse. Giacché forse ben sanno questo — che un qualche imperatore c'è sempre : ci si richiamano infatti alla memoria anno per anno dagli esattori delle tasse : ma chi egli sia, nemmeno questo sanno esattamente. Né mancano tra noi di quelli che pensano che oggi ancora comandi Agamennone, figlio di Atreo, colui che partì per Troia, quell'illustre e ottimo principe, ché, fin da fanciulli, ci hanno tramandato questo nome regio. Un certo amico di questo, Ulisse, nominano spesso ottimi bifolchi, uomo calvo, ma destro nel maneggio delle cose a di certi difficilissimi strattagemmi. Certo poi ridono, quando narrano di lui, credendo che il Ciclope sia stato da lui accecato l'anno scorso; e come il vecchio era trascinato sotto l'ariete; e lo scellerato osservava presso l'entrata, e pensava che la guida del gregge chiudesse la fila, non già gravato d'un tal peso, ma condolendosi della sua disgrazia.

Per merito della lettera sei stato un pochino con noi col pensiero e hai contemplato la campagna; hai osservato la semplicità del vivere e dell'agire. Un tal genere di vita, quale fu sotto Noè, prima che la giustizia fosse fatta schiava » (lett. 148).

XIII. Il dramma dell'episcopato.

Gennadio, governatore civile, coadiuvato, per quel che riguarda le responsabilità militari, da un anonimo duce, segna la data fatidica dell'assunzione di Sinesio alla sede episcopale di Tolemaide. Parrebbe, questo, annuncio d'un avvenimento gioioso e fausto — tale è, infatti, per la Chiesa della Pentapoli — : per Sinesio è invece un annuncio quasi nefasto. Mai, forse, l'episcopato fu accettato con altrettanta riluttanza.

L'epistolario s'arricchisce ora d'elementi numerosi e diversi : veniamo a conoscere meglio l'indole di questo grand'uomo, la sua delicatezza di coscienza — sorprendente addirittura in uno che non è ancora nemmeno cristiano —; il concetto ch'egli ha di questa pienezza del sacerdozio. E, dopo l'anima dell'uomo, veniamo a conoscenza d'altri avvenimenti della cronaca della Pentapoli, che, attraverso la sofferenza, ma, insieme, la fortezza davvero episcopale del neo-consacrato, l'aurèolano di nuova grazia e gloria.

La gloriosa Chiesa nord-africana ha nel vescovo di Tolemaide una delle sue gemme più fulgide : bagliori della sua luce, attraverso le opere letterarie superstiti, specialmente il prezioso epistolario, ancora lùcono e tremolano dopo ben quindici secoli.

L'avvio della vita di Sinesio ci parve una sinfonia : quest'altro avvio — verso l'episcopato — pare elegia : e fu dramma.

Gli avvenimenti avanti narrati fanno risaltare che la salvezza dall'estrema definitiva rovina minacciata alla Pentapoli dalla violenza degli Ausuriani e dai Maceti, oltre e più che dal governatore Gennadio, venne da Sinesio.

Ciò attrasse su di lui gli sguardi : delle popolazioni superstiti spaurite, dei soldati ch'egli con il governatore parzialmente ricostituì in esercito, delle autorità politche, e anche delle autortà religiose. Il patriarca d'Alessandria Teofilo, infatti, non poteva restare indifferente alle sorti della Chiesa della Pentapoli così du-

ramente provata; e al giovine patrizio che anni avanti, là in Alessandria, aveva unito in matrimonio con colei che il fidanzato gli aveva presentata, pensa ora d dare una sposa più grande e nobile, mistica addirittura : la diocesi di Tolemaide.

Sinesio ne ha sentore e se ne sgomenta.

Chissà ch'egli non si penta, ora, d'essersi, forse, una volta, messo in vista presso il patriarca, inviandogli sì calde e vive felicitazioni per un libro da lui avuto in omaggio ? Gli aveva scritto, Sinesio : « Lunga e felice vecchiaia ti resti, o santissimo e sapientissimo uomo : ché, infatti, sopravvivendo, con la tua vita sarai d'immenso vantaggio, d'accrescimento immenso alla scuola di Cristo, aumentando con gli anni il numero dei libri solenni. Infatti, il libro che mi è stato inviato quest'anno empì di gioia la città, e giovò, sia per la gravità dei detti che per la dolcezza delle parole » (lett. 9).

Scrive al fratello : « Io mi sento, considerando me stesso, assolutamente inadeguato all'altezza dell'episcopato. Ma certo disputerò con te dei moti del mio animo. Presso nessun'altra persona, infatti, come con te a me carissimo e con me educato, potrei con maggior agio. Ché, è giusto che tu partecipi delle mie stesse preoccupazioni e, vegliando la notte, pensi come mi tocchi qualche bene o come possa evitare qualche male » (lett. 105).

E a Olimpio : « Invoco testimone quel Dio che la filosofia e l'amicizia veneran, che non una morte soltanto io anteporrei alla dignità di vescovo... (lett. 96). Ciò che ripete in una lettera « Ai sacerdoti :... Io avrei a ciò preferito la morte e non una soltanto. Non mi pareva da me la dignità di quest'ufficio... Io, che limitai la mia vita agli ozi filosofici e alla meditazione scevra di brighe; che alle noie e alle molestie del vivere e alle cariche politiche concessi soltanto lo strettamente necessario, come posso bastare alle continue preoccupazioni di questo nuovo ufficio ? E, inviluppato di tante brighe, come posso affissarmi nelle bellezze della speculazione, il cui godimento è tal riposo, senza del quale, per me e per

chi mi somiglia, la vita stessa cessa d'essere vitale ? Io non lo so davvero » (lett. 11).

E sente il bisogno di consiglio e di conforto. Allo stesso Olimpio : « Ma intanto, quasi per un sentimento intimo, ne dètti il primo annuncio a te, che di tutti mi sei il più amico, affinché con me ti dolga e, se puoi, escogitato qualcosa a me congeniale, esponendomi il tuo pensiero, tu mi dica cosa devo fare. Io infatti per ora son così lontano dal fare esperimento della cosa, che, assunto da ormai sette mesi questo molesto e indesiderato incarico, sto lontano da coloro presso i quali devo fare il vescovo, fino a che non abbia diligentemente e pienamente appresa la natura dell'ufficio.

Poi, se mi sarà consentito d'attendere, congiuntamente con quello, allo studio della filosofia, ne eserciterò il ministero, se invece esso discorda dalla mia educazione e dal mio sentimento, che altro farò, se non emigrare verso la celeberrima Grecia ?

Ché, appena rinunciato all'episcopato, non potrò più sperare di vedere la patria, altro che confondendomi quotidianamenta tra la folla degli uomini insensibili e nemici, più esecrato di tutti e più di tutti privo di onori » (lett. 96).

Ma, a poco a poco, pur perdurando il rammarico per i beni perduti (« Un tempo, certo, godevo d'una più tranquilla e facile consuetudine con gli amici... consumavo il tempo fra i libri, quasi aborrendo la città e lo Stato... lett. 91) ; a poco a poco la premura e sollecitudine per coloro con cui deve vivere l'orienta decisamente verso i nuovi doveri : « ...vorrei, a coloro con cui debbo vivere, essere utile in qualcosa e benmeritare in ogni modo di essi, di ciascuno di essi particolare e pubblicamente di tutta la città ; che li potessi vedere e da essi essere veduto volentieri, quasi, per dir così, compagni di navigazione... (lett. 91).

« Dio m'impose ciò che gli piacque, non ciò che io desideravo,

e lui che è moderatore del vivere prego che mi sia guida nel governare chi m'ha affidato... » (lett. 11).

Poi scrive : « Sarei veramente ridicolo se non fossi molto grato a quelli di Tolemaide, che mi dégnano di tante cose, più di quanto non me ne degni io stesso. Ma è da considerare non quante essi me ne offrano, ma quanto grandi, perché possano essere da me accettate. Infatti, l'uomo consegue onori quasi divini, e, se è degno di conseguirli, ciò avviene con soavissimo vantaggio dell'animo; ma se invece l'animo è di molto inferiore alla dignità della cosa, questa mette davanti all'animo un acerbo timore del futuro. E questo timore non è nuovo, in me, ma vecchio assai : che, in qualcosa io offendendo Dio, non consegua, per la stessa cosa, onore davanti agli uomini... » (lett. 105).

In questa lettera Sinesio — delineando in tutta la sua grandezza e gravezza quello che è l'ufficio del vescovo — dimostra che non per nulla tremava a esserne gravato. La lettera ben merita d'essere citata integralmente almeno nel tratto che questo tèma svolge.

« ...Avendo assunto un peso leggero, cioè la filosofia, finora mi pare d'averlo sostenuto comodamente. Mentre son lodato da alcuni perché sembra che io non devii del tutto da essa, di maggiori lodi sono stimato degno da coloro che non possono conoscere le capacità e le attitudini dell'animo. E tuttavia temo che divenendo arrogante accettando quest'onore, decada da entrambi, dopo aver disprezzato l'uno e non avendo conseguito la dignità dell'altro. Sàppilo, questo.

Spesso divido il tempo in queste due occupazioni : gioco e studio. Ma mentre attendo agli studi, son dèdito a me solo, specialmente nelle cose divine. Giocando invece sono esposto al massimo a tutti. Tu sai infatti che appena distolgo gli occhi dai libri son propenso a ogni genere di giochi.

Per natura, poi, e di proposito sono inetto a ogni impegno e sollecitudine civile.

Ma il vescovo dev'essere uomo divino, alieno da ogni gioco come Dio medesimo, e dev'essere inesorabile : e, affinché egli s'attenga al suo proposito, è osservato da infiniti occhi, e non è di punta o solo di pochissima utilità se non diviene, così, atteggiato a mestizia e non possa essere né rotto né ammollito a piacere alcuno. Nelle cose poi che riguardano Dio, non attendendo a sé solo, dev'essere accessibilissimo a tutti; dev'essere maestro in legge dir cose consentanee alle leggi.

E' necessario ch'egli, solo, sostenga tante occupazioni quante gli altri tutti assieme. Uno, deve fare infatti le cose di tutti, o sottostare a tutte le critiche.

Come dunque non sarà da un animo grandissimo e ingente sostenere tanta mole e peso di sollecitudini, e ch'esse non opprimano la mente, e non vedere estinta nell'animo la particella divina mentr'egli è distratto da tanta diversità d'applicazioni ?

Non mi sfugge che alcuni possano fare ciò, e io lodo la felice indole di costoro, e davvero li stimo uomini divini, che, pur trattando assiduamente tante cose umane, non sono punto distolti dalla familiarità divina.

Ma io mi conosco e mi so solito a discendere alla città e a ascendere dalla città, e a essere involto nelle cose che trascinano al terrestre e all'infimo, e inquinato di tante macchie che nessuno saprebbe contarle. Infatti quel pur pochissimo, che s'aggiunga a quanto le macchie private e invecchiate inserirono in me, fece un colmo d'accrescimento. In me non c'è alcun vigore, né è a bastanza fermo il mio interno, e non basto alle cose esterne, lontanissimo dal sopportare le ansietà della coscienza. E ogni volta che qualcuno m'interroga, senz'alcuna incertezza dico : — Il vescovo non dev'essere tocco d'alcuna macchia, deve, anzi, di tanto esserne al di sopra, egli che deve cancellare i delitti e i peccati altrui.

Certo, molti leggeranno questa lettera. Per questo appunto l'ho dettata, affinché risultasse a tutti apertamente che io temo

quest'incarico : sì che, qualsiasi cosa accada, io sia esente da ogni colpa davanti a Dio e davanti agli uomini, e anzitutto davanti al padre Teofilo.

Come io ho messo innanzi apertamente tutte le cose mie, e rimettendo loro la potestà di deliberare a riguardo di esse sul mio conto, di che poi potrò essere ragionevolmente accusato ?

A me dunque Dio stesso, e la legge, e la sacra mano di Teofilo ha dato moglie. Perciò dico e giuro a tutti che non voglio assolutamente essere disgiunto da essa né, a guisa d'adultero, convivere con lei segretamente. L'una di queste cose non è affatto pia, l'altra è illecita. Ma questo invece desidererò e chiederò : d'avere moltissimi e ottimi figli.

Questo soltanto non dev'essere ignorato da chi ha virtù di creare il vescovo — ciò che si può intendere anche del confratello Paolo e di Dionisio, che io sento essere appunto eletti legati del popolo —. Non ch'egli debba imparare questo, ma soltanto rammentarlo : ma di ciò discuteremo a lungo. Perché tutte le altre cose, se uno le confronti con questo soltanto, sono da considerare piccole e da non farne nessun conto... » (lett. 105).

XIV. Sinesio vescovo.

Le « altre cose » che Sinesio ha definite, qui, « piccole e da non farne nessun conto » egli stesso sentiva che non eran tali. Ma è nella psicologia umana trascurare — quando una più grave o gravissima preoccupazione opprime — ciò che è meno grave. Ma questo meno grave sussite e, una volta svanito il più, riaffiora.

Sinesio andava all'episcopato sgomento della gravezza dell'ufficio in se stesso, come scrisse : ma egli scrisse anche dell'altro : esprese anche altre preoccupazioni — d'ordine intellettuale alcune, altre d'ordine psicologico —. Presto, sorgenti dalle crudeli contingenze che stiamo per rievocare, altre preoccupazioni cominciarono

a opprimere il suo animo sensibilissimo e provocarono in lui — ci sembra-un'autentica crisi. Ne parleremo più innanzi.

Per ora, generoso com'egli è, assunto il peso dell'episcopato, generosamente si sobbarca alle nuove responsabilità. Proprio Sinesio, inconsapevolmente e imprevidibilmente, oltre l'uomo molteplice che ormai conosciamo, si rivelò lo storico della Pentapoli per il periodo che la sua vita abbraccia. Le sue lettere mettono in luce — dopo la vita politico-militare — la vita della gerarchia ecclesiastico-cristiana di questo spazio nord-africano (la Pentapoli) che, ristretto geograficamente entro il 20° - 25° medidiano e il 31° - 33° parallelo, egli fa apparire più vasto con le sue gesta.

In mancanzo degli « Atti del Vescovo » abbiamo, ancora, le lettere del vescovo Sinesio a documentazione — per quanto frammentaria e insufficiente — della sua attività vescovile. Tra questa sua attività, i deprecati scarsi elementi ci manifestano ora la sua paternità, ora la sua specifica diligenza pastorale, ora il suo zelo per l'integrità della fede. Vedremo poi la diplomazia del pastore.

La sua paternità affiora dalla lettera a un confratello per mancanze punito e ch'egli richiama anzi riaccoglie nell'ovile.

« A Cirillo. Va' alla madre Chiesa, o Cirillo fratello, dalla quale, non già staccato, ma sei stato soltanto separato temporaneamente, come si suole decidere secondo la gravità delle mancanze. Mi par di sapere che il nostro comun padre di santa memoria avrebbe fatto anche prima di me come io faccio, se non gliel'avesse impedito la morte : anche se le modalità della pena diventavano oggetto di giudizio della coscienza ché subito chiedeva perdono. Perciò fa' conto che t'abbia riammesso alla Chiesa quel santo sacerdote, e accòstati a Dio con animo scevro di cattivi pensieri, dimèntico dei mali passati. E anche apertamente ricorda quel santo vecchio caro a Dio, che ti ha messo a capo del popolo : né ciò ti sia ingrato » (lett. 12).

La sua specifica diligenza pastorale è documentata da un'altra

lettera indirizzata « A Pietro sacerdote. Da Dio prenda avvio ogni opera e ogni discorso. Vogliate trattare con tutta umanità all'andata e al ritorno il latore di questa solenne lettera — con la quale fissiamo al diciannove aprile la celebrazione della festa della Pasqua, in modo che la notte su tal giorno sia sacra al mistero della Risurrezione —. Provvedete di giumenti il latore per l'uno e per l'altro viaggio, lui che, per non lasciare interrompersi quest'antica consuetudine ecclesiastica e patria, s'avventurò tra le frecce dei nemici, intraprendendo il viaggio attraverso un paese pericoloso.

La medesima lettera suggerisce ai cittadini di pregare per noi Iddio. Da questa stessa richiesta essi devono intendere quanto furono imprudenti ne' miei confronti, avendo elevato al sacerdozio uno che non osava avvicinarsi a Dio per supplicarlo per tutto il popolo, ma che delle suppliche del popolo abbisognava per la propria salvezza.

E tanto più chiedo preghiere mentre è convocato costì un Sinodo, cioè l'adunanza di molti sacerdoti, che ha coinciso con l'occasione che mi ha spinto a scrivervi. Se io non ho potuto dire le cose che siete soliti di udire, bisognerà pure perdonarmelo e attribuirne la colpa a voi, che metteste a capo d'uomini versati nelle sacre Scritture uno che le ignora » (lett. 13).

E poi lo zelo di Sinesio per l'integrità della fede.

« Ai sacerdoti. 'E' bene confidare in Dio più che nell'uomo'. Ma sento che gli appartenenti all'empia sètta d'Eunomio e un non so quale Quinziano e quelli che millantano in comunità quell'autorità che pretendono, tornano a corrompere la Chiesa e, da falsi dottori, scandalizzano le anime semplici.

Per trarsi dietro costoro e solo per far piacere a lui, mandati or ora da Quinziano, son qui giunti per mare. La loro causa sa d'empietà, ossia è tutta per l'empietà. Vedete perciò che quei preti adulteri, novelli apostoli del diavolo e di Quinziano, di nascosto a voi che sovrintendete al gregge, o manifestamente, non s'insinuino,

soprasseminando loglio al grano : son noti a tutti i loro nascondigli.

Voi sapete quali territori li accolgano, quali case siano aperte a quei ladroni : fiutate i ladri con sagace odorato. Vedete d'esser degni di quella benedizione che Mosè largì a coloro che impegnarono il braccio e il cuore negli accampagenti contro gli scellerati : sia vostro motto, o fratelli : — Le cose sante le si facciano onestamente — . Troncate ogni lite che sorga per lucro : tutto si faccia per Dio. Bisogna che una stessa cosa non sia oggetto di virtù e d'iniquità. Questo è virtuoso cammino : combattere per le anime, perché nessuna venga strappata alla Chiesa, come coloro hanno già in consuetudine di fare. Chiunque, facendo finta di difendere la Chiesa, ingrossa il borsellino; chi cerca l'appoggio dell'autorità — anche se in questi tempi, che richiedono fortezza d'animo, ciò può sembrare utile—costoro noi vogliamo che siano estromessi dal consorzio della Chiesa. Dio non ha fatta monca la virtù, lui che non ha bisogno di questa società d'iniqui. Non mancheranno a Dio soldati — egli troverà bene commilitoni idonei alla Chiesa, che, già rimunerati quaggiù, troveranno poi in cielo piena mercede.

Tali voi siete.

E' bello augurare bene a coloro che si comportano strenuamente, e dire anatèma a chi fa il contrario. Perciò chiunque avrà agito con debolezza e avrà tradito, o chi pur perseguendo costoro avrà però rapito l'altrui, costoro sappiano che sono non senza colpa davanti a Dio.

Chiunque sia a conoscenza di adunanze di coloro e faccia finta d'ignorarlo, o sentendone parlare finga di non sentire, o sarà stato, con denaro, contagiato da essi, tutti costoro comendiamo che siano considerati Amaleciti, dai quali non è lecito asportare bottino.

Questa è la voce di Dio nei confronti di chi avrà comunicato con essi.

Mi rincresce di aver fatto re Saul : voi non abbiate rincresci-

menti ne' suoi confronti, ma abbiate cura di Dio e Dio cura di voi » (lett. 5).

L'arcivescovo e patriarca d'Alessandria Teofilio che così straordinariamente designò vescovo Sinesio non poteva non avere un'alta stima di lui. Eccone subito la documentazione. Là in Alessandria — dove non gli mancavano gravi difficoltà e problemi — gli arrivano ben più che gli echi e politici e militari e ecclesiastici della Pentapoli. Per quel che riguarda la Chiesa la sua responsabilità e autorità s'estende anche qua. Gli echi ecclesiastici denunciano contrasti tra vescovi e liti tra sacerdoti e altre irregolarità ecclesiastiche. E il suo pensiero corre subito a Sinesio, vescovo di Tolemaide e metropolita di tutta la Pentapoli. A lui perciò dà l'incarico di recarsi dove occorre esaminare **in loco** i problemi e avviarli a soluzione.

E Sinesio, docile a pronto : « Amo, e mi è quasi divina necessità imposta, aver per legge » —risponde a Teofilo — « quanto codesta sede ordina. Perciò, lasciando un'occupazione funebre e spronando alla fatica un fisico ancora malato, affrontando l'incerto così come il sicuro, raggiunsi, pur intralciato dalle armi nemiche, Palebisca e Idrace. Sono, questi, borghi della Pentapoli e segnano i confini dell'arsa Libia... » (lett. 67).

Sinesio partiva da presso il cadavere ancor caldo del figlio alla volta dei confini dell'arsa Libia per studiare quattro casi, veder di risolverli, riferirne al patriarca d'Alessandria. Abbiamo qui un saggio dell'arte diplomatica, dell'umanità, del senso umoristico di Sinesio; e, insieme, uno scorcio della Chiesa nord-africana del tempo di sant'Agostino — il quale Agostino, duemila chilometri più a ovest, consacrato vescovo quindici anni avanti, era nel vivo d'altri problemi ecclesiastici, mentre anche là i barbari s'accostavano : già si sentiva il calpestio dei loro cavalli —.

XV. Quattro controversie.

Quattro erano le controversie che Sinesio doveva dirimere : insediamento del vescovo in Idrace, rimasta vacante dopo il trasferimento di Siderio a Tolemaide nel 370; accordare i due vescovi (Paolo di Eritron e Dioscoro di Derna) contendenti per il possesso d'una collina confinaria in quel d'Idrace; rappacificare due preti (Giasone e Lamponiano) quello 'pronto di lingua' e questo 'pronto di mano', che s'erano reciprocamente offesi; porre termine al girovagare dei 'Vascantisi' — preti che, scontenti delle proprie sedi parrocchiali, andavano in cerca di migliori prebende.

Bisogna riportare, quadripartita, la lunga lettera-relazione sinesiana inviata ufficialmente al patriarca d'Alessandria : ne vien fuori uno schizzo vivacissimo della Chiesa della Pentapoli ai primi del Quattrocento.

I. Sinesio, dunque, s'è recato a Palebisca e Idrace, ai confini libici. « Là, adunato il popolo, lessi alcune lettere e alcune ne consegnai : infatti, alcune ne erano state scritte a loro, alcune essi me ne avevano indirizzate; poi tenni un discorso mirante a ottenere voti. Volevo, o persuasi o, pur d'arrivarci, non-volenti, indurli a deliberare l'elezione del vescovo : non riuscii a volgere l'animo del popolo in favore del piissimo Paolo.

Bramo che il padre mi creda : non volevo avere puntato invano in quella direzione : quel popolo che prima m'onorava particolarmente mi si fece ostile. Alcuni di essi, notissimi, alzavan la voce; altri, trovato a caso uno sgabello, ci montavan su a farla da avvocati, e polemizzavano come gente comprata o come congiurati consegnati in mano ai littòri; gli espulsi dall'adunanza venivano incitati a andarsene, e subito, spesso calmando e raffrenando il popolo, mi provai in ogni forma d'oratoria.

Cominciai a lodare codesta sede vescovile, dicendo che, disprezzare o onorare voi, era lo stesso che disprezzare o onorare Dio. E essi, con onorificentissima voce, a chiamare felice il tuo pio

nome, a pregar proni, fondendo insieme grida e lamenti, come se tu fossi presente. Ma la contesa degli uomini, benché superiore al previsto, era dimessa. Le donne invece — razza più difficile da trattare — levavan le mani, porgevano i bambini e, chiudendo gli occhi per non vedere la sede, vuota del solito prèsule, indussero noi, che armeggiavamo per il costrario, a volere ciò che volevano esse.

Temendo che ciò potesse accadere — sentivo infatti che a poco a poco vi ero indotto — sciolsi l'adunanza, fissandone un'altra a quattro giorni dopo, deprecando ciò che or ora era accaduto e diffidando chiunque — o comprato, o per proprio interesse privato, o parteggiando, o indotto da considerazioni personali — avesse profferito qualcosa contro l'ossequio che alla Chiesa è dovuto.

Arriva il giorno fissato, e già il popolo era schierato, per gridare e contrastare. Non attese nemmeno d'essere interpellato, ma d'improvviso tutto s'agita e confonde; si frammischiano le voci, sì che, ferendo continuamente gli orecchi, non le si potevano discernere.

Intimato dai sacri banditori il silenzio, quelle grida finirono in pianto. Triste era sentire il lamento degli uomini, le urla delle donne, i gemiti dei ragazzi : uno esprimeva il desiderio del padre, altri del figlio, altri del fratello, così dividendo, secondo il grado dell'età, i nomi della parentela.

In quel mentre, cominciando io a dir qualcosa, spunta di mezzo alla folla un libello, e uno chiede che lo si legga a tutti pubblicamente. Non conteneva altro che la preghiera, che io smettessi di violentemente tentare l'animo del popolo; che per breve tempo differissi la decisione, fino a che essi potessero mandarti un decreto circa la cosa, e un legato : anzi, mi pregavano di voler essere loro avvocato per lettera, riferendo ciò che sapevo.

Sicché, nel consesso dei preti e dappertuto, la plebe diceva — e il libello specificamente sintetizzava — le stesse cose : che per

patria e per disposizione apostolica queste Chiese erano assegnate a Eritron (Wadi Latrun), ma che dal beato Orione erano state staccate da ormai tanto tempo, e l'estrema disinvoltura gli s'imputava a difetto (di qui cominciarono le contumelie da parte di coloro che pensano che il sacerdozio debba essere anche di protezione e d'aiuto pur nelle cose materiali, e immischiarsi nel corso delle medesime).

Orione, avendo vissuto moltissimo, non dètte loro tempo d'aspettar la fine del sant'uomo, ma elesse Siderio di beata memoria.

Il giovine infatti, che proveniva dall'esercito dell'imperatore Valente, sembrava coraggioso nell'agire, che avrebbe amministrati i campi pretesi, che avrebbe potuto nuocere ai nemici e giovare agli amici. — Dominavano allora le fazioni eretiche, prevalenti di numero : occorreva molta astuzia, che è ministra della prudenza—.

Vescovo di Palebisca fu perciò fatto quell'unico e solo, e nemmeno legittimamente, anzi, come ho sentito dai vecchi, contro tutti i diritti. Infatti, né si costituì in Alessandria, né di là fece nemmen segno a questi tre, che più degnamente sarebbero stati da eleggere. Solo osò dichiarare suo collega d'episcopato Filone di beata memoria, cirenense, il più anziano zio del giovine, e dello stesso nome, che — per quel che riguarda il resto vivendo secondo le prescrizioni della disciplina ecclesiastica — per ciò che si riferisce al governo e all'obbedienza, piuttosto audace che ligio alla legge. Dicono che questi soltanto, venendo, abbia creato (vescovo) il beato Siderio, e lo abbia collocato in trono — ma in tempi pericolosi bisogna passar oltre a sommo diritto.

Questo perciò indulse, all'età, quell'Atanasio grandissimo, e dopo non molto, quando sarebbe bisognato alimentare quella tenue scintilla ortodossa che allora sussisteva nella Pentapoli, e sempre più avvivorla, comandò che di là emigrasse quell'uomo, idoneo a reggere più grandi cose, perché governasse la Chiesa metropolitana. Ma la vecchiaia lo ridusse alle chiese della campagna, ove, morendo, non ebbe successore, come egli non era succeduto a alcuno.

Palebisca e Idrace furono ridotte alle antiche forme e assegnate a Eritron, per decreto della tua autorità, come si dice : e — su questo specialmente insistevano — quella tua antica creazione non dev'essere abolita.

Io chiesi che me ne esibissero i documenti : ma non me ne poterono presentare, tuttavia i vescovi fecero produrre alcuni testimoni d'entro il concilio : questi dissero che, inviate di là lettere in forma di rogazione al popolo, presentando Paolo, e a tutti essendo piaciuto d'averlo per vescovo, avere così riferito sul suo conto, e altri poi lo posero su quella sede.

E, se io posso parlare in tua vece, quello davvero era il tempo di deliberare : trasferirlo sarebbe stato ben più molesto che non consentire. E tuttavia prevalga anche ora ciò che alla tua paternità piacque. Ché, se ciò allora parve giusto, essi lo presero per tale — e così dicono — : non sembrando più tale, viene a mutare anche la ragione del giusto.

Perciò, quello che tu deciderai, sarà giusto, per il popolo.

L'udienza è vita, l'orgoglio è morte. Perciò essi non alzano le mani in faccia, ma solo pregano e scongiurano di non esser costretti all'orfanezza vivente il padre. Così in termini espressi parlano : sì che non so se lodare o dir beato quel giovine per la tanta benevolenza e il tanto favore di tutti. Quell'acquistarsi e conciliarsi gli uomini al punto che senza di lui la vita non paia loro più vita, gli proviene o da arte o da forza o da grazia divina.

Decidi tu perciò secondo la tua umanità ciò che ti pare più umano sul suo conto. Io poi devo tornare in città : ivi aspetterò l'indicazione e l'autorizzazione per ciò che devo fare... » (lett. 67).

II. « Nel borgo d'Idrace, nella parte più elevata, c'è un luogo che fu già castello munitissimo : distrutto dal terremoto, non ne rimasero che muri mezzo diroccati; e, fin qui, qualcuna delle sue parti era stata a uso di questo e di quello; ma, sovrastando la

guerra, poiché pare che lo si possa cingere di muro e ripristinare all'antico uso, pare che possa fruttare molto ai proprietari.

A questo proposito c'era gran contesa tra i nostri fratelli, e anche tra gli altri piissimi vescovi Diòscoro e Paolo : il dardanite accusava l'eritrite d'essere stato da lui insidiosamente tentato, come se richiedesse ciò che non lo riguardava, consacrando a Dio un luogo altrui, e, dopo averlo, sotto parvenza di pietà, in tal modo ghermito, poi, con violenta mano difese l'astuta scelleraggine. Dopo ciò il piissimo Paolo cercò d'aggiungere qualcosa : d'aver lui per il primo occupato l'altura, che era stata già una volta chiesa, prima che il religiosissimo Diòscoro possedesse quel luogo. Tuttavia, se qualcuno ricerchi la verità non con lentezza e incertezza subito si prova la verità. Come vano e futile apparve allora tutto ciò !

... io chiedevo in che tempo era stata costruita la chiesa : se ciò fosse avvenuto avendo fatto ulteriori concessioni, o avendolo permesso coloro cui spetta. Ma evidentemente tutto risultò il contrario di questo.

Uno dei vescovi chiedeva, e un altro — al quale quella possessione apparteneva — negava. Finalmente costui se n'andò, portando con sé le chiavi; l'altro apre e, recando colà una mensa, consacra nella vasta collina una cappelletta.

Ma accesso alla chiesa non c'è, se non attraverso la collina; e questo era stato escogitato astutamente per annettersi la collina.

Ma tal cosa a me pareva sopra ogni altra acerba né da sopportarsi con animo pacato, e per rispetto alle sacre leggi, e per i diritti dello Stato... Di ciò era stato già emesso un decreto, in città — così infatti era forse accaduto che, eccettuati pochi, tutti i vescovi s'adunassero in Tolemaide per deliberare circa una cosa civile. I quali, udito ciò, detestarono il fatto, senza tuttavia osare di mutarlo.

Ma io voglio separare la superstizione dalla pietà... Così io ero

disposto a dichiarare che tutto doveva mutarsi : colui veniva convinto apertamente d'aver prima accettata quella mutazione, e d'averla confermata con giuramento. Volentieri, afferrato ciò, declinavo la sentenza, e lo costituivo giudice di se stesso, sforzandolo a dar corso al suo stesso giuramento. Ma tergiversando egli e temporeggiando, recatomi colà per pratiche ecclesiastiche, fui costretto d'intervenire nella faccenda e colà discutere la controversia.

Di nuovo convocata, accorreva la folla dei vescovi dei luoghi circostanti, adunandosi uno per una ragione e uno per un'altra, e, in presenza mia a di tutto loro, venivano esposti i confini che distinguevano la parte del dardànide manifestamente.

A questa testimonianza dei seniori, per sentenza di coloro che fino allora repugnavano, proclamarono padrone del luogo il piissimo Diòscoro. E, a istanza del fratello Diòscoro, fu necessario che venisse letto a tutti l'infame libello, che il piissimo Paolo aveva scritto sotto nome di lettera alla santità tua, e che altro non che una sporca e petulante commedia contro un fratello, da cui proveniva vergo gna non già a colui che tale malignità ascoltava, ma a chi la diceva.

Ma è cosa feconda nei buoni arrossire, ché, l'immunità dal peccato è solo della natura e condizione divina : e qualcuno direbbe che è modestia essere còlto dal rossore che proviene dal misfatto.

Tali cose avendo, circa quest'avvenimento, conosciuto il piissimo Paolo, se ne dichiarò pentito con il fermo sentire del suo animo, ben più valido d'ogni artificio retorico. Avendo confessato d'aver fallato e provando acerbo dolore come se avesse mancato volontariamente, ci rese tutti benevoli e pervasi degli stessi sentimenti. — E il nostro comportamento in questo non ha nulla d'ammirabile —.

Ma il piissimo vescovo Diòscoro, quando vide più moderato colui che fino allora aveva conteso con la maggior pervicacia, superiore alla sentenza dei giudici, fu superato dalla volontà, e,

lasciato all'arbitrio del piissimo Paolo lo scegliere tra le due — se trattenere o se rendere la collina —, l'egregio Diòscoro ammise molte scelte, mentre prima della confessione di costui, nemmeno una, di quelle, avrebbe consentito a sentirne.

Infatti, egli disse che avrebbe venduto soltanto la collina, e tutta la proprietà l'avrebbe commutata con qualcos'altro; e moltissime altre cose escogitò, l'altro somministrando abbondantemente vie e ragioni con le quali, chi le usasse, s'ingrazierebbe l'altro. Ma questi disprezzava le altre ragioni, bramoso di succedere anch'egli nella stessa vendita ch'era offerta a Diòscoro, e in suo luogo essere immesso di pieno diritto in dominio di tutta la proprietà. E così divenne padrone, oltre che di tutta la collina, dei vigneti e degli uliveti; a colui perciò toccò, invece della proprietà di questi, la magnificenza — e la proprietà maggiore fu rilasciata, in cambio della minore, e, bene comune dell'uno e dell'altro, il perdurare delle leggi evangeliche e la carità fraterna, che ogni altro precetto contiene e racchiude, com'esse proclamano...» (lett. 67).

III. Ma io avevo anche l'incarico di sentire Giasone, che diceva d'essere stato immeritevolmente ingiuriato da un confratello prete.

Le cose dunque stanno così.

Giasone convinse d'ingiurie Lamponiano : questi, prevenendo, confessando, d'essere convinto, scontò la pena, separato dalle adunanze ecclesiastiche. Benché per il dolore dell'animo abbia versato lacrime, e il popolo abbia supplichevolmente chiesto ch'egli fosse perdonato, io tuttavia insistetti in quanto avevo una volta deciso, alla sede pontificia rimettendo il diritto e la autorità d'assolverlo. Questo solo mi riservai : che se sovrastasse a Lamponiano la necessità ferale e sembrasse imminente il giorno della morte, in tal caso concessi a tutti i sacerdoti che allora fossero presenti, di riammetterlo alla comunione della Chiesa. Per quanto sta in me, nessuno muoia stretto da vincoli ecclesiastici. Ma se guarirà, risia sog-

getto alle stesse pene, e aspetti dall'umanissima e divina anima tua il documento del perdono.

Ma nemmeno Giasone è del tutto scevro di colpa : uomo pronto di lingua, s'imbatté in un uomo più pronto di mano e, come si suol dire, per cosa da nulla scontò molto gravemente il suo parlare.

Per quel riguarda i denari — di cui trattai prima — Lamponiano confessa si averli, né brama d'esser punto aiutato per il naufragio per cui il contratto decadde : chiede soltanto il tempo necessario a trarne i frutti, e, trascurando ogni altra, cosa, s'impegna a far tutto il possibile per rendere i denari dei poveri. Erano centocinquantasette sesterzi... » (lett. 67).

IV. Una cosa ancora resta da fissare, e poi ho finito.

Girònzolan da queste parti certi 'Vascantisi' (sopporta che io parli un poco barbaramente per dire più chiaramente, con voce corrente, l'iniquità di certuni). Essi non vogliono aver nessuna fissa dimora, avendo abbandonato quella che prima avevano, non già allontanati per disgrazia, ma spontaneamente mutando luogo. Inoltre, vagando per dove c'è maggior guadagno, godono anche d'onori.

A me pare, padre reverendo, che convenga interdire, a chi avrà abbandonato la propria sede, l'accesso a ogni chiesa; non ammetterli all'altare se prima, tornando, non si saranno recati dove erano; non invitarli alle sedi più importanti, ma lasciarli, quegli uomini volgari, nelle sedi minori, quando abbiano fatto irruzione nella chiesa : ché, faranno presto — costoro che cercano onore dovunque, piuttosto che là dove è conveniente — a tornare dove il loro onore corse dei rischi, preferendo di goderne almeno là, che non goderne in nessun luogo.

E, se così parrà alla tua sede augustissima, in pubblico converrà trattarli come privati : come poi trattare con essi in casa e in privato lo sapremo quando dalla tua pietà sarà data una risposta circa la questione che ti posi a proposito d'Alessandro. Cirenense

di lignaggio, fu vescovo d'una Chiesa di Bitinia : cacciàtone in una sommossa, pur essendo libero di tornare, non ci torna mai, ma dimora presso di noi...

Infine, prega Dio per me, e pregherai per un derelitto, privo di tutto e che un tale aiuto desidera, poiché mi vergogno di pregare io stesso Dio per me. Tutto mi va a rovescio per la sfrontata temerità con la quale, uomo involto nei peccati, educato fuori della Chiesa, formato a un diverso genere di cultura, ho osato accostarmi all'altare di Dio » (lett. 67).

Un'altra lettera sinesiana al patriarca d'Alessandria fa pensare a un incarico analogo al precedente, del patriarca a Sinesio : ma stavolta l'argomento è edificante e confortante.

Scrive Sinesio : « A Teofilo. Quelli d'Olbiate, una popolazione villereccia, quando il beatissimo padre Atamate dopo tant'anni di vita e di sacerdozio venne a morire, ebbero bisogno che si creasse un vescovo. Invitato perciò a unirmi a loro per decidere di ciò, mi congratulai con loro che trasceglievano tra molti e tutti buoni. Infatti venne eletto a unanimità — e alla sentenza delle moltitudini s'erano uniti anche due piissimi vescovi, con i quali era stato educato, e per mano d'uno dei quali era stato ordinato sacerdote.

Nemmeno io ignoravo del tutto Antonio, anzi lo lodai per quanto conoscevo de' suoi detti e de' fatti suoi e, senza aggiungere, alle lodi di cui lo sapevo degno, quelle che gli sentivo tributare, lo dichiaravo eletto anche per il mio voto, lietissimo se l'avrò collega e compagno nell'episcopato.

D'una cosa ancora c'è bisogno : della tua sacra mano : di questo solo abbisognano quelli d'Olbiate. Io, poi, ho bisogno di preghiere » (lett. 76).

XVI. Andronico di Berenice.

Leggendo e più trascrivendo la lunga precedente lettera la

commozione ci prese, all'accenno che Sinesio s'accingeva a recarsi ai confini dell'arsa Libia mentre celebrava i funerali d'un figlio. Un'altra sua lettera suscita in noi un guizzo d'emozione : Sinesio raccomanda a Teofilo uno : afferma ch'egli ha « onorato la virtù sin da' suoi teneri anni »; accenna a un'accusa che grava su di lui, e conclude : « Circa l'accusa che gli è stata fatta, compia il suo destino : ma non giungere mai all'uccisione per quanto giusta sia » (lett. 68).

Evidentemente, non il patriarca d'Alessandria sarebbe mai giunto a condannare a morte quell'infelice : egli avrebbe dovuto, potendo, sottrarlo a quell'estrema pena.

Riandando l'attività episcopale di Sinesio ci s'imbatte ancora in una lettera tra le più toccanti, letterariamente : quella in cui ricostruisce il dialogo tra Ulisse e Polifemo, all'astura ricerca, quello, del modo d'ottenere dal Ciclope licenza d'uscire dalla grotta. La narrazione sinesiana non fa rimpiangere quella omerica. Ma la lettera ha importanza per la conclusione. Sinesio, trapassando dall'antro del Ciclope monòcolo alla Pentapoli, trova qui un tristo, Anastasio Idrocòmete, che all'audacia sembra Ciclope e ai fatti Sìsifo, caduto perciò in mano alla legge. Sinesio gli dice che non sarà certo lui a scioglierlo e a spezzare le porte della sua carcere, questo non essendo l'ufficio del vescovo.

E, acceso di zelo civile, continua e conclude severamente : « Ma io per quanto dipende da me, m'adopro a tutto potere, e nelle preghiere pubbliche e private chiedo che la giustizia prevalga su l'ingiustizia e che la città sia purificata d'ogni iniquità. E questo è lo stesso, che malamente perisca tu perverso e ogni altro simile a te.

E ciò ti sia argomento di come io sarei se qualcosa mi fosse lecito di fare, ma nulla essendomi lecito, t'auguro cose crudeli » (lett. 121).

Si sente, qui, lo spartano. Gli è che i tempi non consentivano,

almeno ai responsabili della cosa pubblica, né sentimentalismi né debolezze, dal momento che, dopo gli Ausuriani e i Batti e i Maceti, infestavano la Pentapoli uomini come Andronico di Berenice. Egli apre un altro capitolo, nella vita di Sinesio, fosco e luminoso : naturalmente, la foschia è tutta androniciana e la luce tutta sinesiana.

Sinesio fu fatto vescovo nel 411 (F. Valori **op. cit.** 69; P.F. Ròvere **op. cit.** 20 : egli dice verso la fine del 410). Da miei calcoli risulterebbe che Andronico era al potere nello stesso anno 411.

L'anno stesso il vescovo di Tolemaide lo scomunciò. E in una lettera ai vescovi dice perché.

« Nessuno consideri o chiami cristiano Andronico di Berenice, nato, educato, fatto adulto per l'infelicità della Pentapoli, che col denaro comprò il comando della patria : come maletto da Dio sia allontanato con tutta la sua famiglia da tutta la Chiesa.

Non soltanto perché egli fu la piaga ultima della Pentapoli, dopo il terremoto, dopo l'invasione delle cavallette, dopo la peste, dopo l'incendio, dopo la guerra, perseguitando accanitamente chi sopravvisse a tante sciagure; per il primo, a carneficina introducendo in provincia orribili tormenti e forme di supplizio — e così si potesse dire che questi soltanto egli usò —; il ditale storcitore dei piedi, lo strettoio, la pressa del naso, le tenaglie per strappare le orecchie e le labbra : sì che coloro che la morte sottrasse a tale esperimento o spettacolo e coloro che prima furono portati via dalla guerra o che pur malamente furono liberati da questi mali furono detti beati.

Inoltre, primo da noi, e solo, Andronico maledisse Cristo con i fatti e con le parole. Con i fatti, affiggendo alle porte della chiesa suoi editti; con le nefande sue scelleratezze precludendo la preghiera alla mensa inviolata, minacciando ai sacerdoti ciò che avrebbero temuto di minacciare Fàlare d'Agrigento o Cefre l'egizio o Sennacherib di Babilonia, colui che mandò in Gerusalemme chi oltraggiasse Dio e Ezechia.

Quel giorno Andronico ricrocifisse Iddio. Infatti, a contumelia di Cristo quest'infame libello pendeva dalle sacre porte della chiesa. E il sole vide queste cose e gli uomini le lessero, non già reggendo lo Stato Claudio Tiberio, che mandò Pilato a procuratore dei giudei, ma mentre regge lo scettro di Roma la pia discendenza di Teodosio, dalla quale furtivamente Andronico, con la stessa mente di Pilato, brigò per avere il comando.

Eran di riso agl'infedeli che passavano, quelle tavole, come le iscrizioni sovrastanti la Croce di Cristo lo erano per i giudei, benché le medesime iscrizioni della Croce, sebbene dettate con animo irreligioso, tuttavia per le parole medesime erano di grande onore a Cristo, proclamandolo Re, mentre qui la lingua concordava con l'animo.

E quel che seguì fu ben più acerbo di quell'affissione.

Non appena gli si offerse un pretesto contro un nemico (le inimicizie erano sorte perché questo anelava a nozze ch'egli vietava) insisté nel torturarlo, con sì furiosi supplizi, che non devono essere tramandati alla memoria dei posteri, ma cessino, come son cominciati, con lui, e solo siano tramandati a voce ai magistrati successori di Andronico.

Ma mentre quel nobil uomo, che non aveva commesso ingiustizia alcuna, a tuttavia, infelice, veniva scarnificato — e mentre ciò si faceva sotto l'ardente sole meridiano, perché egli fosse ucciso avendo unici testimoni i carnefici —, avendo sentito il compianto della chiesa per colui, e nessun altro indizio, sùbito, uditolo, corremmo da lui a piedi, per partecipare alla sua infelicità.

Come Andronico lo riseppe dètte su le furie perché un vescovo osava aver pietà d'un suo nemico, e con molte empie audaci inso-

lenti millanterie, istigato da Toante, il più audace de' suoi sgherri, che gli era ministro alle pubbliche sciagure, finalmente la sua scelleratissima voce mise termine al suo furore. Disse : — Invano ho riposto qualche speranza nella Chiesa, e nessuno sfuggirà alle mani di Andronico, nemmeno se afferrasse il piede di Cristo —. Questo egli ripeté tre volte, quell'uomo dalla mente rozza.

Dopo ciò non c'è più nulla che ci possa indurre a commuovere costui, ma come membro inguaribile dev'essere amputato da noi, perché il suo contagio non corrompa ciò che è sano. Una macchia infatti si comunica facilmente, e chi tocca cosa impura contrae scelleratezza e colpa.

Per questo la Chiesa di Tolemaide comanda a tutte le Chiese sorelle d'ovunque : — Nessun luogo santo di Dio si apra a Andronico e a' suoi alleati. Ogni casa o chiostro religioso gli siano chiusi. Il diavolo non ha parte alcuna in paradiso. Se vi s'introduca, sia espulso. Anche a tutti i privati e li magistrati comando che non dividano con lui né tetto né mensa, e prima di tutto ai sacerdoti : non li salutino, coloro, da vivi, né morti cèlebrino i loro funerali.

E se mai qualcuno disprezzasse la Chiesa, perché d'una piccola città, e accogliesse coloro ch'essa ha condannato, pensando di non dover obbedire a una povera Chiesa, sappia che in tal modo avrà infettata la Chiesa che per volere di Cristo è una. E se in questo luogo un levita o un sacerdote o un vescovo, presso di noi, sarà considerato favorevole a Andronico, non gli porgeremo, nemmeno a lui, la mano, né mai più mangeremo alla stessa mensa : tanto meno, poi, celebreremo gli arcani misteri in comunione con coloro che avranno comunque parte con Andronico e con Toante » (lett. 58).

In un'altra lettera, pur senz'arrivare a dipingere integralmente

e adeguatamente il quadro delle scelleraggini d'Andronico e de' suoi sgherri — la cui ombra aduggiante si rifletteva così fortemente e dolorosamente nell'animo sensibilissimo del vescovo di Tolemaide —, scrive ancora, Sinesio : « mi son sopraggiunti tutti i mali, ché, di tutti è causa Andronico, caporione di molti diavoli, mai sazio di sventure, che infetta gli ultimi resti della patria.

Ohimé ! ohimé ! si udiva per tutta la piazza. Gemiti d'uomini, urla di donne, pianti di bambini. Fece apparire la città una città conquistata : abolendo quella che ne era la parte più bella, fece che la si chiamasse luogo di supplizio; il portico regale dove una volta si proclamava la giustizia lo rese una carneficina; questo altare, questa mensa stessa dètte ai demòni della vendetta, fattosi egli medesimo uno di loro. Oh, quanti egli accolse alle lacrime quasi a un civico convivio ! Quali Taurosciti, quali Spartani mai resero culto alla loro Diana con altrettanto sangue di ferite ?... (lett. 57).

« Lo scandalo di un governatore scomunicato e quindi nell'assoluta impossibilità d'adempiere ai suoi doveri d'ufficio — dovendo lo scomunicato essere evitato da tutti — mosse finalmente il governo di Bisanzio, rimasto fino allora insensibile alle proteste e alle suppliche sempre più insistenti che Sinesio aveva inviato segnalando le colpevoli azioni di Andronico. Questi venne sostituito e tratto in arresto. «Al suo posto era nominato governatore Anisio» (F. Valori op. cit. 70-71).

XVII. La crisi di Sinesio.

La sensibilità dell'animo di Sinesio ci è ormai nota : altrettanto nota ci è la sua fortezza e intrepidezza. Può perciò essere parsa

inverosimile una nostra espressione delle pagine antecedenti accennante a una sua crisi, e così questo titolo. Ma essa affiora dalle pagine dell'epistolario, anche se non è univoca e esplicita la sua espressione. L'articolo, fin qui non è che il tessuto delle parole di Sinesio. Ora vorremmo azzardare una congettura che le sue stesse parole, tuttavia, autorizzano, anzi suggeriscono e documentano. Ipotetico resta soltanto questo : voleva egli rinunciare al l'episcopato ? o voleva rinunciare all'ufficio di governatore civile ? (duce era Anisio — né risulta un suo collega appunto con funzioni civili —) e vi rinunciò, di fatto, Sinesio ? D'una'preziosa collaborazione' da Sinesio prestata a Anisio parlano i suoi biografi che vengo consultando.

Abbiamo visto quanta era la riluttanza di Sinesio a accettare l'episcopato. Abbiamo letto della sua propensione a rinunciarvi per poi mischiarsi tra la gente comune o, addirittura, emigrare. Pur esperto della vita, specialmente della Pentapoli; pur navigato e preveggente, quel Sinesio così trepido davanti all'episcopato, non previde certo ch'esso l'avrebbe gettato in frangenti che, già tanto gravi per le tornanti incursioni barbariche, la tirannia d'Andronico e degli sgherri suoi avrebbe fatto tanto tragici.

Non saranno state certo le sue riserve di neoplatonico circa la filosofia-teologia cristiana (origine dell'anima, fine delle cose del mondo, risurrezione dei corpi) : queste riserve saran cadute, forse insensibilmente, col passar degli anni e l'approfondimento della dottrina cristiano-cattolica : non saranno state queste riserve a determinare la sua crisi.

Bisogna, forse, l'origine della crisi sinesiana ricercarla ancora in Andronico, ch'egli ha detto « causa di tutti i suoi mali » (lett. 57). Per colpa di lui, da allora, scrive dolorosamente Sinesio, « Non

più la solita soavità nella preghiera : una parvenza di preghiera sussiste, ma io sono portato via dal pensiero ovunque c'è fatica, distratto da ira, dolore e da ogni specie di sentimenti. E tuttavia la mente torna a Dio, ma la lingua deve dare agli uomini ciò che rientra nelle consuetudini umane. Se mai fui convinto che fosse disgrazia non poter essere raccolto durante la preghiera, anche di ciò, ecco, ho fatto esperimento. E tuttavia da una tanta mutazione del vivere non ebbi questo soltanto di male, d'essere, dall'azione distratto dalla meditazione, ma — ignaro finora, fino a pochi giorni orsono, di lutti — vidi morto colui cui desideravo premorire... insieme con una molesta sensazione dei mali presenti sopravvenne il ricordo dei beni passati, il pensiero che da questi siamo caduti in quelli, e conduco una noiosa vita, spogliato nello stesso tempo di tutti.

E quel che è il massimo di tutti i mali e ciò che mi fa addirittura disperata la vita, mentre finora non solevo aver repulsa nelle mie preghiere a Dio, ora per la prima volta sento d'aver pregato invano. Vedo la casa infelice, sono costretto a abitare in una patria oppressa dai mali. Insomma, esposto a tutti, in modo che tutti versino nel mio seno le loro disgrazie, e ciascuno pianga presso di me i danni, io li accompagno con inutili lamenti. Anzi, arrossisco, perché un cittadino, colpito dalla disgrazia d'essere derubato del pubblico denaro, dopo aver ridomandato più di diecimila statèri del suo, ha deciso poi d'uccidersi per gli altri mille : per questo, o, piuttosto, per me. Infatti per me egli ha chiuso il ladro in un castello inespugnabile — come quello in cui i poeti favoleggiano legati i Titani —. E perché non sia liberato per opera mia — come egli dice — bisognando, oggi per il quarto giorno, proibirgli d'aver cibo, ha proibito ai custodi di lasciarli portare del pane. E ora tutti hanno sentito colui urlare che sarà più utile a lui che ha mille statèri dello Stato la morte futura. E perciò a coloro che vanno da

lui per offrire i campi all'incanto, inutile timore, li terrorizza e ne li distoglie con ogni mezzo : e penso che non si vuole già l'oro dell'uomo, ma la sua uccisione.

E io né sono così forte da attaccare quei muri saldissimi, né tanto solerte e industrioso da introdurmi e strappare dalla disgrazia quell'uomo. Infatti, come dicono, nessuno può essere introdotto da chiunque. Ché, i carcerieri divengono quello che naturalmente sono, e ora conformano il loro vivere sul modello d'Andronico che sembra essere capo per imporre ignominia alla Chiesa.

Io non tengo gran conto di quanto egli briga contro di me. Anzi, devo essergli grato, se per amore di Dio l'infamia fatta a me so accettarla come martirio. Voi ricordate come colui si comportò verso di me che, per non dir altro, nacqui da antenati sì illustri. (Infatti da Euristene che condusse da Sparta i Dorienti, nei documenti pubblici le successioni genealogiche arrivano fino a mio padre) : lui che non mi può dire nemmeno il nome dell'avo, anzi, nemmeno del padre, come dicono, se non per quel che se ne può congretturare; e, di pescatore, vien, poi, elevato al cocchio di prefetto.

Si vergogni dunque chi dal suo splendore in città arguisce della sua oscurità e insufficienza. Io poi fino al sacerdozio fui saziato d'onori, né mai fui tocco d'infamia. E adesso, onorato, non ne godo; disprezzato, non ne soffro. Né l'una cosa né l'altra pare toccarmi da parte di chi me la rende, ma entrambe appartengono a Dio. Perciò costui, rotto a ogni delitto audacemente, non riuscendo a impressionarmi né col suo dire né col suo fare, innalzandosi al di sopra di noi, affronta Dio stesso e, in presenza della gente adunata e circostante, disse le cose che voi leggerete in quella lettera che fu inviata a tutta la Chiesa cattolica.

Vi son nature sì rozze e sì sprovviste d'educazione che, una volta arrivate al potere, vogliono, come si suol dire, toccare con la testa il cielo. E sia, abbia il potere, usi dell'indole sua, del suo tempo, uccida, incarceri arbitrariamente i cittadini. A noi basta, perseverando nell'ordine in cui Dio ci ha posti, separati dalla compagnia degli scellerati,

sebare gli orecchi immuni da nefandi impropèri,

e, pur disperando di poter proteggere gli oppressi, trovare presso il popolo la giusta scusa per gli sforzi pur invano compiuti, aver dato prova di coraggio e d'incredibile costanza. E intanto, attraverso le cose medesime, io vi ho presi a testimoni del mio asserto : che mettere insieme la forza dello Stato e il sacerdozio è un voler cucire cose che, pur cucendole, non le si possono tenere unite.

I prischi tempi ebbero sacerdoti ch'erano anche giudici. Egizi e ebrei per molto tempo sottostettero all'autorità dei sacerdoti : poi, quando — così mi sembra — l'opera divina acquistò umana usanza, Dio disgiunse le due forme di vita : una di queste fu costituita in cosa sacra; l'altra in regno e imperio. Alcuni egli volse al fondo delle cose infime; altri associò a sé : quelli furono assegnati alle faccende, e non all'orazione : ma degli uni e dagli altri, ciò che è onesto e conveniente Dio lo esige.

Che cosa dunque tu vuoi ripristinare ? perché vuoi congiungere cose che sono da Dio disgiunte ? che ci può esser di peggio del tuo chiedere, non già che noi comandiamo, ma che, comandando, ci depraviamo ? Hai bisogno d'un protettore ? va' dal vescovo della città : non perché necessariamente debba pienamente raggiungere l'intento, ma perché io faccia a tal fine quanto mi è possibile.

Se uno non mi consentirà di riposare come potrei, forse riposerò un giorno : ritraendo la mente dal basso delle cose umane, simultaneamente la si volge a Dio. La contemplazione è il fine del sacerdozio, se non gli si vuole attribuire falsamente tal nome. Ma la contemplazione e l'azione non coesistono mai insieme, ché, l'impeto della volontà va verso l'azione, e perché nessuno può essere senza qualche passione. Ché, non è lecito a chi non è puro toccare ciò che è puro : — Riflettete, e sappiate che io sono Dio —.

Di riflessione abbisogna, chi attende insieme alla filosofia e alle cose sacre. Io non biasimo i vescovi che vengono destinati agli affari. Ma sapendo che io a malapena son sufficiente all'uno dei due còmpiti, ammiro coloro che possono adempierli entrambi. Non è delle mie forze servire a due padroni. Ma se vi sono di quelli che possono conciliare il comando civile e il sacerdozio, giustamente essi possono essere fatti sacerdoti e essere a capo dei cittadini. Il raggio del sole pur se tocca il fango resta puro e immacolato. Io, per fare lo stesso, ho bisogno del fonte e del mare.

Se un angelo, tuttavia, per oltre trent'anni potesse familiarizzare con gli uomini senz'essere contagiato dall'infima bassezza delle cose, che necessità ci sadebbe che discendesse il Figlio di Dio ? Tuttavia c'è certa ricchezza e abbondanza di forze nello stare a contatto delle cose inferiori senz'esserne in alcun modo corrotti. E questa è manifestazione e lode di Dio. L'uomo che diffida della propria debolezza questo deve chiedere a Dio.

Entro questi limiti io resterò con voi.

Né peraltro io m'esimerò dal giudicare dei tempi e delle convenienze. In modo che, quando convenga, io m'abbassi alle cose inferiori. Conto di poter fare un bene immenso comportandomi modestamente e prudentemente : come Dio stesso suol fare. Lasciarsi

prendere totalmente, e totalmente aderire alle cose, questo invece è male né s'addice alla natura di Dio né a chiunque s'ispira al modello divino.

Se prima accettai le sollecitudini e le brighe del denaro e degli averi; se m'avete visto accettare i resoconti delle opere giornaliere e annue, e poi lèsino il tempo per le cose che vi riguardano, allora sono vano e arrogante, enon chiedo scusa. Ma se già avanti, messa da parte ogni sollecitudine perfino di cose mie, ho posta la mia vita nell'attività mentale, che c'è di strano se ora vi chiedo le stesse cose ?

Ma siccome per questo appunto non vi garbiamo, come invece vi garbano quelli che sanno attendere similmente alle cose spirituali e alle materiali, voi stessi dovete provvedere a ciò che più è conveniente alla città, alla Chiesa e a me stesso.

Non già che io sconfessi il sacerdozio : ma come non fui filosofo popolare né mai mi esibii negli spettacoli comici né mai feci scuola, e tuttavia io ero allora e io sia filosofo; così nemmeno voglio essere un vescovo popolare. Non tutti possono far tutto.

Io, raccolto in me stesso e in Dio, scendendo dalla contemplazione, non posso già intrattenere assurdi colloqui con questo e con quello, né usare con gente volgare, ma con coloro che per indole naturale o per buona educazione antepongono la mente al corpo. Trattando per lungo tempo faccende, giovando a me stesso, posso a lungo andare essere utile; ma se vengo da quelle oppresso, non solo dimentico me stesso, ma nuoccio alle stesse faccende. Infatti, non è possibile far bene e ordinatamente cosa che a uno è in odio : ché, chi non con tutto il suo sentimento fa qualcosa cui è addetto, ci va languido e triste : al contrario di chi è alieno dallo studio e

non può essere affatto libero dagli impicci e raccogliersi. Ma per poco che uno valga è utilissimo al popolo e capace di moltissime cose e atto a affrontare molte brighe — uno che, predispostovi da natura, s'ingegna di darsi a tali cose. Uno così fatto, deve anche essere lieto delle occupazioni e preoccupazioni che lo traggono a loro; perché esse gli offrono materia al suo naturale : ché, eccellente aiuto al compimento d'una cosa è amare ciò che si fa.

Voi dovete perciò scegliere uno che sia più d'ogni altro utile, e eleggerlo al nostro posto, al quale noi a malapena bastiamo.

Perché ora gridate ? Perché ancora non lo si è fatto non lo si deve fare nemmen ora ? Il tempo seppe trovare molte cose ch'erano necessarie e molte ne corresse. Non tutto si deve fare sempre a un modo, e tutto ciò che fu fatto ebbe un inizio, e prima d'esser fatto non c'era. Dunque, se ancora voi non approvate questo, rimandiamolo a poi : si potrà trattare la cosa privatamente e pubblicamente... » (lett. 57).

Riflettendo attentamente su queste pagine, vagliandone le espressioni, ci pare di poter concludere che questa che abbiamo chiamata una crisi sinesiana sia poi questo : egli chiede al suo gregge — entro il quale potevano ben esserci esponenti del governo e forse lo stesso duce Anisio — o che gli sia consentito di deporre l'ufficio episcopale; o che, conservando questo, lo si scinda da ogni responsabilità politica; o che gli sia dato un coadiutore : questi s'addosserà la parte materiale, civile, 'politica' dell'episcopio; Sinesio si riserverà la parte prettamente episcopale, ossia spirituale.

XVIII. Ultime opere letterarie di Sinesio.

S'ha motivo di credere che nessuna delle richieste di Sinesio

abbia avuto esaudimento, ma, poiché non c'è vantaggio notevole collettivo — sia, questa collettività, locale o nazionale, ecclesiale o civile — senza il sacrificio dei migliori, poiché Sinesio era di questo numero, per il bene religioso e civile della Pentapoli egli dovete continuare a sobbarcarsi a un peso eccessivo e perciò logorante : non per nulla un uomo che, pur assiduo allo studio, alternava a questo cavalcate e cacce; che, nemmeno da vescovo avrà dimenticato ciò ch'egli stesso aveva scritto (« affinché l'animo e il corpo sien sani, bisogna affaticarsi e chiederlo a Dio » lett. 57) e vi si sarà, almeno nei limiti consentitigli, attenuto; non per nulla ebbe tronca sì presto la vita.

Di questa preziosa vita, dopo quello che potremmo chiamare l'atto primo, trascorso, com'egli scrisse, « come una festa » negli studi e nel filosofare, alternandovi giochi, ossia cavalcate e cacce; come il secondo — laborioso, faticato, preoccupato —, così sarà il terzo.

Prima che s'apra questo terzo atto del dramma che è la sua vita, l'approssimativa coronologia e il contenuto stesso delle opere suggeriscono di situare qui gli altri suoi scritti e cioè, in sostanza, gli ultimi che a Sinesio sono attribuiti dalla critica, senz'ombra di dubbio : gl'**Inni**, la **Catastasi**, la **Costituzione**, la **Breve conferenza per la vigilia del natale del Signore**.

La **Catàstasi** e la **Costituzione** evidentemente seguono gli altri scritti or ora elencati, contenendo le vicende della Pentapoli e le gesta che stiamo per narrare e che ci conducono al chiudersi della esistenza terrena dell'autore.

La **Breve conferenza** — e qualche altro breve scritto omiletico-esegetico-scritturistico — s'intrecciano al sacro ministero del

grande vescovo e non abbisognan nemmeno d'una precisazione cronologica, anche se fosse possibile.

Al punto in cui siamo arrivati della biografia sinesiana abbiamo già oltrepassata la data della composizione degl'Inni, composti in preparazione della sua recezione del battesimo e consacrazione episcopale (Encicl. Ital. voc. Sinesio).

Uno di questi Inni, l'ultimo, pare apocrifo : restano nove.
Rimandando a Nicola Terzaghi Synesii Cyrenensis hymni metrici (in Atti della R. Accademia di Napoli, 1915) per una più specifica e accurata conoscenza degl'Inni, qui io mi limiterò a un accenno contenutistico generico.

Sono dunque nove, gli autentici, e la preghiera ardente e commossa si fonde con il lirismo, anzi, si fa essa stessa lirica : c'è dell'apollineo, e quando esso scarseggia nella forma, è pur sempre nel contenuto, ogniqualvolta almeno il poeta s'affissa in Dio, nell'Una o nell'Altra o nell'Altra delle tre divine Persone.

Questo augusto argomento è tèma degli inni IV, VI, VII, VIII, IX — in VII-IX cantando, Sinesio, più particolarmente il Verbo incarnato.

Questi stessi e più gli altri Inni contengono calde preghiere per l'incolumità spirituale e fisica del poeta e degli uomini in genere, aneliti ascetici; allusioni ambientali e storiche affiorano qua e là con rapidità e concisione lirica, appunto; e nel lunghissimo Inno III s'accenna al « triennio di soggiorno in Tracia, nelle vicinanze della reggia » e — cosa toccante — l'autore soggiunge che colà « sopportò fatiche e pene da compiangere, portando quasi su le spalle la materna patria ». « Irrigai » — continua Sinesio —

« il terreno, di giorno in giorno, del sudore delle membra affaticate; bagnavi, di notte in notte, il letto di lacrime ». Non solo, ma « Quanti templi son là » (in Bisanzio-Costantinopoli) « serbati al culto sacro, tutti li visitai e, in ginocchio, irrorando di pianto il pavimento, supplicai che il mio viaggio non fosse vano ».

E dopo Dio, i grandi del Paese. Supplicai — continua Sinesio — « tutti i ministri che, quasi semidèi, governano la ferace terra trace; quandi comandano in Calcedonia ricca di mèssi : tutti costoro che tu coronasti di splendori quasi angelici udirono le mie suppliche, e mi coadiuvarono nelle mie fatiche. Allora nemmeno la vita mi era più gradita mentre il mio paese era agitato e giaceva nella tristezza da cui, o re, l'hai risollevata » (Inno III, vv. 430-478).

Se Dio, Cui salgono le ardenti preghiere di Sineso, me l'accorderà benignamente, tornerò su quest'Inni e, traducendoli in lingua italiana, rivelerò a tant'altri le impensate bellezze dell'anima e della penna sinesiane.

La **Breve conferenza** che il vescovo di Tolemaide dové tenere nella chiesa della sua cattedra, sembra mùtila : infatti è di sola una colonna e mezzo del già citato volume greco-latino, **Op. omn.** 295-296. S'apre innegiando alla sacra notte natalizia, e subito l'oratore si volge ai cristiani che quella mistica notte la luce inonda, esortandoli a serbarsi puri — non come coloro che tramano insidie al prossimo, che diffondono calunnie, che lanciano accuse : queste non hanno risparmiato nemmen lui, Sinesio. « Perché quest'anno non mi è rimasto punto argento, perfino queste nostre sofferenze vogliono trasformare in perfido guadagno ». Pur dalle mutile pagine guizzano tristi bagliori su i lugubri giorni che la Pentapoli visse, viveva allora.

Un'altra opera dobbiamo lamentare perduta : i **Diari** dei quali il lettore ricorderà l'accenno contenuto nella lettera 4. Al termine del racconto che del viaggio di ritorno da Alessandria in patria fa al fratello Evozio, Sinesio, infatti, scriveva : « Sebbene se volessi adattare questa mia lettera ai miei **Diari** che compilai con cura ci dovrei pensare su moltissimi giorni... » Un'opera cui si dànno tante cure formali non è il brogliaccio che uno appunta per sé : è un'opera letteraria.

Essa, dunque, è perduta.

Ma ora, prima d'illustrare le ultime due brevissime ma dense opere che di Sinesio ci restano — la **Catastasi** e la **Costituzione** — un preludio alle gesta che ne sono occasione e argomento.

Ma prima ancora, la conclusione del capitolo non immediatamente precedente ma del XVI. Leggendolo il lettore non poté non ammirare Sinesio in quel suo intrepido troncare il passo alla tirannia androniciana. Ma ancor più dovette ammirarlo nella sua misericordia. Ecco una nobilissima pagina che somiglia a una casta aurora che segua al tenebrore d'una lunga notte.

Gli appelli a Bisanzio-Costantinopoli o, meglio, la scomunica ha fatto cadere il tiranno; l'ha costituito in disgrazia della corte bizantina e, con la disgrabia, innumerevoli safferenze hanno incòlto Andronico. Sinesio ne ha compassione e scrive al patriarca d'Alessandria, l'arcivescovo Teofilo :

« La giustizia se n'è andata di fra gli uomini. Andronico prima ingiuriava, ora è ingiuriato. E' costume della Chiesa innalzare gli oppressi e deprimere i superbi : perciò essa detestò quest'Andronico, e ben a ragione, per quello ch'egli aveva commesso, fino a

arrivare a scomunicarlo. Ma ora ne ha pietà, come sentisse ch'egli ha sofferti mali più gravi di qualsiasi imprecazione — al punto che per lui siamo riusciti importuni anche a uomini potenti.

Ma sarebbe acerbo se noi non potessimo mai starcene assieme ai felici e agli eccellenti ma dovessimo sempre piangere con quelli che piangono.

Perciò l'abbiamo sottratto a un tribunale funesto e per il resto gli abbiamo alleggerito di molto le disgrazie. E se la tua pietà lo degnerà di una qualche tua premura e sollecitudine, sarà per me una prova ch'egli non è del tutto abbandonato da Dio ù (lett. 90).

XIX. Anisio e dopo Anisio.

Deposto e incarcerato, nel 411, Andronico, gli succede come governatore della Pentapoli Anisio : siamo dunque a cavallo del 411-412. I gravi mali della Pentapoli erano cominciati sette anni avanti (atastasi in Op. omn. 198) : nel 404-405 : ma — scrive Sinesio — come un animale che non vuol morire, così l'infelice regione raccolse gli spiriti superstiti e comandò loro di resistere. E resistè l'anno del governatorato d'Anisio, usando egli opportunamente del braccio di tutti e specialmente degli Unnigardi.

Ausuriani e Maceti non osano percorrere il paese organizzati militarmente, ma si dànno al brigantaggio, fuggendo e poi di nuovo irrompendo... » (Catastasi loc. cit. 299).

Non è certo la tranquillità, questa, ma è il meno peggio : merito d'Anisio, come volentieri rileva, qui e altrove, Sinesio. « Come non dovrebbe — colui che per il bene comune deve innalzare pre-

ghiere — esser grato a colui che, valendosi dell'esercito, quel bene accrebbe ?... Io avevo supplicato Dio che perdesse i malvagi, gli esecrandi barbari : con l'aiuto divino questo fecero le forze d'Anisio. Più di mille cavalieri nemici avevano fatto irruzione poc'anzi : i nostri, pur inferiori numericamente, constatarono che un quinto appena supravvisse :infatti, contarono i cadaveri... e solo quaranta uomini stavano con Anisio in campo... e non voglio, qui, dir male né dei cavalieri né dei fanti cui rilasciamo le carte annonarie. Ma Anisio pensa che per ogni cosa si debba valerci degli Unnigardi : ché, essi non dettero agio ai ben più numerosi (nemici) di farla da spettatori... Con essi Anisio, commilitone e duce, celermente arriva dappertutto e, ovunque è, vince.

Se gli Unnigardi fossero, oltre quelli che abbiamo, altri duecento, oso dire che questo giovine animoso, con l'aiuto di Dio porterebbe la guerra nella terra dei barbari... » (**Costituzione in Op. omn.** 304-305).

E le benemerenze d'Anisio non sono militari soltanto. Continua la citata **Costituzione o logio d'Anisio** » « Come si comportò nelle altre cose ? Vinta la guerra, e un'altra e diversa sòrtane perfin più molesta di quella barbarica — per gli immodesti e turbolenti piaceri dei soldati e suscitata dall'avarizia e dall'insolenza dei duci — non forse lui la represse e estinse ? Soltanto durante il suo governo ogni privato cittadino se viene ingiuriato può reclamare più altamente e liberamente del soldato — ciò che non accadeva sotto molti altri duci. Chi più d'Anisio rifuggì dai doni ? lui che disprezza anche i guadagni che la legge consente. Chi più pio di lui che ogni detto e fatto esordisce da Dio ?... » (**Costituzione** loc. cit. 305).

Ahi ! ma il fausto anno sinesiano tramonta : chiamato Anisio a Costantinopoli, mentre colà egli s'avvia a diventare **Comes** sacra-

rum elargitionum — carica ch'egli riveste nel 416 — sotto i suoi immediati successori le cose novamente si turbano, e la Pentapoli si riavvia verso l'orlo della rovina estrema (F. Valori op. cit. 71-72)

Novamente distinti i poteri civili dai militari, a questi vien preposto Innocenzo, a quelli di nuovo Gennadio. Riprendono ora le dolenti note che la Catastasi echeggia tristemente. « Quelli che al tempo d'Anisio, per compiere con forzata rapidità di fuga le loro infami gesta, eran dovuti diventare 'vèliti', ora che un duce vecchio e malato è a capo dell'esercito della Pentapoli, diventano espugnatori delle città. Dopo aver rovesciato i muri delle campagne circondano, esercito organizzato, i paesi. Che non toccò ai nostri ? gli Ausiniani vestirono le loriche dei cavalieri traci, non già per necessità, ma a irrisione d'una veste e d'un ornamento. Poi usarono gli elmi dei Marcomanni. La legione romana fu ridotta a vèliti senza bagaglio militare, salvi per la misericordia dei nemici... Io commisero questi uomini, non insulto la loro disgrazia. Gli stessi Unnigardi che avrebbero potuto fare contro un esercito tanto più numeroso, affrontando, dispersi in brandelli, nemici organizzati ? »

E a questo punto su le labbra di Sinesio torna la constatazione, frequente in tempo di guerra e quando se ne fa la storia : i soldati furono valorosi e bravi; inetti furono i comandanti, « che malvolentieri lanciano quelli all'attacco, ma quando questi s'avventano come leoncelli, li richiamano e ritraggono, prima ch'essi siansi potuti saziare della corsa e della strage ferina...Comunque, il numero degli Unnigardi è insufficiente a sostenere questa guerra, perché io possa amministrare la nostra regione egevolmente » (Catastasi in Op. omn. 299).

« In quest'ultima guerra » — dice Sinesio — « non è mancato il valore né l'ardire : perfino le donne partirono in battaglia. Vidi,

infatti, spesso, una donna con la spada al fianco che intanto allattava il bambino... Intanto, quelle orde barbariche una volta disperse, ora, oltre che le città greche e le libiche, c'è pericolo che travolgano anche Alessandria d'Egitto... Quanta audacia in costoro! Hanno avvolta come d'una rete tutta la provincia, scalata ogni collina, travolta la munizione d'ogni castello, scorrazzato per tutta la regione, perquisito tutto, tratta in servitù la gente d'ogni età... e le donne trascinate via genereranno quelli che, domani, fatti soldati anzi predoni, torneranno a infestare questo paese... E a quelli d'Alessandria non importa nulla... Bastava darci buoni duci, e questi predoni avrebbero scontato le loro nefandezze. Infatti, quali sacri e pii luoghi rispettarono costoro? Hanno violato sepolcri recenti nel territorio di Barca, hanno incendiato e ridotto in rovine e macerie tutte le chiese d'Ampelitide a noi soggetta, hanno usato degli altari come di mense profane per spartirvi le carni, trafugarono i vasi sacri per usarli nei loro riti demoniaci... Rubarono pecore e buoi che, nascosti nei precipizi e nelle caverne dei monti, erano sfuggiti alla depredazione dei barbari precedenti... Si dice che si sieno arricchiti di ben cinquemila cammelli; poi, cresciuti di numero per i prigionieri che han fatto, tornano con tre volte tanti cammelli. Le cose della Pentapoli sono perite, estinte, finite, distrutte, tramontate: non ci son più affatto né per noi né per l'imperatore... » (**Catastasi** loc. cit. 300-301).

Echi di tanta tristezza di cose ci vengono anche dalle altre lettere di Sinesio, dove le sventure della patria s'intrecciano a lutti familiari del mittente. All'indimenticabile maestra di filosofia, scrive: « A te stessa e ai tuoi fortunati amici auguro salute, o beata signora, per una volta almeno volentieri rimproverandovi perché non m'avete degnato d'una lettera: m'accorgo così che son disprezzato da voi tutti, non già perché io faccia del male, ma per-

ché in molte cose sono sfortunato, e tanto, quanto sfortunato uno può essere.

Ma se potessi avere vostre lettere e sapere lo stato vostro (che certo è felice e un ottimo genio vi assiste) per solo una metà allora sarei premuto dai mali, per voi beato. Ora, tra i mali che mi son toccati questo è uno : che, privo dei miei figli e de' miei amici, son privo anche della tua divinissima anima, che io speravo si serbasse a me soltanto, compensando l'inimicizia del mio genio e superando questi flutti dei fati » (lett. 10).

« ...privo dei miei figli... ». L'ampiezza e grandezza degli avvenimenti di cui Sinesio è « magna pars », la loro stessa concitazione, ci hanno fatto sorvolare il suo primo grave lutto, che è del tempo d'Andronico. Allora, « da tanta mutazione del vivere — narra Sinesio accoratamente — non ebbi questo soltanto di male, d'essere, dall'azione, distratto dalla meditazione, ma — ignaro finora, fino a pochi giorni orsono, di lutti — vidi morto colui cui desideravo premorire... dopo che m'accadde di perdere il figlio prediletto, poco mancò che non mi facessi qualche male, tanto ero oppresso dal dolore... vinta la ragione dall'inconsideratezza e dal turbamento... non gl'insegnamenti della filosofia vinsero la presente tristezza, bensì Andronico mi volse in contraria parte, costringendomi a occupare la mente nelle sventure comuni. Così le calamità mi diventarono rimedio alle calamità, mentre dal contrario mi tirano a sé e con dolore scacciano il dolore » (lett. 57).

Questo, il primo figlio che Sinesio perdé e pianse.

Il secondo lo perdé poco dopo : è quello cui stava rendendo doloroso tributo di lacrime e le onoranze funebri quando il patriarca d'Alessandria l'incaricò di recarsi a Palebisca e Idrace a risolvere le accennate controversie episcopali e sacerdotali (lett. 67).

Ahi! nell'epistolario sinesiano risuona ora l'eco del nuovo compianto : « ...lo scorso inverno » — scrive Sinesio a Proclo — « l'unico figlio, che a conforto mi restava, me l'ha rapito. Così era destinato : che finché fossi con voi io fossi felice; assente, esperimentassi l'avversa fortuna : mi si dia, prego, qualche conforto; che io riceva tue lettere, padre, la merce più preziosa di quante se ne recano dalla Tracia » (lett. 70).

Questo terzo lutto Sinesio piange anche con l'amico Asclepiòdoto :

Ahimé ! Perché ahimé ! Soffro cose degne d'un mortale.

Il terzo e ultimo figlio è morto. Ma nel mio animo persiste tuttora l'opinione che non è né ben né male ciò che non è in nostro potere : o, piuttosto, una volta io questo lo comprendevo come dottrina, ora è divenuto realtà, nell'animo provato da molte avversità. Ma l'impeto di questo male non poteva non essere veemente. E per questo, quel dèmone cui è affidato l'incarico di nuocere alle cose mie, provvìde, prima di questo, che tu, persona a me amicissima, non fossi presente. Ma sii finalmente presente, o illustrissimo, o da me desideratissimo e il più amico di tutti gli amici... » (lett. 126).

Questo padre grande e infelice ha perduti, a breve distanza l'uno dall'altro — l'epistolario comprende solo un quindicennio — i suoi tre figli. E noi — atanta distanza di tempo, compartecipi del suo dolore, li vediamo svanire, senza saperne né il nome né l'età né l'indole né le speranze ch'essi davan di sé. E, alla ricerca di qualche elemento che ne avvivi nella fantasia l'immagine, rileggiamo a una a una tutte le lettere del padre: ma son mute. Solo, un

accenno. Al fratello muove un giorno un amorevole rimprovero : « ...perché hai vòlto — gli scrive — a un meraviglioso amore per te e per il fratello l'animo semplice e, per la stessa familiarità, facile a essere conquistato, della figlia, e tuttavia la disgiungi da te e dal figlio del fratello... » (lett. 56). Figlio del fratello : cioè un cugino della fanciulla, uno dei tre figli di Sinesio ? Quale ?

XX. Pensieri di morte e d'evasione.

La grande anima del discendente dei signori di Sparta, del brillante scrittore, del sagace diplomatico, del vescovo dal petto forte a dell'operosità insonne; questa grande anima pare ora concentrarsi e poi effondersi nella sua tenerezza di padre. Grandissima anima, che il dolore tuttavia sembra pieghi e comprima in un abbandono senza risorgimento.

Scrive alla maestra venerata : « Ho dettato questa lettera giacendo a letto, e faccio voti che tu la riceva sana e valida, madre sorella maestra, e non so come altrimenti onorificamente chiamarti, e sotto tutti questi titoli degna della mia gratitudine. La mia debolezza fisica è causata da afflizione morale. Mi consuma a poco a poco il ricordo dei figli morenti. Per Sinesio valeva la pena di vivere finché fu esente da mali. Poi, d'improvviso, un torrente di malquesti, fino allora contenuto, irrompre su di me a ogni giocondità del vivere è svanita. Oh, che io pensi sempre al sepolcro dei figli e cessi di vivere !

Ma tu sta' bene, e saluta da parte mia i beati amici, cominciando dal padre Teotècno e dal fratello Atanasio e poi tutti e chi si è unito a loro e ti sia caro.

A costui io devo essere grato, per questo stesso che ti è accetto, e costui, come amico intrinseco, saluta da parte mia.

Delle cose mie se tu hai qualche premura fai bene, se poi le non t'interessano, non interessano neanche me » (lett. 16).

E, ancora a Ipazia : « Sebbene la sorte non possa rapirmi ogni cosa, vuol però tutto quel che può :

la mi ha privato dei figli e di molti beni.

Non si strapperà ecc. cfr. dattilosritto pap. 56 righe 19-24

E' passato il tempo, quando io ero utile a' miei amici e tu mi definivi un bene altrui, che, cioè, abusavo della benevolenza che mi avevano i potenti, a utilità degli altri. Essi erano le mie mani : ora son lasciato in abbandono da tutti, se non puoi qualcosa tu. Infatti, tra i beni che non possono essere tolti io conto anche te, con la virtù. Et tu, certo, puoi sempre molto, e che tu possa, usando bellamente del tuo potere : facciano, tutti coloro che hanno benevolenza verso di te, sia privati che rivestenti cariche, che Niceo e Filolao, che sono giovani eccellentissimi e parenti, tornino padroni delle cose loro » (lett. 81).

C'è, in questa lettera, un senso di ripresa, dell'animo stanco di Sinesio : di nuovo egli s'apre alla premura per il prossimo, a soccorrere i perseguitati.

E tuttavia egli si sente non lontano dal raccogliere le sartie : si sente vecchio. « Che io poi sia — scrive a Ausenzio — tanto più

vecchio di te, vecchio addirittura, appare dalla pelle (diceva Ferècide)... » (lett. 116). La lettera potrebbe anch'essere di qualche tempo prima; ma sintomi di vecchiezza morale, ora, dovevano affiorare nell'animo di chi l'aveva indirizzata all'amico.

Infatti, egli sente il bisogno di raccogliersi; di quel raccoglimento che, se è spesso preludio all'azione, alle grandi gesta, più spesso però preludia al congedo dall'azione e dalla terra.

Questo bisogno nuovo sinesiano si tradisce nell'elogio della vita monastica.

Scrive a un amico Giovanni : « Io ti penso felice oltre ogni voto, che, abbandonando noi uomini

d'Ates nei prati, vaganti attraverso la notte tenebrosa,

involti nelle preoccupazioni terrene, elevandoti sopra di esse, mentre eri ancora qui, ti allontanasti : hai intrapreso un felice genere di vita, se il tuo amico Gano non pensasse di dover mentire un pochino nel riferirci e narraci le cose tue. La benevolenza infatti suole occultare specialmente la verità.

Questo Gano, dunque, t'attribuisce un genere di vita monastico, e l'essere stati i libri occasione al tuo ingresso in città ne è conferma. Aggiunse inoltre quanto grande sia in te l'ardore della mente per la teologia e racconta pure che tu vesti una scura palandrana. E niente di male, se fosse candida : ché, dedicato e consacrato a una splendidissima natura sarebbe piuttosto ciò che, in quel che si percepisce coi sensi, anche per i piccoli è più lucido.

Ma se tu hai approvato il colore scuro per imitare coloro che lo usarono prima di te, lodo tutto ciò che s'intraprenda per Dio. Infatti, ciò stesso in grazia di cui si fa, dà a chi lo fa, che sia ben fatto ciò che da lui è fatto: la virtù è nella stessa volontà.

Perciò noi ci congratuliamo con te, che d'improvviso e tumultuariamente sei giunto a quel termine, alla cui porta, per così dire, noi prima con fatica appena bussiamo.

Tu prega con noi, affinché anche noi arriviamo una buona volta e conseguiamo qualche guadagno dalle sollecitudini e nelle veglie della filosofia, che non logoriamo invano la vita tra i libri.

Conduci sana e incolume la vita, o egregio uomo » (lette. 147).

Certo più recente e più derivante dallo stato d'animo conseguente alle recenti sciagure della Pentapoli e del triplice lutto familiare è l'analogo accenno contenuto nella citata dolente lettera all'amicissimo Asclepiòdoto : « Sono alla ricerca d'un'idria o d'un orcio marmoreo per aver acqua fresca in quantità : tanto più grandi saranno, tanto meglio : ché, li collocherò presso il fiume Asclèpio : mi stabilisco, infatti, presso il cenobio : preparate perciò vasi puri e santi. E speriamo di cominciare con Dio l'opera » (lett. 126).

Questi stessi pensieri d'evasione dai lutti familiari e cittadini, anzi dalla stessa Pentapoli, che gli dèttano le lettere agli amici, dèttano a Sinesio le pagine « in cui è descritta la sventura pentapolitana o Catàstasi ».

Ma qui l'anima sorvola un più vasto campo, le sventure sono generali e grandissime, quasi estreme, e l'accento sale alle altezze dell'epica.

Ora la visione della Chiesa soverchia quella del focolare domestico; quella della mensa domestica, dove il posto dei figli è vuoto, è superata dalla visione degli altari profanati e abbattuti. Come la morte ha strappato alla casa diletta i suoi figlioli, così la morte della città e della Pentapoli farà fuggiasco da queste il padre e cittadino e magistrato e comandante e vescovo.

Anzi, deplora Sinesio, « non mi resta nemmen più una patria cui io abbandoni : la povertà soltanto fa che io non navighi ancora verso l'alto-mare per approdare a qualche isola. Diffido, infatti, dell'Egitto, perché il cammello che porta il soldato ausuriano può arrivare anche là. Perciò vivrò in un'isola, povero, di ricco che ero; straniero, più ignobile d'un cittadino citerio.

Solo ora, con più diligenza ricercando, vengo a sapere che Citera è oltre la Pentapoli.

Colà forse mi spingeranno i venti australi; presso coloro resterò, ospite, profugo. E se io oserò vantarmi per la nobiltà della mia famiglia, non mi crederanno affatto. Ohi ! Cirene, le cui pubbliche tavole fanno giungere fino a me la discendenza della stirpe di Ercole. Che io non sembri ridicolo, mentre deploro, tra coloro che sanno, questa nobile discendenza. Oh dolore ! non parteciperò di quei sepolcri dòrici. Oh, infelice Tolemaide, di cui io sono l'ultimo sacerdote ! La sua sventura mi sta su l'anima.

Non posso più parlare, ché, le lacrime m'impediscono la lingua: son tutto fisso nel pensiero di dover abbandonare le cose sacre. La navigazione infatti dovrebbe portarmi via di qua. Ma quando colui mi chiamerà perché io salga in nave, chiederò ancora un momento d'attesa. Andrò prima alla chiesa : abbraccerò l'altare : spargerò di lacrime il pavimento, per me preziosissimo. Non m'allontanerò, senz'aver prima baciata quella soglia e quella cattedra.

Oh, quante volte farò appello alla fiducia in Dio, alzando il volto al cielo ! Oh, quante volte intreccerò le dita ai cancelli ! Ma la necessità è un qualcosa di veemente e violento. Bramo che nessuno strepito di trombe strappi il sonno da' miei occhi. Ma, finalmente, quanto tempo sosterò presso le torri di difesa delle mura ? Fin quando starò a difesa dei merli di quelle ? Sono stanco dal disporre sentinelle notturne, di sorvegliare e d'essere sorvegliato da esse.

Quell'io che solevo vegliar le notti in attesa del sorgere degli astri, ora son tediato di stare spiando le incursioni nemiche. Dormiamo presso le fonti dell'acqua razionata : e da quel tanto di sonno che sì e no mi tocca sono strappato dal segnale svegiia. Se poi chiudo per un momento gli occhi, son ridestato per i tristi e molesti sogni che le preoccupazioni e i disagi della giornata suscitano in me. Il cessare dalle fatiche mi è avvio a altre fatiche : fuggiamo... siamo catturati... siamo feriti... siamo vinti... siamo venduti.

Quanto spesso volentieri son risvegliato, perché così svanisce il padrone che sto sognando ! Quante volte son ridestato pallido e tutto sparso di sudore, cessando insieme dal sonno e dalla fuga, intrapresa per isfuggire a un nemico armato !

Per noi soltanto parve non aver detto nulla Esiodo, quando dice della speranza dentro la botte.

Nessuna vita, o uditori, è meno vitale di quella che viviamo. A che perdiamo tempo ? perché indugiamo ? la Pentapoli è in odio a Dio, siamo abbandonati alle pene e ai supplizi. Non la locusta è il male più acerbo e grave, ma quel fuoco che sotto gli occhi dei nemici ha divorato le mèssi di tre città. Quale scampo, ai mali ? Se le isole ne sono immuni e esenti, certo, non appena il mare tornerà in bonaccia scioglierò le gòmene, ma temo che il male mi preceda.

Infatti, si approssima il giorno fissato per l'assalto e l'invasione minacciata alla città — a quanto si dice, duce dell'esercito nemico il penato annunciatore.

Certo, accostandosi alla città stessa il pericolo imminente, più che mai, allora, sarà il tempo che i sacerdoti corrano agli atri di Dio. Io resterò in chiesa al mio posto. Porrò davanti a me i sacri vasi dell'acqua lustrale. Abbraccerò le colonne consacrate, che sorreggono l'altare puro e incontaminato : ivi sederò vivo; morto, giacerò. Io sono ministro di Dio e sacrificatore : forse è conveniente che gli sacrifichi la mia stessa vita — certamente Dio non negligerà quell'altare incruento, tinto di sangue sacerdotale.

Offri alle cose colui che nel parlare e nell'operare

si conformi a tutta la dottrina di Talia » (Catastasi in Op. omn. 301-303).

Proprio mentre Sinesio piangeva la prevista caduta della Pentapoli, onorandola di così toccanti eloquenti gemiti, non molto lontano, in Betlehem, Girolamo, con accenti altrettanto commossi e commoventi, deplorava le sventure di Roma, occupata e saccheggiata da altri barbari, quelli d'Alarico. Egli scriveva : « La voce mi muore in gola e i singhiozzi interrompono le parole mentre dètto. La città che aveva conquistato l'universo intero cade sotto l'occupazione nemica, anzi muore di fame prima che di spada : è miracolo che si sien trovati alcuni da far prigionieri... » (S. Gerolamo, lett. 127).

Quasi ignota ormai l'una all'altra, Roma e la Pentapoli son annodate dalla sventura sincrona; pur ignorandosi, forse, Girolamo e Sinesio fondono in uno solo i loro gemiti.

Se la Pentapoli fosse allora definitivamente caduta avrebbe avuto, dal gran cuore e dalla potente penna di Sinesio, l'epicedio condegno.

Ma non cadde, allora : venne la riscossa. La dètte Marcellino, che nel 413 succedeva alla diarchia Gennadio-Innocenzo, sommando in sé entrambe le cariche, civile e militare.

Egli infligge agli Ausuriani una grave sconfitta, che Sinesio accenna nella breve commossa lettera che a nome della stessa popolazione di Tolemaide scrisse al duce Marcellino : « C'è un premio, nell'elogio della virtù, che tributiamo all'illustrissimo Marcellino, sia quando conseguì il magistrato, sia quando è scevro di sospetto d'adulazione, egli che, avendo con la guerra conquistato delle città, travagliate all'esterno dalla moltitudine e dal furore barbarico, e dentro dall'influenza militare e dall'avarizia dei centurioni, offrendosi come un dio, con una sola guerra, con la diligenza d'ogni giorno rese i nemici sudditi mitissimi, e, nelle città, ai predetti disagi sostituì la pace, disprezzò i vantaggi che per antica consuetudine e rano ormani considerati legittimi.

Egli non tese insidie alle ricchezze né si comportò vergognosamente verso i poveri, sì che non ha da arrossire, lodandolo, un filosofo-sacerdote, cui nessun uomo corrotto strappò mai una testimonianza favorevole.

E vorremmo che fosse qui presente lo stesso consesso dei giudici, per mezzo del quale tutti i cittadini di Tolemaide, pubblicamente a privatamente, ti rendessimo — non potendo quanto meriteresti — almeno simbolicamente quanto ti è dovuto. La parola infatti non può mai eguagliare i fatti. In tal caso, certo, io a nome di tutti parlerei. Ma siccome tanto spazio ti separa da noi, non

richiesti ma interpretando, affidiamo alla lettera la testimonianza della nostra gratitudine » (lett. 62).

XXI. Sinesio filosofo neoplatonico.

Innumerevoli volte Sinesio si professa filosofo : per la filosofia esprime riverenza, amore, dedizione, passione : si sente ch'essa è la sua **forma mentis** e la sua **norma vitae** : senz'essa la vita stessa non è vitale, per lui. Una delle ragioni per cui rifuggiva dall'episcopato, forse addirittura la prima, era il timore ch'esso lo disgiungesse dalla filosofia.

E la storia della filosofia non ignora Sinesio : anzi, gli assegna un posto preciso : egli è cultore della filosofia neoplatonica, e, più esattamente, di quella corrente del neoplatonismo che, non prevalente verso la speculazione metafisica, non verso la religione e la teurgia in particolare, ma è vòlta piuttosto verso l'erudizione. Corrente che fiorirà, nella scuola d'Alessandria, dopo Sinesio, fra la prima metà del V e la prima metà del VII secolo.

Abbandonando il politeismo classico, vigorosamente influenzata dalla scuola catechetica cristiana ivi esistente, questa corrente neoplatonica non osteggia il giovine Cristianesimo, che a sua volta ha riverenza, oltre che per il filosofo da cui questa filosofia prende il nome, anche per Aristotele.

I prevalenti interessi della scuola per l'erudizione, e cioè per la scienza propriamente detta, la porta all'indagine matematica e naturalistica. Infatti, quell'Ipazia che della scuola alessandrina è il nome più chiaro, è figlia di Teone, che commentò le matematiche; e lei stessa, oltre che di filosofia, scrisse anche di matematica e

d'astronomia (**Encicl. Ital.** voc. **Ipazia**). Dalla maestra venerata Sinesio, a sua volta, oltre che filosofia neoplatonica, dové avere appreso anche qualcosa dell'una e dell'altra disciplina ch'ella professava. Egli stesso infatti a tali scienze accenna, qua e là, ne' suoi scritti, e costruisce un astrolabio, e, offrendolo all'illustre destinatario Peonio e pregandolo di volerlo gradire, precisa : esso « é appunto opera di nostra elucubrazione, di quanto in questo genere di studi mi offerse a forni la maestra reverendissima » (**Discorso a Peonio** ecc. in **Op. omn.** 310).

Accanto a Ipazia appunto è il posto di Sinesio tra i cultori del neoplatonismo (Encicl. Ital. voc. **Neoplatonismo**).

E non fu semplice uditore, a tale scuola, ma — confessa egli stesso — : « Ho prodotto, quali figli, dei libri, alcuni di nobile filosofia... » : la quale, soggiunge subito,... mi è cara » (lett. 1). Come abbiamo ben visto, per molti anni la filosofia fu tutto il suo studio : « Io... limitai la mia vita agli ozi filosofici e alla meditazione scevra di brighe;... alle noie e alle molestie del vivere e alle cariche politiche » — finché gli fu consentito — « dando soltanto lo strettamente necessario » : e — chiede — con l'episcopato « inviluppato di tante brige, come posso affissarmi nelle bellezze della speculazione, il cui godimento è tal riposo, senza del quale, per me e per chi mi somiglia, la vita stessa cessa d'essere vitale ? » (lettera 11).

Analogamente : « Massimo bene è la quiete — dice Sinesio — potendosi ben dire che, come sola cosa copiosa e feconda, essa può produrre per l'animo del filosofo ogni sorta di beni. E ciò accadrà — egli auspica — se io venga liberato dal detestato esercizio dei pubblici incarichi... » (lett. 100).

Lietamente, all'amico Pilemeno : « E poiché t'interessa sapere

come vanno le cose mie, o uomo buono, facciamo della filosofia, noi che godiamo della solitudine, ottimo aiuto, mentre gli uomini non sono di nessun aiuto, in ciò. Infatti, non ho trovato, in Libia, nemmeno uno che dicesse parola che sapesse di filosofia, se non forse l'eco, ripetente la nostra voce.

Ma, dicono, celebra Sparta, che hai avuta in sorte. Ma a me pare di potermi contentare del mio destino e che darò lustro alla mia patria : questo còmpito avendo prefisso al mio vivere, e avendone fatto esperimento, a meno che io non abbandoni l'infelice filosofia : anche senz'altro testimone, Dio stesso mi sia tale, del quale, come un seme, è insita negli uomini la mente.

Le stelle stesse paiono spesso riguardarmi fisse, ché, mi vedono in una vastissima regione con la sola conoscenza di me stesso. Auguraci dunque questo : che perseveriamo in questo medesimo stato...

E per questo io godo d'esser deriso, perché tra congiunti che ambiscono le cariche, mi ritrovo, tra molti, il solo privato. Preferisco aver l'anima quasi cinta di virtù, piuttosto che il corpo di soldati — l'attuale condizione della repubblica essendo ormai incapace d'un amministratore filosofo...

Che se t'imbatti in un uomo che fa della filosofia valorosamente e virilmente, penserai biasimevole scorrere per la Grecia e per i liai dei barbari per rintracciarlo ? Un simile guadagno che ti sia offerto partècipacelo... (lett. 101).

Altrove, schermendosi da amici che vogliono indurlo a accettare cariche politiche, dichiara che la loro sollecitudine per lui è « superflua, essendomi — dice — io presentato ignudo alla filosofia » (lett. 144).

Sinesio filosofo e filosofo neoplatonico : come ? « ...non fui filosofo popolare né mi esibii negli spettacoli comici né mai feci scuola... raccolto in me medesimo e in Dio, scendendo dalla contemplazione, posso intrattenere non assurdi colloqui con questo e quello, che non sieno volgari, ma che per indole naturale o per buona educazione antepongano la mente al corpo... » (lette. 57).

Odi profanum vulgus et arceo (orazio **Carm. III, 1**) dunque : ma gli amici congeniali Sinesio li cerca. Scrive a Erculiano, infatti : « ...Dio voglia dunque che tu venga a noi, carissimo, e che noi possiamo riprendere i nostri incontri e colloqui, discutendo di cose conformi a quelle già delibate, sì che dalle conclusioni, non monca, ma compiuta e perfetta la bellezza emerga. Ma — ciò che bisogna ben deprecare — se restiamo privi della reciproca compagnia, non c'è dubbio : tutto il danno ricadrà su me stesso. Ché, costì, se ci sono molti e le scienze fioriscono, ci saranno molti, e migliori e simili a Sinesio, con cui tu possa intrattener rapporti.

A me poi la patria, se una patria ancora esiste, è cara sovr'ogni altra cosa : del resto, non so perché essa stia salda nella filosofia. Perché non è prudente insistere senza l'aiuto di qualcuno, salvo che uno non impazzisca perfino nelle cose sacre come i Coribanti. E, se pur vogliamo ammettere che qualcuno sia tale,

Come potrò io vivere, dimèntico del divino Ulisse ?

A qual altra pietra focaia — che non sia la santa anima tua — arrotandomi, farò sprizzare, lucido e splendido, il mio concetto mentale ? Chi, con altrettanta veemenza, pur con tutti gli ordigni, potrebbe trar fuori l'occulta scintilla, anelante ai segreti nascondigli ? Chi, farne un fuoco luminoso e grande ? Pertanto, ci assista

sempre Dio, e disgiunti e conviventi : ché, presente Dio, anche l'inestricabile può essere facilmente spiegabile.

Ti saluto e fa' della filosofia. E quel che di divino c'è, in te, innalzalo a quel divino primigenio e antichissimo. Ottima cosa è che, in tutte le mie lettere, all'egregio affetto dell'animo tuo io dica questo, che — come si riferisce — Plotino diceva, sul morire, a chi gli stava attorno » (lett. 139).

XXII. Filosofia teoretica e morale.

Evidentemente Sinesio considera la filosofia, non come pura attività teoretica, ma come norma del vivere. Perciò spesso a essa chiede norme di vita morale, alla luce de' suoi principi o imperativi categorici esaminando se stesso. E trèpida, quando s'avvede di discordare da se stesso secondo che agisce privatamente o pubblicamente « né ivi né quivi agendo secondo il sentire del suo animo. In parte infatti — confessa in un caso particolare oggetto della lettera — sto alla legge, in parte seguo la mia indole che inchina a cortesia. E tuttavia se avessi certezza della legge farei violenza al mio naturale... » (lett. 66).

« Sebbene la sorte » — la sorte entra spesso nelle lettere sinesiane (elemento del suo paganesimo, lentamente trasfigurantisi in quella Provvidenza che darà il titolo e l'argomento a una delle sue opere) — « sebbene la sorte non possa rapirmi ogni cosa, vuol però tutto quel che può :

la mi ha privato dei figli e di molti beni.

Non mi strapperà mai il mio volere tutto ciò che è ottimo e

il mio voler essere vicino agli oppressi : né sia mai ch'essa espugni il mio animo! Odio perciò l'ingiustizia: questo mi è consentito; vorrei anche impedirla: anche questo però è cosa del genere di quelle che mi sono state strappate : e questo m'è stato tolto anche prima dei figli... » (lett. 81).

« La filosofia » — nel concetto di Sinesio, meglio d'Omero che « desidera che i mali della contesa sieno relegati

al monte a nelflutti che mormorando ondeggiano —

la filosofia inoltre non dà loro àdito all'animo nemmeno all'inizio. Ma noi siamo troppo deboli, per filosofare, almeno per quel che mi riguarda » (lett. 116).

Pienamente consenziente con Platone è il generoso e ardimentoso neoplatonico di Cirene là ove amaramente lo cita : « pare intollerabile a Platone che non si osi opporsi, come le galline a proteggere i pulcini, a chiunque, anche validissimo, ma si diffonda una pessima fama, del genere umano : ch'esso sia il più ignavo di tutti gli animali » (lett. 132).

Non così lui, Sinesio. « Se... si deve morire, allora utile e opportuna è la filosofia, perché non mi sembri acerbo andarmene da questo sacco di carne. Che però, di fronte alla moglie e al figlioletto, io possa restare a occhi asciutti, questo non oserò mai affermarlo. Così fosse che la filosofia arrivasse a tanto... » (lett. 132).

La filosofia ce lo svela di mano in mano, questo suo cultore. « ...io, forse non ignorante in altre cose, e, del resto, secondo la sentenza delfica, conoscendo me sterro, condanno lo stato d'inopia

e di povertà, disperando d'ogni affinità con gli eroi, se non che desidererei d'imitare la loro taciturnità... » (lett. 142).

E un altro brano di confessione in forma d'autodifesa. « ... alcuni che portano la candida palandrana, altri che la portano scura, cianciavano che io pecco contro la filosofia, perché nelle parole io cerco la venustà e l'armonia, e perché non nomino mai Omero né le figure proprie dell'artificio oratorio : come se il filosofo debba essere odiatore delle lettere, teso soltanto all'investigazione delle cose divine. E coloro sono ben contemplatori di ciò che si comprende con l'intelligenza : a me dunque non è lecito sottrarre alla vita qualche parte di riposo per limare la lingua e per ricreare di qualche ilarità la mente... » (lett. 154).

« ...investigando gli stati della vita », Sinesio, un una delle sue opere e non in quella soltanto, « elogia la filosofia, come la più sapiente di tutti gli stati e le condizioni del vivere... » (lett. 154).

Ma dopo quanto s'è detto e documentato fin qui, circa l'abbondare dell'elemento morale nella filosofia sinesiana, bisogna soggiungere che l'elemento teoretico vi ha, e non poteva non esser così trattandosi d'una filosofia, la sua parte. Con Platone egli enuncia : « è molto peggio fare che ricevere ingiuria » (lettera 30). « Non per le stesse cose gli uomini lodano e amano, né è data all'anima la medesima facoltà per le due cose, ma da quella parte che vien mossa dagli affetti siamo, a vicenda, o inchinati o allontanati : ma quella (parte dell'anima) che è dotata della facoltà di giudizio e contiene la ragione, con quella lodiamo o rimproveriamo » (lett. 112).

« ...nel mio animo persiste tuttora l'opinione che non é né ben né male ciò che non è in nostro potere... » (lett. 126).

« Se le attività umane legano e avvincono reciprocamente d'affetto coloro che insieme le compiono; noi, che siamo uniti attraverso la parte più nobile mell'animo che è la mente» — scrive Sinesio all'amicissimo Erculiano — «per una legge divina dobbiamo vicendevolmente attendere alle cose nostre... Sinesio...considera la filosofia la più riservata fra le cose segrete e arcane... òccupati di filosofia e con lungo studio estrai l'occhio in ciascuno di noi celato. Ché, organizzare rettamente la vita penso sia avvio alla sapienza, e antichissimi e sapientissimi uomini proclamarono che a ciò si deve tendere con ogni impegno. Infatti, la voce divina attesta che non è lecito toccare cosa pura a chi è impuro. Ma il volgo, che giudica le cose erroneamente, questo, e cioè il vivere rettamente, pensa che non si riferisca già alla sapienza, ma che sussista in sé, che la stessa perfezione della vita umana lo contenga : cioè, pensa che il cammino non debba essere il cammino stesso, ma ciò a cui per esso si tende.

Infatti, una certa temperanza senza ragione alcuna, l'astenersi dall'uso delle carni, è innato in molti viventi : ma noi non lodiamo la cornacchia, né alcun altro essere che abbia avuta questa naturale virtù, perché essi son privi di prudenza. Ma quella virtù che è secondo la mente, quella è il fine dell'uomo. Questa dobbiamo ricercare con ogni impegno e, mentre chiediamo a Dio d'avere il senso delle cose divine, a lui dobbiamo, per quanto ci è possibile, rapportare ogni sapienza » (lett. 137).

Trascinato nel turbine che fu la vita nella Pentapoli dei primi del Quattrocento, Sinesio fu, insensibilmente, tratto, dall'azione stessa, a delineare una sua filosofia del diritto: e abbiamo visto com'essa è austera. Né è tale soltanto perché gli avvenimenti che quasi lo coinvolsero erano crudeli, ma anche perché un che della rigidezza spartana persiste infondo alla sua pur soavissima anima. Sinesio non ha un'anima sola, ma molte.

Abbiamo già sottolineati i lineamenti di questa sua particolare filosofia : necessità delle leggi e loro sacralità; necessità dei tribunali dove, non soltanto i delinquenti devono essere tratti, ma dove spontaneamente devono recarsi coloro che sono anche soltanto accusati d'un delitto — perché l'accusa cada, s'era falsa e ingiusta, o si tramuti in certezza nel caso contrario —. Egli — nell'ansia vivissima d'arrivare alla certezza — ammette anche la tortura, ritenendo, non soltanto che con i suoi mezzi crudeli alla verità si possa arrivare, ma che ciò che la tortura estrae dalla bocca dell'infelice sia « verità certissima ».

Sinesio, poi, proclama con accenti d'una convinzione assoluta, la necessità dell'espiazione, a cancellazione, anzi annientamento della colpa, a ricupero della felicità dell'innocenza.

A Anastasio Idrocòmete che — incapato nella legge e incarcerato — chiede a Sinesio aiuto a sfuggire ai rigori di quella evadendo dalla carcere — durissimamente risponde Sinesio : « ...di te... la giustizia si vendicò, la legge ti costrinse, e voglia il Cielo che tu non ci scherzi. Che se proprio tu debba essere superiore alle leggi, almeno che non sia io a scioglierle e a spezzare le porte del carcere.

Infatti se il governo dello Stato fosse nelle mani dei vescovi bisognerebbe ch'essi vendicassero le iniquità; ché, la spada pubblica non meno dell'acqua santa, che vien posta nei vestiboli dei templi, è sacrificio d'espiazione della città.

Così udiamo le glorie e la fama degli antichi.

Così usavano, finché parve ottima cosa che uno facesse voti per il bene comune e lo stesso procurasse d'inverarli. Infatti e gli

egizi e la stirpe ebraica per lungo tempo usarono la signoria dei sacerdoti. Ma dopo che si fece la divisione dell'una e dell'altra vita; e una fu assegnata alle cose sacre, l'altra al principato, e alcuni furono addetti a trattare gli affari e non a elevare preghiere, a coloro cui la legge vietal di stendere la mano ai diritti e alle leggi e di uccidere un pur scelleratissimo, in qual modo qualcuno concederà a essi di dar mano contro il diritto a un uomo astuto ?

Ma io, per quanto dipende da me m'adopro a tutto potere, e nelle preghiere pubbliche o private chiedo che la giustizia prevalga su l'ingiustizia e che la città sia purificata d'ogni iniquità. E questo è lo stesso che malamente perisca tu perverso e ogni altro simile a te.

E ciò ti sia argomento di come io sarei se qualcosa mi fosse lecito di fare, ma nulla essendomi lecito, t'auguro cose crudeli » (lett. 121).

Sinesio ben sa che in repubblica buona i tristi son puniti e i buoni premiati. Perciò, mentre a Anastasio Idrocòmete augura cose crudeli; ai sacerdoti e a Fausto — gli eroi della gesta di Mirsinitide — offrirebbe corone e li esalterebbe con voce d'araldo (lett. 122). E per il non degenere figlio del valoroso Alessandro che, come Ercole « va a uomini iniquissimi, per purgare di essi la patria », chiede appoggio al potente amico Pilemeno (lett. 150), convinto che « le cose giuste chiamano alleati e aiuti » com'egli stesso sentenzia e scrive (lett. 156).

E anche la filosofia del diritto trova le vie e le forme di un concreto pragmatismo. « Per me è molto più nobile », scrive, « aver legato a me, beneficandolo, un indegno » — è il caso dellfamoso Giulio — « che lasciare che immeritevoli sieno còlti da tanti mali, potendolo impedire » (lett. 95).

XXIII. La filosofia e la felicità della republica secondo Sinesio.

Dall'azione ispirata dalla filosofia, alla filosofia ispiratrice dell'azione in favore della repubblica. « Se io dicessi » — scrive Sinesio in piacevole polemica con l'amico Pilemeno, assertore del prevalente vantaggio che, in confronto della filosofia, l'attività forense reca allo Stato — « se io dicessi che la filosofia è idonea a erigere le città, la stessa Cirene mi rimprovererebbe, che giace più d'ogni altra città del Ponto. Ma io dissi questo : che la filosofia, non soltanto l'oratoria, ma l'altra che presiede a ogni arte e scienza, fa che chi la possiede più utilmente stia a capo e dei privati e delle famiglie e delle città. Non basta per se stessa tuttavia a recare agli uomini qualcosa di buono.

Così infatti, o ottimo Pilemeno, è : tutte le discipline più importanti sono come facoltà e attitudini dell'animo — quasi soltanto forza e abilità d'usarne —. Le sorti e vicissitudini dei tempi stimolan le cose proprie e le cittadine, e ora si comportano in un modo e ora in un altro, secondo le necessità naturali...

Ebbene, con questo discorso, che possiamo procacciare di bene alle città, se non mettiamo a base della vita alcuni generi, che bastino a realizzare la volontà e il proposito ? Occorre, cioè, la materia idonea, e occorre lo strumento, inoltre, a colui che ne possa usare, e, tutto questo provvedere, è proprio della fortuna.

Ora, se in tal modo, cioè con l'aiuto della rettorica, tu confidi che la fortuna ti verrà in aiuto — con questo arrivando una buona volta alla magistratura o alla prefettura della città, che ne è il vertice — perché condanni la filosofia come infelice ?

Se invece ciò avviene indifferentemente dall'esserci o non esserci della rettorica e della filosofia, perché, sinora, tra cose ap-

parenti e incerte, non scegli ciò che è la più importante ? Ma tu stesso sicuramente confesserai che la filosofia, per se stessa, è più accellente della rettorica : e, dovendo tu giovare alla patria, questo stesso ti rende più necessario quel che è meno eccellente.

Se ora fosse lecito sperare in meglio, non appena comincerai a filosofare fa' l'ipotesi che tutti gli dèi ti sien nemici e volgano ogni fortuna altrove, al punto ch'essa non ti sia lasciata nemmeno come speranza. Io però fino a quest'oggi non ricordo d'aver sentito che questa sia la sorte da Dio assegnata alla sacra filosofia — d'essere infelice — : tuttavia, certo, difficilmente nella comune natura dei mortali forza e prudenza vanno assieme, anche se talvolta Dio le accoppi entrambe. Per la qual cosa, da quanto vengo dicendo, sarà almeno necessario, piuttosto, che uno sia insieme filosofo e amante della patria senza disperare della fortuna, anzi che, per i suoi meriti, possa sperare cose migliori.

Infatti, come dice un antico proverbio, d'almeno una cosa i buoni avanzano i cattivi — della buona speranza — . Ma allora come diremo ch'essi sono in peggior condizione ? e così sarà necessariamente se riconosciamo una qualche consistenza alla tua opinione, che t'indusse in errore fino al punto di dire che per la repubblica tu debba persistere nella tua arte (la rettorica forense) ...Una sola... è la mia risposta... in favore della filosofia. Quando la fortuna assalirà, e la condizione dei tempi chiamerà a intraprendere delle occupazioni, nessun'arte, e nemmen tutte assieme, possono competere con la filosofia nell'ordinare o mutare lo stato della repubblica, o, addirittura, in meglio costituire le cose degli uomini.

Ma la fatalità delle cose non essendo ancora arrivata a tanto, è da sapiente attendere diligentemente ai propri affari, non immischiarsi nell'impeto delle cose, non prorompere in pretorio, se non spinto da necessità estrema. Alla necessità, si dice, nemmeno gli dèi resistono.

Per noi altre cose sono più sacre, e quando l'anima è scevra delle cose inferiori si occupa di Dio. Queste due sono le parti della filosofia : contemplazione e azione; e altrettante perciò le facoltà, ciascuna assegnata a una singola parte : la sapienza e la prudenza. Questa abbisogna della fortuna; quella è autonoma, e la sua funzione non può essere impedita » (lett. 103).

La filosofia sinesiana sa toccare i vertici dell'eroismo.

« Proprio così ? Che si debbano vedere » — scrive al fratello — « uomini miserabili subire spontaneamente la morte per non essere costretti a restituire ai proprietari le cose, quali che sieno, rubate; e noi, per le nostre case, per le cose sacre, per le leggi, per gli agi cui la lunga consuetudine ci ha assuefatti, non esporremo la vita a qualunque rischio, ma cercheremo di salvarla ?

Davvero che sembreremmo uomini !

A me però, chiunque io mi sia, pare doversi andare diritti addosso a coloro (i nemici invasori della patria) e fare esperimento d'uomini tanto audaci che osano insultare i romani, quali ch'essi sieno. Infatti, si dice che il cammello, anche rognoso, regge il peso di molti asini.

Per l'appunto, in simili circostanze, mi par quasi un morire, quell'affannarsi tanto, di coloro, per la vita; e un vivere, invece, quello di chi la vita getta allo sbaraglio. Io sarò di questi. Combatterò come morituro, e son certo che sopravvivrò. Io infatti discendo dagli Spartani, e lo documenta un séguito, a ritroso, d'incarichi nostri fino a Leonida. Combattendo come fossi lì lì per morire non morremo » (lett. 113).

XXIV. Il divino nella filosofia sinesiana.

Prima ancora del battesimo e della professione cristiani questo

ardente cultore della filosofia neoplatonica non solo non era ostile al Cristianesimo ma quasi per sentimento innato e per virtù speculativa assurge a concetti genuìnamente e profondamenti cristiani. Lo stesso tornare, con tanta insistenza, nei suoi scritti, della voce 'divino', documenta o almeno insinua l'esigenza che del divino ebbe sempre il discepolo d'Ipazia.

Perciò, senza voler seguire un crescere e illimpidirsi in lui dell sentimento religioso da prima del battesimo a dopo la sua consacrazione episcopale, ma cogliendone a volo ogni elemento affiorante specialmente nell'epistolario — rileviamo quanto di prettamente religioso c'è nel suo neoplatonismo.

« ...l'uomo consegue onori quasi divini, e, se è degno di conseguirli, ciò avviene con soavissimo vantaggio dell'animo; ma se invece l'animo è di molto inferiore alla dignità della cosa, questa mette davanti all'animo un acerbo timore del futuro. E questo timore non è nuovo, in me, ma vecchio assai : che, in qualcosa io offendendo Dio, non consegua, per la stessa cosa, onore davanti agli uomini... » (lett. 105).

« ..io mi conosco e mi so solito a discendere alla città e a ascendere dalla città, e a essere involto nelle cose che trascinano al terrestre e all'infimo, e inquinato di tante macchie che nessuno saprebbe contarle. Infatti, quel pur pochissimo, che s'aggiunse a quanto le macchie private e invecchiate inserirono in me, fece un colmo d'accrescimento. In me non c'è alcun vigore, né è a bastanza fermo il mio interno, e non basto alle cose esterne, lontanissimo dal sopportare le ansietà della coscienza... » (lett. 105).

« Certo, l'anima imbevuta di filosofia e attissata nella verità qualcosa consente alla necessità di mentire. Infatti, in qualche proporzione la luce si diletta della verità, come il volgo dell'occhio. E l'occhio stesso non senza danno gode della troppa luce. E come ai

malati d'occhi giova la caligine, così penso che al volgo giovi la menzogna; così penso che la verità nuoccia a coloro che non possono fissare l'acume della mente nella chiarezza delle cose... La verità delle cose divine conviene che sia occulta : diversamente dev'essere tocco il volgo... » (lett. 105)

« Io ti penso felice oltre ogni voto » — scrive Sinesio a Giovanni rifugiatosi in ascetica solitudine — « che, abbandonado noi uomini,

d'Ates nei prati, vaganti attraverso la notte tenebrosa,

involti nelle preoccupazioni terrene, elevandoti sopra di esse, mentre eri ancora qui, ti allontanasti : hai intrapreso un felice genere di vita... Gano... t'attribuisce un genere di vita monastico, e l'essere stati i libri occasione al tuo ingresso in città ne è conferma. Aggiunge inoltre quanto grande sia in te l'ardore della mente per la teologia e racconta pure che tu vesti una scura palandrana. E niente di male, se fosse candida : ché, dedicato e consacrato a una splendidissima natura sarebbe stato piuttosto ciò che, in quel che si percepisce coi sensi, anche per i piccoli è più lucido.

Ma se tu hai approvato il colore scuro per imitare coloro che lo usarono prima di te, lodo tutto ciò che s'intraprende per Dio. Infatti, ciò stesso in grazia di cui si fa, dà a chi lo fa che sia ben fatto ciò che da lui è fatto : la virtù e nella stessa volontà.

Perciò noi ci congratuliamo con te, che d'improvviso e tumultuariamente sei giunto a quel termine, alla cui porta, per così dire, noi prima con fatica appena bussiamo.

Tu prega poi con noi, affinché anche noi arriviamo una buona volta a conseguire qualche guadagno dalle sollecitudini e veglie

della filosofia, che non logoriamo invano la vita tra i libri ... » (lett. 147).

Inavvertitamente il filosofo religioso Sinesio ci è come sfuggito di mano, dietro la pensosa lettera or ora citata, avviandosi — e traendoci — su la via dell'èremo. Ma non è là il suo posto, né come precristiano né come cristiano, malgrado il suo rammarico. Egli dovrà continuare a « discendere alla città e a ascendere dalla città » (lett. 105). Ma la sua mente torna pur sempre al sacro.

« Se vi sono anime divine tutelari delle città — come ci sono infatti — del numero dei Geni » (scrive a Aureliano) « pensa che tutte ti sono grate e mèmori dei benefici che tu con il tuo sommo magistrato hai fatto a tutte le genti. E credi perciò che ogni momento quelle anime ti sono vicine come socie e avvocate, e insieme pregano Dio per te, affinché ti rimèriti, perché l'hai imitato fino al limite delle tue possibilità.

Questo infatti hanno di comune gli uomini con Dio : beneficare il prossimo : e l'imitazione è una sorta di simiglianza, e quel che si imita congiunge con ciò che è proposto da imitare.

Abbi perciò questa persuasione : d'essere divenuto simile a Dio attraverso la comunione della sua benefica volontà, allo stesso sentire consentendo con il tuo animo, e accarezza pure questa dolcissima speranza... » (lett. 31).

La filosofia, oltre che il senso che della religione Sinesio ha vivissimo, lo conduce agevolmente a discernere la vera religione dalla non vera : « io voglio separare la superstizione dalla pietà : quella infatti è vizio circondato d'una maschera di virtù che, secondo la filosofia, è un terzo genere d'empietà... ». Questo, a proposito d'un'illegittima 'invasione' o occupazione di luogo sacro. «Le cose dei cristiani » — egli continua — « ... non son tali che, con

simili azioni o elementi ceremoniali o voci, il nume, necessariamente addotto, come da una forza attrattiva naturale, segua : come accadrebbe a uno spirito mondano : il nume, invece, s'avvicina a una mente che, scevra di turbamenti e moti, è, per disposizione, congiunta strettamente con Dio. Ove all'azione invece precorre ira e furore inconsulto e pervicace moto dell'animo, come può lo Spirito santo intervenire in tali cose ?... » (lett. 67).

Grande è la riverenza del nostro filosofo verso il divino e verso la filosofia, che per lui è preludio al divino. «...il filosofare tra il volgo (così dice Liside Pitagoreo scrivendo a Ipparco parlando dòrico, ricorda Sinesio a Erculiano) introdusse nel genere umano un gran disprezzo delle cose divine. Io ricordo d'aver bazziccato, non soltano un tempo ma anche recentemente, con moltissimi uomini, i quali, avendo udito a caso qualche paroletta augusta, non si credevano d'essere — come invece erano — plebei e ignoranti e, di fatto, gonfi; di corrompere le verità divine, usurpando il magistero d'una cosa, di cui non avrebbero mai imparato i primi elementi. E tuttavia costoro s'eran procacciato tre o quattro uditori che, per quel che riguarda il pensiero, non differivan punto dagli operai, né alcun di loro aveva mai coltivato le arti liberali.

Cosa stranamente meravigliosa e ingannatrice è la vana presunzione della propria sapienza, che tra gl'ignoranti non rifiuta nulla e tutto inconsideratamente intraprende. Che cosa infatti può essere più » audace dell'ignoranza ?

Imbattendomi un questa razza d'uomini arroganti simili a fuchi, che né possiedono dottrina né la bramano, odiando questa gente, altra causa della loro educazione non trovo, se non che al principio scioccamente e anzitempo sono stati ammessi da loro simili a sentir parlare di cose rarissime.

Per questo io stesso sono custode diligentissimo dei segreti

della filosofia e ti prego e scongiuro d'essere tale anche tu. So infatti benissimo che queste cose s'addicono a Erculiano.

Ma se tu t'accosti sinceramente alla stessa filosofia, bisogna che tu èviti la compagnia di coloro che ne sono alieni, e che col falso uso pervertono e adulterano la sua somma dignità... » (lett. 143).

E all'amicissimo Pilemeno : « Che forse tu non persevereresti con me da filosofo ? Quel Pilemeno che poc'anzi ho lasciato, anima iniziata, seme divino ? Temo quel tempo che decorse dalla nascita; e molto più temo la frequenza del fôro, che il maneggio molteplice degli avvenimenti e delle faccende non inquini il santissimo tempio che è la tua mente, che io, con i pochi, penso ricettacolo degnissimo di Dio... » (lett. 151).

XXV. L'amore nella vita e nella filosofia di Sinesio.

Il neoplatonismo sinesiano si rivela, oltre che nella venustà della forma, nella vena, anzi, nell'onda fluente d'affettuosità d'amore di 'erotismo', nel senso alto e superiore che comportava — questa parola — prima che, avvilito da una letteratura e filosofia avvilenti e avvilite, non ne venisse spogliato.

Moltissime delle lettere sinesiane hanno guizzi affettuosi e amorosi, ma alcune teorizzano addirittura questa nobile passione dell'animo umano, dell'animo suo, di Sinesio.

Scrive a Olimpio : « Con quanta brama pensi tu che io abbia ricevuta la tua soavissima lettera ? In qual parte d'essa non effusi tutta l'anima ? Da essa sono stato variamente commosso, e spero di vedere tra non molto Alessandria, che serba ancora l'amico a me carissimo.

Tu infatti m'hai fatto onore benefiando Secondo; e, scrivendo così lusinghevolmente, tu m'hai legato totalmente a te e m'hai fatto tuo. Talvolta noi che strisciamo sul suolo non riconosciamo il valore d'una tal cosa, quando veniamo doppiamente onorati, e per la grandezza delle cose che ci scrivono, e per la scopo e l'amore con cui le cose son fatte... » (lett. 98).

Platone presenta Socrate che tardi s'accosta a' suoi amanti e perciò chiede ch'essi non se ne meraviglino, dicendo : — se di malavoglia ho cominciato, anche di malavoglia smetterò —.

A me — scrive a Pilemeno — pare d'aver preso equale affetto per te, e di poter a ragione chiederti la stessa scusa... » (lett. 129).

Ecco, ora, Sinesio teorizzatore dell'amore. « In quella specie d'amori che nascono da cause umane e umili, quelli che si misurano, e non senza difficoltà, dalla sola presenza, sono odiosi e invecchianti. Ma quelli che il nume presente regge e governa, fondendo — secondo l'oracolo del divino Platone — con un mirabile artificio e, di due che reciprocamente si amano, facendo uno solo, questi confermano la fragile natura del tempo e del luogo. Nulla infatti può impedire agli amici ardenti il reciproco desiderio d'almeno ritrovarsi insieme in certi segreti convegni e vicendevolmente congiungersi.

Bisogna perciò che la nostra amicizia — scrive a Erculiano — sia legata a qualche luogo, se non vogliamo ammettere nulla che sia indegno dell'educazione filosofica, negando la presenza delle anime, mentre siamo legati ai sensi, e quali non son tocche dai corpi loro soggetti.

Perché dunque chiedi aiuto e spargi di lacrime le tue lettere?... se... ti lagni perché la giusta sorte a torto ha fatto poco conto della nostra amicizia ... è donnesco e puerile tendere, per amore, a quelle

cose nelle quali una causa qualsiasi può contrastare e dar fastidio ai nostri intenti.

Ma io vorrei che quel santo amico che è Erculiano guardasse in alto, tutto intento nella contemplazione delle cose, e nella considerazione dei princìpi di tutte le cose mortali e caduche, e della virtù che tutto trascende da tempo : princìpi che, vòlti alle infime cose, le cose nostre governano.

E come se tale egli sia, io lo sollecito per lettera : aver molta saggezza non è già star bene o vivere beati. Giacché alle nostre azioni presiede una mente inferiore, che io non desideravo che in te fosse coperta e affondata...

Se la filosofia nulla considera maggiore e più importante dell'essere immune da emozioni; se le mediocri abitudini consistono nelle emozioni moderate, in qual sede porremo l'affetto dell'animo agitato da infiniti turbamenti e che facilmente si lascia abbattere e costringere ? Non lo diremo alieno da filosofia, della quale con tutti i voti bramiamo che tu sia l'iniziatore ? Lontano da te, prego, o mio carissimo, questo ! Anzi, òffrimiti più costante e forte amico...

Vivi sano e salvo la vita, non turbata, per merito della filosofia, da alcuna tempesta, ilare d'animo, signor mio sopra ogni cosa amabile... » (lett. 140).

La sensibilità, la tenerezza, la vivezza affettiva che Sinesio sparge in minore o maggior misura in tante delle sue lettere, anzi, de' suoi scritti, pare tutta raccogliersi e condensarsi in un'altra breve lettera a Pilemeno. « Pensa che io abbracci Pilemeno, che con l'anima ne abbracci l'anima. Mi mancano le parole, con le quali effondere tutta la forza del mio animo : o, piuttosto, nemmeno trovo in qual modo l'affetto mio verso di te empia il mio animo.

Platone figlio d'Aristone ateniese è solerte nell'investigazione della natura dell'amatore, e di ciò che, a proposito delle sue delizie, vorrebbe che gli accadesse, e nello spiegarlo, eloquente e facile.

Perciò, egli per me questo e ricerchi e dica. Vorrebbe — egli dice — per una cert'arte di Vulcano liquefarsi, e fondersi, e che di due si facesse uno » (lett. 152).

Non si può, nemmen noi cresciuti educati eruditi cristianamente, disdegnare una filosofia, come quella sin qui delineata tessendone i vari e molteplici elementi sparsi da Sinesio nel suo epistolario : anzi, non si può non apprezzarla altamente. Sostanzialmente, una tal filosofia è, seppure inconsciamente, una ricerca della fede. Infatti, proprio, si direbbe, filosofando neoplatonicamente e sinesianamente, alla fede egli giunse. Penso che l'accesso all'episcopato, tanto tenacemente e lungamente fuggito, non sia stato che l'occasione a ricevere il battesimo, che la fede gènera, e immette a partecipare del mistico corpo di Cristo. Infatti, non sappiamo — pur avendo indugiato nella studio dell'opera sua letteraria più sincera e intima, l'epistolario — d'una sua resistenza a farsi cristiano : anzi, il Cristianesimo è, qui, la casa del padre, la cui soglia Sinesio varcò quasi naturalmente, verso questa avendo sempre camminato.

E, sebbene egli non lo pensasse, forse su quelle soglie, o poco oltre, dovettero cadere o svanire anche quelle « verità scientifiche che, razionalmente dimostrate — diceva — la mia mente ha acquisite » e che gli pareva « difficile, se non addirittura impossibile» venissero «svelte». E forse, a un certo punto, si sarà stupito egli stesso che ciò avvenisse.

Quali erano dunque queste così sicure e certe verità ? Ce l'aveva enumerate egli stesso : « Io... non mi convincerò mai che l'anima abbia avuto origine posteriormente al corpo. Non dirò mai che il mondo e, insieme, tutte le altre sue parti periscano. Quella

lògora e ricantata resurrezione (dei corpi) la considero cosa sacra e arcana, e sono ben lontano dall'accettare le opinioni del volgo » (lett. 105).

Epilogo.

Nella Pentapoli già tanto travagliata, sconfitti i tornanti ostinati nemici, gli Ausuriani, il comite Marcellino stava, nel 413-414, ristabilendo l'ordine, riavviandola alla serenità che è sempre condizione e apportatrice d'un qualche benessere. Ci è consentito, allora, volgere per un momento lo sguardo altrove, a qualcun altro che con la Pentapoli e con il suo più alto rappresentante, Sinesio, ha tanti e tanto stretti rapporti.

Alessandria d'Egitto. Là l'opposizione, il contrasto tra la morente cultura pagana e la giovine cultura cristiana di tanto in tanto trabocca, dal Museo e dalle sedi del Didascalèion, per le vie e le piazze dell'illustre città : dalla disputa al tumulto.

Uno di questi, nato all'inizio del patriarcato di Cirillo, per contrasti fra lui e il prefetto della città Oreste — in seguito all'espulsione, dalla città, degli ebrei — uno di questi tumulti travolse, un giorno del marzo 415, anche Ipazia.

Fautrice del prefetto e molto influente su l'animo di lui, la maestra di filosofia era, dai cristiani, considerata il maggior ostacolo alla rappacificazione del prefetto con il patriarca. Una folla di fanatici, capeggiati dal lettore Pietro, l'assale per la strada; la trascina in una chiesa; l'uccide; ne fa a pezzi il cadavere, gettandone nel fuoco i resti miserandi.

A distanza di quindici secoli e mezzo noi deploriamo ancora l'eccidio e tributiamo la nostra commiserazione e ammirazione su-

perstite a colei che Sinesio chiamava 'beata signora', 'maestra', 'madre', 'sorella'.

Noi.

E Sinesio ?

Da nessuna delle sue ultimissime opere, da nessuna delle lettere sale né un grido né un gemito né piange un'elegia per Ipazia uccisa.

Evidentemente, il grande discepolo è premorto all'illustre maestra.

Dove ? quando ? come ?

In una delle sue lettere, delle ultime, alla stessa venerata maestra Ipazia, abbiamo letto: «... Ho dettato questa lettera giacendo a letto... La mia debolezza fisica è causata da afflizione morale. Mi consuma a poco a poco il ricordo dei figli morenti. Per Sinesio valeva la pena di vivere finché fu esente da mali. Poi, d'improvviso, un torrente di questi, fino allora contenuto, irrompe su di me e ogni giocondità del vivere è svanita.

Oh, che io pensi sempre al sepolcro dei figli e cessi di vivere ! »

Il suo voto dové compiersi là, nella sua Tolemaide, negli anni 13-14 di quel turbinoso secolo quinto.

DISTRIBUTION AND DENSITY OF POPULATION 1954-66

By Robert G. Hartley

Manchester

Elaboration of the distributional and density patterns of Libya's population indicates some of the causes, characteristics and consequences of the country's demographic change. As Zelinsky[1] maintained... « If we learn to explain numbers, more than half the battle has been won in explaining the location of age groups, literacy and mortality, etc. » Spengler[2] has been more specific in identifying the economic-demographic interrelations of population distribution. Defined as secondary demographic variables, distribution, and hence density, are determined by dynamic variables of fertility, mortality and migration. In turn, numerical aspects of the population influence, and respond to, changes in net national product, distribution of income, employment, investment, consumption and savings. In short, the distributional aspects of population are sensitive indicators of economic and demographic change.

While the demographic-economic interrelationships are reflected in the numerical division of the population, it is hypothesized that physical controls in the environment set critical, quantitative limits to he distribution and density of Libya's rural population. Thus, the process of adjustment from one socio-economic system to a new equilibrium takes place within well-defined and reasonably stable limits. Within the limits set by the physical environ-

ment, however, particularly rainfall distribution, the controls are more a complex of physical and human determinants and are more emphatically qualitative. This section attempts to define these « limits » and to highlight the particular controls which have shaped the current distribution and density changes of the population.

I. General Characteristics of Population Distribution and Density

The outstanding feature of Libya's population distribution is the marked coastal concentration. About three-quarters of the population live within twenty miles of the sea, this proportion being similar in both Tripolitania and Cyrenaica. However, while the density of population doubled between 1936 and 1964, it remained under one person per square kilometre. On a provincial basis the proportions of total population remained relatively stable.

Tripolitania with only 14 per cent of the total area contained two-thirds of the total population in 1964. With a density only one-

Table 1. Provincial Changes in Population Distribution and Density, 1936-64

Population Distribution

	Area 1964		1936			1954			1964		
	000's sq. kms.	% total	Total 000's	% total	Density sq.km.	T	%	D	T	%	D
Tripolitania	250	14	547	64	2.2	738	68	3.0	1034	66	4.1
Cyrenaica	855	49	137	28	0.2	291	27	0.3	451	29	0.5
Fezzan	654	37	48	8	0.1	59	5	0.1	79	5	0.1
Libya	1759	100	733	100	0.4	1089	100	0.6	1564	100	0.9

Sources (a) Ministry of National Economy, Libya. General Population Census 1954, Tripoli, (1959) and Ministry of Economy and Trade, Libya General Population Census 1964, Tripoli, (1966).
(b) Pan, C.L. "The Population of Libya", Population Studies, Vol. 3, No. 1, (1949), p.119

Table 2. Mudiriah Administrative Districts in Northern Tripolitania

1954 - 66

1. Tripoli City
2. Suk El Giuma
3. Taguira
4. Garabulli
5. El Khitna
6. El Alawna
7. Arrgaiat
8. Aulad Ouein
9. Al Ganafdha
10. Accara
11. Beni Daud
12. Beni Khalifa
13. Beni Nuseir
14. El Guassem
15. El Assabaa
16. Kikla
17. El Orban
18. Yefren
19. Arriaina
20. El Zintan
21. El Rujban
22. Giado
23. Irrbelbat
24. El Moshashia
25. Aulad Abu Seif
26. El Magarah
27. El Zintan
28. Gantrar
29. Nalut
30. Giosc
31. Tiji
32. El Haraba
33. Cabao
34. Wazzin
35. Ghadames
36. Foughas
37. Derj
38. Sinawin
39. Zawia
40. Zanzur
41. Sorman
42. Ezzahra
43. El Harsha
44. Bir El Ghnem
45. Jude Eddaiem(Olivetti)
46. El Maamura
47. Bianchi
48. Sabratha
49. Al Ajeilat
50. Zuara
51. El Assa
52. Regdalin
53. Homs
54. Cussabat
55. El Amamra
56. Suk El Khamis
57. Gasr Khiar
58. Aulad Muselliem
59. Aulad Maarref
60. El Hawatin
61. El Drahib
62. El Wasat
63. El Oteyin
64. El Sabayeh
65. El Saadat
66. El Jamamla
67. El Zarrug
68. El Mahjub
69. Tauorgha
70. Aboungim
71. El West
72. El Guima
73. El Fuatir

Geographical Index of names mentioned in Auble, A. Statistical Paper No.13, Ministry of Planning and Development, Tripoli, (1966), pp. 1 - 5.

eighth as large, Cyrenaica contained nearly one third of the 1964 population on roughly half of Libya's total area. The Fezzan is the most sparsely populated province, containing 37 per cent of the area and only 5 per cent of the total population.

Within each of the three provinces, however, different micro-distributional patterns were determined by a variety of 'controls' or influences. Figures 1 to 4 describe the distributions of population in the two most densely peopled areas of Northern Tripolitania and Northern Cyrenaica. The proportional circles relate to the total populations of administrative units known as Mudiriah; these were the most detailed population subdivisions afforded by published data for the years 1954, 1964 and 1966. Location of circles corresponds to the approximate of population in the Mudiriah; accurate in small agglomerated populations, but approximate in large dispersed units, for Mudiriah boundaries are unknown and unmapped in many areas. Amalgamation of administrative units between 1954 and 1966 account for changes in the number and location of circles. Place names for the Mudiriah numbers are contained in Tables 2, 3 and 4.

1.1 Population Distribution in Northern Tripolitania

With a marked coastal and inland escarpment concentration Tripolitania's population distribution forms a wishbone shape (Figs. 1 and 2). The large number and size of Mudiriah populations emphasize the fact that in 1964 Tripolitania contained about 66 per cent of the national total, dominating the central coastal zone and forming a pivot for three limbs of population distribution each containing similar proportions of the national total. The eastern coastal zone contained approximately 13 per cent and had a more dispersed Mudiriah distribution than its western counterpart. Centred on Zawia, the Mudiriah populations of the western zone were clumped to the western and southern boundaries of Tripoli, forming a more clustered contingent. The whole coastal zone, stretching from Zuara in the west to Misurata in the east, contained about half the country's total population.

Fig. 1

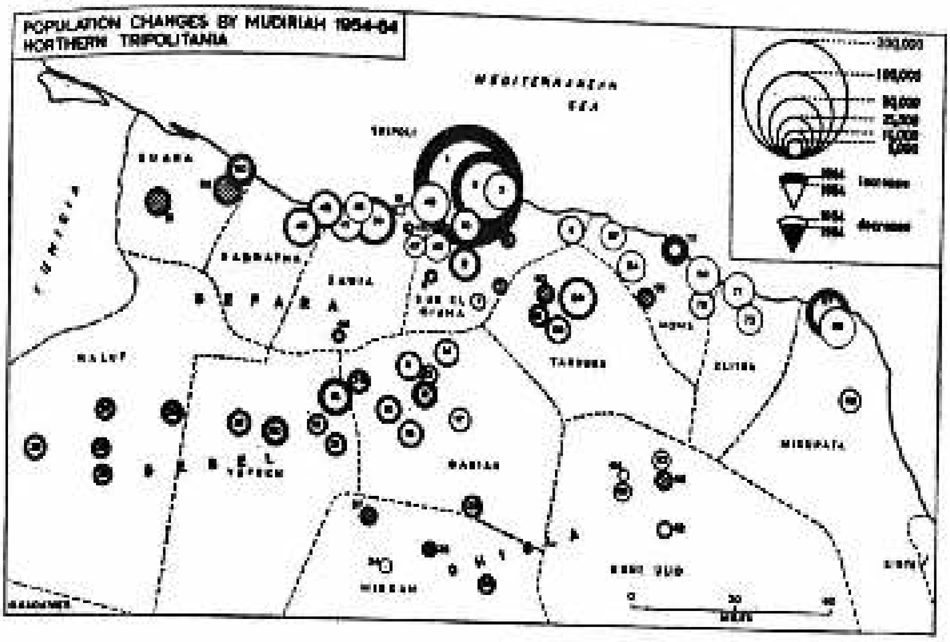
POPULATION CHANGES BY MUDIRIAH 1954-64
NORTHERN TRIPOLITANIA
MEDITERRANEAN SEA
TRIPOLI
TUNISIA
ZUARA
SABRATHA
ZAWIA
GEFARA
TARHUNA
HOMS
ZLITEN
MISURATA
GEBEL
YEFREN
GHARIAN
MIZDAH
BENI ULID
SIRTE
increase
decrease

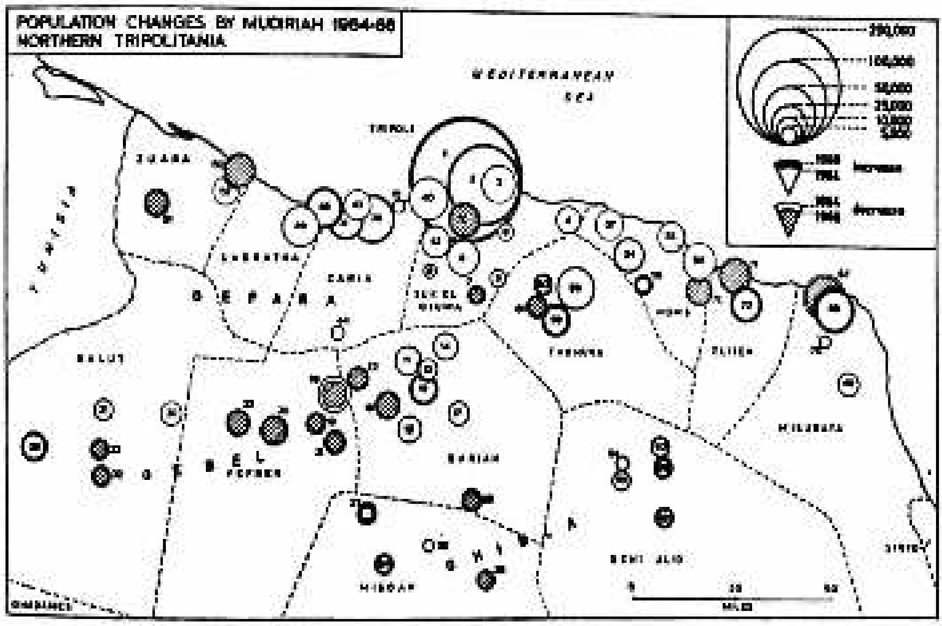
POPULATION CHANGES BY MUDIRIAH 1964-66
NORTHERN TRIPOLITANIA
MEDITERRANEAN SEA
TRIPOLI
TUNISIA
SABRATHA
ZAWIA
GEFARA
TARHUNA
HOMS
ZLITEN
MISURATA
GEBEL
YEFREN
GHARIAN
MIZDAH
BENI ULID
SIRTE
MILES
increase
decrease

Fig. 2

Fig. 5

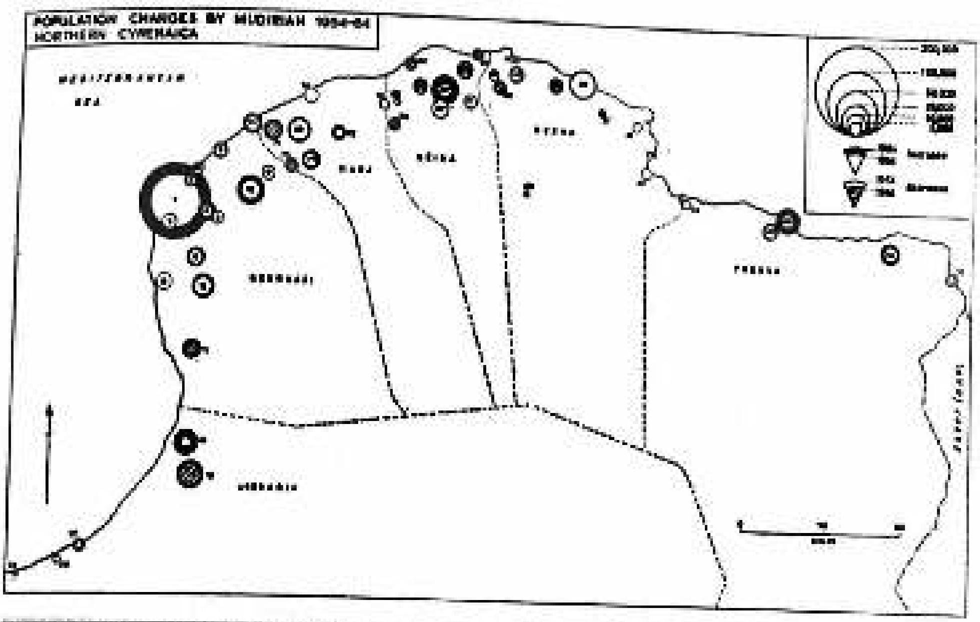
POPULATION CHANGES BY MUDIRIAH 1954-64
NORTHERN CYRENAICA

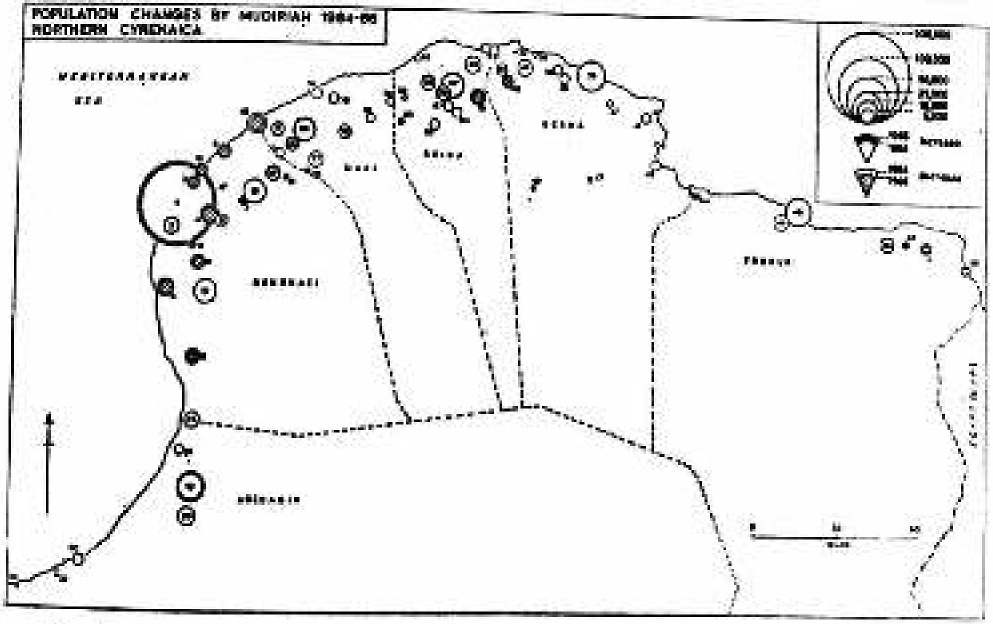
POPULATION CHANGES BY MUDIRIAH 1964-66
NORTHERN CYRENAICA

Fig. 6

e 3. Muririah Administrative Districts in Northern Cyrenaica, 1954 - 66

1. Benghazi City
2. Kwefia
3. Guarsha
4. Benina
5. Regima
6. Jardina
7. Al Hamda
8. Ghemines
9. Diriana
10. Bu-Meriam
11. Magrun
12. Soliuk
13. Tocra
14. Sidi Mahieus
15. Abiar
16. Nuaghia
17. Alemeittaniya
18. Sidi Kalifa
19. Agedabia (Ijdabia) Town
20. Agedabia
21. Zuetina
22. Brega
23. Sidi Sultan
24. Agella
25. Bishr
26. Marada
27. Jalo
28. Jikerra
29. Aujila
30. Eljof
31. El Hawari
32. Attulah
33. Tazirbu
34. Ribiana
35. Derna Town
36. Derna
37. Martuba
38. Ain Mara
39. Latrun
40. Ras Hilal
41. Um Er Rezzem
42. El Gubba
43. El Temimi
44. Labrag
45. El Giacab
46. El Mikheili
47. El Ezziat
48. Tobruk Town
49. Tobruk
50. Kanboot
51. Kasir El Jidi
52. Bir El Ashab
53. Ain El Gazala
54. Al Gartabah
55. El Berdi
56. Jaghbub
57. Beida Town
58. Beida
59. Messa
60. Shahat (Cyrene)
61. Faydiya
62. El Haniya
63. Sussa (Apollonia)
64. Saltna
65. Al Argub
66. Gandula
67. Omar El Mukhtar
68. Marawa
69. Marj Town (Merj or Barce
70. El Marj
71. Farzugha
72. Tackinnes
73. Sidi Buzeid
74. Tolmeitha
75. Batta
76. El Beyada
77. Gerdes El Abid
78. El Bunaaia
79. Gasr Libya.

Geographical Index of names mentioned in Auble, A. Statistical Paper No. 13, Ministry of Planning and Development, Tripoli, (1966), pp. 1 - 5.

A third zone can also be distinguished. Containing about 13 per cent of the national total, the Gebel Mudiriah form a subsidiary inland alignment. While the population distribution follows a 150 mile escarpment trending south-west from Tarhuna to Nalut, the central areas around Garian are the most important. The remainder of Tripolitania's population is dispersed in the southern part of the province. While scattered, most of the Mudiriah are located around oases, generally aligned parallel with the Gebel escarpment though at the foot of the southern dip slope known as the « Ghibla ».

1.2 Population Distribution in Northern Cyrenaica

Although Cyrenaica's distribution of population shows a similar coastal concentration, both its proportions and groupings of Mudiriah differ markedly from Tripolitania (Figs. 3 and 4). Benghazi City, though eminent amongst Cyrenaican Mudiriah, is smaller than its Tripolitanian counterpart accounting for only 10 per cent of national total. Mudiriah adjacent to Benghazi are also less imposing, while the coastal plain to the north and south of the city forms only 6 per cent of the national total. Most of this population is distributed south of Benghazi City. A further 8 per cent of the Libyan population is concentrated on the Gebel Akhdar trending approximately 120 miles north-east of Benghazi. It is grouped in two similar sized units, one around Marj Town and the other around Beida Town. Derna and Tobruk, as coastal towns, form the bulk of the remaining population concentrated on the northern coast, containing about 3 per cent of the national population. Most of these Mudiriah are small and regularly dispersed.

A similar proportion of the provincial population is distributed in the desert interior, principally in the oases of Jaghbub, Jalo and Kufra.

1.3 Population Distribution in the Fezzan

The small size of the Fezzan population is emphasized by the fact that the total 1964 population could be contained in circle

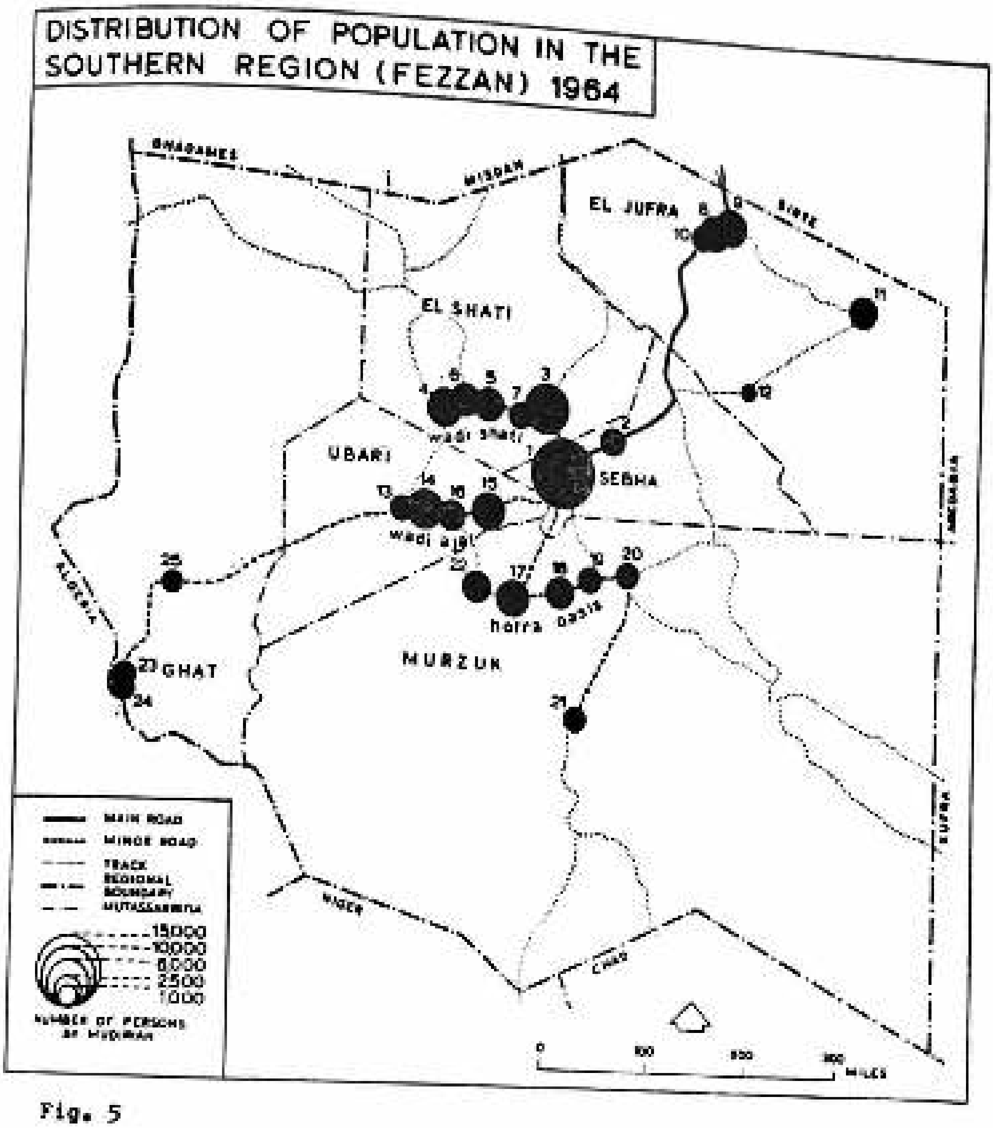
DISTRIBUTION OF POPULATION IN THE SOUTHERN REGION (FEZZAN) 1964
EL JUFRA
EL SHATI
wadi shati
UBARI
SEBHA
wadi ajal
hofra oasis
MURZUK
GHAT
MAIN ROAD
MINOR ROAD
TRACK
REGIONAL BOUNDARY
MUTASSARRIFIA
15000
10000
8000
2500
1000
NUMBER OF PERSONS
MILES

Fig. 5

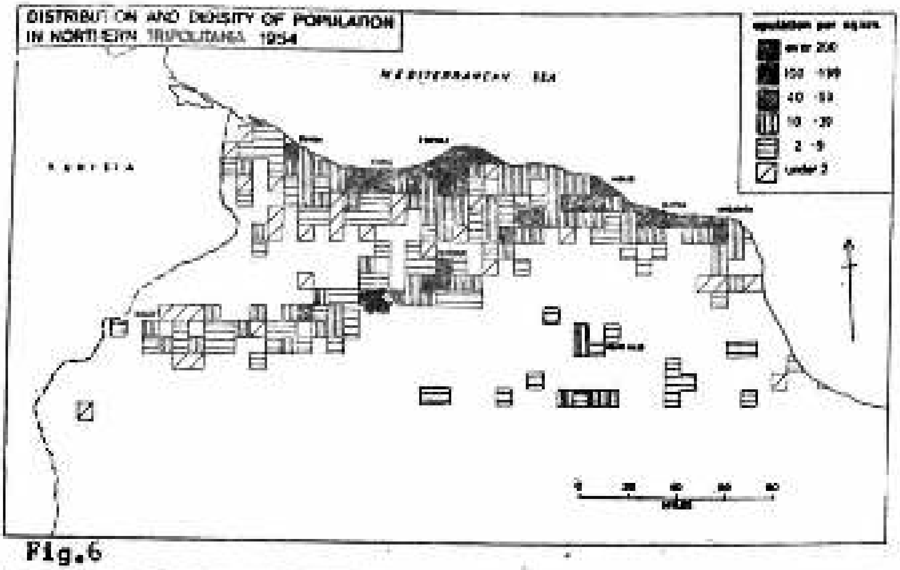

Fig.6

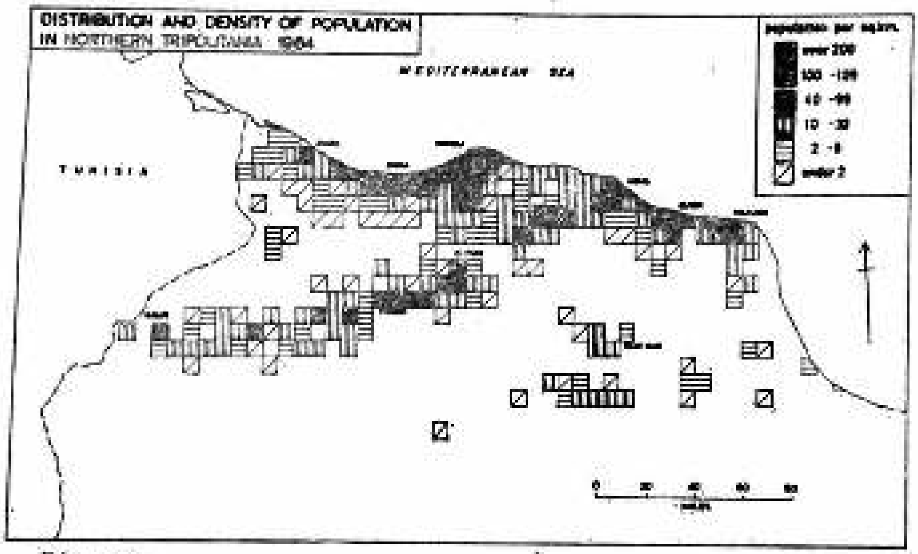

Fig. 7

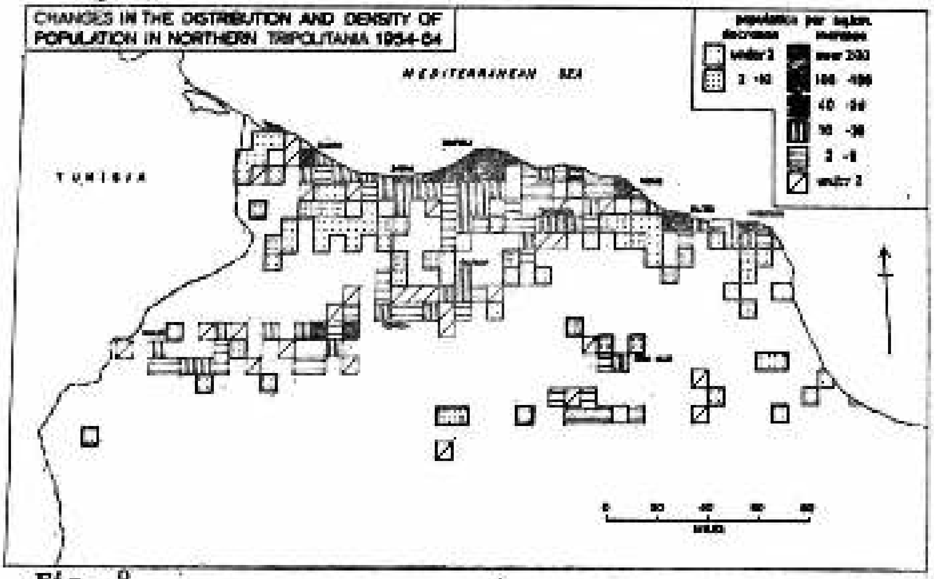

Fig. 8

number 2 on Figure 1. Despite the small scale and dispersed nature of the Fezzan population, however, the region claimed provincial status until 1963. Separated from the two northern provinces, the Fezzan achieved a measure of self-sufficient independence based on the old capital of Murzuk but more recently on Sebha. As Figure 5 shows, the 1964 population was aligned in three parallel zones. The largest group was centred on Sebha containing only about one per cent of the national population, but 18 per cent of the Fezzanese total. The parallel groupings in the north and south, based on Brak and Murzuk respectively, contained a further one per cent of the Libyan population. The outlying cases of Hon, Ghat, and Gatrun, made up the remainder.

2. Distributional Changes 1954-66

While information for northern Tripolitania and Cyrenaica relates to three specific dates, 1954, 1964 and estimates in 1966, a two-phased change in population distribution is apparent.

Table 4. Mudiriah Administrative Districts In the Fezzan,. 1964

1.	Sebba Town	14.	Garifa
2.	El Gedid and Buanis	15.	Bint Bayyah
3.	Brak	16.	Oragen
4.	Idri	17.	Murzuk
5.	Bergin	18.	Tragben
6.	El Hassawna	19.	Um el Araneb
7.	El Maguartia	20.	Zuila
8.	Hon	21.	Gatrum
9.	Waddan	22.	Wadi Atbah
10.	Socna	23.	Ghat
11.	Zella	24.	El Berket
12.	El Fugha	25.	Oulnat
13.	Ubari		

Geographical Index of names mentioned in Auble A. Statistical Paper No. 13, Ministry of Planning and Development, Tripoli, (1966), pp.1 - 5.

Between 1954 and 1964 **Tripolitania**'s main increase was concentrated dramatically in the Tripoli complex (Fig. 1). Increases in the settled areas of the coast occurred around Zuara, Zawia, Homs and Misurata. All the Gebel areas extending from Cussabat to Nalut showed sustained increases. Slight decreases were apparent in the western Gefara and the southern Gebel dip-slope, while the eastern coastal region showed a stagnant situation outside the coastal towns. The distribution pattern changed radically after 1964. Half of the western Mudiriah showed a decrease, together with the western Gefara and eastern coastal Mudiriah (Fig. 2). In fact, only Tripoli City and its surrounding districts experienced any significant increase, although districts adjacent to Tripoli began to show a decline.

Although **Cyrenaica's** population distribution has a different pattern from Tripolitania's, a similar two-phased change could be identified. Benghazi City dominated the provincial growth during 1954-64, although there was less repercussion on its neighbouring Mudiriah than in the Tripoli complex (Fig. 3). The new capital of Beida, the eastern port of Tobruk, and the oilfield exploration centre of Agedabia were the major subsidiary growth points. The main areas of decrease occurred in the small Mudiriah surrounding Beida and Marj, and in the plain south of Benghazi. The devastation of Marj by the 1963 earthquake undoubtedly influenced the decrease in population. This pattern was re-emphasized after 1964 (Fig. 4). Benghazi City continued to expand, but this time at the expense of the surrounding Mudiriah. The main towns grew steadily, while the Benghazi plain increasingly became an area of declining population.

The large growth of the **Fezzan** population from 59,000 to 79,000 between 1954 and 1964, and to 86,000 in 1966, cannot be explained purely by demographic processes. Some local population adjustment has taken place. For instance, the old capital of Murzuk has been replaced by Sebha, which doubled its population during 1954-64. However, evidence from recent field work in the Fezzan[3] suggests that the proportions of total population in the three major wadis have remained relatively stable in recent years. Conse-

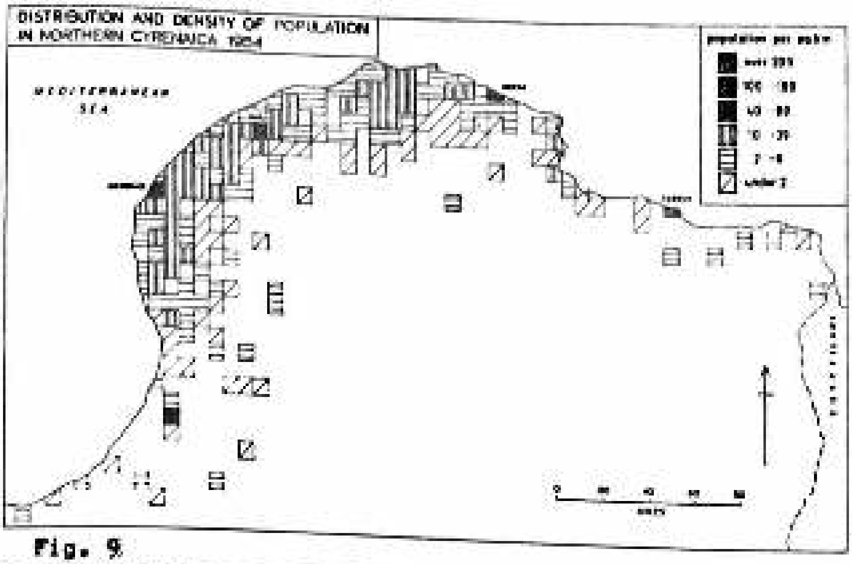

Fig. 9

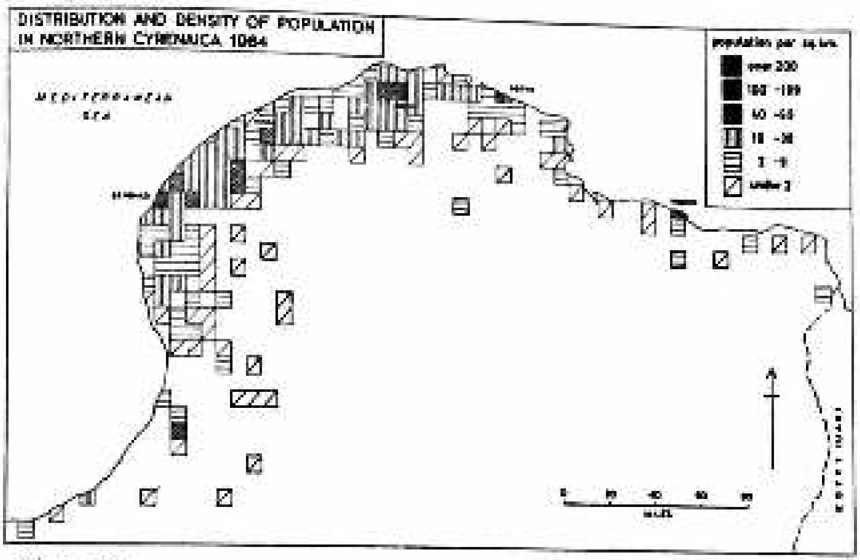

Fig. 10

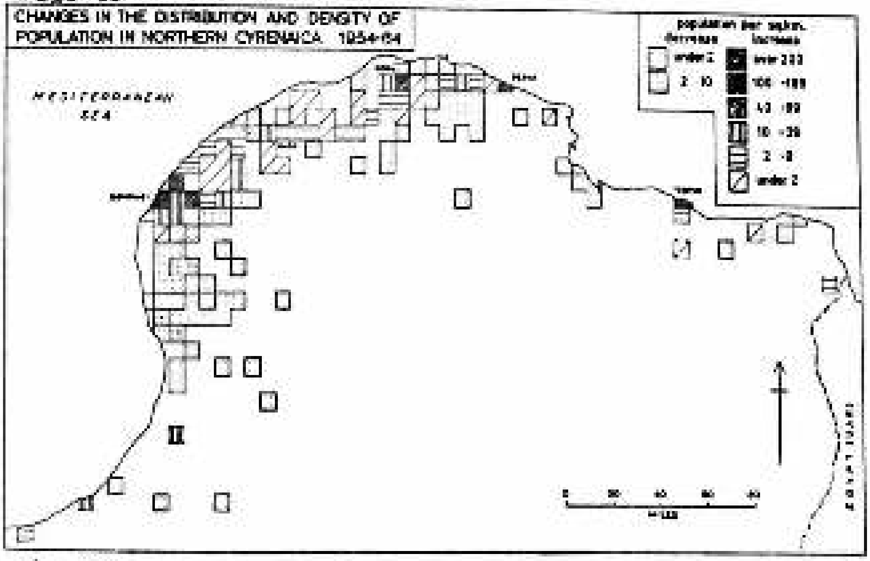

Fig. 11

quently, census enumerations in either 1954 or 1964, together with boundary changes, must account for the exceptional growth in Libya's southern province.

3. Changes in Population Density 1954-64

Ways of depicting geographical distributions depend as much on cartographic convention as on the inherent nature of the phenomena being shown. The clustered nature of mudiriah represented by proportional circles, for instance, indicates changes over time effectively, but fails to relate the population to area. The patterns of density in Northern Tripolitania and Northern Cyrenaica are summarized in Figures 6 to 11. These density surfaces may be thought of statistically as a response surface in which height, i.e. population density, varies as a response to controlling factors. While the density gradients highlight regional disparities and suggest particular environmental controlling factors, the method used in portraying the densities is inevitably a generalization. A 10 kilometre square grid was placed over a dot map for the 1954 population thereby creating an artificial, though standardized, relationship between area and population. *

The settled population in 1954 and 1964 identified in the density maps indicates a similar basic pattern to the Mudiriah distribution; coastal concentration, inland Gebel alignment in Tripolitania, and minor interior oasis groupings. Tripolitania had higher average densities than Cyrenaica though it also experienced

---

* A map was published in 1964 on the scale 1:1,000,000 by the Department of Regional Geography, Warsaw, which showed the 1954 distribution of Libyan population using standard size dots, each dot representing 200 persons. The map was checked at the Mutassarrifia district level and was found to be accurate. The 1964 population distribution and density was based on a 1966 map devised by the Ministry of Planning and Development, Libya, although each standardized dot represented 1,000 persons. A more detailed distribution of population in northern Libya on the scale 1:1,000,000, and with each dot representing 200 persons, was undertaken by the writer in 1967.

steeper density gradients, especially inland from the coast (Figs. 6 and 7). Cyrenaica displayed more uniform densities, particularly on the upland Gebel Akhdar, and lacked high rural densities along the coast. Urban centres in Cyrenaica contrasted sharply with low surrounding population densities, a feature not so significant in Tripolitania (Figs. 9 and 10).

Urban centres in both provinces dominated the density increases during 1954-64, particularly Tripoli and Benghazi Cities. Areas of decrease in Tripolitania were the western Gefara, the southern slopes of the Gebel escarpment, and the eastern coastal areas between Tarhuna and Misurata (Fig. 8). The extreme western Gebel around Nalut, and interior oases near Beni Ulid also indicated a decrease. Cyrenaica displayed a similar pattern of change. The southern Benghazi plain was the major zone of decrease, although the Gebel Akhdar, particularly between Beida and Derna, also showed a marked change during 1954-64 (Fig. 10).

4. Regional Co-efficients of Distributional Evenness

As rainfall is a vital element in the land use of northern Libya and hence in the distribution of rural population, an association between rainfall zones and population density provides a basis for inter-provincial comparison. Lorenz curves (Fig. 12) indicate the degrees of population concentration in each northern province, giving some quantitative basis for inter-provincial comparisons.[5] An area of similar size was selected in northern Tripolitania and Cyrenaica, containing approximately 90 per cent of each province's population and equivalent rainfall zones. Rainfall isohyets at 50 mm. intervals were interpolated on a dot map of the 1954 settled population in Cyrenaica.[6] Estimates of the rural population in each rainfall zone had been made in northern Tripolitania.[7] Areal units were arranged in order of decreasing density of population. Both population and areas of rainfall zones were totalled for each density class. Cumulative percentages of rainfall zones (Y-axis) were plotted against cumulative percentages of population (X-

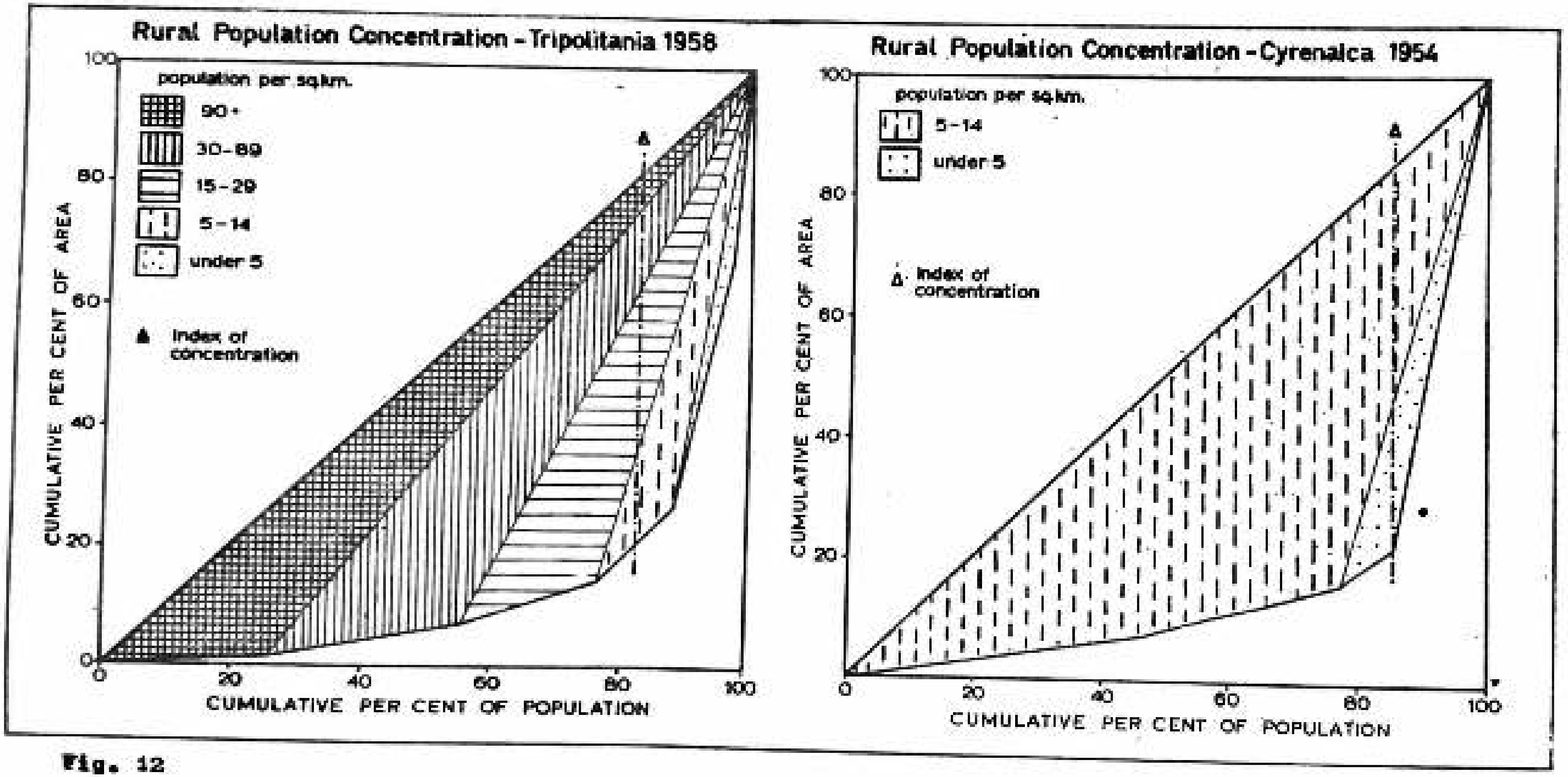
Rural Population Concentration - Tripolitania 1958
population per sq.km.
90+
30-89
15-29
5-14
under 5
Index of concentration
CUMULATIVE PER CENT OF AREA
CUMULATIVE PER CENT OF POPULATION
Rural Population Concentration - Cyrenaica 1954
population per sq.km.
5-14
under 5
Index of concentration
CUMULATIVE PER CENT OF AREA
CUMULATIVE PER CENT OF POPULATION

Fig. 12

Fig. 13

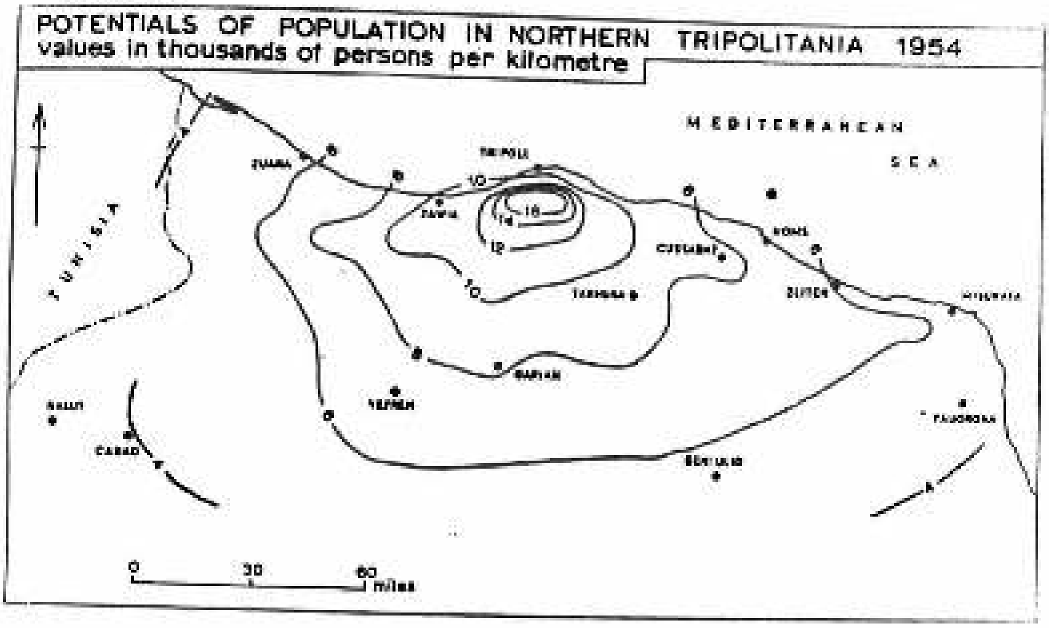

POTENTIALS OF POPULATION IN NORTHERN TRIPOLITANIA 1954
values in thousands of persons per kilometre
MEDITERRANEAN
SEA
TUNISIA
TRIPOLI
10
12
14
16
0
30
60
miles

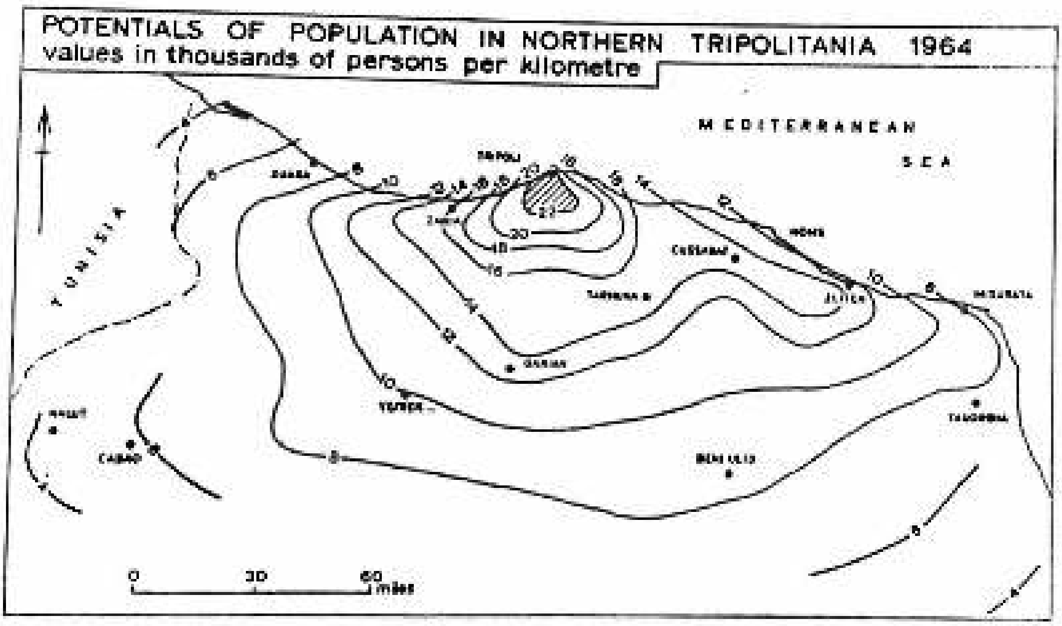

POTENTIALS OF POPULATION IN NORTHERN TRIPOLITANIA 1964
values in thousands of persons per kilometre
MEDITERRANEAN
SEA
TUNISIA
10
12
14
16
18
20
0
30
60
miles

Fig. 14

axis). The more unevenly the population was distributed the more closely the distribution of population approached the X and Y axes.

A concentration ratio, expressing the area on the graph between the Lorenz curve and the diagonal, as a proportion of the total area below the diagonal, revealed 11 per cent for Tripolitania and 22 per cent for Cyrenaica. Tripolitania therefore had higher densities, a greater variety of density groups and a larger co-efficient of unevenness than Cyrenaica.

5. Population Potentials in Northern Libya

There is an evident tendency for the Libyan population to concentrate in particular areas; in towns, along the coast, and in the higher rainfall zones. Some of these areas have a high population potential. Stewart[8] refers to a population potential as a measure of nearness of people to that point, as a measure of general accessibility, or as a measure of influence of people at a distance. This tendency to congregate represents an attraction of people for people that turns out to have a mathematical as well as a merely verbal resemblance to Newton's law of gravitation. In the physical analogy, the potential is the energy in the field (gravitation) of a unit mass (charge). The energy of a given mass at a point is the potential of that point multiplied by the said mass. Likewise, the « demographic energy »or « interchange » between a population N_1 and a second population N^2 at distance d is N_1 times N^2/d. In other words, potential varies inversely with distance.

Four maps were constructed in northern Libya to measure the population potential and to note provincial changes between 1954 and 1964. The procedure in constructing isopleths of equipotentials of population was the same for the four maps. A grid containing 10 km. squares was placed over maps of northern Tripolitania and Cyrenaica, similar to the density maps (Figs. 6 and 11). Calculation of the populations in each square revealed 234

locations in Tripolitania in 1954 and 223 in 1964; Cyrenaica's equivalent locations were 168 and 151 respectively. The population of each district was arbitrarily supposed to be concentrated at the centre of each square. Distance in kilometres was measured by means of two axes, X and Y, giving a 17 x 40 square matrix for both provinces. The sum of a point to all other points on the grid divided by its distance, plus the potential of the point on itself, were calculated on an I.B.M. computer.

The maps of population potential in Tripolitania in 1954 and 1964 (Figs. 13 and 14) have two striking features in common. The major peak in both concentrations is Tripoli City. A dominant axis, or ridge, runs east and west from Tripoli, descending rapidly towards the desert interior. The pattern remained similar during 1954-64, with a slightly higher eastern ridge in 1964. However, values increased about one and a half times over the ten years period.

Cyrenaica shows the increasing importance of Benghazi, but without a well-defined ridge along the coast. A rapid fall of potential inland is broken by a plateau covering the whole of northern Cyrenaica with local peaks around the towns of Derna and Tobruk (Figs 15 and 16). It is significant that the new capital of Beida has had little influence on the equipotential values.

In physics the rate of change of potential with distance in any direction measures the « field intensity » in that direction. The field intensity is the number of people divided by the square of their distance away; it is a directed, or « vector », quantity, while potential is a « scalar » quantity, without direction. « Lines of force » define the field and always run at right angles to the contours of equipotential. The sharpening of the Tripoli and Benghazi peaks, which presumably is still going on, indicates that in this respect also the physical analogue carries into demography. Populations tend to shift slowly along the lines of force towards the peaks of potential. Cyrenaica's triple peak has endured in defiance of this tendency, because the hill and arid areas that intervene

Fig. 15

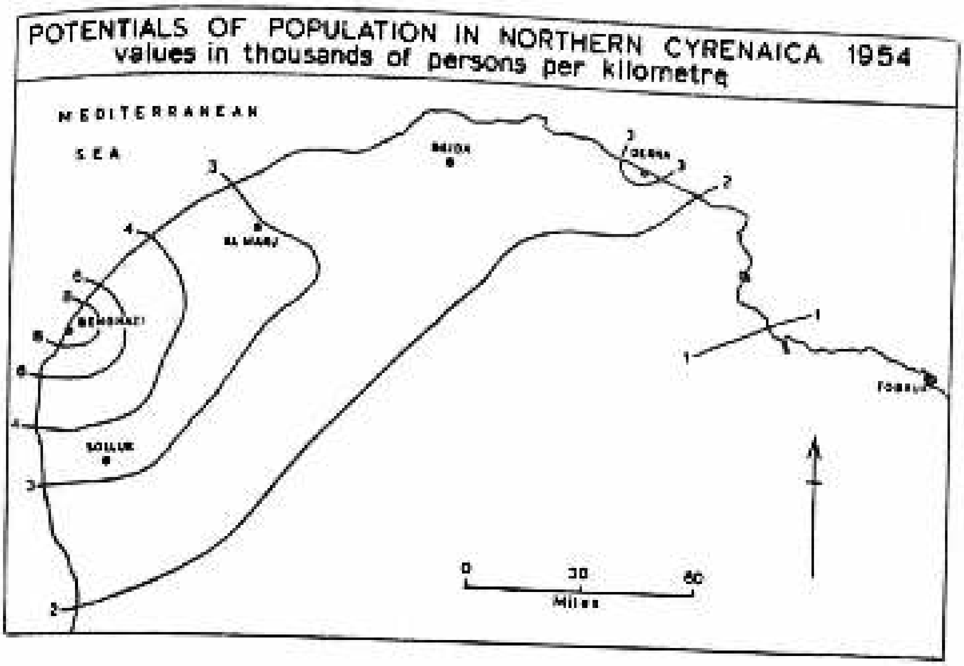

POTENTIALS OF POPULATION IN NORTHERN CYRENAICA 1954
values in thousands of persons per kilometre
MEDITERRANEAN
SEA
BENGHAZI
EL MARJ
SOLUK
0 30 60
Miles

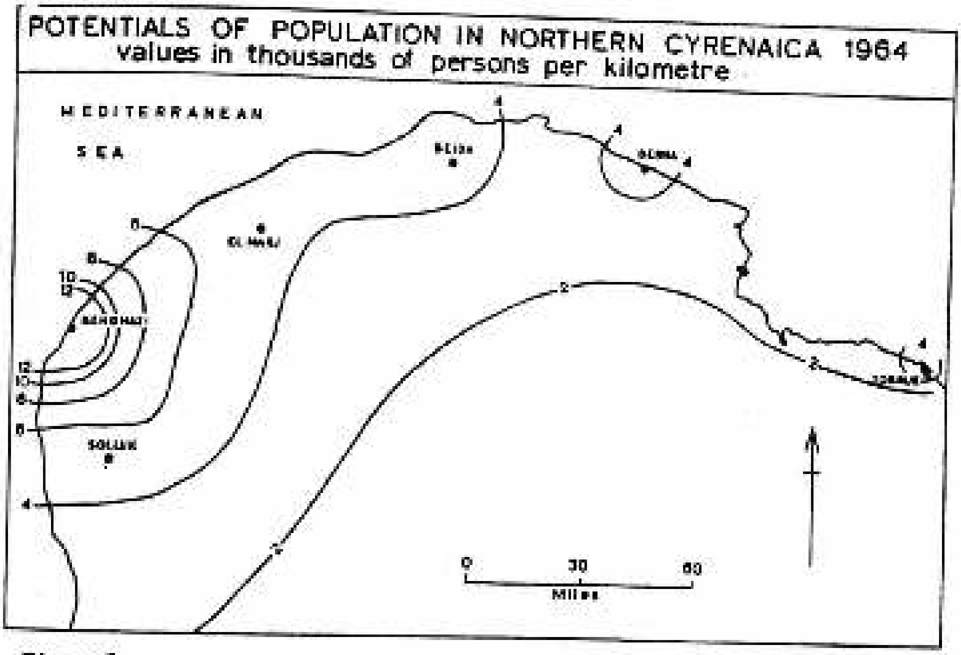

POTENTIALS OF POPULATION IN NORTHERN CYRENAICA 1964
values in thousands of persons per kilometre
MEDITERRANEAN
SEA
BENGHAZI
EL MARJ
SOLUK
0 30 60
Miles

Fig. 16

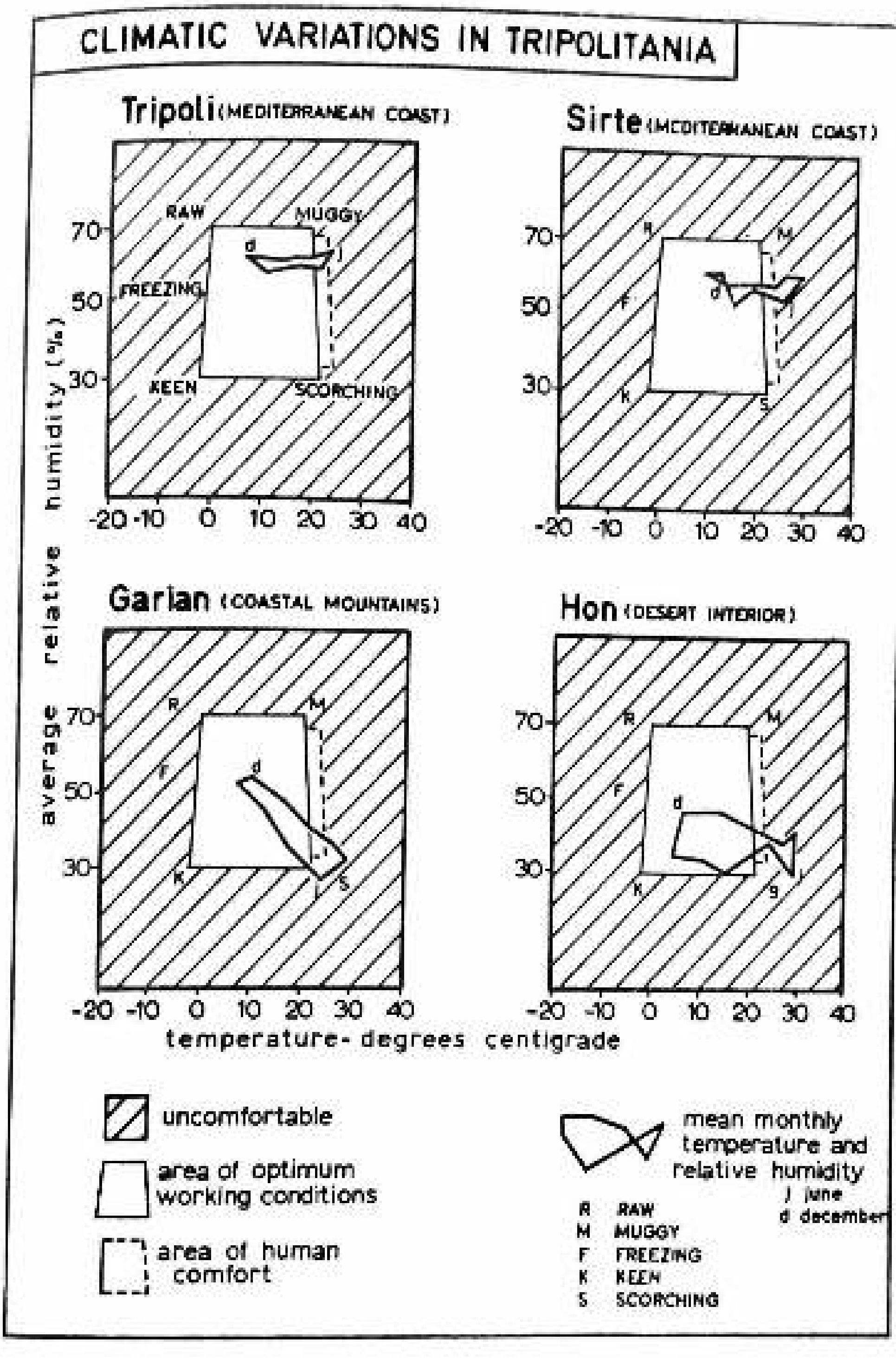

CLIMATIC VARIATIONS IN TRIPOLITANIA
Tripoli (MEDITERRANEAN COAST)
Sirte (MEDITERRANEAN COAST)
Garian (COASTAL MOUNTAINS)
Hon (DESERT INTERIOR)
RAW
MUGGY
FREEZING
KEEN
SCORCHING
average relative humidity (%)
temperature- degrees centigrade
uncomfortable
area of optimum working conditions
area of human comfort
mean monthly temperature and relative humidity
J june
d december
R RAW
M MUGGY
F FREEZING
K KEEN
S SCORCHING

Fig. 17

keep the Benghazi-Derna and Derna-Tobruk concentrations separated, notwithstanding their mutual attraction.

There is, thus, a tendency of human groupings toward a maximum. In Libya this maximum appears to be in urban areas, rather than coastal or higher rainfall zones. The maximum is never fully achieved because of a counterbalancing tendency and demographic force; otherwise there would be one city at the peak and no ridge or rural lowland. Therefore, while the tendency of accretion of people at peaks and ridge increases, some people must remain spread out to maintain contact with the rural occupations and environment.

The patterns and measures of population distribution, density, concentration and potential outlined in the foregoing section form the basis for a more detailed investigation of the determining influences. United Nations' studies have indicated that ...... « within limits man determines his pattern of population distribution ».[9] In order to identify some of these 'limits' and controls, each province's population distribution is analysed in terms of its physical and non-physical conditions.

6. Tripolitania's Rural Population Distribution

6.1 Temperature, Humidity, Rainfall and Agricultural Production

While atmospheric temperature alone need not impose undue limitations on man's physiology or on his ecological environment, a large temperature range combined with relative humidity can set limits. Optimum living and working conditions are not necessarily coincident in all parts of the province. The selection of four climatic regimes shows the northward amelioration of extremes (Fig. 17). Moderating influences from the Mediterranean Sea make Tripoli's location the most favoured physical environment for optimum working and living conditions. Extremes of temperature increase both east and west along the coast, but are particularly sharp inland. Only the Gebel acts as a moderating influence. Thus, mean annual temperature ranges of 14°C on the coast

increase by 4°C only forty miles inland, and may reach 25°C in interior regions.[10]

However, it is the indirect influences of the physical environment which set more specific limits to Libya's œcumene.* The presence or absence of water is the critical factor in Tripolitanian agricultural production, and hence in influencing the distribution of the rural population. Low precipitation limits water supply in general and soil moisture in particular, thus imposing limits on the size of the animal population and agricultural production. The reliability and effectiveness of precipitation tend to increase where diurnal and annual temperature ranges are of moderate proportions, thereby affecting vegetation types and growth conditions. Stewart[11] estimated that seven out of twenty years have damagingly low rainfalls, particularly effective in areas existing on marginal amounts of rainfall.

The optimum conditions for the various types of agricultural production vary throughout the country. However, barley, the principal annual crop, seldom produces a profitable yield in a location where the average rainfall is less than 200 mm. per annum. This occurs even when the rain falls during the growing season and does not vary with the quality of the land.[12] Even the olive, second in value of Tripolitanian crops produced, and well suited to the north Mediterranean lands, is confined basically to areas where annual average rainfall does not fall below 200 mm.[13]

Despite the fact that scattered oases and areas benefiting from wadi moisture exist productively in regions with less than 200 mm., it can be considered to be the minimum amount of moisture required to yield reliable crops. Moreover, levels of agricultural technology pertaining in Tripolitania have developed little in the field of extending the cultivated area beyond these limits. Perennial crops can produce profitable yields with less moisture than is required by cultivated annual crops. Below 150 mm. of

---

* As defined by Trewartha, G. T. « A case for Population Geography », **Annals Assoc. Am. Geog.**, Vol 43, (1953), p. 92.

Fig. 18

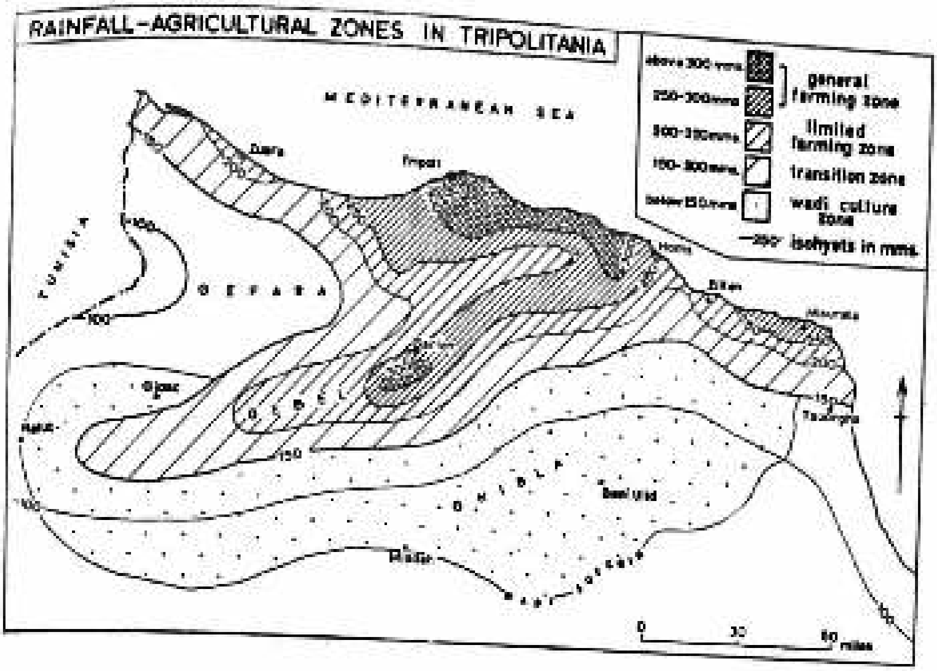
RAINFALL-AGRICULTURAL ZONES IN TRIPOLITANIA
general farming zone
limited farming zone
transition zone
wadi culture zone
isohyets in mms.
MEDITERRANEAN SEA
Zuara
Tripoli
Homs
Misurata
TUNISIA
GEFARA
GEBEL
GHIBLA
Garian
Giado
Nalut
Beni Ulid
Tauorga
0 30 60 miles

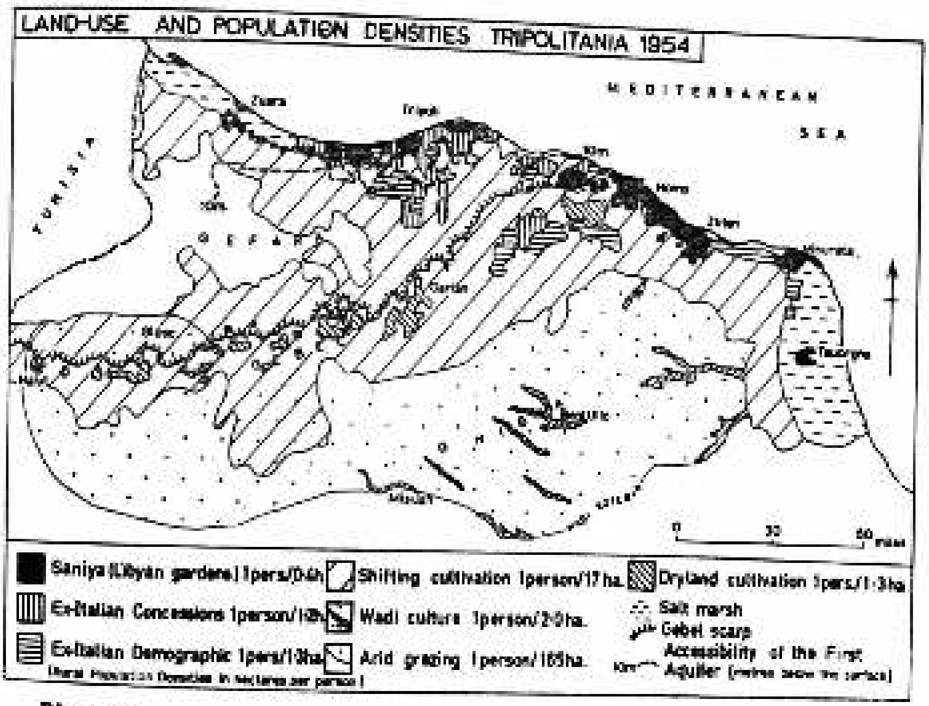
LAND-USE AND POPULATION DENSITIES TRIPOLITANIA 1954
MEDITERRANEAN SEA
Zuara
Tripoli
Homs
Zliten
Misurata
TUNISIA
GEFARA
Garian
Tauorga
0 30 60 miles
Saniya (Libyan gardens) 1pers/0·4h
Shifting cultivation 1person/17ha.
Dryland cultivation 1pers./1·3ha
Ex-Italian Concessions 1person/1·2h
Wadi culture 1person/2·0ha.
Salt marsh
Gebel scarp
Ex-Italian Demographic 1pers/1·3ha
Arid grazing 1person/165ha.
Accessibility of the First Aquifer (metres below the surface)
(Rural Population Densities in hectares per person)

Fig. 19

rainfall, however, a definite break appears in the density of vegetation. Between 150-200 mm. constant overgrazing prevents the growth of perennial forage grasses, and profitable non-irrigated farming is limited to grazing and forestry.

The Tripolitanian agricultural zone, bounded approximately by the 150 mm. isohyet, covers about 24,570 sq. kms., comprising 8 per cent of the provincial area. This land, all in one piece except for a small wedge of better watered land on the littoral at Sirte, is actually a coastal strip extending from Tunisia to Misurata. It averages about 30 kilometres wide at both eastern and western ends, with a 100 kilometre wide bulge in the central section, and with one projection or « tongue » extending westwards along the Gebel Nefusa from about Yefren to Nalut (Fig. 18).

The relationship between population density and the rainfall zones is tabulated in Table 5 and portrayed graphically in Figure 20. Rural population density, on both total and non-irrigated land, increased from zone to zone much more rapidly than annual rainfall. In other words, rather than varying in a straight.

Table 5. Rainfall Zones and Rural Population Density in Northern Tripolitania. 1954*

Rainfall Zone	Rural Population 1954 No. persons	Rural Population 1954 % total pop.	Area sq. kms.	Area % total	Density pers./sq.km.
300 mm. +	153,000	26.4	1,555	1.7	98
250 - 300	175,000	30.3	4,543	4.9	38
200 - 250	110,000	19.0	6,840	7.4	16
150 - 200	70,000	12.1	11,530	12.5	6.1
100 - 150	50,000	8.7	28,430	30.8	1.8
100	20,000	3.5	40,000	42.7	0.5
	578,000	100	92,898	100	5.8

* location of region in Figure 6.

Source:- Stewart, J. H. Land and Water Resources of Tripolitania, U.S. Technical Aid, Tripoli, (1953), p. 27.

line linear ratio with rainfall, population density increased in a so-called « geometric », or « exponential » rate as rainfall increased. Stewart[14] maintains that... « it indicates in general how productivity is controlled by rainfall ,and to some extent how population density responds to that productivity. There are undoubtedly other factors, some technical (such as ease of communication and transportation) and some sociological, that cause an even greater concentration of rural population in the higher rainfall zones than would be the result of prductivity alone ».

6.2 Sample Survey : Population Distribution and Rainfall Zones

A simple correlation statistical test related population density to the rainfall zones in an area of 20,000 square kilometres in western Tripolitania (Fig. 21). The results dispel the impression of uniform population densities within each rainfall zone and emphasize the importance of other physical influences on the distribution of population.

The average correlation for the sample area indicated a slight positive relationship between increasing population density and increasing rainfall. However, subdivision of the sample area into six rainfall zones indicated progressively significant correlations with increasing rainfall (Table 6).

The low absolute amount of rainfall below 150 mm. per annum, combined with the high evaporation loss (estimated by Stewart as 90 per cent of the total rainfall in interior regions), dictated the lack of association between the two variables. Variability of rainfall in time and space, together with the sparse vegetation, support the view that population distribution in this zone is associated with the availability of other water supplies. In regions receiving more than 150 mm. rainfall per annum there is an increasingly significant association; + 0.43 in the zone 150 mm. to 200 mm., to + 0.77 in the zone receiving over 250 mm. rainfall. The fact that only 12 per cent of the total cultivated land area is irrigated,[15] confined basically to the coastal zone, suggests the

Table 6. Results of the Population-Rainfall Correlations*

1.	Average for the sample area	+ 0.47
2.	Average for rainfall belts:-	
	(a) 0 to 50 mm	+ 0.25
	(b) 50 to 100 mm.	+ 0.23
	(c) 100 to 150 mm.	+ 0.13
	(d) 150 to 200 mm.	+ 0.43
	(e) 200 to 250 mm.	+ 0.56
	(f) over 250 mm.	+ 0.77
3.	Average for geographical regions:-	
	(a) Coastal belt (10 kms. from coast)	+ 0.17
	(b) Agricultural belt (20 kms. from coast)	+ 0.16
	(c) Gefara	+ 0.52
	(d) Gebel	+ 0.81
	(e) Interior plain (Ghibla)	+ 0.13
4.	Correlation of population distribution and number of wells	+ 0.70

*T-tests indicated that correlation co-efficients were accurate at 90% - 95% probability levels.

dependence on dry-farming techniques in the rest of the agricultural zone. In this area efficient utilization of available surface water and soil moisture ultimately dictates crop yields.

In order to cross check these correlation the sample area was again subdivided; this time on a physiographic basis (Fig. 21). The interior plain (Ghibla) corresponding with the rainfall zone below 150 mm. indicated little association. The Gebel ridge, however, showed the most significant correlation (+ 0.81) indicating that in the dry-farming areas, with little accessible underground water, agriculture and hence population distribution are determined primarily by the avaibility of rainfall. The Gefara, or inland plain between the coast and Gebel, showed a slight association between rainfall and population. This supports the principle that shifting cultivation depends partly on variability of rainfall, particularly in the 150-250 mm. rainfall zone. Suprisingly, the coastal belt, determined both as 10 km. and 20 km. from the sea, showed no correlation. The predominance of other factors would seem to be associated with the coastal concentration of population.

6.3 Distribution of Groundwater

The action of groundwater on the distribution of Tripolitania's rural population has a twofold influence. Within the agricultural zone, determined as the area receiving more than 150 mm. rainfall per annum, groundwater dictates local variations in the intensity of production and also determines the potential for agricultural expansion. Secondly, the supply of groundwater is the critical factor in determining population distribution outside the agricultural zone.

About 105,000 hectares of land are irrigated in northern Tripolitania representing about 13 per cent of the provincial cultivated land area (about four fifths of the national total) and supporting about 100,000 rural population in 1958. Like population density in the rainfall zones, the population supported on each hectare of irrigated land decrease in each rainfall zone, though not at the

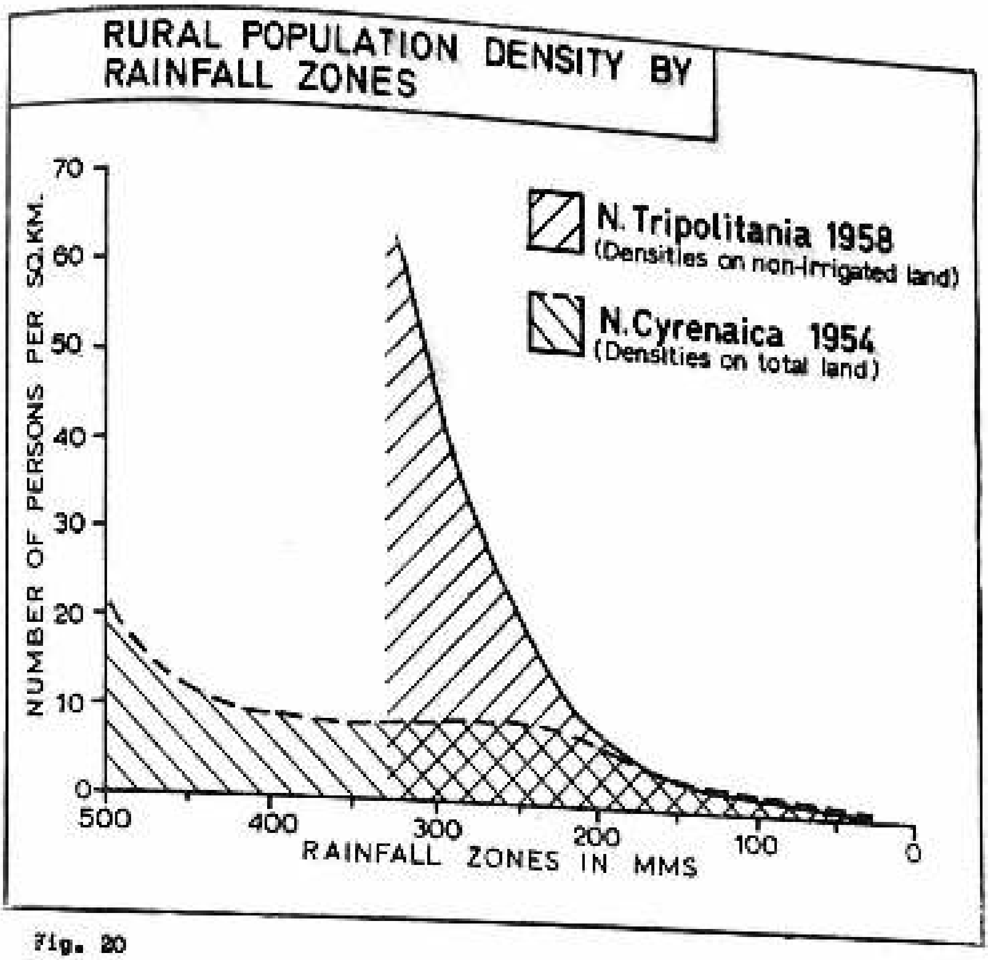

RURAL POPULATION DENSITY BY RAINFALL ZONES
N. Tripolitania 1958
(Densities on non-irrigated land)
N. Cyrenaica 1954
(Densities on total land)
NUMBER OF PERSONS PER SQ.KM.
70
60
50
40
30
20
10
0
500
400
300
200
100
0
RAINFALL ZONES IN MMS

Fig. 20

Table 7. Distribution of Irrigated Land by Rainfall Zones in Northern Tripolitania, 1958

Rainfall Zone (annual average)	Irrigated Land (hectares)	Population Supported	Density persons/ha. irrigated land	Non-Irrigated land
over 350 mm.	2,000	2,500	1.3)	
300 - 350 mm.	19,000	25,000	1.3)	98
250 - 300 mm.	44,000	50,000	1.1	38
200 - 250 mm.	20,000	20,000	1.0	16
150 - 200 mm.	5,000	5,000	1.0	6
	90,000	102,500	1.1	

Source:- Stewart, J. H. Land and Water Resources of Tripolitania, U.S. Operation Mission to Libya, (1958). p. 26.

same rate (Table 7). The bulk of the irrigated land is situated in the Gefara which, because of its Tertiary and Quaternary sediments, is the main area of percolation and accumulation of underground water. This occurs in two main aquifers."

The first, or Phreatic, water-table has a south to north gradient, steep in the east of the Gefara plain and shallow in the west. A littoral extension occurs between Homs and Misurata. However, the most accessible non-brackish water occurs in the area south of Tripoli (Fig. 19). The fact that this was the only water-table used prior to the arrival of he Italians in the 1920's is a reflection of its accessibility by traditional « dalu » (leather bucket) irrigation techniques. Recently installed electric pumps have enabled greater exploitation of existing areas and an extension southwards to tap the deeper aquifer. Over two-thirds of the Tripolitanian irrigated area is fed by pumped water. However, the high density of wells in the Arab garden oases (saniya) has resulted in decreasing yields and salinity in coastal areas due to sea water infiltration. The accessibility of the first water-table decreases eastwards with increasing depth, and westwards with increasing evaporation and consequent salinity. Shifting sand from

the Gefara has caused blockage of wells in the Tripoli area. However, exploitation of this water table has allowed population densities of 4 persons per hectare to be concentrated in saniya gardens along the coast (Fig. 19).

The second, or deep Quaternary aquifer, is confined to an area within thirty miles of Tripoli, but is important because of the high yields and good quality of the water. Being 20-25 meters below the first aquifer, it was inaccessible to the Arabs using traditional techniques. The introduction of the diesel, and recently electric, pumps enabled the Italian Demographic and Concession farms to expand southwards into previously unoccupied territory in the Gefara. Exploitation of deeper artesian water supported population densities of one person per hectare on large-scale commercial farming enterprises geared to supply growing urban needs. This concentration of accessible water resources around the Tripoli population complex has tended to reinforce the inertia of population growth in the centre of the Tripolitanian coastal plain.

In the vast pre-desert and desert areas of Tripolitania receiving less than 150 mm. rainfall per annum, there are numerous pockets of agriculture and population concentration. These scattered areas, limited in extent, depend essentially on two types of irrigation; controlled perennial irrigation from wells and springs, and uncontrolled flood-irrigation, defined by Stewart as « wadi culture ».[7] The extent of the water available and the methods of utilization form distinct paterns of population distribution, composing approximately 100,000 persons.

Controlled perennial irrigation dependent on well and spring water in the pre-desert and desert zone is concentrated chiefly in scattered oases. The largest is Tauorgha situated south of Misurata. It is nourished by a huge spring, though situated in « sebkha » (salt flats). The small populated areas totalling about 5,000 inhabitants are scattered over an area of about 100 sq. kms. The largest concentrated oasis is at Ghadames in south-west Tripolitania where nearly 3,000 inhabitants share an area of little more than four square kilometres. Smaller oases trend in an east-west

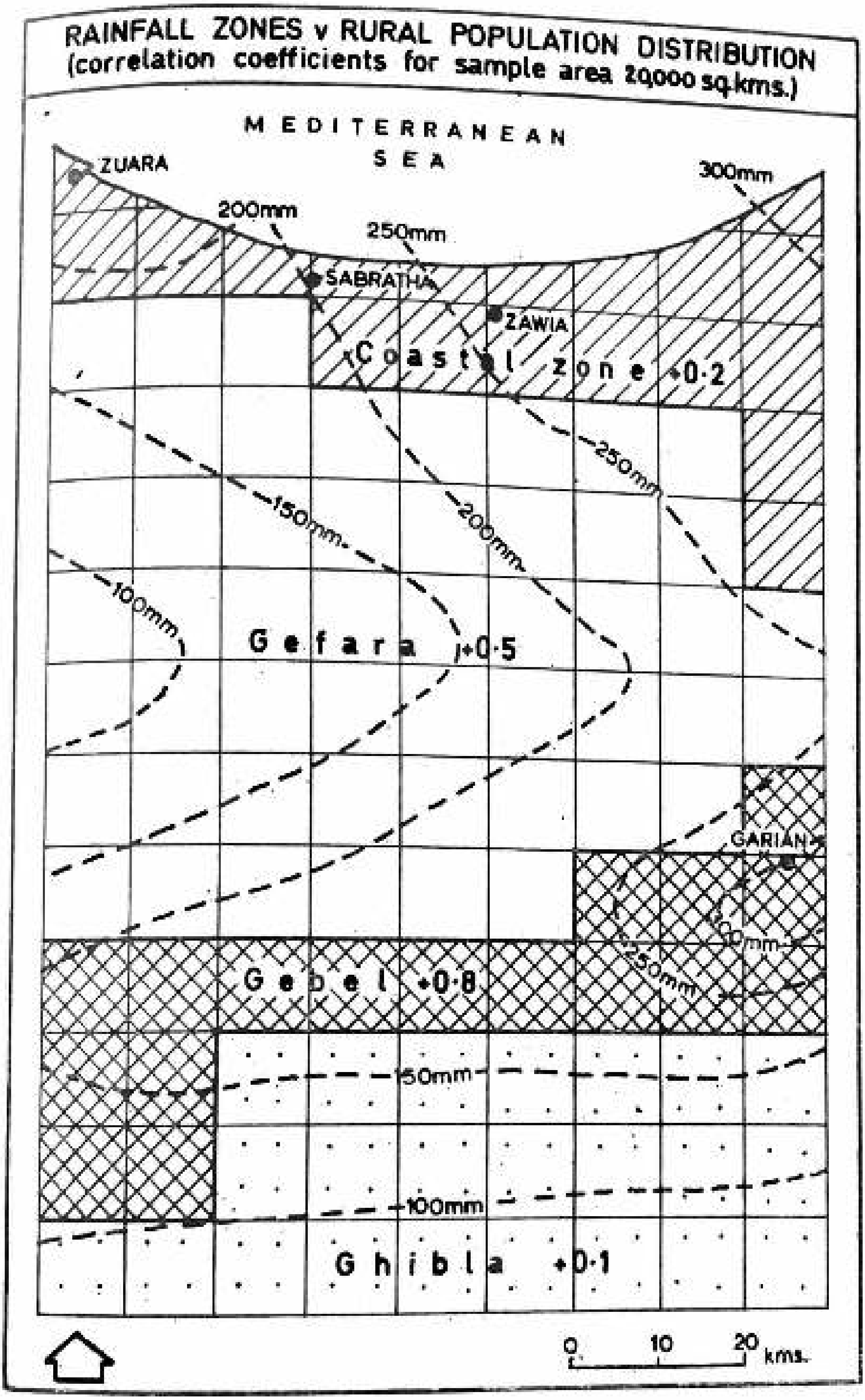
RAINFALL ZONES v RURAL POPULATION DISTRIBUTION
(correlation coefficients for sample area 20,000 sq.kms.)
MEDITERRANEAN SEA
ZUARA
SABRATHA
ZAWIA
GARIAN
300mm
250mm
200mm
150mm
100mm
Coastal zone +0·2
Gefara +0·5
Gebel +0·8
Ghibla +0·1
0 10 20 kms.

direction, parallel to the Gebel, though at the foot of the southern dip slope. Other less important settlements occur along the northern spring line of the Gebel; for instance at Tiji and Giosc. The total population of the oases in 1964 was estimated at 10,000, remaining relatively stable since 1954.

The flood-irrigated areas, or the « wadi culture zone », support about 60,000 to 70,000 persons, mainly on the southern slopes of the Gebel and in the 100 to 150 mm. per annum rainfall zone. Flood flows occur in the watercourses of the large wadis on average 15 times in ten years. Frequency and reliability of wadi flooding increase with average annual rainfall. Most of the wadis exceed 100 metres in width and contain deep accumulation of alluvial soil (known as « gattis ») brought down by the floodwaters. Particular physical conditions necessary for irrigation limit the distribution of population to an area of approximately 23,000 sq. kms., although actual wadi cultivation and settlement cover no more than 500 sq. kms. (Fig. 19). The terrain yields considerable run-off from rainstroms of only moderate intensity, the location occurs in rainfall zones receiving at least one flood per annum, and local topographical conditions favour slight gradients and broad wadis.

The most spectacular example occurs around Beni Ulid in the central Ghibla. Efficient run-off and delivery of water, from the surrounding better-watered Gebel, converge at a point where the wadi is wide and flat. Flood-waters deposit silt allowing the water to penetrate the deep soil that has accumulated over centuries. Roman remains of rock dykes and dams further check the velocity of the bi-annual floodwater. At Beni Ulid five square kilometres support about 7,000 people and in addition 10,000 olive trees and date palms and several hundred hectares of mixed barley and bermuda grass. Thus, while the Wadis Tareglat, Mimum, Uestata, Merdum and Sofegin comprise the main productive areas, they depend on the water catchment of the whole Gebel dip-slope.

Other areas adjacent to the Gebel have less favourable conditions. Most of the Gebel scarp has wadi gradients too steep and floodflow velocities too high for the development of cultivation in

the wadis. To the west of Tripoli none of the northward flowing wadis reaches the sea, while those along the east coast support only minor population concentrations on narrow alluvial wadi patches. The effect of the wadis as local indicators of population distribution within the agricultural zone is indicated by Wadi Megenin situated south-west of Tripoli City. The fertility of this Wadi is emphasized by the intense development of vegetables and citrus fruits despite sporadic damage by flooding.[18]

The combination of well-water, flood-runoff and seasonal rainfall also forms the basis of pastoralism and shifting cultivation supporting about 200,000 Tripolitanians*. Shifting cultivation of barley, wheat and fodder crops on « tinn » lands (heavy alluvial soils) in the Gefara is supplemented by grazing lands in the Gefara and Ghibla. Tribal ownership of territory and wells, together with seasonal employment in the coastal saniya oases, dictate specific lines of population movements, though disputes over water rights still remain a source of tribal conflict. Primitive methods of farming are paralleled by ignorance of range management techniques; the consequent overgrazing hinders maximum utilization of scarce resources.[19] For these reasons population densities, ranging from 20-60 ha. per person, still cause excessive pressure on the land.

6.4 Other Physical Determinants of Population Distribution

Apart from the major determinants of precipitation and underground water there are a variety of subsidiary physical influences. The peculiar topographical conditions of wadi culture, the role of alluvial soils and the dangers of shifting sand have been mentioned. The association of soil formation with climate, vegetation and landforms has resulted in three broad soil zones, corresponding with the three physiographic zones of the coast, Gefara and Gebel.[20]

The soils of the cultivated coastal belt are mainly brown pedocalic regosols. They are loose, friable and permeable, but are sus-

* Defined as «Nomads» and «Semi-Nomads» in 1964 population census

ceptible to wind erosion if no vegetation cover exists. The availability of plant nutrients and soil moisture are the controlling factors for crop production and yields. The increasing maturity and depth of soil profiles therefore tend to increase in the higher rainfall zones, or in areas where irrigation is commonly practised. Some soils also act as a deterrent to agricultural development. Accumulation and subsequent evaporation of saline water in depressions behind coastal dunes, combined with capillarity of shallow water-tables, result in the formation of solonchacks and saline soils. Occurrence of these soils around Tauorgha, in the east, and Zuara, in the west, tends to limit the coastal extension of agriculture.[21]

Similar soils are also found in the Gefara, though with a higher sand content than coastal areas. Brown pedocals and « tinn lands » form the basis for cultivation in the favoured patches, while coastal soils, characteristic of the arid western Gefara, limit cultivation and grazing. The third zone of the Gebel ridge marks the beginning of the immature and shallow soils typical of semi-desert regions, punctuated by the alluvial soils in the Ghibla wadis.

7. Non-Physical Factors influencing Tripolitania's Rural Population Distribution

The Tripolitanian rural population is particularly difficult to describe by settlement sizes because of the nature of the traditional agriculture. Outside the urban centre of Tripoli, the large rural settlements of Sukel Giuma, Misurata, Zawi, Homs and Zanzur are set in a matrix of densely populated agricultural land. The urban functions of the settlements merge with the agricultural holdings without a precise physical division either in terms of geographical situation or population density. The distribution and density of the rural population are more clearly differentiated by type of agriculture.

Within the agricultural zone defined by rainfall and irrigation potential, different types of agricultural settlement occur support-

ing different population densities. Basically, there are two distinct patterns of occupance set on a similar background of physical conditions; one related to a traditional system of agriculture reflecting a « natural » response to the physical environment, with a haphazard evolution and stagnant technology; the other related to a planned and predetermined agricultural organization, superimposed on the traditional agricultural system (Fig. 19 and Table 8).

7.1 Traditional Libyan Farms

Although many farms situated on the coast contain land in

Table 8 Land Use Zones and Rural Population Densities in Northern Tripolitania, 1954.*

Land Use Zones	Area in 000's ha.	Rural Population in 000's	Density (ha./person)
1. Saniya farms	50	140	0.4
2. Ex-Italian Concession Farms	127	110	1.2
3. Ex-Italian Demographic Farms	103	80	1.3
4. Dryland cultivation	120	94	1.3
5. Shifting cultivation	1,460	85	17.2
6. Wadi cultivation	50	25	2.0
7. Arid Grazing	7,240	44	165.0
	9,150	578	15.8
Urban population (Tripoli City)	-	130	-
Rest of province	15,850	30	-
Tripolitania	25,000	738	3.0

* Area relates to Figure 6

Sources:- (a) Rowland, F. and Robb, E. Survey of Land Resources in Tripolitania, British Military Administration, Tripoli, (1945).
(b) Stewart, J.H. Land and Water Resources of Tripolitania, U.S. Operations Mission to Libya, (1960).
(c) Ministry of National Economy, Libya. General Population Census 1954, Tripoli, (1959).

the Gefara, economic viability is determined primarily by the size and location of irrigated patches in the coastal saniya. Physical, economic and social factors have combined to produce small (usually about 2 hectares) and fragmented holdings. The patchiness of the sandy-loam to clay soils, and the accessibility of the first-water table by traditional « dalu » techniques have limited the extent of the saniya oases. Traditional methods of inheritance aggravate the segmentation of land in the irrigated patches, which usually form only a quarter of the holdings' hectarage. The average density of occupance for the 150,000 Tripolitanians involved in this type of agriculture varies from 3 to 10 persons per hectare, depending on the fragmentation of holdings. This high population density reflects not only the inherent fertility of the coastal areas, but also the subsistence nature of the traditional agricultural system.

Constraints on the expansion of irrigation in the coastal saniya are both physical and human. Insecurity of ownership, lack of initiative and, until recently, lack of capital have concentrated the population in existing areas. However, the first water-table has already been over-exploited. The average two wells per farm only irrigate an area of one hectare, and increasing salinity is common in coastal areas, particularly between Homs and Misurata. A sample survey in the 1950's indicated the subsistence nature of most farms; 40 per cent of the total value of crops were consumed by the families, and four-fifths of the gross earnings of each farm was less than £L200 per annum.

7.2 Ex-Italian Settlements

In contrast to the traditional farms there are two types of modern commercial undertakings; private Concessions and so-called Demographic settlements. These were implemented by the Italians in the 1930's, although many were farmed by Libyans after independence in 1951, particularly in Cyrenaica.

The Concession farms originated as grants of land by the Italian Government to private individuals. As private commercial

enterprises these farms were developed on some of the best remaining land, chiefly in the western coastal plain between the indigenous oases and, to a lesser extent, in the eastern Gefara and Gebel. Practically all the farms were located within the rainfall zones receiving more than 200 mm. rainfall per annum. Dry land tree cultivation of olives and almonds formed the basis of the farm economies, the plantations being suited to the undulating and lighter soils adjacent to the more fertile indigenous oases. Irrigated field crops of winter cereals and summer groundnuts developed with the exploitation of the second water-table. Stewart estimated that the Concessions covered 127,000 ha. in 1958, giving a population density of about one person per hectare : at least four times smaller than the density in the saniya oases. As only 17,000 Italian farmers remained on these farms in 1953,[38] it is likely that Libyan farmers formed the main settlers in 1964.

The second type of modern commercial undertaking is the ex-Italian Demographic holding, initiated after 1935. In large measure, these settlements were an experiment undertaken for political reasons without thought of strict financial return in the short run. Situated on slightly marginal land in the steppe zone of eastern Gefara and Gebel, the holdings attempted to reclaim land primarily by sand-dune fixation. The Demographic farms were smaller in size than the Concession holdings, and with a larger area under irrigation the Demographic farms were aimed at self-sufficiency. The cropping pattern conformed with available water supplies, so that the olive became the dominant crop on the non-irrigated Gebel farms. Inter-cropping of varied tree and ground crops was common in the better watered coastal areas. About 90,000 Libyans occupied the 103,000 ha. in 1958, giving a density of occupance similar to the Concession farms.

In contrast to the traditional saniya farms, the ex-Italian settlements are more regular and compact. Modernization is reflected in the lack of fragmentation of holdings and more efficient use of water resources. With the aid of diesel and electric pumps, for example, a single well irrigates twelve times the equivalent area on saniya farms. Specialization in groundnuts and olives,

together with numerous by-products, made the farms commercially orientated, (only 9 per cent of the produce being consumed locally in the sample of ex-Italian farms).[24] Although financial returns on ex-Italian farms are greater than on traditional farms, higher capital investment and paid labour offset excessive profit differentials.

Assuming that the area of ex-Italian farms was similar in 1940 and 1958, a marked re-distribution of rural population appears to have occurred within the higher rainfall zones. Estimates from various sources (Table 8) indicate that about 190,000 Libyans were settled on ex-Italian farms in 1954. This would have constituted a fourfold increase in the density of occupance since the 1930's. The Libyan settlers may have been composed of farmers previously occupying the saniya farms, thereby relieving some pressure of population and continuing a process of hired farm labour on ex-Italian farms.[25] It is also likely that Libyans returning from abroad were encouraged to settle on these settlements.[26] However, crude density comparisons between 1940-54 are not strictly accurate and actual rural population changes may not be so dramatic. Many of the 50,000 Italian farmers in 1940 were concentrated on only a small proportion of the total concession land because the olive plantations took about fifteen years to mature. Evidence from the Ministry of Housing Research Section suggests that nearly 23,000 farmsteads were operational on ex-Italian lands, supporting a Libyan population of about 130,000 in 1967.[27] This redistribution of Tripolitania's rural population, whether from local or foreign sources, has two implications. First, the erosion of the traditional agricultural system appears to have occurred through migration rather than through a change in type of farming practices and organization. Secondly, the local redistribution of population within the higher rainfall zone in part reflects a move towards land with a higher productive capacity. However, the type of land tenure, the state of agricultural technologies, the number of workers and dependents, and other non-physical determinants, have also influenced both the scale and direction of recent rural population redistributions.

8. Cyrenaica's Rural Population Distribution

8.1 Physical Determinants

Cyrenaica displays the same three physiographic elements that influence Tripolitania's rural population distribution, though with differences in scale, location and structure. The abutment of the Gebel Akhdar against the northern coast wedges a coastal plain around Benghazi in the west, but only a thin coastal strip in the north and east. From the coast the Gebel rises in two tiers to a crest of 800 metres near Beida. The two scarp faces form a regular accurate boundary to the dissected limestone massif, though an intervening terrace between the two tiers occurs near Marj in the western Gebel.

Westerly and north-westerly winds bring comparatively high winter rains to most of the Gebel Akhdar. The area receiving more than 300 mm. annual rainfall is about five times that in Tripolitania, while some of the central Gebel plateaus receive up to 600 mm. Like the relief, however, rainfall drops off on all sides of the Gebel and only a small portion of the coastal plain receives more than 200 mm. Most of the semi-desert and desert zones south of the Gebel receive less than 150 mm. rainfall per annum (Fig. 22).

In contrast to the Tripolitanian tendency for rural population density to increase in a geometric progression with increasing rainfall, Cyrenaica has more regular population densities in each rainfall zone (Fig. 20 and Table 9). Part of the reason lies in the smaller total population and larger area of rainfall zones, and part in the structure of the Gebel. Thus, nearly half of Cyrenaica's rural population lives in rainfall zones receiving more than 300 mm., almost twice the proportion that occurs in Tripolitania. Yet the rainfall zone is almost four times as large, resulting in lower total densities of occupance in each rainfall zone compared with the western province.

The structure of the Gebel indirectly acts as a deterrent to high population densities. The limestone Gebel encourages rapid

Fig. 22

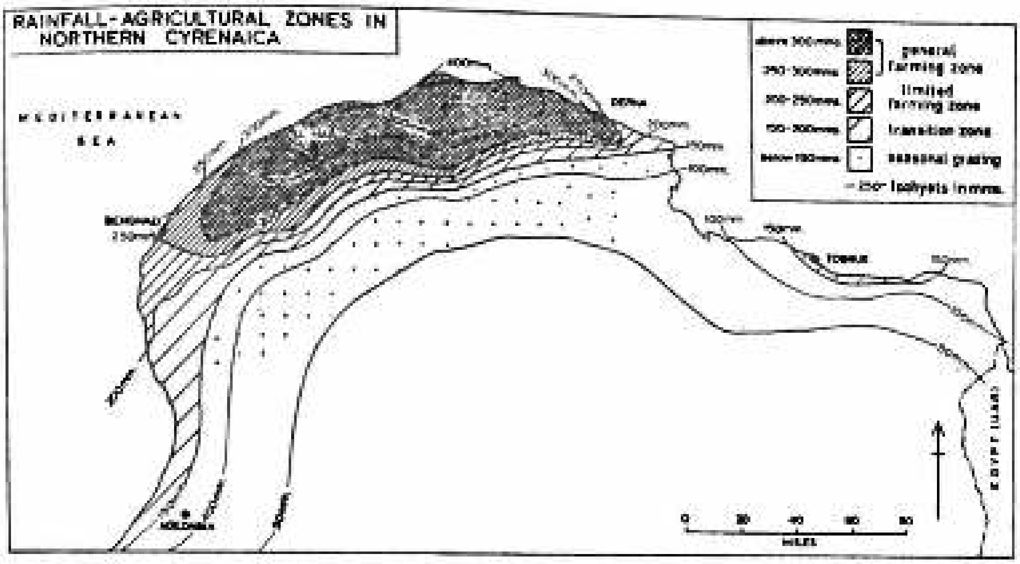
RAINFALL - AGRICULTURAL ZONES IN NORTHERN CYRENAICA
MEDITERRANEAN
SEA
DERNA
TOBRUK
general farming zone
limited farming zone
transition zone
seasonal grazing
Isohyets in mms.
MILES
EGYPT (UAR)

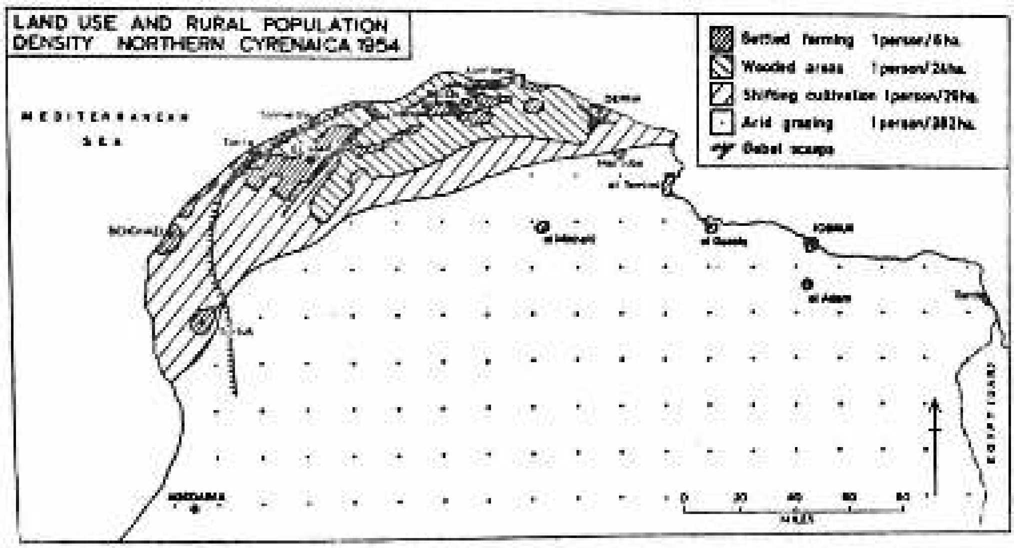
LAND USE AND RURAL POPULATION DENSITY NORTHERN CYRENAICA 1954
MEDITERRANEAN
SEA
Settled farming 1 person/6 ha.
Wooded areas
Shifting cultivation
Arid grazing
Gebel scarps
DERNA
TOBRUK
MILES
EGYPT (UAR)

percolation of rainwater, whilst the dissection of the high Gebel limits animal movements across the region. The contradiction of high relief and high rainfall, with few perennial rivers (only five major wadis radiating from the Gebel crest reach the sea) has discouraged concentration of the rural population. From a water divide near the Gebel crest groundwater moves north and north-west towards the Mediterranean and south towards the Ghibla. Faulting and fracturing, which characterizes the karst topography of the Gebel, in part account for spring water along the bases of the scrap and dip slopes. Even so, the total estimated flow of Gebel spring would provide sufficient irrigation supply for only 4000 ha. of land, or partial irrigation for 10,000 ha. However, it is

Table 9 Rainfall Zones and Rural Population Density in Northern Cyrenaica, 1954*

Rainfall Zone	Rural Population 1954		Area		Density
	No. persons	% total pop.	sq. kms.	% total	pers./sq.km.
500 mm. +	17,000	11.3	1,400	1.5	12.1
450 - 500	12,600	8.4	1,000	1.1	12.6
400 - 450	10,000	6.7	1,100	1.2	9.1
350 - 400	14,000	9.3	1,700	1.9	8.2
300 - 350	16,600	11.1	1,700	1.9	9.6
(300 mm.+)	(70,200)	(46.8)	(6,900)	(7.6)	(10.2)
250 - 300	16,600	11.1	1,900	2.1	8.7
200 - 250	12,000	8.0	2,200	2.4	5.5
150 - 200	18,200	12.1	3,800	4.2	4.8
100 - 150	11,200	7.5	6,000	6.6	1.9
100	22,400	14.5	70,200	77.1	0.3
	150,000	100	91,000	100	1.6

* location of region in Figure 8

Sources: (a) Department of Regional Geography, Warsaw. 1954 Population Map of Libya, 1:1 million, Warsaw, (1964).
(b) I.B.R.D. The Economic Development of Libya, John Hopkins Press, Baltimore, (1960), p.104.

doubtful whether half the potential supply could be utilized for agriculture.[38]

Two areas contain the necessary physical conditions for irrigation. On the first escarpment in the western Gebel a wide, flat, saucer-shaped plain surrounds the town of Marj. This area of settled agriculture covers 28,000 ha. on land with a heavy terra rossa soil. Most of the 300-500 mm. annual rainfall is trapped on the plain, some of which percolates to a few perched water-tables first noted by the Italians in the 1930's.[39] While water for urban needs is accessible, lack of efficient recharge can cause overexploitation. Springs also offer potential irrigation water along the foot of the northern scarps, particularly when combined with the alluvial outwash soils on the coastal plain. However, between Tolmeitha and Benghazi and Apollonia and Derna overexploitation and poor recharge of spring water has led to salt water intrusion and brackish water. As such, there are only about 2,000 ha. of irrigated land in Cyrenaica; less than one per cent of the total area of settled agriculture (Table 10).

While perennial wadi flows are distinctly limited in the high Gebel, silting of courses does give rise to irregular flows. Wadis from the first escarpment emerge on to the coastal plain about three times each year depositing alluvium along the scarp foot. However, the combination of watercourse permeability, fast run-off and lack of capital works in the form of wadi dams, have precluded extensive spring line settlement, at least in the Benghazi Plain.

The fact that a quarter of Cyrenaica's rural population lives on land receiving less than 150 mm. rainfall per annum indicates the economic dependency on pastoralism. Much of this land occurring on the southern slopes of the Gebel Akhdar dip-slope wadis provides patches for seasonal grazing and harvesting, though not on the same scale as in Tripolitania. Perennial river flows are non-existent, catchment areas are small, and run-off velocity unfavourable for the growth of a wadi culture. Interior

able 10 Land Use Zones and Rural Population Densities in Northern Cyrenaica, 1954*

Land Use Zones	Area in ha.	1954 Rural Pop. (000's)	Density ha/person
1. Static Farming.	240,000	40	6.0
2. Shifting cultivation	2,140,000	73	29.3
3. Forested areas	480,000	20	24.0
4. Arid grazing	6,500,000	17	382.4
	9,360,000*	150	62.4
Urban population	-	111	-
Rest of province	76,100,000	30	-
Cyrenaica	85,500,000	291	0.3

* Area relates to Figure 9

Sources:- (a) I.B.R.D. The Economic Development of Libya, John Hopkins Press, Baltimore, (1960), p.104.

(b) Ministry of National Economy, Libya. General Population Census 1954, Tripoli, (1959).

(c) Department of Regional Geography, Warsaw. 1954 Population Map of Libya, 1:1 million, Warsaw, (1964).

oases at Jaghbub, Aujila and Kufra are only partly related to patterns of seasonal grazing on the Cyrenaican Ghibla.[30]

8.2 Non-Physical Determinants

While comparisons with Tripolitania's land use and population densities are difficult because of different classifications, it is apparent that Cyrenaica's densities of occupance are lower for each equivalent area (Tables 9 and 10). Settled, or static, farming in northern Cyrenaica is concentrated in the Barce Plain around the towns of Marj and Beida. Western coastal areas around Benghazi, Tolmeitha and Appolonia also support agriculture and settled farming (Fig. 23).

Despite the dissection of the high Gebel and the high annual rainfall, Cyrenaica has been geared to pastoralism with a subsidiary emphasis on shifting cultivation. Traditionally the Bedouin have been pastoralists first and cultivators second. For centuries the nomadic way of life has prevailed over most of the country except for the coastal towns, and it has been argued that pastorialism is well adapted to the physical environment.[31] While the Bedouin society has shown a great capacity for survival, neither its organization nor its values equip it to take advantage of the opportunities for economic advance opened up by the oil wealth.

The Italian colonization of Cyrenaica in the 1930's further offset the geometrical increase of population density in rainfall zones identified in Tripolitania. On the basis of an Anglo-Jewish commission in Cyrenaica in 1908 it was estimated that 300,000 colonists could be settled in addition to the existing indigenous population.[32] By 1940 the Italians had acquired about 120,000 ha. land, although only half was actually developed to support about 50,000 settlers. The bulk of the 2,000 Italian families were situated around Marj and Beida. These areas still remain the major settled parts, though with slightly lower densities of occupance than the Italians had originally planned. In the Mutas-

sarrifia of Marj, for instance, four-fifths of the sedentary agricultural holdings are composed of ex-Italian farms. [11]

The evacuation of the Italian colony in 1942 left an agricultural infrastructure, but also social disruption. Eviction of Bedouin tribes during acquisition of potential colonization land has caused conflicts concerning re-settlement. Attempts have been made by the government to deal with this problem. In 1952 the ex-Italian Demographic and Concession farms reverted to state ownership. More recently the National Agricultural Settlement Authority (NASA), established in 1964, attempted to mitigate the clash between evicted Bedouin groups. However, re-settlement schemes will not radically alter the present pattern of population distribution.

The Italian colonization weakened the tribal structure, but at present there is a reversion to mixed farming of shifting cultivation and pastoralism. By 1960, a third of the farm holdings and one-half of the total agricultural area was under tribal ownership. This land use manifests many of the weaknesses inherent in communual ownership; overgrazing, little grassland improvement, afforestation or soil conservation, resulting in poor yields and low population densities. Thus, large tracts of land in the higher rainfall zones well suited to the cultivation of crops are being downgraded.

Physical determinants still influence Cyrenaica's distribution of population, but density of occupance is not necessarily correlated with water resource location. Two human elements have cut across the tendency for population to concentrate in the higher rainfall zones. Pastoralism, associated with the Bedouin tribes, has thrived in areas outside the dissected and thickly wooded high Gebel plateaus. Inevitably this form of land use has supported population densities lower than the potential of the land. The growth of planned settlement, thought of initially by the Jews, partially implemented by the Italians, and developed by the Libyans, is also cutting across «the grains» imposed by the physical environment. Economic development may also weaken

these physical determinants. For instance, the development of a water pipeline from springs in the eastern Gebel to settled farming areas on the central plateaus will tend to preserve the existing population distribution. The achievements of the Romans serve as an indication of what might still be done in this respect. By an energetic application of capital works — the construction of numerous cisterns, dykes, dams and aquaducts — the Romans were able to establish a thriving agricultural society which supported a population two or three times the size of the present population. [34] Moreover, there is no conclusive evidence that the rainfall in the coastal zone was any heavier in those days than now, nor was the population distribution concentrated in high rainfall zones.

9. Population Distribution in the Fezzan

The Fezzan is the least densely populated of Libya's three provinces, containing an estimated 86,000 persons in 1966 in an area of about one million square kilometres. Extremes of climate have set distinct limits to human habitation; average rainfall over a five year period at Sebha being 68 mm., though many aras receive no rain over several consecutive years. Consequently, irrigation water is the main determinant of agriculture and hence population distribution, for pastoralism is of small importance in the province.

Until recently, agriculture was limited to oases where water tables lay near the surface. Thus, the three parallel wadis of El Shati, Ajal and Hofra developed as the main population concentrations. The extent of population distribution depended on the traditional techniques of irrigation, while density of occupance was influenced by the scale of land fragmentation. New techniques of exploiting deeper artesian water, particularly in Wadi Hofra, have only partly extended the Fezzanese œcumene. On the other hand, difficult drainage, high water-tables, over exploitation and intense evaporation have caused much potentially fertile land in the oases to become saline. The net balance of ex-

tension and contraction of agricultural land probably showed a deficit between 1936-66.

The Fezzan economy has always been predominantly a subsistence one. In past centuries its population used to derive a subsidiary income from the caravan trade, and when this declined in the 19th century foreign garrisons moved in and provided the oases with a new source of income and employment. The withdrawal of the foreign garrisons has been replaced by external aid and oil revenues. The impact of this wealth has not been as marked as in the two northern provinces, but a measure of economic duality is now apparent. The population of Sebha, the provincial capital under the Federal government, rose from about 2,000 in the 1930's to 17,000 in 1966. New employment opportunities in the service sector and the urba neconomy, particularly government administration, have attracted people from other parts of Libya.

The urban growth of Sebha, in part a response to the completion of the Fezzan road to he Tripoli-Benghazi highway, has brought about changes in the socio-economic system of the province. The traditional feudal system is being undermined. An acute shortage of agricultural labour has resulted in large tracts of land going out of cultivation. It has been estimated for instance, that the area under cultivation has been reduced by fifty per cent since 1900.[38] With greater ease of communication to Tripoli and Benghazi, an increasing proportion of food is imported, further retarding agricultural developments.

10. Summary and Conclusion.

Basically, the coastal concentration, provincial proportions and physiographic influences upon the population distribution have remained significant and stable since the Italian colonization of the 1930's. Yet within well defined limits set by the physical environment the fine balance between determining factors and population distribution has been disturbed, though not in equal degrees in the three provinces. Occupation by foreigners and eco-

nomic wealth from oil revenues have strengthened the influences of the non-physical environment. The sum of these forces, or controls, has been to produce two tendencies. One is the inertia of the present population distribution, itself a product of physical and human determinants interacting in a complex temporal framework. The other tendency is the growth of population around urban nuclei. Numerically, the Libyan towns are achieving a dominance and primacy out of proportion to the size of the country's total population. Chapter II elaborates and analyses this urban growth.

References

1. Zelinsky, W. **Prologue to Population Geography**, Prentice-Hall, (1966), p. 26.

2. Spengler, J.J. «Economics and Demography», in P.M. Hauser and O.D. Duncan. **The Study of Population**, University of Chicago, (1959), pp. 803-7.

3. Whiting Associates International. **Fezzan Inventory Report**, Tripoli, (1967).

4. Department of Regional Geography, Warsaw. **1954 Population Map of Libya**, 1:1 million, Warsaw, (1964).

5. Wright, J.K. «Some measures of population distribution», **Annals Assoc. Am. Geog.**, Vol. 27, (1937), p. 177; **also** Duncan O.D. «The measurement of population distribution», **Population Studies**, Vol. 2, (1957-8), p. 29.

6. Department of Regional Geography, Warsaw, **op. cit.**

7. Stewart, J. H. **Land and Water Resources of Tripolitania**, U.S. Operation Mission to Libya, (1958), p. 27.

8. Stewart, J. Q. «Empirical mathematical rules concerning the distribution and equilibrium of populations», in J.J. Spengler and O. D. Duncan, **Demographic Analysis**, The Free Press of Glencoe, (1956), p. 344.

9. United Nations. **Determinants and Consequences of Population Trends**, New York, (1953), p. 164.

10. Doxiadis Associates. **Housing in Libya**, Vol. 1, (1964), pp. 12-24.

11. Stewart, J. H. **op. cit.**, p. 39-40.

12. **ibid.** p. 5-6.

13. Taylor, A. R. «Regional Variations in Olive Cultivation in Northern Tripolitania», in S. G. Willimott and J. I. Clarke (eds.) **Field Studies in Libya**, University of Durham, (1960), p. 88.

14. Stewart, J. H. **op. cit.**, 46.

15. Lalevic, D. **A Study of Libyan Agriculture and Its Present Situation** Ministry of Planning and Development, Tripoli, (1967), p. 48.

16. Hill, R. W. **Agriculture and Irrigation on the Tripolitanian Jefara**, unpublished Ph. D. thesis, University of Durham, (1960), p. 10.

17. Stewart, J. H. **op. cit.**, p. 10.

18. Stewart, J. H. **A Study of Wadi Megenin Floods**, U.S. Operations Mission to Libya, Tripoli, (1956).

19. Bottomley, A. «Economic Growth in a semi-nomadic herding community», **Economia Internazionale**, Vol. 17, No. 2, Genoa, (1964).

20. Lalevic, D. **op. cit.**, pp. 14-18.

21. Willimott, S. G. «Soils of the Jefara», in S. G. Willimott and J. I. Clarke, **op. cit.**, p. 35.

22. Theodorou, N. T. **Indigenous and Italian Farm Enterprises in the Zavia Area**, F.A.O., Report No. 259, Rome, (1954), p. 80.

23. Fisher, W. B. «Problems of Modern Libya», **Geoographical Journal**, Vol. 114, (June 1953), p. 192.

24. Theodorou. N. T. **op. cit.**, p. 66.

25. **ibid.** p. 61

26. National Agricultural Settlement Authority. **Present Land Settlement Policy and Projects in Libya**, F.A.O. Tripoli, (1965), p. 6.

27. Ministry of Housing Research File, Libya. **Agricultural Lands in Libya**, Tripoli, (1967), p. 8.

28. International Bank for Reconstruction and Development (I.B.R.D.) **The Economic Development of Libya**, John Hopkins Press, Baltimore, (1960), p. 111.

29. Marchetti, M. **Idrologia Cirenaica**, Biblioteca Agraria Coloniale, Florence, (1938), p. 85.

30. Toni, Y. T. **A Study of the Social Geography of Cyrenaica**, unpublished Ph. D. thesis, King's College, Newcastle, University of Durham, (1956).

31. Evans-Pritchard, E. E. **The Sanusi of Cyrenaica**, Clarendon Press, Oxford, (1949), pp. 34-39.

32. Gregory, J. W. **Report on the work of the Commission sent out by the Jewish Territorial Organisation... for the purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica**, London, (1909), pp. 12-14.

33. **Buru, M. El Marj Plain: a Geographical Study,** unpublished Ph. D. thesis, University of Durham, (1965), p. 215.

34. I.B.R.D. **op. cit,** p. 100.

35. Whiting Associates International, **op. cit.**

II. — CHAPTER

URBANIZATION AND POPULATION DISTRIBUTION

Libya is now the eighth most urbanized country in the Middle East containing over one-fifth of its total population in cities with over 100,000 inhabitants. Its level of urbanization is similar to the neighbouring countries of Egypt (U.A.R.) and Tunisia (Table 2.1). The pace of Libyan urbanization shows no sign of slackening and the major towns are beginning to dominate most forms of political and economic life. Between 1954 and 1966 the percentage of the population living in settlements of more than 20,000 inhabitants increased from 18 to 25 per cent. Four-fifths of the increase in total urban population occurred in the two major cities of Tripoli and Benghazi. In 1966, both cities accounted for nearly two-thirds of the total urban population, officially defined as agglomerations of more than 2,000 persons. About one-half of the total population lived in settlements containing more than 500 inhabitants. Yet the total number of settlements above this size showed remarkably little increase between 1954 and 1966. Thus, while the overall pace of urbanization has increased rapidly, the process of settlement multiplication has gained little momentum.

Some of the implications of these phenomena have already been hinted at; the urban-rural gradient was identified as the most important element differentiating Libyan regions; the major towns in all three provinces are exerting an increasing dominance

Table 2.1 Level of Urbanization in Selected Middle East Countries, 1960's

Country	Date	Total population in 000's persons	Total population in cities over 100,000 persons	Percent. of pop. in cities over 100,000 persons
Kuwait	1965	467	299	64.0
Iraq	1965	8,261	3,603	43.6
Bahrain	1965	182	79	43.4
Israel	1964	2,476	883	35.6
Lebanon	1963	2,230	615	27.5
Syria	1964	5,200	1,424	27.3
U.A.R.	1962	27,244	7,124	26.1
Libya	1964	1,564	351	22.4
Tunisia	1966	4,785	1,014	21.1
Iran	1966	25,781	5,090	19.7

Sources:- (a) Fullard, H. The Geographical Digest 1968, George Philip and Son Ltd., London, (1968).

(b) United Nations. Demographic Yearbook 1965, New York, (1966).

over all aspects of the population ; and the towns were probably the main lines of penetration of a modern economic sector into a traditional socio-economic system.

It is hypothesized in this chapter that Libya's settlement-size distributions are not determined by the level of economic development or the degree of urbanization; rather, the distribution is determined by the nature of the development processes operating in the country. Thus, the marked duality of socio-economic conditions pertaining in Libya, reflect the nature and type of economic development. The simplicity and strength of the forces which determine this economic development are reflected in the urban structure. The peculiarities of Libya's settlement-size distributions are, marked concentration in two cities, a regular ranking of small towns, and distinct provincial sub-systems of settlements.

In order to explain the grafting of Libya's provincial « primate » cities on to log-normal distributions of smaller settlements two theories of setlement-size distributions must be mentioned — the index of primacy and rank-sizes of Libyan settlements. By identifying Libya's deviations from theoretical and empirical evidence, and noting the settlement spacings and patterns, it is possible to note some of the prime determinants influencing Libya's patterns of urbanization.

2.1 Population Clusters; the Size Continuum

Although it is convenient to regard Libya's population as distributed in a series of discrete and isolated clusters, it must be realized that this settlement concept is artificial. In Cyrenaica, and the Fezzan, settlements are distinct and well-defined, but in Tripolitania dense rural settlement along the coast precludes acurate sub-division of urban units.[1] Despite the arbitrary definition and classification of Libyan settlements, forty of the largest settlements were identified in 1966.[2]

Examination of the available information on Libyan settlement sizes suggests a regularity similar to a linear pattern on a double logarithmic graph (Fig. 2.1). The Libyan pattern in 1966 was similar to that in Britain in 1961, though at a lower absolute level of population and with a more uneven distribution. It is, in fact, the degree of regularity in the relationship between the size and rank of towns (expressed formally as the «rank-size rule»*) which helps to generalize about Libya's population distribution. The distribution of Libyan settlement seems to follow Zipf's theory that rank-size distributions conform more closely to a theoretical S-shape than to a linear log-normal distribution.[3] However, Berry has interpreted these irregularities empirically by studying a selection of 38 city-size distributions.[4] The Libyan pattern appears

* Pn = Pl (n)-1 where Pn is the populaton of ithenth town in the series 1,2,3... n in which all towns in a region are arranged in descending order by population, and Pl is the population of the largest town (i. e. the *primate* town).

similar to the primate settlement-size distributions of Ceylon; log-normally-distributed lesser settlement sizes are followed by a gap because settlements of intermediate size are absent, and then by a rapid cumulation to a dual «primate» peak. Libya, for example, has log-normally-distributed settlements up to a settlement population of 15,000, and then a considerable gap followed by the two cities of Tripoli and Benghazi. On a provincial basis primacy dominates the sttlement-size distributions, particularly in Tripolitania and Cyrenaica, though also, significantly in the Fezzan. In both the northern provinces a gap in towns of 9,000 to 20,000 inhabitants is apparent.

Data for the higher levels of the urban hierarchy are more readily available and attention has been concentrated on the application of the rank-size rule for large cities. Stewart[5] examined the relationship between the primate city (P[1]) and the second largest city (P[2]) in a cross-section of seventy-two countries. Libyan evidence of the changing proportion between Tripoli and Benghazi supports Stewart's main finding that the larger countries tended to have high primate/secondary settlement ratios, but that internal provincial settlement patterns showed a strong dominance by large urban centres. Changes in the Libyan ratios between 1917 and 1966 indicated that the two largest cities most closely resembled the theoretical rank-size ratio of 2.0 in 1917 (2.1) and 1954 (1.9). Since post-war reconstruction, federation, and Cyrenaican oilfinds, Benghazi has grown to rival Tripoli as a major urban centre (1968, 1.6).

Median town rank-sizes in Libya tend to confirm other empirical evidence that a slightly concave settlement distribution is common below the primate city. Table 2.2 expresses the median sizes of the eight largest settlements in Libya between 1917 and 1966, expressed as a fraction of the largest settlement. Libya appears to have been closest to the theoretical rank-size conditions in 1954, although conditions have remained similar over 50 years, despite population changes in the country.

Libya's rank-size settlement hierarchy is therefore charac-

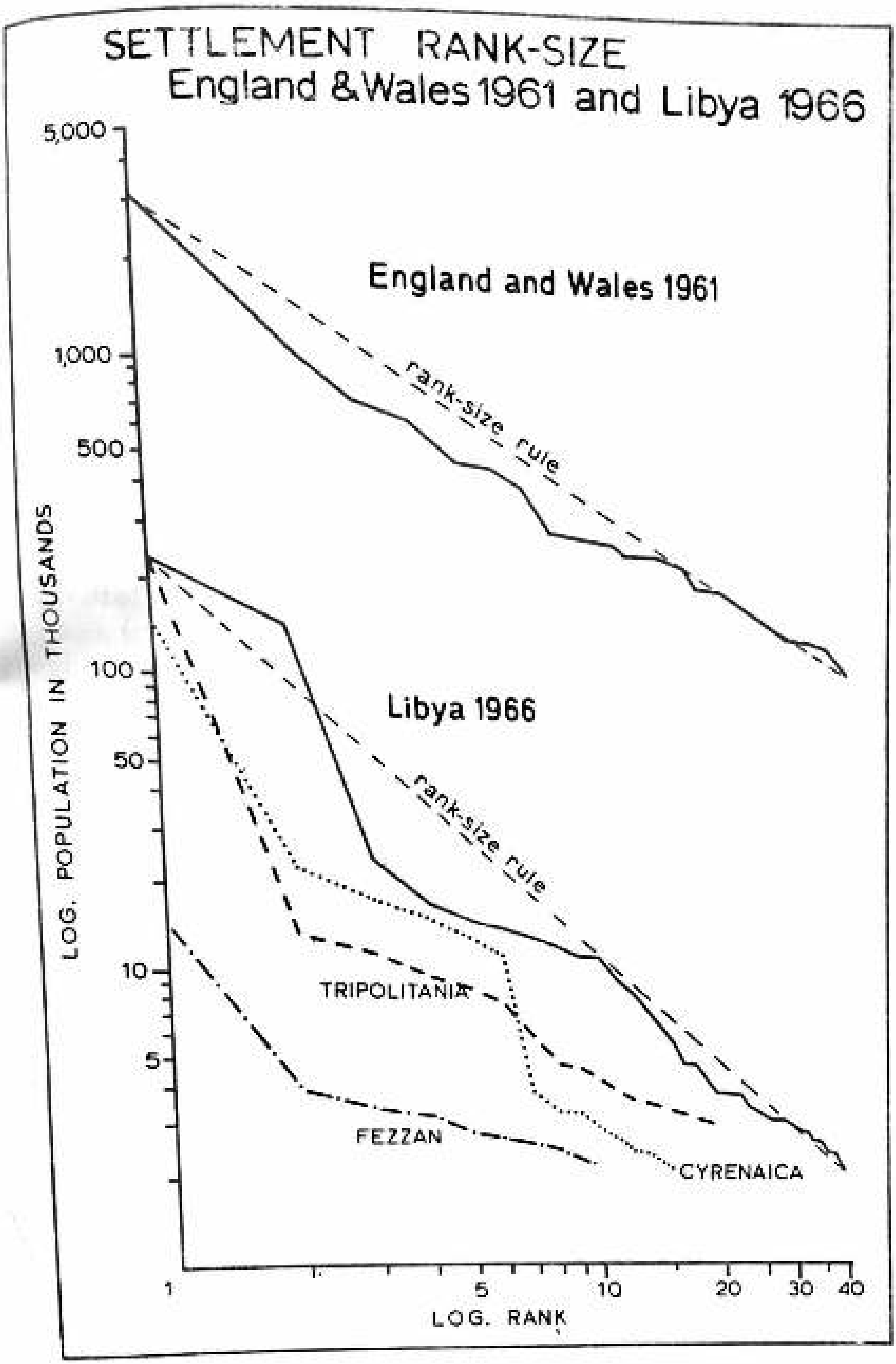

SETTLEMENT RANK-SIZE
England & Wales 1961 and Libya 1966
5,000
1,000
500
100
50
10
5
LOG. POPULATION IN THOUSANDS
England and Wales 1961
rank-size rule
Libya 1966
rank-size rule
TRIPOLITANIA
FEZZAN
CYRENAICA
1
5
10
20
30
40
LOG. RANK

Fig. 2.1

Table 2.2 Median Sizes of Libya's Eight Largest Settlements as a Fraction of Tripoli, 1917 to 1966

Libya	1st	2nd	3rd	4th	5th	6th	7th	8th
1917	1	0.47	0.13	0.09	0.08	0.07	0.06	0.05
1954	1	0.54	0.14	0.12	0.11	0.09	0.08	0.08
1966	1	0.64	0.10	0.08	0.07	0.06	0.06	0.05
72 coutries*	1	0.32	0.20	0.14	0.12	-	-	-
Rank-size rule	1	0.50	0.33	0.25	0.20	0.17	0.14	0.13

* Stewart, C. T. "The size and spacing of cities", Geographical Review, Vol. 48, (1958), p. 228.

terized by (a) dual «primacy» (b) a lack of middle ranking towns, and (c) rank-sized small towns (Fig. 2.1). While the growth of two large cities developed between 1954-1964, the pattern has remained essentially the same since 1917. The stability of the Libyan rank-size settlement distributions over space and time suggests that it might be viewed as a steady-state phenomenon. Simon [6] has defined this condition as one of «entropy» in which the distribution is affected by a myriad of small random forces. However, Berry [7] has produced empirical evidence indicating that entropy is associated with log-normal city-size distributions, and not with well developed primacy. Neither theoretical nor empirical evidence would appear to explain Libya's peculiar condition.

Two groups of hypotheses are suggested to explain settlement size-numbr patterns.[8] The first group of hypothese contains ideas which seem logical in the abstract, but are not confirmed by empirical observation. It has been hypothesized that settlement-size distributions are related to the degree of urbanization. Between 1917 and 1966, for example, the proportion of the total Libyan population living in towns over 20,000 persons rose from about 10 to to 25 per cent, yet the settlement-size distribution remained relatively stable. This lack of cross-relation between degree of urba-

nization and settlement-size distribution was also emphasized by Berry's sample survey. "

Nor does level of economic development appear highly correlated with size-number forms of settlements on a world-wide basis. Settlement pattern was related to the degree of economic development as measured on a scale derived by Berry from forty-three proposed indices of economic development. The pattern was essentially random, primate and log-normal countries being irregularly arranged with no preferential grouping at any point in the development spectrum.

The second group of hypotheses suggest that primate patterns are the products of city developments in countries which are (a) smaller than average, (b) have a short history of urbanization, and (c) are economically or politically simple. Libya would seem to fulfil these conditions. The settled area supporting about four-fifths of the population is small (about 50,000 sq. km.). Rapid urbanization is essentially a post-independence phenomenon. Finally, the impact of a few strong forces has operated, particularly the superimposition of a commercial export sector on a peasant agricultural system. While the type and degree of this duality has changed between 1917 and 1966, essentially the towns have remaines orientated outside Libya. As such, the grafting of Libyan «primate» cities on top of a lower log-normal distribution of settlements emphasizes the nature, rather than the level, of the country's economic development.

2.2 Size and Spacing of Settlements

If the rank-size rule, uncomplicated by the primacy of the largest cities, were to operate, then the spacing of settlements should be largely governed by their size. Large settlements would be widely spaced, smaller settlements more closely spaced. Different levels of regional urban dominance, together with a complex of physical and human influences, have determined contrasting patterns of settlement size and spacing throughout Libya.

Fig. 2.2

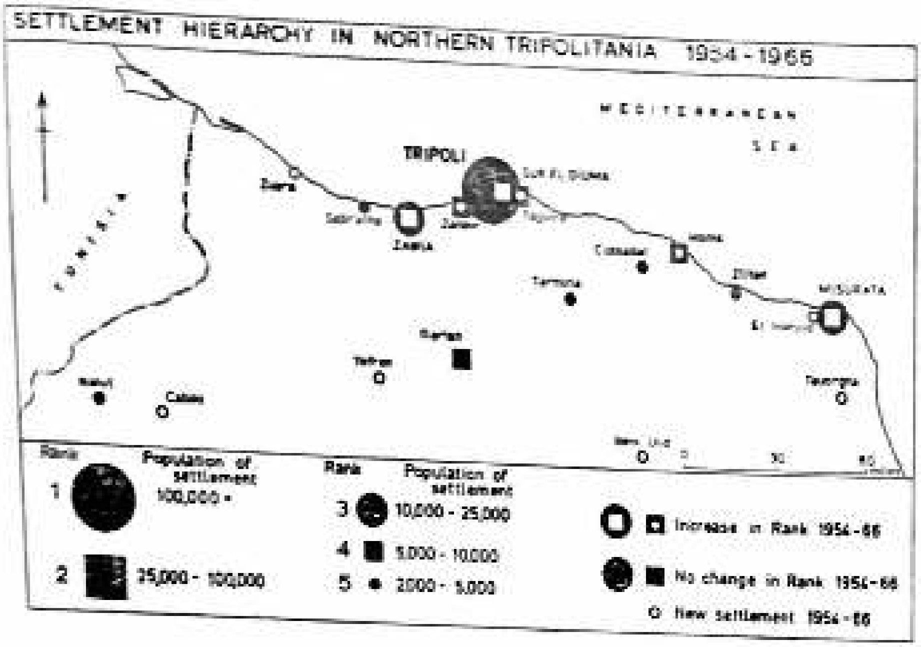
SETTLEMENT HIERARCHY IN NORTHERN TRIPOLITANIA 1954 - 1966
MEDITERRANEAN
SEA
TRIPOLI
MISURATA
Rank
Population of settlement
1
100,000 +
2
25,000 - 100,000
3
10,000 - 25,000
4
5,000 - 10,000
5
2000 - 5,000
Increase in Rank 1954 - 66
No change in Rank 1954 - 66
New settlement 1954 - 66

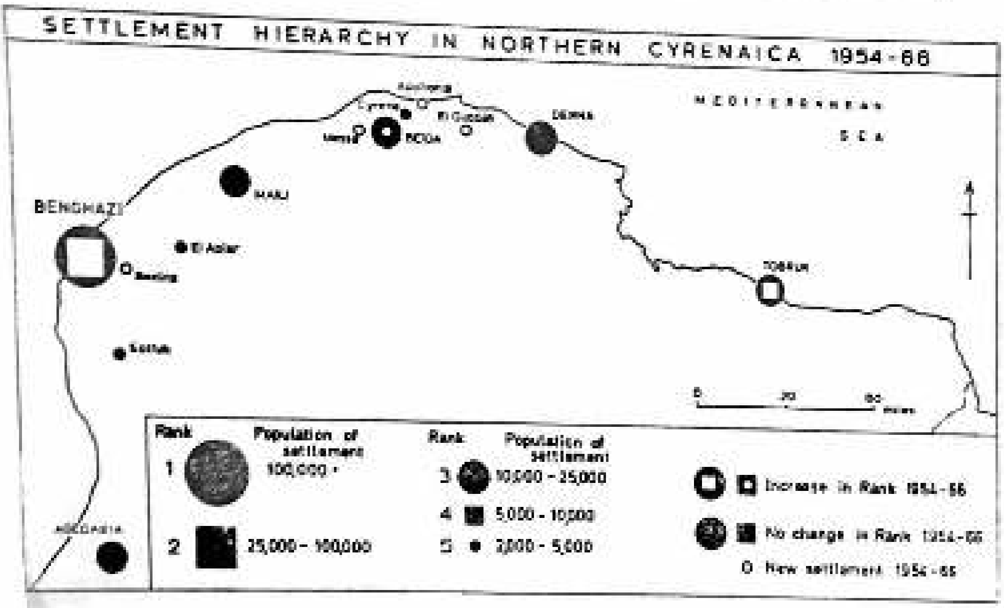
SETTLEMENT HIERARCHY IN NORTHERN CYRENAICA 1954 - 66
MEDITERRANEAN
SEA
BENGHAZI
El Abiar
MARJ
BEIDA
DERNA
TOBRUK
Rank
Population of settlement
1
100,000 +
2
25,000 - 100,000
3
10,000 - 25,000
4
5,000 - 10,000
5
2,000 - 5,000
Increase in Rank 1954 - 66
No change in Rank 1954 - 66
New settlement 1954 - 66

Fig. 2.3

The distribution of urban centres in Tripolitania is similar to the distribution of rural population (Fig. 2.2). Tripoli City dominates the central coast and is flanked by medium sized towns. While the greatest amount of urban growth has taken place in and around Tripoli, the six new settlements since 1954 have evolved independently of the established pattern. Cyrenaica, in contrast, has a more regular pattern, the larger towns being evenly spaced along the coast and Gebel Akhdar (Fig. 2.3). There is also less gradation in settlement sizes than Tripolitania. New settlements since 1954 tended to cluster around Beida, the new capital, and Benghazi, situated off-centre in relation to other settlements.

Nearest neighbour analysis of similar sized settlements tended to conform to a log-normal distribution in both northern Tripolitania and Cyrenaica (Fig. 2.4). Tripolitania's rank 5 settlements (2,000 to 5,000 inhabitants) are slightly more widely spaced than those in Cyrenaica, while rank 3 settlements (10,000 to 25,000 inhabitants) are more clustered. Cyrenaica has no settlements containing populations between 5,000 and 10,000 (Table 2.3). In Tripolitania, settlements of all ranks are slightly nearer their neighbours in the densely populated coastal area compared with the inland Gebel (12 miles and 20 miles respectively). In contrast. Cyrenaican coastal towns have an average nearest neighbour of 48 miles, while the Gebel settlements are located only 16 miles apart. In both provinces the densest agricultural areas have settlements more closely spaced than areas with extensive shifting cultivation. While Libyan evidence is too scanty to weigh for or against theoretical models of settlement spacing, other empirical evidence suggests that Libya's pattern may not be atypical.

Losch's evidence for Iowa [10] and Brush and Bracey's data for Wisconsin and Southern England [11] both confirm the tendency of increasing distance between larger settlements. Plotting the same data, Libyan information indicates that lowest-order Libyan settlements are spaced similar to the high-order Wisconsin and southern England towns, both being similar sized settlements. While this information relates to widely differing areas with varied

Table 2.3 Settlement Spacing by Three Size Groupings, Libya 1966

Rank	Settlement Size	Distance between settlements of similar size: Tripolitania	Cyrenaica	Northern Libya
5	2,000 - 5,000	29 miles	15 miles	24 miles
4	5,000 -10,000	35 miles	-	35 miles
3	10,000 -25,000	57 miles	72 miles	66 miles

Source: Figures 2.2 and 2.3

population densities, certain tentative conclusions can be drawn. Firstly, settlements in both northern Tripolitania and Cyrenaica are generally more dispersed per size group than examples in Britain and America. This is probably determined in part by the physical environment. On the one hand, the agriculturally favoured areas on the Tripolitania coast both encourage and enable large concentrations of population to be supported. In contrast, localization of water and soil resources outside the agricultural zones determine the situation of the settlement. The physical conditions discussed in Chapter I, explain why Cyrenaican settlements are on average 23 miles from their nearest neighbour, compared with only 15 miles in Tripolitania.

Secondly, as Brush and Bracey noted in southern England and Wisconsin the settlement pattern shows a tendency to perpetuate itself; the pattern was well established 150 years ago when the basic distance factor was the time and effort required to get to any trade centre by foot or on cart. Agostini [13] suggested that the settlement pattern in Libya was established at least 50 years ago, while Roman remains indicate that the basic structure may have operated 1,800 years ago. [14]

Thirdly, the location of the primary cities in each province appears to have influenced surrounding settlements. Figure 2.5 shows the size and spacing of settlements containing between 2,000 and 25,000 inhabitants around Tripoli and Benghazi in 1954

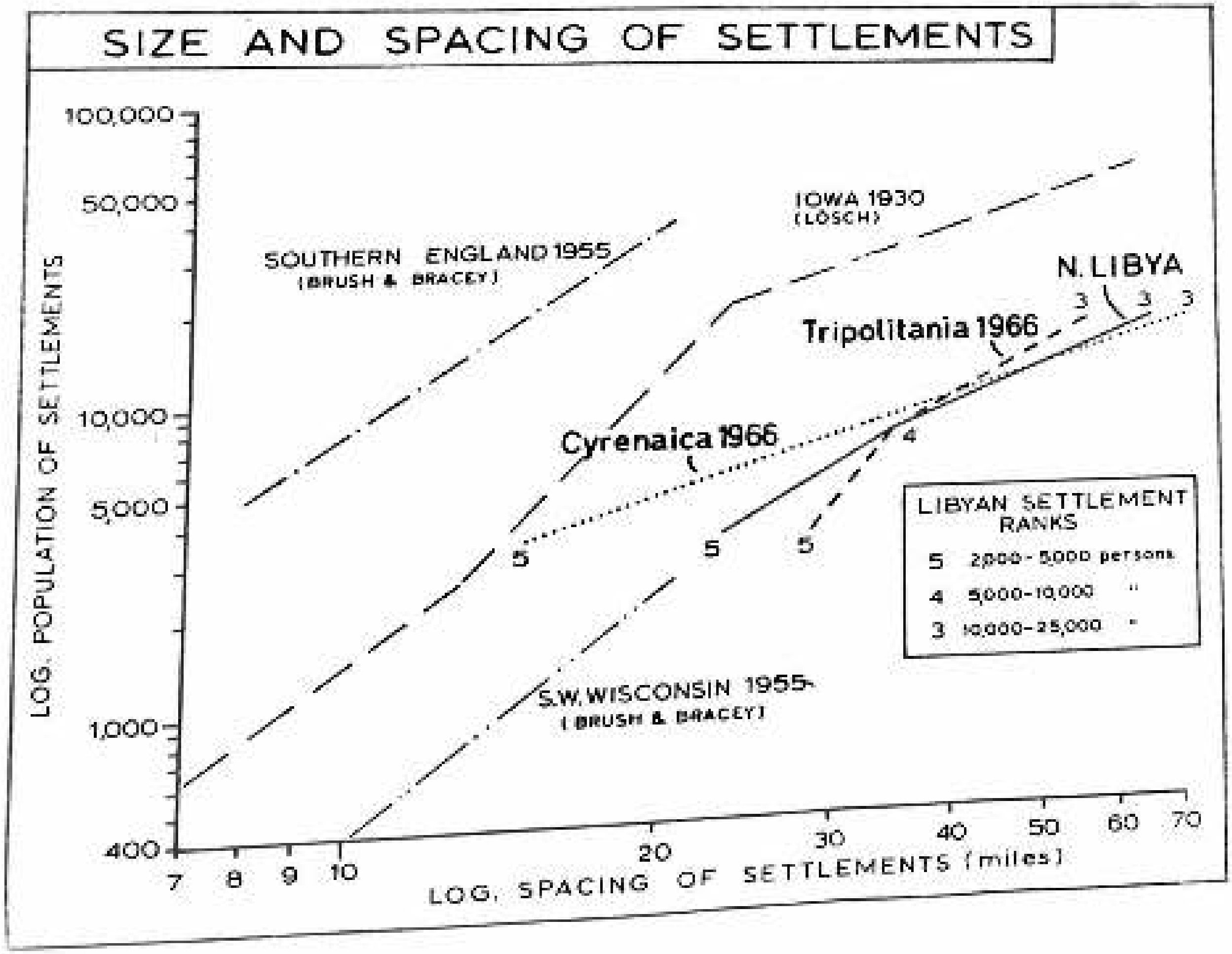
SIZE AND SPACING OF SETTLEMENTS
LOG. POPULATION OF SETTLEMENTS
100,000
50,000
10,000
5,000
1,000
400
SOUTHERN ENGLAND 1955
(BRUSH & BRACEY)
IOWA 1930
(LÖSCH)
N. LIBYA
Tripolitania 1966
Cyrenaica 1966
S.W. WISCONSIN 1955
(BRUSH & BRACEY)
LIBYAN SETTLEMENT RANKS
5 2,000-5,000 persons
4 5,000-10,000 "
3 10,000-25,000 "
7
8
9
10
20
30
40
50
60
70
LOG. SPACING OF SETTLEMENTS (miles)

Fig. 2.4

and 1966. The rank 5 settlements (2,000 to 5,000 inhabitants) show a gradation between 40 to 150 miles from Tripoli, while those in Cyrenaica have two distinct groupings, one near Benghazi, the other near Beida. It is the higher order settlements which account for the higher urban densities near Tripoli; four rank 3 and 4 settlements are located within 50 miles of Tripoli, contrasting with none near Benghazi. Instead, Cyrenaica has two large settlements (10,00-25,000 inhabitants) more than 150 miles from Benghazi. The resultant graphs of total urban populations in the two provinces indicate (a) the greater concentration of urban population nearer Tripoli, (b) the higher proportion Tripoli City has of its total provincial population, and (c) the decrease in primate concentration around Tripoli and the increase around Benghazi between 1954 and 1964. This may indicate a levelling-off of the influence of primacy in Tripolitania and the more youthful stage of urban development in Cyrenaica.

2.3 Determinants of Settlement Size and Spacing.

Stewart [14] maintains that the more urban the functions, the closer are the spacings of setlements, but that the size of the settlement is incidental to its function. Libyan evidence indicated the opposite.

The economic activities most closely related to urban areas were transport, commerce, construction and manufacturing. The proportion of economically active males in these four activities were calculated for a sample of sixteen Libyan towns of different sizes (Table 2.4). Spacing between settlements was calculated on the basis of number of settlements within a radius of twenty miles of each town. Correlation between urban functions and settlement spacing indicated an association of +0.325 for the sample of sixteen towns. It would seem, therefore, that degree of urban functions (by this definition at least did not necessarily indicate greater settlement cluster.

Also contrasting with Stewart's findings was the positive association between settlement size and function. A correlation co-

efficient between the size of settlements and the proportion of economically active males in urban functions (Table 2.4) revealed a positive association (+0.671). Although the two elements did not necessarily have a causal relationship, the larger the size of Libyan settlements, the more likelihood there was that urban functions would dominate the economic structure. Conversely, settlements with significant agricultural functions showed a high negative correlation with settlement size (-0.874).

Two processes may have operated. Firstly, there would appear to have been a transfer of processing and manufacturing activities from household and village handicrafts to the larger settlements. Secondly, the introduction of new economic activities associated with the recent economic expansion diversified the urban functions of large settlements.

Table 2.4 indicates certain distinct changes in economic activities associated with size of settlement. Measured as more than ten per cent of the economically active male citizens, agriculture ceased to be a « significant » activity in settlements with more than 20,000 inhabitants. Manufacturing, commerce and transport activities were predominantly large town functions, although towns over 10,000 inhabitants had similar functions, though at a lower level of significance. Mining activities had no association with size of settlement, while construction functions were of small proportions only in settlements with under 5,000 inhabitants. Services remained the dominant activities in all settlements, except those with 5,000 to 10,000 inhabitants.

The location of the settlements (Figs. 2.2 and 2.3) appeared to be as important as size in determining the nature and importance of different economic activities. Suk el Giuma had a variety of functions, despite its rural orientation; a structure similar to that of Tripoli. All middle-sized Tripolitanian towns had distinct rural service sectors with a large number of agricultural workers. This may be attributed to the poor definition of the urban areas, and also to their location in intensively cultivated and settled agricultural areas. In contrast, Cyrenaican towns were more specialized.

Table 2.4 Economic Activities in Libyan Settlements, 1964

(Percentage of economically active male citizens aged 6 years and over by economic activities)

	Economic Activity	A over 25,000	B 20,000 to 25,000	C 10,000 to 20,000	D 5,000 to 10,000	E 2,000 to 5,000
			Settlement Sizes (number of inhabitants)			
0	Agriculture	3.2	5.3	13.4	44.7	34.8
1	Mining	4.8	1.3	3.1	1.7	2.6
2-3	Manufacturing	11.3	6.4	7.4	3.3	1.5
4	Construction	10.6	12.7	11.6	9.3	3.7
5	Electricity, water and gas	3.4	4.0	2.4	1.2	1.8
6	Commerce	12.3	11.0	8.4	5.2	4.7
7	Transport	12.1	10.8	7.3	5.0	4.8
8	Services	34.0	41.5	32.4	17.7	34.6
9	Others	8.2	7.2	12.9	13.0	10.0
	Urban Functions (2, 3, 4, 6, 7)	49.7	44.9	37.1	24.0	16.5

Settlements: A - Tripoli, Benghazi; B - Derna; C - Agedabia, Beida, Sebha, Marj, Misurata, Suk el Giuma, Tobruk, Zawia; D - Homs, Nalut, Cussabat; E - Benina, Cyrene.

Source: Ministry of Economy and Trade, Libya. General Population Census 1964, Tripoli, (1966)

Tobruk, as an isolated settlement, had a small agricultural sector, but a variety of urban functions. Beida, the new capital, showed a large proportion of the economically active males in construction, while Agedaiba, one of the main oilfield settlements, had a significant number of persons engaged in mining activities. However, it was the number of « significant » functions which tended to characterize the larger settlements. The largest settlements had more than five functions containing more than ten per cent of the economically active male citizens (not including « other » economic activities), while small settlements had only two. Specialization appeared to be a middle-size settlement characteristic.

2.4 Conclusion

In general terms, Libya's « primate » urban structure appears to conform to other empirical evidence. Urban structure does not appear to be a function of the level of economic development, industrialization or urbanization. To some extent, Libya's urban structure was similar to other countries which are smaller than average (in terms of oecumene), have a short history of urbanization, and are economically or politically simple.[15] Thus, the « primate » structure grafted onto a lognormal distribution of smaller settlements is indicative of Libya's type of urban growth.

The spacing of Libyan settlements also tends to form a pattern that is empirically valid, though at a different level to other countries (Fig. 2.4). Evidence of the spacing of 200 American towns emphasizes some of the possible reasons for settlement density in Libya.[16] Thus, towns of a given size are likely to be more widely spaced where (a) rural population density is low, (b) farming is extensive, (c) agricultural production is low, (d) where the overall population density is low, and (e) where the town itself has a low proportion of workers in manufacturing. The wider spacing of Cyrenaican settlements vis-à-vis Tripolitanian settlements, is certainly partly attributed to the nature of the region's agriculture.

However, two elements are particularly relevant to Libya's settlement spacing and nature of agriculture. Firstly, regression

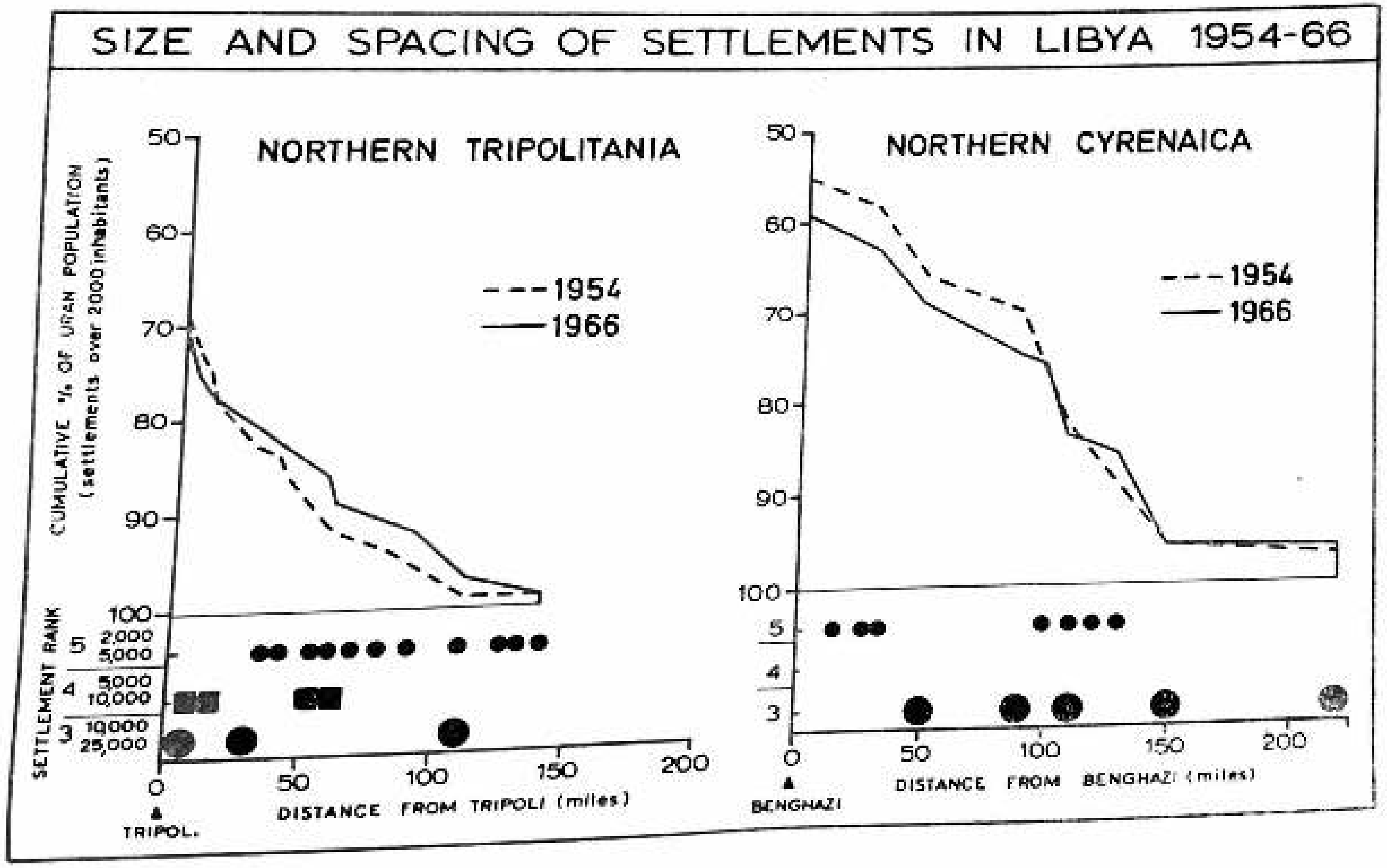
SIZE AND SPACING OF SETTLEMENTS IN LIBYA 1954-66
NORTHERN TRIPOLITANIA
NORTHERN CYRENAICA
CUMULATIVE % OF URAN POPULATION
(settlements over 2000 inhabitants)
1954
1966
50
60
70
80
90
100
SETTLEMENT RANK
5 2,000 5,000
4 5,000 10,000
3 10,000 25,000
0
50
100
150
200
TRIPOL.
DISTANCE FROM TRIPOLI (miles)
BENGHAZI
DISTANCE FROM BENGHAZI (miles)

Fig. 2.5

analysis of the American sample towns[17] showed that while all five features were slightly more valuable than town size in predicting spacing, only one, overall population density, could explain more than 10 per cent of variation. Indeed, all six hypotheses working together could only explain one-quarter of the variation in spacing. The question of settlement spacing is therefore complex in its causal roots.

Secondly, in general, the Libyan example is particularly difficult to analyse because of the contact between modern and traditional economies. In 1965, for instance, £L 15 million of food was imported, mainly through Tripoli and Benghazi. In contrast, only £L 25 million of food was produced in the country itself. Consequently, the equilibrium of functional dependency between towns and villages has become disturbed. In effect, the largest urban centres have become source areas for agricultural produce thereby usurping the functions of the small settlements.

The relationship between size and economic function of Libyan settlements appeared to differ from empirical evidence produced by Stewart.[18] The range of urban functions, whether specialized, dual or varied, was more closely associated with the location, than with the particular size, of settlements. However, the fact that specialization and dual economic functions predominated in Cyrenaican and Tripolitanian middle-sized towns respectively, indicated the particular stage of urban growth which Libyan regions are experiencing. Stewart[19] maintained that «in pre-industrial subsistence economies villages are orientated to the countryside and the agricultural population; the towns face one another only». In contrast, increasing contact between urban and rural areas appeared to be taking place in Libya. Thus, in Tripolitanian towns at least, the process of erosion of the traditional Libyan economy was reflected in the dual economic functions of their urban structures.

Two contrasting processes appear to influence Libya's urban structure. First, the pattern, and possibly the hierarchy, of settlements is being preserved. Historical inertia and water supply have dictated the coastal and Gebel concentration in both Tripolitania

and Cyrenaica, although local determinants have influenced particular distributions. For instance, an old but recently revived water pipeline from Ain Marra, near Derna, to Beida and Marj, in the Gebel Akhdar, will maintain the settlement structure of western Gebel despite lack of adequate ground water. On a national scale, it would seem that some limit must exist to the number of settlements and towns that a population of one and a half million inhabitants can support. Notably, few new settlements have been created between 1954 and 1966, and this would seem to suggest that Libya has reached an optimum. Continued government expenditure on schools, hospitals and houses on the basis of the present distribution of population will tend to preserve the existing settlement pattern.

While the pattern of settlement spacing has remained relatively stable, the sizes of settlements have been more susceptible to change. Governmental expenditure has itself disturbed the pattern delimeted by physical and historical factors. A fourth regional capital, Beida, has been established in a hitherto lightly urbanized area. Sebha, the Fezzan urban centre, has grown rapidly since the construction of the 700 mile Fezzan Road. The extension of the transport network will inevitably influence patterns of supply and demand, while the nature of Libya's economic growth will influence the economic functions of the urban centres.

References

1. Ministry of National Economy, Libya. **General Population Census 1954,** Tripoli, (1959), p. IX.
2. Ministry of Planning and Development, Libya. **Inventory Reports of Planning Consultants,** Tripoli, (1966).
3. Zipf, G.K. **Human behaviour and the principle of least effort,** Cambridge, (1949).
4. Berry, B.J.L. «City Size Distributions and Economic Development», **Economic Development and Cultural Change,** Vol. 9, (June 1961), pp. 573-588.
5. Stewart, C.T., Jr. « The size and spacing of cities », **Geographical Review,** Vol. 48, (1958), p. 222.
6. Simon, H.A. « On a class of skew distribution functions », **Biometrika,** Vol. 42, (1955), pp. 425-40.
7. Berry, B.J.L. **op. cit.,** pp. 573-588.
8. Haggett, P. **Locational Analysis in Human Geography,** Edward Arnold, London, (1965), p. 104-5.
9. Berry, B.J.L. **op. cit.,** 573-588.
10. Lösch, A. **The Economics of Location,** New Haven, (1954).
11. Brush, J.E. and Bracey, H.E. « Rural Service Centres in South-western Wisconsin and Southern England », **Geographical Review,** Vol. 45, (Oct. 1955), pp. 559-69.

12. Agostini, E. di. **Le popolazioni della Tripolitania, Notizie etniche e storiche,** Governo della Tripolitania, Ufficio politico-militare, Parte 11 (Travole), Tripoli, (1917); and **La popolazione della Cirenaica,** Governo della Cirenaica, Benghazi, (1922-3).

13. Goodchild, R. G. « Mapping Roman Libya », **Geographical Journal,** Vol. 118, (1952), pp. 142-152.

14. Stewart, C.T. **op. cit.,** pp. 222-45.

15. Berry, B.J.L. **op. cit.,** p. 587.

16. King, L.J. « A multivariate analysis of the spacing of urban settlements in the United States », **Annals of the Association of American Geographers,** Vol. 51, (1961), pp. 222-3.

17. **Ibid.** pp. 222-3.

18. Stewart, C. T. **op. cit.,** pp. 222-45.

19. **Ibid.** p. 225

THE DYNAMICS OF TERRA ROSSA SOILS

Dr. Kenneth Atkinson
Lecturer in Soil Science,
University of Durham.

Introduction

The recent analysis by Buru (1968) of red soils developed from limestone in El-Marj Plain, Cyrenaica, represents a timely and impressive attempt to study one of the most difficult and unsatisfactorily-understood soil formations in the sphere of pedology. As Buru (1968) emphasises, attempts by pedologists to describe the origins, properties, and agricultural capabilities of Red Limestone Soils are shrouded in controversy. In the past, differing interpretations have been placed on the significance of the various properties of Red Limestone Soils.

The present paper reviews some of the more tenable theories for the formation of a red solum from limestone parent rock, and discusses some of the important diagnostic profile features which have to be noted and analysed. The material for this discussion is derived from the author's own fieldwork and observations in Jordan and in Turkey, and also from many interesting discussions with Dr. Buru on the properties of red soils in Cyrenaica. The author would like, at the outset, to acknowledge the stimulus and interest which Dr. Buru's work has provided.

Nomenclature and Classification

Much of the confusion in the literature concerning red soils developed over limestone is derived from the large number of different terms used to describe them, terms often having differing meanings and connotations. Throughout the history of soil terminology, the individual names current at particular periods have varied, as also have the soil names favoured from one country to another. Thus it is not surprising that the position of limestone soils in schemes of soil classification varies from one classificatory system to another.

Early schemes of classification recognised that limestone soils could not be fitted into any zonal pattern; as a group, limestone soils were regarded as 'transitional' by Dokuchaiev (1886), 'endodynamomorphic' by Glinka (1932), and 'intrazonal calcimorphic' by Thorp and Smith (1949). All these systems placed stress on the special influences which a limestone has on the solum developing on it. This was certainly no new observation, for Zippe (1853) had recognised earlier in Italy the relationship between red soils and crystalline limestones. He in fact used the term 'terra rossa', an Italian local name ,for such soils, a usage which has of course influenced nomenclature ever since.

As with many other examples, however, the adoption of a colour term, 'terra rossa' or 'red earth', to describe a particular soil type has led to many abuses and inconsistencies in the literature. Soils which are red but which have few other properties of terra rossa profiles have been designated as 'terra rossa soils', particularly in the case of red soils developed from non-calcareous parent materials. Similarly, the designation 'terra rossa' has been used for many soils developed from limestone but having few diagnostic 'terra rossa' characteristics.

One of the most comprehensive and useful schemes for classifying sub-tropical limestone soils is that provided by Kubiena (1953). This classificatory procedure is outlined in Table 1. The subdivision of sub-tropical limestone soils into brown (terra fusca)

and red (terra rossa) sub-types is an important innovation introduced by this classificatory scheme.

TABLE 1. The classification of sub-tropical limestone soils according to Kubiena (1953).

Division	C. Terrestrial Soils				
Class	CE. Terrae Calxis				
Type	Terra Soils				
Sub-type	Terra Fusca			Terra Rossa	
Variety	Typical Terra Fusca	Bleached Terra Fusca	Earthy Terra Fusca	Siallitic Terra Rossa	Allitic Terra Rossa

According to Kubiena (1953), the Terrae Calxis, to which class the Terra soils belong, are « very mature, extensively weathered, usually completely lime-free soils, with ochre yellow, ochre brown, to red coloured (B) horizons which contain iron in the form of ferric hydroxide, with varying water content...... » Terra fuscas are « usually humus deficient loamy soils with ochre yellow to reddish brown colour on limestone rocks, which contain ferric hydroxide in the form of limonite». Terra rossa is described as a red soil, « usually humus deficient and free of lime, rich in inorganic colloids containing ferric oxide in water deficient compounds ». A basic element in the distinction between terra fusca and terra rossa is thus the degree of hydration of the iron oxides as reflected in soil colour; the sub-humid terra fusca soils contain hydrated iron oxides (particularly limonite) which have a characteristic brown hue, whilst the drier terra rossa contains anhydrous iron oxides (expecially hematite) which have a brighter red coloration.

The subdivision of terra rossa soils into 'siallitic' and 'allitic' varieties is again a useful innovation. Siallitic terra rossa is «terra rossa with high colloid content, when wet highly plastic and viscous »; allitic terra rossa, on the other hand, is « loose, well crumbled terra rossa with low to negligible plasticity ».

Despite the value of Kubiena's (1953) work, particularly as regards the needs of soil survey and the possibilities of establishing soil series based on further subdivision below the variety level, its importance seems to have been grossly underestimated by many pedologists. Classificatory schemes which have appeared since have merely added to nomenclature confusion rather than helped to simplify it. Many countries, e.g. France, Italy, and Spain, prefer to use the terms « Brown Mediterranean Soils » and « Red Mediterranean Soils » rather than terra fusca and terra rossa; many of the soils so described have developed from a wide range of parent rocks other than limestone. The terra terminology of Kubiena (1953) does at least remove this difficulty.

Traditional soil concepts and terminology have also been greatly revised by two recent systems of classification, both of which propose new nomenclatures for terra rossa soils.

The first of these is the recent work of the United States Departement of Agriculture (1960, 1967) on a Comprehensive System of Soil Classification, the Seventh Approximation. This system not only introduces many new terms for world soil groups but also defines very precisely the analytical limits for all categories. Comprehensive details on nomenclature and definition are given in the relevant U.S.D.A. publicatiions (1960, 1967). The proposed nomenclatures for terra rossa and terra fusca are given in Table 2.

TABLE 2. The classification of sub-tropical limestone soils according to the Seventh Approximation (1967)

Order	Alfisols	
Sub Order	Zeralfs	
Great Soil Groups	a) Haploxeralfs	b) Rhodoxeralfs

The Terra soils of Kubiena (1953) are grouped in the Alfisol Order of the Seventh Approximation, i.e. they are soils with an *argillic subsurface horizon*. In this Order, they belong to the suborder of Xeralfs on account of their pronounced summer dry season. Further subdivision at the Great Soil Group level is made on the basis of colour— the group of Haploxeralfs have hues of 5YR

or yellower on the Munsel notation and the Rhodoxeralfs have hues redder than 5 YR. These Great Soil Groups can thus be broadly correlated with Brown Mediterranean and Red Mediterranean Soils respectively.

Although the Seventh Approximation is being used in several countries for purposes of soil survey and classification, many pedologists have criticised the new terminology and the sharpness of limits between categories. Certainly many national Soil Survey organisations have rejected this scheme, largely due to objections so ably set out by Webster (1968).

The second new scheme of terminology is contained in the recent publication of F.A.O. (1968) on the definition of soil units for the Soil Map of the World project. Terra rossa soils are called 'Chromic Luvisols' if they have an argillic B horizon and 'Eutric Cambisols' if they have a weathered (B) horizon. Considering the large number of different terms in use and the discrepancies in meaning between each, there is a strong case for retaining the comprehensiveness and simplicity of the Kubiena system, at least until more information is gathered on soil characteristics.

Soil Forming Factors.

Terra rossa soils are common soil formations in many countries surrounding the Mediterranean Sea. In addition to the famous occurences in Cyrenaica, they have also been recorded in Portugal, Spain, France, Italy, the Balkan States, Malta, Cyprus, Turkey, Lebanon, Syria, Palestine, Jordan, Algeria, and Morocco. Soil maps of these countries show the extent of the terra rossa cover.

Reifenberg (1947) was the first to emphasise the importance of the Mediterranean climatic regime in the factors which account for the distribution of terra rossa. Since his work was published, many more climatic statistics have become available and all underline the marked climatic regime of a temperate moist winter alternating with a hot dry summer. This alternation in atmospheric climate has important influences on the nature of the soil climate, which in turn governs the processes of weathering and pedogene-

sis in the soil profile. The sharp distinction which has to be made between 'moist' and 'dry' pedogenic processes is vital to understanding the formation of these soils.

In addition to emphasising the nature of the soil climatic regime, Reifenberg (1947) also noted the restriction of terra rossa to hard, crystalline limestone strata. He notes that soft, porous limestones give rise to rendzinas, and highly calcareous marls occur on marly, friable limestones. This correlation between limestone lithology and soil type is an important one in Mediterranean countries, as has been recently emphasised by observations in the Northern Highlands of Jordan (Atkinson and Beaumont 1967). Here detailed soil mapping on the scale of 1:10,000 revealed that the lithology of the underlying limestone strata was the most useful index of the distribution of terra rossa.

Analyses of the insoluble residue content of crystalline limestones beneath terra rossa have been made by the author from samples collected widely in Jordan and in Turkey. The acid-insoluble non-carbonate residue left after dissolving limestone samples in dilute acids in the laboratory provides a means of assessing the soil material which will accumulate when the limestone is chemically weathered. Generally, the crystalline limestones from which terra rossas form have very low (L 2%) contents of insoluble residue. The hard, white crystalline limestone is thus extremely pure, a feature which reflects the intensity and time of weathering reqired to pruduce deep sola. Insoluble residues also often show reddish brown hues, again a feature similar to the red colours of the weathered surfaces of the limestone in the field and the bright red clay which typically accumulates in limestone cracks and fissures. Studies of the primary and clay mineralogy of crystalline limestone residues and overlying terra rossa material are likely to play an important future role in elucidating the formation of terra rossa.

Soil Forming Processes.

Soil forming processes which give rise to terra rossa soils

are now more fully understood than at the time of Reifenberg's (1947) classic analysis. This is largely the result of the increased attention given to these soils in recent years.

The fundamental process which produces terra rossa is, of course, the chemical weathering and dissolution of the crystalline limestone to produce an insoluble residue from the parent rock. This process of limestone weathering has been the subject of much research by karstic geomorphologists in recent years and the chemistry of the process is reasonably well understood. Dissolution is carried out by aqueous solutions and is thus largely confined to the moist season, particularly along cracks and fissures in the rock along which water can easily penetrate. The chemical agency involved is held to be soil water charged with carbon dioxide in the form of carbonic acid. As the carbon dioxide content of soil moisture is primarily dependent on the vegetative and biological activity of the soil, the process of dissolution is thought to be most intense under a vigorous vegetation cover. Added importance to the vegetation factor is given by the recent work of Khan (1959) who shows experimentally that aqueous plant extracts are far more efficient than carbonic acid in releasing the insoluble residue of limestone.

The pedogenic process which operates simultaneously with rock weathering is the process of decalcification, or the removal of free calcium carbonate from the soil. The relative slowness of the dissolution process and the very sharp weathering front between unweathered and weathered material mean that free carbonates are readily leached away. On soft and porous limestones (e.g. chalks and marl), weathering usually proceeds so rapidly as to leave fragments and powders of limestone throughout the solum, giving rise to calcareous rendzina and marl soils. Terra rossas, on the other hand, are typically decalcified and completely leached of free carbonates. Terra rossa profiles with calcium carbonate accumulations have usually been recalcified by the in-washing of lime-rich waters.

Processes of weathering and decalcification take place in aqueous media during the humid season. A further process which

is the result of downward percolating soil moisture is the process of argillation which results in the formation of the argillic B horizon; as noted above, the presence of the argillic B is one of the prime diagnostic morphological features of terra rossa soils used in the classificatory system of the Seventh Approximation. Argillation is the process of leaching of fine clay particles from the A horizon into the B. It results in the formation of a textural B or B horizon characterised by clay coatings or cutans on soil structural units, giving typically blocky or prismatic structures in the subsoil.

Although the above processes are common to terra rossa, there is little doubt that the process of rubefaction is the most important process giving terra rossa soils their characteristic colours and composition. By rubefaction is meant the process whereby the soil material acquires its striking red coloration and its iron-rich mineralogy.

Whilst the crystalline limestone is being chemically weathered and the calcium carbonate dissolved away, the non-calcareous primary and clay minerals which occur as impurities in the limestone are released and they too are hydrolysed in their turn. The rapid and intense hydrolysis in the soil during the moist season breaks them down into their essential constituents, namely, colloidal silica, iron oxides, and alumina. The fate of these three constituents is of vital concern in understanding the evolution of terra rossa. Some of the silica combines with the alumnai to form secondary species of clary minerals, e.g. kaolinite, illite, and montmorillonite, which contribute to the clay fraction of the soil. Some of the silica is lost from the profile by leaching together with the bases and lime. The rest of the silica is retained as a colloidal groundmass in which the iron oxide materials is largely precipitated in the amorphous form. Iron oxides normally flocculate and coagulate in soils, but in terra rossa profiles the iron oxides form complexes with the free silica which, being electronegative, keeps them dispersed and mobile.

In the ensuing hot and dry season, the iron-silica complexes

are destroyed, and the increase in salt concentration of the soil solution by concentration through evaporation (Reifenberg 1947) stimulates the precipitation and crystallisation of the iron oxides. Under dry conditions the amorphous iron oxides crystallise to form hematic (Fe_2O_3), one of the anhydrous iron minerals. This process is a dehydration process which is irreversible, giving a permanent and strong red iron hue to the soil. Where the soil profile still retains significant moisture during the summer, crystallisation takes place but does not result in complete dehydration. Thus under damper conditions the browner hydrated oxides of iron are formed, primarily limonite ($FeO. OH, nH_2O$) but also goethite ($FeO. OH$) and lepidocrocite ($FeO. OH$).

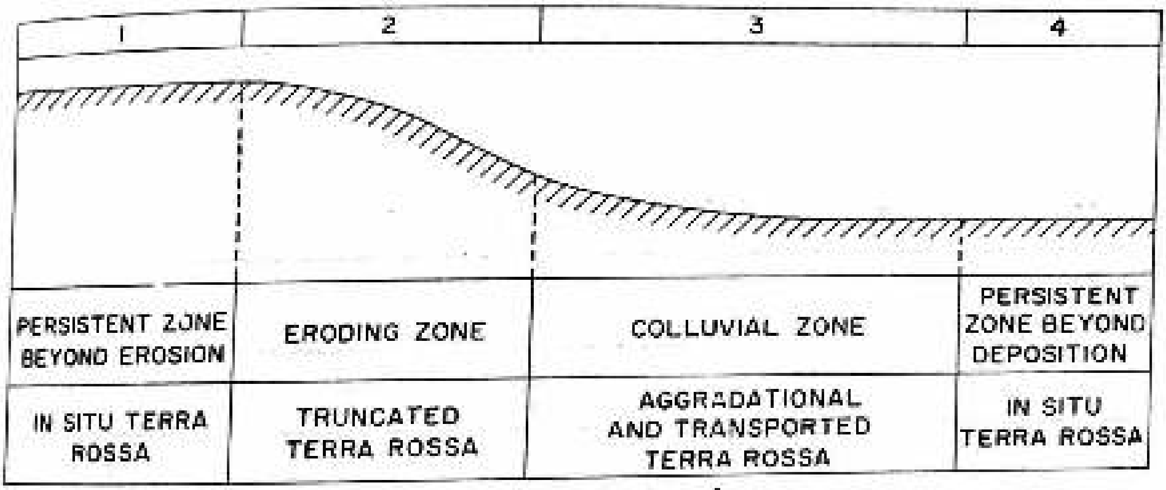

Fig. I Profile form as related to position in the land surface

A final set of processes which can influence horizon sequences in terra rossa profiles are the geomorphic processes of erosion and accretion. Using Butler's (1959) model of a four unit land surface, stable profiles occur in the persistent zones beyond erosion and accretion; eroded and truncated profiles occur on eroding slopes, whilst aggradational profiles are characteristic of areas of colluvial deposition. These general surface-soil relationships are shown in figure 1.

Horizon sequences of terra rossa profiles thus show a variety of forms depending on their position in the karstic landscape. Thin eroded profiles, stone lines at differing depths, and complete stone

horizons are common field observations. Due to the upstanding and outcropping nature of limestones, there are few sites that are not affected to some degree in this way. In soil survey work it is thus often necessary to distinguish classes of 'transported terra rossa' (Fisher et al., 1966).

Moisture will also percolate downslope, of course, and receiving sites in low topographic situations are areas of moisture accumulation and are hence likely to have a more humid soil climate than shedding and freely draining sites on slope crests and slope flanks. This reflects itself in the formation in damper sites of hydrated iron oxides and hence brown soils of terra fusca type.

The pedogenic processes occuring in terra rossa profiles are summarised in Table 3 .

Table 3. Pedogenic Processes operating in Terra Rossa profiles.

Process	Result
1. Limestone weathering.	Removal of calcium carbonate; accumulation of the insoluble residue.
2. Rubefaction.	Hydrolysis of minerals in limestone; liberation of iron oxides, alumina, and silica. The formation of iron-silica complexes during the humid season, and their precipitation, dehydration and crystallization during the dry season. The production of an iron rich soil material.
3. Leaching.	The leaching of soluble salts, free lime and bases from the profile during the humid season.
4. Argillation.	The washing of fine clay particles from the A into the argillic B horizon.
5. Erosion and Colluviation.	Slope processes giving truncated profiles, mixed soils, and stone horizons.

The Question of Paleopedology.

The physical, mineralogical and chemical features of terra rossa profiles indicate that the processes outlined in the previous

section have operated to produce the profiles. Unfortunately the evidence that a process has occurred gives very little indication of the actual time when the process took place. Research on what is happening at the present time in terra rossa soils is extremely limited; pedologists have been forced, therefore, to use circumstantial evidence and in so doing have come to regard terra rossa as a paleosol. This view, one which has particulary been advocated by Kubiena (1953) and Butzer (1965) among others, holds that terra rossas are relict forms, i.e. are forms which indicate development under climatic and environmental conditions of a previous period.

The evidence to support this view is largely based on what is known of environmental change during the Tertiary and Quarternary eras in areas which have a present day terra rossa cover. The **in situ** formation of 50 cm. of terra rossa material from limestone with only a 2% insoluble residue requires the dissolution of no less than 2450 cm. of limestone to produce the required residue. The weathering of such a great thickness of limestone could obviously not be accomplished during the recent time of the Holocene period, particularly as limestone dissolution is known to proceed at a relatively slow rate. Thus terra rossa soils are often described as the formations of Pleistocene Interglacial periods or even of the Pliocene or late Teriary period.

The difficulty presented by this thesis of paleopedology is that it is always dangerous to generalise about a particular soil type. The author has studied several sites, particularly in Northern Turkey, where there is direct and irrefutable evidence that a particular terra rossa is a paleosol; equally there are many literature references suggesting that in some areas, e.g. the Karst regions of Yugoslavia, terra rossa formation is going on at the present time. Equally, of course, the identification of terra rossa profiles in present day temperate climatic regions (e.g. the observations of Gardiner and Ryan (1962) in Ireland) show that terra rossa often has to be regarded as a relict soil.

Profile Characteristics.

In order to discuss the properties of terra rossa soils, use is made here of terra rossa profiles described by the author in different parts of the Middle East. Profile 1 is taken from the Wadi Ziqlab catchment of the Northern Highlands of Jordan, and Profile 2 from the Konya Ova, South-Central Anatolia. Both of these profiles have developed from hard, crystalline limestone of Cretaceous age and both have present-day vegetative covers of degraded **Quercus coccifera** woodland. Analytical data are presented in Table 4 and Table 5, as also for comparison is the data of Buru (1968) for a terra rossa profile at Farzugha, Cyrenaica. The field descriptions of the Jordan and Turkey soils are given below.

PROFILE 1.

Terra rossa profile situated in the Wadi Ziqlab catchment, the Northern Highlands of Jordan.

Open **Quercus coccifera** woodland

Aspect North-east

Slope 2°

0 — 2 cm.	Loose surface litter of oak leaves, twigs, and grass remains.
2 — 15 cm.	5YR 3/3 Dark reddish brown clay. Massive and compact, breaking down into hard large blocky units. Vertical cracking prominent. Many fine and large roots penetrate. Merging lower boundary to :
15 — 48 cm.	2.5YR 3/6 Dark red clay. Damp and extremely indurated. Breaks down with difficulty into large blocky and small prismatic units. Clay skins; fine and large roots penetrate. Rests sharply on :
48 cm.+	Solid white crystalline limestone.

PROFILE 2.

Terra rossa profile situated in the Tauros foothills, 8 km. to the west of Konya, South-Central Anatolia, Turkey. Degraded **Quercus coccifera** woodland with signs of previous cultivation between the trees.

Aspect West

Slope 3°

0 — 1 cm.	Litter layer of oak leaves, twigs, grass remains, and animal coproliths. Many large stones lie on the surface.
1 — 10 cm.	5YR 3/3 Dark reddish brown clay. Massive structure, but breaking down readily to medium and small blocky. Roots penetrate and many signs of faunal activity. Stone free. Merging lower boundary to :
10 — 46 cm.	2.5YR 5/8 Red clay. Massive but breaking down to medium blocky. Clay skins present. Fine medium and large roots penetrate. Rests sharply on
46 cm.+	Hard crystalline limestone.

Location	Depth cm.	Mechanical Analysis %			P^H	E_c at 25° C, mmhos.
		Sand	Silt	Clay		
Wadi Ziqlab, Jordan	2-15	12.5	33.5	54.0	7.4	0.71
	15-48	2.5	34.5	63.0	7.4	0.55
Konya ova, Turkey.	1-10	19.3	29.4	51.3	7.6	0.12
	10-48	16.2	30.6	53.2	7.5	0.16
Farzugha, Libya.	A	53.4	12.2	34.4	7.1	0.84
	B	50.0	15.6	34.4	7.1	0.69

Table 4
Analytical data for selected terra rossa profiles.

From the field descriptions it can be seen that these two profiles show many morphological similarities. In each case a thin litter layer overlies a dark reddish brown A horizon which in turn grades into a B+ horizon of red clay, the whole profile resting sharply on crystalline limestone. Structures are generally massive throughout, breaking down to blocky peds in the A horizon and prismatic units in the B. The presence of clay coatings in the B horizon is a typical feature of the argillic horizon. Although structures are massive and compact, roots can penetrate freely to the base of the solum.

Comparison of the analytical data for these soils, together with the Farzugha profile, shows that despite the field similarity

Location	% Carbon	% Nitrogen	% $CaCo_3$	% Free Fe_2O_3	Exchangeable Cations me/100 g Ca	Mg	K	Na	Total Exch. Cations me/100g	Avail. nutrients P_2O_5 mg/100 g.	K_2O
Wadi Ziqlab, Jordan	0.6	0.04	1.3	7.3	39.3	5.0	2.7	1.2	48.2	0.21	5.4
	0.24	0;03	0.6	9.1	42.1	8.1	2.3	1.6	54.1	0.26	13.1
Konya ova, Turkey.	1.9	0.20	4.3	5.1	57.3	1.4	0.3	0.2	59.2	0.32	8.9
	0.9	0.15	2.9	3.2	51.2	3.2	0.7	0.8	55.4	0.10	4.6
Farzugha, Libya.	-	0.13	0.2	9.5	20.6		1.5	1.3	23.4	7.5 ppm.	751 ppm.
	-	0.13	0.2	10.5	21.9		1.9	3.0	26.8	3.4 ppm.	440 ppm.

Table 5

Analytical data for selected terra rossa profiles.

there are significant differences in physical and chemical properties. The Jordan and Turkey soils are of heavier textures than the Libya profile, and conversely have much lower sand contents. This is probably due to colluvial inwashing of sand in the el-Marj profile.

Values for pH and free calcium carbonate content again show differences from profile to profile. In general the Turkey terra rossa has a significantly higher content of lime and hence a slightly higher pH. In this specific profile this was ascribed in the field to the more active faunal activity of this soil. Soil animals bring lime fragments into the upper part of the soil profile and in this way counteract the pedogenic process of leaching and lime removal.

The higher level of lime in the Turkey profile is also reflected in the data for the exchangeable cations. Figures for exchangeable calcium are high in all soils and any variations can be seen to correlate with free calcium carbonate content. Variations in the content of total exchangeable cations for these three soils are largely explained by their contents of colloidal material. The low values for the Farzugha profile reflect the low clay contents of the horizons, whilst the higher values for the Turkey profile are due to its higher content of both clay and organic colloids.

Figures for the content of free iron oxides are typical of many profiles analysed by the author. Values range between 3.2 and 10.5 per cent Fe_2O_3 with a tendency to increase in the redder subsoils. The total amount of free iron oxide in a particular horizon is not always a reliable reflection of its Munsell colour notation. It will be noted that the B horizon of the Turkey profile has the lowest free iron content and yet the reddest hues. Much depends on the proportion of hematite to other iron oxides and also on its fineness and distribution throughout the groundmass. Research into the mineralogy of iron oxides in terra rossa is clearly an important field for future research. In the past the difficulty of analysing mineralogically the different species of iron has undoubtedly discouraged further investigations. Now, however, with the growing use of x-ray and Differential Thermal methods of analysis, more fruitful work can be expected.

Some interesting features can be noted from the point of view of the chemical fertility of the profiles. Conductivity levels are uniformly low (1 mmho), and exchangeable sodium forms a minor proportion of the cations on the exchange complex. Hence limitations due to salinity and alkalinity do not arise. All horizons have a high content of exchangeable calcium and magnesium, pH values that are near the optimum range for plant growth, and an exchange complex that is base-saturated. There are thus several favourable characteristics from the point of view of plant nutrient requirements.

On the other hand, there are also notable deficiencies from the

point of view of major nutrients which the plant requires in large amounts. In particular, there is a general lack of organic matter in the profiles, as shown by the figures for per cent carbon, and related to this a low content of nitrogen. When it is considered that nitrogen is overwhelmingly the most important plant nutrient, it becomes obvious that proper agricultural management of these soils depends heavily on practices to alleviate the nitrogen deficit, either by chemical fertilisation or by introducing a legume into the crop rotation.

Available phosphates, too, are insufficient to meet crop needs. In the absence of free calcium carbonate in the profiles, it is likely that most of the soil phosphate is being made unavailable to plants by reversion to insoluble iron phosphate. Under normal management practices this deficiency can only be remedied by additions of readily available phosphate fertilisers e.g. fertilisers of the superphosphate group.

More variability can be seen in the figures for available potash. The Jordan and Libya profiles are of 'medium' status, as shown by available and exchangeable potassium, whereas the Turkey soil is 'low'. Potash deficiency is not general feature of terra rossa soils, although it can occur at particular sites. The content of potash is undoubtedly related to the sand and clay mineralogy of the detrital minerals in the limestone and reflects whether they are potash-rich or not.

Conclusion

Although much more is now known of terra rossa formation and properties than at the time of Reifenberg's (1947) work, there are still obvious gaps in our knowledge of these soils. In particular there are two main lines of approach which would amply repay future research.

The first is the study of the clay and sand mineralogy of terra rossa profiles to throw more light on pedogenic processes. What clay mineral species are present and how far are they derived or secondary minerals ? What is the mineralogical composition of the

iron oxide fraction ? In addition to providing data on how terra rossa soils form, answers to questions such as these will also go a long way toward explaining the fertility and management responses of the soils.

The second line of work for the future should be more directly concerned with assessing fertility and crop response to management. Field trials for particular crops and tree species will indicate fertility and management problems in a much more reliable way than will the laboratory analysis of soil samples. An assessment of crop potential needs, at some stage, a rigorous system of experimentation on fertiliser response. Only in this way will some of the more favourable physical characteristics of terra rossa soils be realised.

Throughout future work, there is obviously a need for the interchange of research findings and conclusions from the many countries which have a cover of terra rossa. Differences in present environment and soil history are great in the Mediterranean region, and terra rossa soils differ in detail from site to site, as we have seen. Similarities in form and formation are even more striking, however, and hence would amply justify more detailed comparative studies.

Bibliography.

1. Atkinson, K and Beaumont, P. 1967

   Watershed Management in Northern Jordan.
   World Crops pp. 61-75

2. Buru, M. 1968

   Soil Analysis and its relation to land-use in el-Marj plain, Cryenaica.
   Bull. of the Faculty of Arts Univ. Libya. Vol. II pp. 41-70

3. Butler, B.E. 1959

   Periodic phenomena in landscapes as a basis for soil studies. **C.S.I.R.O.** (Australia) **Publ. 14. pp 20**

4. Butzer, K. W. 1965

   « Russian Chernozem » (**Russian**) **St. Petersburg.**

6. F.A.O. 1968

   « **Definitions of Soil Units for the Soil Map of the World.** » **Rome.**

7. **Fisher,** W. B; **Atkinson,** K; **Beaumont,** P; **Coles,** A.

   « Soil Survey of **Wadi Ziqlab, Jordan.** » **Ministry** of Overseas Development, **London. 1966.**

8. Gardiner, M. J. and **Ryan,** P. 1962

   Relict soil on limestone in Ireland.
   Irish Jour. Agric. Res 1. pp. 181-188

9. Glinka, K. D. 1932.
« Pedology » Moscow.

10. Khan, D.H. 1959
Release of iron oxide in red-brown soil formation from the weathering of limestone.
Jour. Sci. Food Agric. 10 pp. 483-486

11. Kubiena, W. L. 1953
« The soils of Europe. » London.

12. Kubiena, W. L. 1963
Paleosols as indicators of paleoclimates, in « Arid Zone Research » (UNESCO) 20 pp. 50-64

13. Reifenberg, A. 1947
« The soils of Palestine ». (trans. C.L. Whittles) London.

14. Thorp, J. and Smith, G.D. 1949
Higher categories of soil classifications.
Soil Science 67 pp. 117-126

15. United States Department of Agriculture. 1960
« Soil Classification : A comprehensive system » Washington.

16. United States Department of Agriculture. 1967
« Supplement to Soil Classification System (Seventh Approximation) » Washington.

17. Webster, R. 1968.
Fundamental objections to the seventh approximation.
Jour. Soil Science 19 pp. 354-366.

18. Zippe, F.V.M. 1853
« Uber die Grotten und Hohlen von Adelsberg, Lueg, Planina, und Laas. » Vienna.

IMPRESSIONS OF AN ENGLISH TRAVELLER IN LIBYA

by Arnold Toynbee

I first became acquainted with Libya more than seventy years ago, when I was a child in London before the close of the nineteenth century. Someone gave me an annual volume of an American children's magazine, and the part of its contents that attracted me most was a serial story — part fiction, part fact — of the war of 1801-4 between the United States and the Turkish governor of Tarabolous. This war did not involve either the Ottoman Empire or the people of Tripolitania. The governor of Tripoli was at that time virtually independent, and he was also an autocrat. His subjects were not consulted. However, this story did at least teach me, at the age of seven or eight, the position of Libya on the map of the World.

Libya impinged on me more forcibly in the autumn of 1911. I was on my way through France and Italy to Greece when the Italian Government declared war on the Ottoman Empire and invaded Libya. By that date, the Ottoman Imperial Government was once again in effective control of Libya, and the Turks joined forces with a Libyan national resistance movement. In that war the Libyans had the beau rôle; they were gallantly defending their country against an unprovoked act of aggression by a stronger power. On the Italian side, it was not a people's war. I remember watching Italian conscripts embarking at the port of Cività Vecchia for the Libyan front. They looked unenthusiastic and indeed positively unhappy.

From 1924 to 1956, Libya was constantly in my mind. During those thirty-three years my wife and I were producing a **Survey of International Affairs** for the Royal Institute of International Affairs in London, and we included in our survey periodical accounts of the ebb and flow of the Italian attempt to occupy the whole of Libya and to hold it down. I hate imperialism, especially when it is accompanied by brutality — and imperialists usually become brutal when they meet with determined resistance. In the long-drawn-out struggle between the Italian army and the Sanusiyah, my sympathy was, of course, on the Libyan side. The liquidation of Italian rule over Libya during the Second World War made me rejoice, and the recording of it in my survey gave me satisfaction.

This was my personal background to my visit to Libya in 1964 as the guest of the Government and of the University of Libya. This visit has been a memorable event in my life.

By now, I have travelled widely — especially since my retirement in 1965 from my post at the Royal Institute of International Affairs. In visiting a country, I aim at seeing as much as possible of three things in particular. My first concern is with the people of the country — I mean the living generation, its present condition, and its prospects. In the second place I am interested in the country's history — the experience of previous generations of its inhabitants and the surviving records of these experiences, especially the surviving works of ancient art and architecture. The third thing in which I am interested is the landscape, both as Nature originally made it and as Man has modified it to suit his purposes. In Libya in 1964 I learnt many things in all these three fields of inquiry.

As it happened, the date of my visit coincide with an important moment in Libya's long history. Before the discovery of Libya's subterranean wealth in the shape of mineral oil, the country's principal economic activity had been pastoral. In the Homeric Greek epic poems, which took their final shape at least as early as the eighth century B.C., Libya is already celebrated for

the excellence of its sheep. The products of a pastoral economy are valuable, but, in the present-day world, pastoral wealth is far surpassed by mineral wealth. The striking of oil has suddenly made Libya one of the rich countries of the World. Wealth opens up great new opportunities, but, when wealth comes to a country suddenly, the country's new situation can also be dangerous.

I have had a first-hand glimpse of this potential danger in another country that I have visited within the last few years. I am speaking of Venezuela, which, like Libya, has suddenly become rich through the discovery there of mineral wealth in vast quantities. In Venezuela today the country is already rich but the people are still poor. Venezuela's new wealth has not yet found its way into the pockets of more than a small minority of the population. When a country, as well as its people, is poor the people will resign themselves to being poor. They will see themselves as being the victims, not of human injustice, but of bad luck. They happen to live in a country that is destitute of natural resources. The people's attitude changes, however, if their country proves to be rich after all, while the majority of its inhabitants still remain as poor as they have always been. Poverty in the midst of wealth is provocative. It is no accident that Venezuela, which is the richest country in the Americas and perhaps the richest in all the World, is also one of the most unstable of the World's countries politically.

I think Libya has a lesson to learn from Venezuela. I should advise Libyans to study what has happened in Venezuela and to make sure that the same thing shall not happen to their own country. In Venezuela the Libyans can see what to avoid; in Kuwayt they can see what to do. Kuwayt, like Libya and Venezuela, has suddenly become rich through striking oil. In Kuwayt, the Government has succeeded in distributing the benefits of the country's new wealth very widely among the people. Kuwayt has, in my opinion, discovered how to avoid the potential danger that a sudden increase in national wealth brings with it. If Libya does what Kuwayt has done, Libya's political and social prospects, as well as her economic prospects, will be bright.

Turning next to Libya's past, I will glance first at the latest chapter of Libya's history before the present one, and here I will pay a tribute to the Italians. As foreign conquerors, the Italians have left behind them an unpleasant memory. To be ruled by foreign conquerors is unnatural and painful. A foreign colonial regime can never be popular. Nevertheless, in Libya — and in Ethiopia too — the Italians have bequeathed some valuable legacies to the national regime by which Italian colonial rule has now been replaced. The Italians have equipped both Libya and Ethiopia with a network of first-class roads, and in Libya they have made a start in the revival of agriculture. Of course the Italians did this in their own interests. Like the British and Dutch settlers in Southern Africa, the Italians in Libya took the potentially best agricultural land for themselves. But they also made a big investment of Italian capital in Libya. They built farm-houses; they created irrigation systems; and this Italian capital investment has been inheritld by the liberated Libya of today. In 1964 I was struck by the evidence of what the Italians had done for Libyan agriculture in Cyrenaïca — particularly in the Marj, round Barce — and also in the Jabal in the hinterland of Tarabolous.

I hope the Libyans are going to maintain and extend the agricultural development of their country which the Italians, began. I think it would be a mistake for Libya to allow herself to depend economically on her newly discovered oil-resources alone. Even the richest oil-fields are not inexhaustible. Moreover, it is conceivable that, long before the World's remaining reserves of mineral oil have been used up, oil will be superseded by other sources of physical energy — atomic energy, for example. In our time, science and technology are advancing at a rapidly accelerating pace, and this means that a commodity, such as mineral oil, which is commercially valuable today may lose much of its present value tomorrow. There are some countries — Kuwayt, for instance, and Sa'udi Arabia — which, apart from their mineral oil, have no other economic resources to speak of. Libya is more fortunate. Libya has it in her power to diversify her economy, and, on a long view, this is, I feel sure, the right economic policy for her to follow. Libya

should retain her pastoral economy and should also expand her agriculture, besides developing her production of mineral oil.

The potentialities for agricultural development in Libya are great. We have historical and archaeological evidence for this. In the ninth century B.C., the coast of Tripolitania was colonised by Phoenicians from the Asian Arab country that is now the Lebanon Republic. In the seventh century B.C. Cyrenaïca was colonised by the Greeks. Both sets of colonists developed agriculture in their new homes. By the time when both parts of Libya were incorporated in the Roman Empire, Libya had become one of the most productive of the agricultural countries bordering on the Mediterranean Sea, and, under the rule of the Umayyad and 'Abbasid Caliphs, Libya continued to be agriculturally prosperous. Her agriculture was ruined by the invasion of the Banu Hilal and the Banu Sulaym in the eleventh century of the Christian Era.

Agriculture has now been revived in Libya after an interval of about nine hundred years. With the means that modern technology can provide, it should be possible to reach and surpass the extent of Libya's past agricultural development when this was at its acme in the Roman Age. This is, I should say, the agricultural target that Libya ought now to set for herself. Libya already has her age-old pastoral industry and her young oil industry. She should develop an agricultural industry to match. If she does this, she will have equipped herself with a diversified and balanced economy, and this is a prudent form of insurance in an age of rapid and unpredictable technological and economic changes.

In discussing Libya's agricultural potentialities, I have referred to the Phoenician, Greek, and Roman phases of Libya's history. These phases of her history have left marvellous material monuments of their economic prosperity and of the architectural and artistic genius for which this prosperity gave scope. I am thinking, in particular, of Cyrene, Apollonia, Ptolemais, and Tokra in Cyrenaica, and of Lepcis and Sabratha in Tripolitania. These monuments are wealth in two senses. They are a source of literal wealth because they ensure that Libya shall develop a lucrative

tourist industry. They are also spiritual wealth. When a visitor looks at them with an historian's eyes, they bring back to life, for him, more than a thousand years of the history of the Ancient Mediterranean World. The special fascination of Libya for me is that, in Libya, one can study the past as well as the present; and in Libya both the present and the past are of the highest interest for a student of human affairs.

The other chief attraction of Libya for me is the landscape. I first set eyes on this in 1964, and, by then, I had been longing to see it for more than sixty years. Ever since I had been at school, Libya had been familiar to me from history-books, maps, and photographs, but one glance at a landscape with my own eyes tells me more than I can ever learn from anything printed on paper.

I found it thrilling, en route from Benghazi to Cyrene, to climb from the coastal plain at Tokra on to the south-western edge of the Jabal Akhdar. As we mounted, the climate and the vegetation changed. I felt another thrill when, from the crown of the Jabal Akhdar, I caught sight of the Marj. Maps and photographs had not previously revealed to me the size and fertility of this great pocket of rich soil. I was struck, again, by the contrast between the goodness of the agricultural land immediately to the south of Cyrene and the roughness and wildness of the country between Cyrene and the coast. Travelling back from Lepcis to Tarabolous, I noted how suddenly we entered a rich agricultural country when we had climbed the northern escarpment of the Tripolitanian Jabal. At this point I longed to turn southward in order to discover how far south the revival of agriculture has been carried. I should have liked to push on all the way to Fezzan. This is now the year 1968, and I am in my eightieth year, but I have not given up hope of seeing Fezzan too some day.

Arnold Toynbee

UNIVERSITY OF LIBYA

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Associate editor :
Dr. 'Abdurraḥmân Badawi

Editor :
Dr. Mukhtar Buru

Voll. III. 1969

Bulletin of the
Faculty of Arts
Issued annually
Deals with academic studies in the field of humanities. All correspondence and subscriptions should be addressed to :
Dean of the Faculty of Arts

Libya University
Benghazi-Libya
Price of each copy : 60 piastres = 19 shillings = $2.50. All rights of publication reserved by the Faculty of Arts, University of Libya, Benghazi.
Reproduction of any article is subject to the written permission of the Faculty of Arts.
The Faculty of Arts wishes to make it clear that opinions expressed in articles published in this Bulletin are the personal views of their authors.

TABLE OF CONTENTS

Articles in Languages other than arabic

Editorial By **Dr. Mukhtar Buru** 7

1. **Arnold Toynbee** : Impressions of an English Traveller in Libya 9
2. **K. Atkinson** : Dynamics of Terra Rossa soils 15
3. **A. Allan** : Recent developments in agriculture in Libya with Special reference to areas close to Tripoli.............. 37
4. **R.Y. Hartley** : Distribution and density of population 1954 — 1964 in Libya 79
5. **Cesare Casini** : Sinesio di Cirene 169

Articles in Arabic

1. **I. Nushi** : Callimachus 9
2. **H. Mones** : Fezzan as a Centre of propagation of Islam in Africa 69
3. **A. BADAWI** : Libya in the works of Aristotle 121
4. **A. Burham** : Ibn al-Agdâbi 145
5. **N. Ja'far** : Mental life in man 183
6. **A. BADAWI** : Review of Books 207
7. Public Lectures in the academic year 1968/9 223

EDITORIAL

The Faculty of Arts of the University of Libya has pleasure in introducing the third issue of the Bulletin of the Faculty of Arts. As we have already promised our readers, from now on the Bulletin will be issued on a regular basis annually, as a contribution to research on Libyan affairs in particular and Arabic and Islamic studies in general. It is our heartfelt hope that specialists in this field and all those whose researches are concerned with Libyan affairs will find the Bulletin valuable for their researches and for the exchange of ideas and knowledge.

Prof. M. M. BURU

Dean, Faculty of Arts

UNIVERSITY OF LIBYA

BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS

Associate editor :
Dr. 'Abdurraḥmân Badawi

Editor :
Dr. Mukhtar Buru

Vol. III. 1969